

مؤلفيات

# عبد الله الطوفي

٣

• الروايات



• فجر الزمن

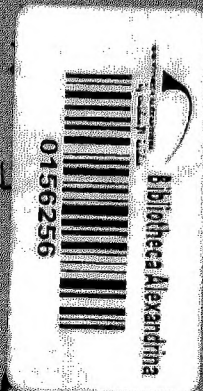
المتسام

• امرأة

فوق الثلج

فار

لحياة





# مؤلفات

عبد الله الطوخي

المجلد الثالث

الروايات



المكتبة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤





- 
- فجر الزمن القادم
  - امرأة فوق الثلج
  - محاكمة فأر
  - العودة للحياة
-



# • فجر الزمن القادم

---

«في مأساة أولاد العم»



- ١ -

## حدث الدوى

### الهلل الأعظم ..

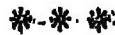
اكتسحته جميع المشاعر فى برهة خاطفة كالبرق تجمعت فى شكل سحابة غطت على وعيه وهو يسقط منبطحا ببطنه على الأرض سادا اذنيه باصبعيه كما تعلم .. وغريب جدا أن يتجسد حب الحياة فى المحافظة على الأذنين وعلى السمع ، لكن القنبلة التى انفجرت ومن قوة انفجارها كانت تضاريس الأرض تتغير ، وأحس أنه يفوق فى الرمال أو الرمال هى التى تفوق به .. وود لو يتشبه بسطح الأرض ، بذرات الرمال ، حتى لا يستمر فى الانحدار أو الفوق ، غير أن الانفجار الثانى حدث مسبقا بصغير قنبلة ، أو صاروخ لا يدري ، فشد من ضغط اصبعيه على طيلة اذنيه يحميهما ويحمى وعيه من انفجار مؤكد .. وعادت الأرض تترنح .. ترتفع وتنخفض وتتساقط وتتساقط وتتفتت .. ومع تناثر النظم

باشعاعاتها النارية دارت به دوامة رملية كانت تكمل لحن الشيطان  
فدفن عينيهِ فى الرمال يحمى بصره ايضا ٠٠ ثم بعد لحظة غاب  
فيها عن الوجود ، أحس أن كل شئ توقف ٠٠ الانفجارات والدوى  
وصفير الدوامة ، والأرض من تحته أو من فوقه سكنت ٠٠

خفف قليلا من ضغط يديه على أذنيه وانفاسه تلهث : هل  
انتهت الغارة حقا ؟ هل مازلت أعيش ؟ وأحس بأنفاسه تروح وتجيء .  
هل مازلت املك أطرافى ٠٠ وسمعى ٠٠ وبصرى ؟ كانت الدنيا  
ظلاما . واذ رفع يديه قليلا أحس بحركته متهافئة ، لكن ٠٠ هاهما  
اليدان موجودتان على أية حال ، والذراعان ايضا . وساقاى ؟  
واتجه بوعيه الى ساقيه وقدميه ٠٠ وأصابع القدمين ٠٠ مازال  
يحتفظ بأطرافه سليمة . وبطنى ؟! ربما بطنى مشقوقة ، وامعائى  
خرجت . وتحسس بطنه . ها هى ملابسى مازلت ارتديها ٠٠ لا أثر  
فيها للزوجة دماء ٠٠ و ٠٠ وعينائى ؟ ( ورمش ) : لا أحس فيهما  
بالم . ولكن من يدرى ، ان فقد البصر لا يقتزن بالضرورة بالآلام .  
يعرف ضباطا وجنودا فقدوا بصرهم بفعل الصدمة العصبية ، وليس  
برصاصة أو بضرية شظية ٠٠ كيف أتأكد أنى لم أفقد البصر ؟ هذا  
الظلام المتراكم الكثيف ٠٠ أين أنا ٠٠ بل أين كنت أنا قبل أن ٠٠

ولم يكتمل سؤاله ، فقد سمع الصغير يُولول من جديد ، وتراءت  
له القنبلة مسددة عليه هو بالذات هذه المرة ، تنتقم من استمراره  
فى الوجود ، فانبطح دافئا كل وجهه فى الرمل سادا أذنيه من  
جديد ، ومع ارتطامة وجهه بالرمل انفجرت القنبلة ومادت الأرض ،  
وأحس أنه يعاود الانحدار والغوص ٠٠ ثم ٠٠ لم يشعر بأى شئ  
٠٠ لم يشعر حتى بأنه كف عن الانحدار والغوص .

فقد الوعي ٠٠



كانت سيففونية الرعب قد انتهت ، حين بدأ يعود الى وعيه  
 بالتدريج . واستيقظ وعيه اول ما استيقظ على صوت أنين . صوت  
 انسان يتأوه . فرحة هائلة اكتسحته ، أنه يسمع صوت انسان ..  
 ثمة انسان في الحياة ، حتى لو كان يتألم .. التأكيد بأنه موجود  
 ايضا في الحياة . وأنه ايضا - وهذا هو المهم ، أنه ليس وحيدا  
 في هذا العالم المرعب . وشرع انذنيه .. يتسمع الأنين .. كلحن  
 رائع جميل .. « أجل . ليس مهما أن نتألم . المهم أن نكون على  
 قيد الحياة .. وأرى وجهك مرة أخرى ، مرة واحدة وأخيرة يا «نور»  
 .. بوجهك المستدير ، وشعرك المفروق من الوسط .. ثم تميلين  
 بشفتيك على شفتي وأمتص رحيق الحياة .

وإذا كان على وشك امتصاص الرحيق ، أفاق منتفخا على  
 صرخة ألم شديدة . ومن فرط قربها أحس أنها تكاد تخرق طبلة  
 أذنه . وأدرك على الفور أنه جريح آخر ، داهمته الغارة الاسرائيلية  
 كما داهمته ، وأنه طريح الرمل بجواره . فاهتز بالحنين وبالشجن  
 وبالمشاركة . وقال وهو يجاهد : « أين أنت ؟ » وراح يقلب عينيه في  
 الظلام . جاءتة الاجابة صرخة ألم جديدة ، فهم بالنهوض ليسعف  
 صاحبها ، لكنه وجد نفسه يتأوه والحركة تطلق في أنحاء جسده  
 صواريخ من الألم ، فلاذ بالسكون ويوضعه الأول الذي كانت الإلام  
 معه هادئة . عاد طريحا بظهره على الرمال . كف الجريح عن  
 الصراخ ، أو تعب من الصراخ ، ولم يعد يصدر عنه غير الأنين ..  
 قال له وهو يجاهد الألم :

— أنا آسف .. أنا مروجع مثلك ..

وتوقع ردا . غير أنه لم يسمع غير الأنين .

.. واضح أننا قريبان من بعضنا .. ها أنا .. أمد لك ذراعي  
 .. علي آخره .. أمد علي الأرض . أمد لي أنت ايضا ذراعك .

واذ راح يتحسس بكفه على الأرض باحثا عن أى اثر لزميله ،  
مقاوما الآلام التى احتاج بها كل جسمه وقد انقلب على بطنه وبدأ  
يزحف فى اتجاه الأنين ، وذراعاها أمامه : واحس بصدمة كهربائية  
سعيدة حين وجد يده تعثر على يد أخرى ، فتشبث بها وهو يصيح  
صيحة نصر مقرونة بالآلم .

— وجدتك ..

وامسك بالكف يريد أن يسلم عليه . لكن اليد كانت خالية  
من أية قدرة على الحركة . وكان المجهود الذى بذله فى الزحف على  
الرمل قد أهاج فى جسمه كل الآلام ، فعاد يتأوه . وتاق الى وضعه  
الأول ، فانقلب على ظهره كما كان . أبقى كفه على كف زميله  
الجريح .. « هذه الحركة تؤلنى . لكنها أيضا تعطينى السعادة .  
أن تمنحنى يد انسان فى هذا الظلام .. فى هذا الجو المرعب » .

— أين نحن الآن يا صديقى ؟ حاول .. أرجوك .. أن ترد  
على .. بكلمة أو كلمتين .. لا أريد كلاما كثيرا .. أعرف أنك  
أيضا مصاب . ولكن أية أصابات لا أعرف .. ولا أريد أن أعرف .  
المهم أننا مازلنا نعيش .. يا صديقى .. وسنعيش .. ستعيش .. و ..

وسكت لحظة . تنبه الى أن صاحبه كف عن الأنين . ها هو  
الاحساس بالمشاركة بدأ يلعب دورا فى تخفيف الألم . وضغط بيده  
على الكف ، ينتظر أى رد فعل .. نبضة أو خفقة . لكن سكونا  
مروعا واجهه مع الظلام . وخشى أن تكون اليد التى فى يده الآن  
يد انسان ميت . انسان مات فكف عن التآلم والأنين ، وأنه الآن  
بجوار جثة هامدة . وبقوة الرفض المفزوع من شبح الموت ، أن يجد  
نفسه مع ميت فى الظلام ، انبطح مرة أخرى على بطنه ، وراح  
يتحسس فى ذلك الراقد بجواره على الرمل .



.. قل لى أى كلمة . تحرك أى حركة . اطمئن الى انك مازلت  
حيا .. أين صدرك .. يسار صدرك .. أين قلبك .. اسمع دقاته .

ورغم الآلام .. بجهد هائل ، وضع أذنه على موضع القلب  
وصاح :

.. قلبك حديد . قلت لك انك ستعيش . ستعيش يا صديقى ..  
ها أنا استمع لدقات قلبك مرة أخرى .. هاهى .. يا للمعجزة  
يا صاحبى .. معجزة القلب .. تك .. تك .. تك .. انه صوت الله .  
يقول لنا : ان كان الموت من حولنا ، فالحياة مازالت فى داخلنا .  
هل تحس بدقات قلبك ؟ اسمعها معى .. ليس هناك فى الدنيا صوت  
أجمل من صوت القلب .. وهو يدق ..

فى تلك اللحظة ، فوجيء باليد تتلمس رأسه ثم تستريح عليها .  
زغرد قلبه بالفرح .

.. بدأت تعود الى نفسك يا صديقى . قل لى ما اسمك ، وكتيبتك  
التي عبرت معها .

لكنه لم يسمع غير همهمات وكلمات مضغومة .. مختلطة .

.. عظيم على أية حال . كما عدت أنا الى وعيى بالتدريج ،  
ستعود أنت أيضا الى وعيك بالتدريج ..

« ولكن هل حقا أنا عدت الى وعيى ؟ أين كنت بالضبط لحظة  
الغارة ؟ وأين أنا الآن ؟ » .. وسرت فى جسده قشعريرة . ارتسم  
أمامه المنظر بالكامل ، ليس منظرا واحدا ، بل فيلما .. شيئا  
كالخرافة . لا . ليس خرافة ، بل حقيقة . وصاح باليد التي تحتضن  
رأسه .

.. لقد عبرنا يا صديقى . عبرنا .. وهاجمناهم فى مكانهم ،

مقتلنا العار • مسنخناه • كئت أمشى فى قريشى مطرق الرأس  
حجولا • سنعود الى بلادنا مزقوشى الرأس • كئنا لحظة الغارة نطهر  
مخابئهم • نحن الآن فى احد حصونهم •

فى تلك اللحظة سقطت حزمة جديدة من الضوء على وعينه ،  
وتذكر بالضبط أين هو الآن ، قانتابته رجفة : لقد دخل حصن  
العدو مهاجما ولم يخرج منه • وداهمه الشعور بأنه فى مصيدة ،  
هو وزميله ••

ولكن ••

وبرق فى ذهنه خاطر جعل يده تبتعد عن اليد المستريحة على  
رأسه • فمن يدرى •• قد يكون هذا الجريح جنديا أو ضابطا  
اسرائيليا !

واندفعت الى رأسه دفقة دماء حارة •• وأسرعت دقات قلبه  
•• أنجل • والتخرب عازلت مستمرة • والتخرب خدع •• ومفاجآت ••

وصرخ بغضب : قل لى من أنت • يجب أن تقول لى من أنت •  
أو •• قل أية كلمة •• انطق بأى شىء • من كلماتك •• من لهجتك  
سأعرف من أنت •

وجاءه الجواب • كلمتان أو ثلاثة • ورغم ضعف الضوت  
وخفوته ، الا أنه انتفض من رقدته • خيل اليه أن قنبلة أو صاروخا  
جديدا فى الطريق اليه :

انه اسرائيلى !

وغريزيا تحسست يداه ملابسه بحثا عن سلاح • وسأعه  
الظلام على ذلك ، لكنه أدرك أنه أعزل • وفكر بسرعة « هاهى الفرصة  
أمامى سائحة • هاهى رهيقه فى التنازل يدي • بصفحة واحدة بحاسمة

أجهز عليه • واكون قتلت يهوديا •• كم قتلوا منا •• وتتابع  
 أنفاسه وهو طريق الرمل بجوار عدوه المفاجيء •• « نعم •• لا يصح  
 أن أفوت هذه الفرصة • فهو الآن عاجز • لو كان هو فى مكانى لمزقني  
 بالرصاص ، أو أحرقني بالنابالم •• قصص حرب ٦٧ •• الانسحاب  
 •• والعار •• هاهى الفرصة المؤكدة لمسيح العار •• والدنيا ظلام  
 واحس بأصابه تتحرك منه مقتربة من الرأس ، هليطة الى الرقبة  
 - لحظة واحدة وينتهي منه • غير أن يديه تراخيتا ، وداجمه شعور  
 غريب • انتابته رغبة فى أن يرى هذا الذى سيقتله : ما شكله ، وما  
 سنه • بطويل أم قصير • نجيف أم سمين • « جين أعود الى قريتي  
 وأجكى لهم عن ذلك اليهودى الذى قتلته ، اهو ضابط أم جندى ، رجل  
 كبير متزوج وله أولاد ، أم شاب أعزب مثلى وله حبيبة أو خطيبة •  
 ماذا سيقول عنه ؟ ( وكان اثنين الجريح قد عاد ) ثم ماذا سيقول  
 أيضا : قتل رجلا فى الظلام وهو ملقى على الأرض عاجزا يلفظ  
 أنفاسه • اى بطولة فى ذلك ؟ جئتى قوانين الحرب الدولية تمنع  
 هذا • غير أن أصابعه عادت تدق عليه وهى قرب الرقبة • وهل  
 النابالم وقنابل دهم •• قنابلهم •• تتمشي مع قوانين الحرب الدولية  
 •• وشراكتهم الخداعية ، ومداريين الأطفال التى هدموها • وبيوت  
 الفلاحين •• وتراعت له احدى القرى مهدمة ••

- ووثر •• ووثر ••

قالها الجريح بالانجليزية • بصوت مجهود ، يطلب ماء ليشرب •  
 قال له بصوت صارم :

- لو ووثر ( وواصل بالانجليزية ) لا شئى هنا •• غير  
 الظلام •• والموت ••

- ساموت من •• العطش ••

- وأنا أيضا أموت •• من العطش • هل أنت يهودى ؟

– نعم ، وأنت ؟ مصرى ؟ ليس كذلك ؟

قال متحديا – مصرى ومسلم ، أنتم السبب فيما نحن فيه الآن .

– نحن السبب ؟ كيف ؟ ( وازدادت كلماته تقطعا ) أين أنا .  
أين أنت ياسارة ؟

– من سارة هذه . حبيبته أم زوجتك ؟ أم أمك ؟

ولم يأت به غير هذيان . وبدأ له الموقف محددا وواضحا بالتمام .  
هو عدوه . . . لاشك فى هذا ، لكنه عدو عاجز . . . يتعذب . . . ونذالة  
منه أن يضيف الى هذا العذاب عذابا آخر . ليس من الجائز أن  
يكون هذا هو أيضا مصيره : الموت عطشا . . . وجوعا . . . وبردا فى  
الصحراء . . . فخارج منطقة الظلام أو القبر الذى يرقد فيه لا يدري  
أى شئ . . . كيف تدور المعركة الآن ؟ وهل صيحات النصر الوحشية  
ما زالت تخترق أمواج الرمال والحصون حتى يدخلوا اسرائيل ؟ أم  
أن ما حدث لى ، حدث للأخرين وتوقف الزحف العظيم . . . تتكرر  
الهيمنة . . . انتحر . . . وصرخ : اقتلك . . . اقتلك . . .

وأحس فجأة باعياء شديد . . . وبجفاف فى حلقه ، فراح يبلع  
ريقه ، يريد أن يبلل حلقه المتخشب .

– أنا أيضا . . . عطشان . . .

– يوجد . . . هنا . . . ماء . . .

انتفض : ماذا تقول ؟ يوجد هنا . . . ماء ؟ أين . . . هذا الماء ؟

– الماء . . . الماء . . . فى الـ . . . فى الـ . . .

وعاد المصرى يستصرخه . . . يستعجله . . .

ـ فى المازا ؟ قل لى بريك ٠٠ اين هذا الماء ٠ قطرة واحدة  
من الماء ٠٠

ـ فى الـ ٠٠ فى الـ ( وخفت للصوت وأصبح هذيانا ) فى  
البئر ٠٠ بئر سبع ٠٠ بئر زمزم ٠

ـ أنت تخرف ( وبأسى ساخر ) كيف ظننت للحظة ، أن الحياة  
ستعود على يدك ٠٠ أيها اليهودى !

وخطت عليه موجة من اليأس سرعان ما استسلم واستراح  
لها ٠ وأحس بجسمه ممددا بطوله على الأرض ٠ وتناثرت أمامه بقع  
ضوئية واشعاعات رسمت له صورا فى الظلام ٠ وتراءى له أنه  
يزف ، على جسر التربة ، وهى تسير بجواره ، « نور » ، لابس ثوب  
الزفاف والطرحة التل البيضاء ، ويتجهان الى مقابر القرية ، فى  
قلب الحقول الخضراء ٠٠ فى القبر يستطيعان أن يخلقا معا عالما  
جميلا ٠٠

ـ سوف أذهب ٠٠ الى الجنة ٠٠ أما أنت ٠٠ فقلبى معك ٠٠  
ستذهبون الى النار ٠٠ كلكم ستذهبون الى النار ٠

ـ كلنا ٠ نحن وإنتم فى النار ٠ فى الجحيم ٠٠ الجحيم هو  
ما نحن الآن فيه ٠

فوجيء به يتكلم بوهى ، وبدا له للحظة أنه كان يدعى العجز  
وأن حكاية العطش والهذيان خدعة ٠ وتنبه الى أنه هو نفسه نسي  
للحظات عطشه ٠ قال متحفزا :

ـ بل هناك جحيم أقطع ٠ أنت يهودى ولا تؤمن بالآخرة ٠٠  
ستذهبون الى النار ، أما نحن ٠٠ فشهداء ٠٠ شهداء الأرض التى  
اغتصبتوها بالسلاح ٠ مانحن حطمتنا لكم خط بارليف ٠ الأسطورة  
حطمتنا ٠

٠٠ ستعود الأسطورة من جديد ٠٠

— ماذا تعنى ؟

قالها وقد أحس أن هذا الاسرائيلى يتحداه ٠٠ باللانغى يتحداه  
وانه رغم عجزه وتهافته لم يسلم ٠ وأن المعركة مستمرة ، واذن لابد  
أن يعود الى تنفيذ الفكرة ٠ يخنقه وينتهى منه ٠ ينتهى من خطره  
المقبل ٠٠ « فلو قام هذا الطريح وعادت اليه قوته فأول شيء سيفعله  
هو قتلى ٠ وربما قطع رأسى ، ويأخذها معه دليلا حيا على بطولته ٠  
لقد سمعته بأذنى ٠ انه يصير على الأسطورة » ٠ وأحس بأفاعى الحقد  
تيخ فى عروقه سموم الكراهية ، وامتدت يداه تتحسسان طريقهما الى  
الرقبة ٠ فى تلك اللحظة شق الصمت دوى مدافع ، فتجمدت يداه ٠٠  
وفوجيء بالاسرائيلى يقول مغمغا :

— انها مدافعنا ٠٠

قال المصرى بحدة — بل مدافعنا ( وسمع هدير دبابات )  
ودباباتنا ٠

قال الاسرائيلى : قد تكون فعلا دباباتكم ٠٠ الدبابات التى  
استولينا عليها فى ٦٧ ٠

قال المصرى : تريد أن تذكرنى بهزيمة ٦٧ ؟ ها قدم هزمت  
فى ٧٣ ٠

قال الاسرائيلى : وسننهزمكم من جديد ، ثم تهزمونا مرة  
أخرى ٠٠ وهكذا ٠٠ ( وعاد يناوه ) انه قدر رهيب ٠٠ رهيب ٠٠  
الى متى سيبطل هذا العطش ٠٠ قطرة ماء ٠٠ الماء هناك ٠٠ فى  
الـ ٠٠ فى الـ ٠٠

وعادت الفاظه تنقطع وأنفاسه تتحشرج ٠ كانت مجرد التماغات

وعى سرعان ما خبت وعاد الى الهذيان ٠٠ ووجد المصرى نفسه يبلع ريقه ، أو يبحث عن ريق ليبلعه ٠٠ وانتابه دوار ٠٠

وسقطت فجأة قذبة قريية ، ومادت الارض وترنحت تنج معها ٠٠

وفى هذه المرة كان سقوطه فى الغيبوبة أسرع ، وفى ظلام الظلام ذهب ٠٠

وذهب الجريح الآخر معه ، فى نفس رحلة الظلام ٠

وحين طلع أول ضوء من أضواء النهار البعيد ، كان واحدا من أغرب مشاهد بنى الانسان على هذه الأرض : مصرى مسلم ، ويهودى اسرائيلى ، راقدان على الأرض ، ومتعانقان ٠ كان الرعب المشترك ، والرغبة فى الحياة ، قد مزجا بينهما فى عناق ٠

## - ٢ -

حين عادت أولى اشـعاعات الوعى ، عادت هذه المرة الى الاسرائيلى فى صورة همهمات ٠٠ وصور ٠٠ ومرئيات ٠٠ تروح وتجىء ٠٠ أهو حام ؟ يقول بعض علماء النفس أن الانسان حين يغيب عن وعيه ويسقط فى الغيبوبة ، فان قدرته على الحلم ايضا تغيب وتمحى ٠٠ عودة الأحلام هى دليل عودة الوعى ٠٠ كان يستشعر وجوده ٠ سواء كان حلما أم حقيقة ، فهو شىء جميل وناعم وواعد ، ان تكونى فى حضنى ٠٠ بين ذراعى ياسارة ٠٠ انت الآن معى على السرير ٠٠ سريرنا ٠٠ مستغرقة يا حبيبى فى نوم عميق ٠٠

وأغراه ملمس الكتلة الانسانية بين ذراعيه ( جسم المصرى الجريح ) أن يسترسل فى الحلم ٠٠ نامى يا حبيبتى ، واشبعى نوما ٠ فانت تتعبين كثيرا بالنهار ، مع أطفالك الذين تدرسين لهم فى المدرسة ٠٠ آه ما أجمل وجهك وانت نائمة ٠ طفلة صغيرة وانت



نائمة ، ولو أنى اشتاق أن تستيقظى ونضىء النور وأرى لمعة عينيك  
يا أنثاى الفاتنة ٠٠ وأعانقك ٠٠ أعانقك بكل قوتي ٠٠

وأراد أن يحس بنشوة القوة فى ذراعيه ، لكن ذراعيه خائتاه ٠  
ومع هذا مضى يتحسس الجسد الذى فى صدره بأصابعه ، لكنه  
أحس فجأة بخشونة الملمس ٠ هذه الملابس ليست ملابسها ، واستيقظت  
إشاعات جديدة فى وعيه ، فارتجف ٠٠

من هذا الذى يحتضنه ؟ وسطعت أمامه الحقيقة ، أن من تخيلها  
زوجته هو عدوه المصرى الذى كان يتحدث معه قبل تلك الغارة  
اللينة ٠ يحتضن عدوه وليست حبيبته ٠

وأحس بنفور ٠ وبشكشات فى جسمه فابتعد عنه وراح  
يتسمع : ترى هل مات وهو بين ذراعيه ، أم يقتله وينتهى منه ، هذا  
الوحش المتخلف ٠٠ ( وتدافعت أنفاسه ) نعم ٠٠ وحوش متخلفة  
٠٠ كانوا يأكلون فيمن يمسونهم منا بأسنانهم ٠٠ كانوا يشربون  
من دمهم ويصيحون : الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠ ماذا تعنى هذه  
الصرخة الوحشية التى تزين لهم القتل وشرب دماء اليهود ( وكز  
على أسنانه ) ونحن أيضا يجب أن نكون وحوشا ، ونتعلم شرب  
الدماء ٠ نعم شرب الدماء وليس الماء ٠٠ ولو أنى ٠٠ ولو أنى  
عطشان ٠٠ الى قطرة ماء ٠٠ قطرة واحدة تعطيتى القوة لقتله ٠٠  
أو أتيقن من موته . ثم ٠٠ ثم أرحف خارجا فى الظلام ، متتبعا  
النجم الى بلادى ٠ أصل أحد حصوننا التى لم تسقط بعد ، أو  
يلتقطنى أحد الكيوتزات ٠٠ حارسة الحدود المقدسة ٠ يجب أن  
تكون هذه هى خطتى « وعأوده العطش وبامعائه تنقلص ٠ ومضى  
يتأوه « فلأبحث عن ماء ٠٠ هذا الحصن الذى تهدم كانت فيه الحياة  
كاملة ٠٠ الماء والطعام ٠٠ وكان يوجد « ميز » به مطبخ به صنبور

ماء ٠٠ وأسرة للنوم ٠٠ ومنضدة للطعام ٠٠ لو اصطدم بزجاجة ماء ٠ لم لا ؟ الحياة مجموعة مصادفات ٠ مثل صدفة العثور على واحة في الصحراء ٠ هذا الظلام متى ينتهى ٠ اكل هذا ليل واحد أم انقضى علينا في هذا المكان أيام وليالى طويلة ٠ وربما باب الحصن انسد وأغلق ٠ تحول الحصن الى قبر ٠ وسطعت ذاكرته بالضوء ٠ ورأى نفسه مع أفراد كتيبته في الحصن ٠ ثم المفاجأة ٠٠ ( صرخات الوحوش ) ٠ « ماذا حدث لايزاك وموسى وجوزيف وآبا ٠٠ وقائدهم جاكوب ؟ مامصيرهم ؟

وجاءه الصوت ٠٠ صوت المصرى ٠٠ بالانجليزية :

- ماء ٠٠ أريد ٠٠ ماء

ورغم أن الصوت كان مفرغا كأنه صلدر من أعماق بئر ، الا انه أجفل لسماعه ٠ ومع هذا ، ذقد تنبه وكأنما يكتشف ذلك لأول مرة ، أن هذا المصرى الجريح يتكلم الانجليزية ٠٠ وفرح لذلك في أعماقه ٠٠ أن هناك لغة مشتركة بينهما ٠٠ يمكنها التفاهم بها ٠ وقال له : أنت تعرف الانجليزية ٠ واضح أنك متعلم !

- ماء ٠٠ نقطة ماء ٠

وأوشك أن يقول له : أنا الآخر أموت من العطش ٠ لكنه أحجم « لن أجعله يطلع على ضعفى ٠ فمهما كان بيننا من لغة مشتركة يمكن أن نتحدث بها ، الا أن يحورا من الدماء تفصل بيننا ٠٠ ومن ستعود اليه القوة أولا سيفعلها في الآخر » ورأى أن التنبؤ بنتيجة الصراع غائمة ٠ فها هو يتأرجح بين اليقظة والغيوبة ٠ ولكن ٠ ما هذا ؟ انه يرى شيئا ٠٠ لونا ٠٠ أم هو يحلم كما كان يحلم منذ قليل ، مع « سارة » على السرير ؟ لكن اللون كان يتأكد بالتدريج ، ويأخذ لون الفيروز ، وعأوده لون عينيها ٠٠ لكنه صمم على الابقاء

على وعيه لكى يتأكد من أن هذا الذى يراه حقيقة ، وأنها أضواء  
الفجر تطلع على الصحراء وتتسرب الى الحصن ، وأذن فباب الحصن  
لم يخلق بالانهيارات ٠٠ هناك ثمة فتحة على الحياة ٠٠ الطريق الى  
اسرائيل ٠٠ الوطن الذى ضمنى من الشتات ٠٠ ولكن من أين القدرة ؟  
فلأبحث عن ماء ٠٠ وسيساعدنى ضوء الفجر ٠٠ وراح يشدد من  
بصره بقدر ما يستطيع ليميز أرجاء المكان ٠٠ وتراءت له كتل جهمة  
من حوله ومن فوقه ٠ كأنه كهف قوم بدائيين منذ آلاف السنين ٠٠  
واختلطت عليه الرؤى ٠٠ أهو يحلم ، أم أن تشكيل الكرة الأرضية  
قد تغير وعادوه دوى الانفجارات ٠٠ وعاد الصوت ٠٠ أو النواح :

— ماء ٠٠ ماء ٠٠

وتوجه ببصره اليه ٠ ولأول مرة يرى هيكل المصرى الطريح  
مجسما على أضواء الفجر ٠٠ ممددا ٠٠ عريض المنكبين ، متوسط  
القامة لكن ملامح الوجه مازالت غائمة ، وإن بدا أن له شاربا أسود  
ثقيلا ٠٠ واستطاع أن يميز كتلة الوجه بالراس ملقاة على الرمل  
بشعر منفوش كأشواك القنفذ ، معطية معنى محددا : انتظار الموت

غمغم فى نفسه ٠ الأفضل أن أتركه هو الذى يموت ٠ لن أقتله  
فأنا انسان متحضر ٠٠ نحن قوم متحضرون ٠ المهم أن أعود الى  
بلادى ٠٠ طائرة هليكوبتر ترانى وتلتقطنى ٠ قطرة ماء تعيننى  
على الحركة ، فى المطبخ صنبور ماء ٠٠ فلأبدأ البحث عن الماء ٠  
أين باب المطبخ ؟ فى أى اتجاه أزحف ؟

وبدأ الزحف ٠ وساعدته أضواء النهار التى راحت تتوالى  
على استكشاف المكان ٠ لكن الجدران من حوله كانت مسدودة  
بالانهيارات ٠ وأصبحت مهمته البحث عن الموضع الذى يمكن أن  
يكون الباب لينقب فيه ويفتحه ٠ فجأة صاح بالبشرى ٠

— هو ذا ٠٠ باب المطبخ ٠٠ سدته الانهيارات ٠٠ هيا نزيحها  
٠٠ ونفتحه ٠٠

وتنبه — مع عجزه — انه يطلب العون من عدوه ٠ وانه وحده  
لن يستطيع فعل شيء ٠ وسيموت من العطش ٠ لا بد من أن يتعاونوا  
إذا أرادوا الأبقاء على حياتهما ٠ وليكن بينهما بعد ذلك ما يكون ٠٠  
وتمنى لو أن خصمه هذا هو شمشون الذى هدم بقوته المعبد ليزيل  
بساعديه العظيمين هذا الركाम ٠٠ كان لديه احساس راسخ أنه يوجد  
فى هذا المكان ماء ٠٠ فلا تزال صورة الثلاجة وزجاجات الماء الباردة  
فيها حاضرة فى خياله ترسل اليه اشعاعات مغناطيسية ٠

— انت ٠٠ اصبح ٠٠ وقم معى نزيل هذا الركام ٠٠ الماء وراء  
هذا الركام ٠٠

— تقول ماء ؟ أين هذا الماء ؟

— فى المطبخ ٠٠ قلت لك ٠٠

— فى المطبخ ٠ أم ٠٠ فى بئر سبع ٠٠ أم ٠٠ فى بئر ٠٠  
زمزم ؟

— أرجوك ٠٠ كف عن الهذيان ٠٠

— كنت تقول لى هذا ٠٠

— أنا ؟ كنت لا بد أهذى ٠ هذا الهذيان سينتهى بالموت ٠٠  
والماء بجوارنا على بعد أمتار ٠ قم وساعدنى ٠ تعال ٠٠ سنعاون  
بعضنا على النهوض ، ثم ٠٠ نقف ونزيل هذا الركام ٠٠ هات يدك ٠

قال المصرى بلهجة آسفة : وفيم تنفع يد انسان يموت ٠

قال الاسرائيلى محمسا : لا ٠٠ يجب أن نقاوم الموت ٠ لا بد

أن نقسارم الموت ٠٠ يجب أن نعيش ٠٠ نعم يجب أن نعيش ٠٠  
ها ٠٠ هي ٠٠ يدى ٠٠ هات يدك ٠٠

ويجهد هائل مد يده ٠ وحين التقت اليدان ، بانث الحقيقة  
المؤكدة ، أنهما عاجزان تماما ، ومسكينان ، فازدادت يد كل منهما  
تمسكا باليد الأخرى ، تطلب منها القوة ، كأنما تقسمان على أن  
يقاوما الموت معا ويحلمان بشربة ماء تحفظ عليهما نبض الحياة ٠

وهمدت حركة الاثنين ٠٠ ولف المكان صمت ثقيل ٠٠ أثقل  
من الظلام المحيط ٠٠ وأحس كل منهما بشيء غريب ومثير يحدث  
كان الألم الجسماني بدأ يخف ، بل الاحساس بالجسم كله كان يذوب  
٠٠ ويتلاشى ٠٠ ويداخهما احساس روحى غريب ٠٠ بثمة نشوة

وقال المصرى : أنا الآن أطير ٠٠

قال الاسرائيلى : أنا أيضا أطير ٠٠ الى هناك ٠

— الى أين ؟

— الى تل أبيب ٠٠ وانت ٠٠ الى أين كنت تطير ؟

— سنورس ٠ فيوم ٠٠ مرورا بالقاهرة ، والهرم الكبير ٠

واختلج صوت الاسرائيلى بشوق :

— اذن فانت كنت ٠٠ ترى الهرم ٠٠ كثيرا ٠٠ هرم ٠٠

خوفو الأكبر ٠

— من كثرة ما مررت عليه ، لم أكن اتذنب اليه وأنا أمر من تحته  
١٠٠ أما الآن ٠٠ أه لو نظرة من قمته المسنونة ٠٠ الضاربة فى  
الفضاء ٠

قال الاسرائيلى وهو يرى نفسه طائرا فوق الاهرامات التى  
طالما رآها فى الصور ٠٠

- الاهرام ٠٠ اعجب عجائب الدنيا السبع ٠٠ كانت احدى  
امنياتى أن أراها ٠٠ لكنكم تمنعوننا من ذلك ٠ رغم أن الاهرامات  
تعتبر من التراث البشرى ، أكثر منها تراثا مصرية ٠

ضحك المصرى ، ساخرا ٠ ولم تكن ضحكته بالطبع ذات  
صوت ، انما كان كل ما يصدر عنه أو عن الاسرائيلى أهازيج  
داخلية ٠ ممارسة كاملة للحياة وهما طريقا الأرض بتساوير  
الخيال ٠

- حتى الاهرام ، تريدون أن تحرمونا منها ؟

- كيف ؟ ليس قصدى ٠

- بل قصدك ٠ قرأت أن هناك من يريد أن يثبت أن الاهرامات  
ليست صناعة مصرية ٠ لماذا ؟ لأنه عمل عبقرى ٠ والشعب  
المصرى ليس عبقرى ، واذن فلا بد أن جنسا أو قوما آخرين هم الذين  
بنوه ٠ معادلة رياضية !

- أنا أيضا قرأت شيئا مثل هذا ٠٠

- أ رأيت ؟ المعادلة المزيفة ٠ بارادوكس ٠

- بارادوكس ؟ ماذا تعنى ببارادوكس هذه ؟

- أن تلبس الكذبة ثوب الحقيقة ، مستعينا بقاعدة علمية  
( وبإصرار ) بل نحن الذين بنينا الاهرام ٠٠ فى احدى مراحل  
الازدهار والمجد بنيناها ٠ التاريخ قمم وانحدارات ٠ نحن كنا فى  
منحدر ، والآن نعاود الصعود ٠

قال الاسرائيلى :

- واضح انك مثقف ٠٠ ما هى درجة تعليمك ؟  
- أنا ٠٠ خريج كلية الزراعة ٠٠ تخصص ٠٠ كيميا اراضى  
- كيميا اراضى ؟ ( قال الاسرائيلى بدهشة ) هذا نخصص  
راقى ٠٠ انت تفهم اذن فى تعمير الصحارى ( وابتسم ) فلماذا لم  
تعمروا سيناء ؟

- كيف نعمرها ٠٠ وانتم تحتاونها ؟  
- لم نحتلها الا منذ ست سنوات ٠ منذ يونيو ٦٧ ٠ ف أين كنتم  
قبل ذلك ؟

- الا تعلم أين كنا ؟ كنا نحارب الانجليز - ١٠٠ ألف جندي  
انجليزى كانوا على طول القناة ٠٠ يحولزن بيتنا وبين سيناء ٠٠  
( ثم بغيط وحزن أنه غير قادر على أن يصرخ فيه ) من أنت حتى  
تحاسبنى على تعمير سيناء أو عدم تعميرها ٠ انتم لابد أن تخرجوا  
منها ، ثم بعد ذلك نحن احرار فى أرضنا !

قال الاسرائيلى وهو يطير فوق ساحات الصحراء اللامتناهية  
ويراها خضراء : لا ٠٠ فى هذا العصر ليس هناك أحد حرا فى أن  
يترك قطعة من الأرض بورا بينما الملايين يهوتون من الجوع ٠ الاثبلت  
الحقيقى أنك جدير بهذه الصحراء أن تزرعها وتشيع فيها الخضرة  
وهذا ما فعلناه : الكيبوتزات ٠٠ الخضراء ٠

قال المصرى ساخرا بغيط : تقصد المستعمرات التى تخفونها  
تحت اسم المـ،توطنات ٠ اليس كذلك ؟

- نحن لا نخفى مجد اسرائيل !

- المجد القائم على الاغتصاب ٠٠ نعم انتم لصوحى ٠٠

مغتصبون ٠٠ نحن أحرار فى أرضنا ٠٠ وسنطردكم منها ٠ سنطردكم ونحن قادرون ٠ نحن المصريون قادرون ٠

وعاودته الأهازيج ٠٠ أصوات وصور ٠٠ وهم يقدفون بأنفسهم الى قوارب المطاط التى طالما تدرب عليها فى نهر النيل ، ثم وهو مع المجموعة يندفعون مجدفين فى القنال ، ويصعدون خط بارليف ويصرخون صرخات الحرب الوحشية ، ويهجمون على الحصن تلو الحصن ٠٠ ثم ٠٠ وعاوده صفيير القنابل ودوى الانفجارات ٠٠ « لو مت الآن فساموت سعيدا ٠ نحن رددنا الضربة ٠٠ نحن مسحنا العار » ٠٠

– الحقيقة ٠ أنتم المصريون شجعان ٠ لأول مرة نتواجه فى معركة ٠ صدقنى ٠ يمكن أن تكونوا أنتم الذبن بنيتم الهرم الأكبر ٠

فاجأته الكلمات ٠٠ هزته بعمق ٠ هذا الاعتراف من العدو ٠ ووجد نفسه ينظر اليه بحب شديد ٠ كان يحس بالصدق العميق فى لهجته : « أم أنه يخدعنى ٠ يثير غرورى لكى أفقد حذرى ؟ »

وواصل الاسرائيلى مهمهما : كنا نظن انكم جيش من الفلاحين الأميين ، انهكتهم البلهارسيا والبلاجرا ٠٠ يبدو أنكم أعدتم تكوين جيشكم على نمط حديث ٠

قال المصرى بزقفة : لعلمك ، مازلت أعانى من آثار البلهارسيا فى دمنى ٠ ومع ذلك فعلناها ٠٠ نعم ، نحن الذين بنينا الهرم الأكبر هذه هى الكلمة الراحدة الصادقة التى قلتها ٠

قال الاسرائيلى وهو يزفر : أنا صادق فى كل ما أقول ٠ حتى لو اختلفت معى فى بعضه ٠ أنا صادق ٠٠ وأنت صادق ٠

وتعجب المصرى ٠٠ غريب أمر هذا العدو الراقد بجواره ممددا على الأرض ٠ وكان ضوء النهار قد كشف كل الأسرار وكل



الملاح . وتاقت نفسه وهو راقد على ظهره أن يتقلب على جنبه ويرى تفاصيل ملامحه . ويرى وجهه . هل يتفق مع صوته الأجنس ؟ وتحدى نفسه أن يقدر على هذه الحركة . ومع الأوجاع التي تقلبت مع حركته ، عدل من وضعه ونظر في وجه زميله . وفوجيء بالوجه . كان أقرب للبنت أو للصبي منه الى الرجل المقاتل . بوجهه الأبيض وشعره الكستنائي الناعم وتقاسيمه الدقيقة . وكان مخمض العينين هي رحلة طيرانه . وللحظة خاطفة ، احس أنه ليس مجدا أن ينتصر عليه ، فمثل هذا الوجه الرقيق الجميل مخلوق للحياة وليس للحرب ولا للموت . « وهو يعترف ببطولتنا » . وجاشت نفسه برغبة في أن يعانقه . لكنه أجفل : « انه رجل . . وليس أنثى » .

وسأله : لم تقل لي . . ما اسمك ؟

— اسمي ؟

— نعم . . افتح عينيك وكلمني . . اني احس بدبيب القوة تعاودني ، وستعاودك أنت ايضا ، انظر لي كما انظر لك .

ورمش الاسرائيلي بعينه ، وراح يجرب رؤية الأشياء . واذ فتح عينيه بالكامل رأى امامه أول ما رأى شاربيا كثيفا اسود يتوسط وجهها أسمر بارز العظام . ورأسا كبيرا كثيف الشعر . . خشنه . . وعلى الفم ابتسامة تشجيع . هل يصدق هذه الابتسامة ؟

— لم تقل لي ما اسمك . أنا اسمي . . ربيع .

— ربيع ؟ انه قريب من اسم أبي . اسمي ايليا راين ( وراح الاسرائيلي يردد الاسمين ) ربيع . . وراين . . هذا يثبت الحقيقة . السلالة واحدة .

— ماذا تنسى ؟

— وجدنا الأكبر واحد ٠٠ ابراهيم ٠٠ هل تختلف معنى فى هذا ٠٠ ياربيع ؟

— لا ٠٠ أنت صادق أيضا ٠٠ فى هذه النقطة ٠٠ يا ايليا ٠٠ واسماعيل واسحق ويعقوب اجدادنا الأقربون ٠ ولكن ما الذى تريد أن تصل اليه ؟

قال الاسرائيلى بحسرة :

— ومع هذا فقد أصبحنا الأعداء الأخوة ، أو الأخوة الأعداء ٠٠ متى ٠٠ تنتهى هذه العداوة ٠٠ وكيف ؟

فى تلك اللحظة جاءت الاجابة قاطعة عليهم كل تصاور وهازيح العطش ٠ فقد أحسا فى تلك اللحظة بخلخة رهيبية فى هواء المخبأ ، وأن تشكيل الأرض سيختل من جديد ٠ كان سرب طائرات منخفض يمرق بأسرع من الصوت ، وأسرع كلاهما بحركة غريزية يسد أذنيه ٠ الموت فى الداخل والخارج ٠ وتمنى الاسرائيلى لو أن الخلخة تسقط هذه الانهيارات التى تسد مدخل « الميز » الذى يوجد به الماء ٠ وأحس بقوة مفاجئة تطرا على جسمه ٠ وقال المصرى وهو ينهض :

— محال أن نموت من العطش والماء بجوارنا ٠ صدقنى ياربيع ٠٠ الماء على بعد أمتار ، بل خطوات ٠ ليس علينا الا أن نزيل هذا الركام وينفتح لنا باب الحياة ٠٠ تصبح فى أيدينا زجاجات الماء ٠ قم وانهض ٠٠

وفوجئ المصرى ينهض بل وبحركة أسرع ٠٠ وتلبست الاثنين طاقة توهج غريبة ٠ ذلك التوهج الذى يبدد الظلام فتتكشف الحقائق وتضىء الحياة ٠ وجاهدا لصلب قامتيهما ، ومضيا يترنحان فى

مشيتهما • متساندين ، حتى اقتربا من الكومة • وتمثلت لهما الصعوبة فى كتلتين حجريتين ، فمضيا يزيحان من حولهما اكوام الرمال وهما يلهثان ، وسعار العطش يزداد •

وقال المصرى بحماس : هاقد نقلت حفنة •

- وانا ايضا نقلت حفنة • سيسهل بعد ذلك ازاحة الحجرين •

وانذ رأيا أنهما قادران على العمل ، دبث فيهما قوة غريبة • من أين تجيء القوة الى الجسد المتهافت العطشان والذى يعانى من التحاريق ؟ أهى حلاوة الروح وتوهجها الاخير الخاطف قبل الانطفاء ؟ وتلبستهما طاقة روحية غريبة أعادت للجسد بعض قوته ، وراحا بشكل مستميت يزيلان اكوام الانهيارات ويحزحان أيضا فى الحجرين ، وصاح الاسرائيلى • بانتصار •

- هو ذا • • المطبخ • • كما قلت لك •

واندفع نحو الحجرة التى تراءت على صورة فجوة معتمة • وفى اندفاعته تعثر وسقط بوجهه على الركام • ومع هذا لم يعبا أو حتى يتألم • قام ونهض من جديد • يترنج ويتقدم نحو صنوبر الماء • • سيمسك به وبزجاجة الماء بكلتى يديه ويظل يشرب ويشرب حتى يرتوى ، وينفجر من الارتواء !

أما المصرى فقد رأى نفسه وهو يعبر الانهيارات الباقية يجرى فوق جسر النيل وماء النهر يجرى أمام عينيه أغمارا ويرمى بنفسه فيه • • يشرب بقمه • • بكل بقمه • • ويعب ويعب ويستحم أيضا • • وتضاعفت قواهما ، وبديا وكأنهما فى سباق ، فقد تراءت لكليهما فكرة واحدة لمعت فى ذهنيهما فى صمت ودون جدل أو نقاش

٠٠ ربما الماء الموجود كمية قليلة ، ومن سيسبق فهو الذى سيشرىها  
٠٠ ويعيش !

وتاق كل منهما ان يصل قبل انخر فاستماتا فى الاندفاع  
٠ قال المصرى : العتمة هذا ثقيلة ٠٠

قال الاسـرائيلى : انا اعرف جيدا المكان ٠ اعرف مكان  
الثلاجة ٠

قال المصرى : لم يعد شىء باقيا على حاله ٠ كل شىء انقلب  
العالم تغير ٠

قال الاسرائيلى : ارجوك ٠ قل لى كلاما يشجعنى ٠

قال المصرى : انا لا اقصد تيئيسك ٠ انا اقول الواقع ، كى  
نعرف كيف نواجه ٠٠ مواجهة موضوعية ٠ ؟

- فلنكف عن الكلام ٠٠ لاداعى لتبديد الطاقة بالكلام ٠ نبحث  
هنا ٠٠ فى المواجهة ٠ آه ٠٠ «هذا هو الصنبور» واندفع عليه وفتحه  
٠٠ صرخ بحزن : الماء مقطوع ٠ أين الثلاجة ؟ ( وصاح بشهقة  
فرح ) هاهى ٠٠ لكنها واقعة على ظهرها ٠ أين بابها ؟ قد نجد بقايا  
ماء ٠٠

واندفع المصرى هو الآخر على جسم الثلاجة ، يبعث بنظراته  
الذاهبة عن بابها ويسمع الاسرائيلى يهمس لنفسه بفرح : هاهو  
الباب ٠ حمدا لله أنها وقعت على ظهرها ٠

وفكر : لماذا قالها همسا ؟ دريد ان يصل هو أولا الى الماء  
وينفرد به ٠ قال مسجلا استراخه فى الكفاح :

- هل أساعدك فى فتح الباب ؟

كان الاسرائيلى قد جذب باب الثلجة فانفتح على الفور ٠٠  
ونظر بلهفة الى جوفها ٠ وسرعان ما صاح : زجاجة ماء ٠٠ واندفع  
بيديه عليها ٠٠

صاح المصرى بنشوة : حقا ؟ اذن هاتها ٠ ( واستدرك ) لا  
بل اشرب أنت أولا ، ثم أعطنى اشرب ٠ لا تشرب دفعة واحدة ٠٠  
نشرب على دفعات ٠٠ بالتبادل ٠٠ هذا أفيد صحيا للمعدة ٠٠  
احترس من صدمة الماء ٠٠

ووجد نفسه باللاوعى يتدفع بكلتى يديه على الزجاجاة وهى فى  
يد زميله ، يريد فقط أن يتحسس ملمسها وبروبتها ٠ يود لو ينعقها  
بلسانه فقد تصيبه قطرة ماء على سطحها ٠٠ وقال راجيا ومنبها :

— لا تنسنى يا صديقى ٠ لا تنس نفسك وتشربها كلها ٠

وفوجيء بزميله يقدم له الزجاجاة ويقول :

— خذها ٠٠ كلها ٠٠

وقبض عليها بكل كفيه ، وما أن هم بوضعها على فمه ، حتى  
وجد نفسه يصرخ فى يأس عظيم :

— انها فارغة ٠ أعطيتها لأنها فارغة ٠ تريد أن تحطم  
أعصابى ٠

- ٢٣ -

- أنا احطم اعصابك ؟ ( قالها الاسرائيلي معاتبا ) أنا اشركك  
معى فى الفجيعة ، كما كنت سأشركك معى فى الارتواء .. هاتها .

ومد يده لياخذ الزجاجاة الفارغة ، لكن المصرى استمسك بها  
.. مستشعرا بعمق برودة ملمسها . وأخرج لسانه وراح بلعق  
سطحها .. لو تتحول هذه الدرجة البسيطة من البرودة الى قطرات  
ماء ! غير أنه أحس بلسانه المتخشب يصطدم بصلاية الزجاج ،  
وأوشك من اليأس والغیظ ان يهوى بالمزجاجة الى الأرض ويحطمها ،  
لكنه قاوم نفسه . هذه الزجاجاة الفارغة قد تنفع فى شىء . ( وفكر  
فى نفسه ) وليس معى سلاح ( ولمعت الفكرة المضادة ) وقد يستعملها  
هى سلاحا ضدى .. يحطم بها رأسى . سأخفيها . ووضعها على  
الأرض فى هدوء .

قال الاسرائيلي . فلنواصل البحث . يجب الان نأیس . قد تكون  
زجاجة مكونة فى أحد الأركان . وان لم نجد هنا فقد نجد فى حجرة

الحياة العامة • انها قريبة من هنا ، لا يفصلنا عنها غير سرداب صغير • كنا نأكل فيها •• وقد نجد بها طعاما وماء •

وراح الشبحان المتهافتان يتجولان هنا وهناك بحثا عن التمامة قطرة ماء •• وكانا يترنحان ويصطدمان بالأشياء ويسقطان ثم ينهضان ، وصاح الاسرائيلي •• بنشوة انتصار •  
— لقمة خبز ••

اندفع عليه المصري : أين هي • أرضها •  
— هاهي • تعال ، نقتسمها •

لكن اللقمة كانت جافة ، كأنما قدت من صخر • وفشل الاسرائيلي أولا ثم المصري فى كسرها •  
وقال المصري : خدها • اقضم منها • ثم اعطنيها •  
قال الاسرائيلي : هي معك • اقضم أنت أولا : أنا لست جائعا •  
أنا فقط عطشان ••

واستطاع المصري بجهد هائل أن يكسر بأسنانه جزءا من الكسرة ، وراح يعضغ فيها • لكنه أحس بالفتات يكاد يسد حلقه •• فتجشأه على الأرض ، وقال فيما يشبه النواح •  
— لم أعد قادرا على البلع • حتى اللعاب جف •

قال الاسرائيلي : ليس اللعاب وحده الذى جف • الحياة كلها جفت • بصرى أيضا جف • أنا لا أرى شيئا • حتى سارة ، لم أعد أرى ملامحها جيدا • هل جربت مرة •• أن تستدعى صورة حبيبتك وأنت بعيد عنها ، لكن خيالك لا يسعفك ؟ أو ربما هي الآن غاضبة على • لم أكن أكلمها بلطف فى الأيام الأخيرة •

قال المصري مبتسما بمرارة : تصور أن هذا نفس ما كان يحدث  
لى مع نور ٠٠ كنت دائما عصبيا معها ٠٠ غير أنك محظوظ أكثر  
منى يا ايليا ، فقد تزوجت حبيبتيك وعاشت بها واستمتعت معها أياما  
ولياالى ٠ أما أنا فلم أعرف من الحب غير الحرمان ٠٠ والشوق ٠٠  
ست سنوات ٠ ست سنوات منذ أن تخرجت ٠٠ سنة ٦٧ ، وأنا ملقى  
فى الرمل ٠٠ على ضفة القنال ٠٠ انتظر هذا اليوم ٠

— اليوم المشئوم ٠

— من وجهة نظرك بالطبع ٠٠ لكنه بالنسبة لى يوم النصر ٠٠  
— المعركة مازالت دائرة ٠٠ لم يتحدد بعد ٠٠ النصر النهائي ٠  
قال المصري ٠٠ مدشبتا : ربما حدث ٠ فقد عبرنا القنال ٠٠٠  
وخط الموت الذى كنتم تسمونه خط بارليف ٠

— وما المعجزة نى هذا ؟

— ألم تكونوا تصفونه بأنه الخط الذى لا يقهر ٠٠ ها نحن الآن  
على الضفة الشرقية ٠

— قد تسمعون بعد قليل ، أننا احتلنا الضفة الغربية ٠ ضربة  
بضربة ٠ أعرف كيف تفكر قيادتنا ٠٠

قال المصري بهيظ ، حزينا لأنه عاجز عن أن يمسكه من رقبتة  
ويخنقه ٠

— اذن فانتهم لا تريدون لهذه الحرب أن تنتهى ٠

— لن نقبل انتهاءها ونحن مهزومون ٠

— ونحن أيضا ٠ لن نرفع الراية البيضاء ونحن مهزومون ٠٠  
أبدا ٠٠ أبدا ٠٠



— اذن فهى الحرب الأبدية • الفناء للأجيال وراء الأجيال •  
منا ومنكم ( ثم بسخرية مرة ) وليعش موردوا السلاح : الولايات  
المتحدة ، والاتحاد السوفيتى •

قال المصرى متحفظا : علاقتنا بالاتحاد السوفيتى ايسست مثل  
علاقتكم بالأمريكان • نحن ند للاتحاد السوفيتى • بدليل أننا رحلنا  
خبراءهم العسكريين ، ودخلنا المعركة وحدنا •

قال الاسرائيلى بلهجة تنسى بالاشمئزاز : لم ترحلوهم بل  
طررتموهم • بالوفاء المصريين ١

أحس المصرى بالاهانة : لا • • لوسمحت • • اننا لا ننسى  
الجميل ، ونعرف جيدا الوفاء • فهم الذين جاءونا بالصينية فى وفاة  
عبد الناصر ، البطل العظيم ، وهم الذين بنوا معنا السد العالى الذى  
أضاء قرانا المظلمة بنور الكهرباء • • وهم الذين ساعدونا فى اقامة  
صناعة الحديد والصلب والدفلة ، أم الصناعات جميعا • • لكننا  
فى هذه الحرب ، كان يجب أن نكون وحدنا • أن يكون المصرى هو  
المحارب وهو المنتصر • مثلما كان هو المنسحب والمنهزم فى سيناء •  
ان السوفيت لم ينسحبوا معنا من سيناء فى حرب ٦٧ حتى  
يشاركونا العبور والالتحام فى حرب ٧٣ • لقد وفرنا عليهم الدماء •  
وشكرا لخبراتهم ولأسلحتهم العظيمة • لكن الدماء التى تسيل فى  
هذه الحرب ، يجب أن تكون مصرية مائة فى المائة • انها مسألة  
نفسية • لابد أن يفهم السوفيت والعالم كله هذا • لسنا جاحدين  
للجميل ، لكنه الموقف الوطنى والقومى • وعليكم أنتم أيضا أن تفعلوا  
مثل هذا ، أن تستغفروا عن ترسانة أمريكا ، وتواجهوا غضب تجار  
الأسلحة فيها ، فهل تقدرون ؟ ها هو امتحانكم الاكبر • ثم نتواجه  
• • نحن وأنتم • • ونرى • • من فينا المتفوق • • أنتم « شعب الله

المختار « كما تقول التوراة • ونحن « خير أمة أخرجت للناس » كما يقول القرآن •

قال الاسرائيلي : أنتم مائة مليون • ونحن مليونان أو ثلاثة سببقلعوننا ••

— لا •• لن يمسكم احد طالما التزمتم حجمكم وحدودكم •• لكنها عقدة الخوف الأذلية المترسبة فيكم •• عقد الاحساس بعدم الأمان •• اننى واثق من أنك لا تشعر نحوى بالأمان • ولو أنك الآن قادر على قتلى واخماد صوتى لفعلتها ( واكتسى صوته بالغضب وبالتحفز ) لكنى لن اسمح لك • فأنا واع ومتنبه لكل حركة منك • أنتم قوم لا يوثق بكم •

قال الاسرائيلي : وأنتم متخلفون • فرغم أنك خريج جامعى كما تقول •• وكيميا أراضى ، والفروض أن تكون عقليتك علمية ، لكنهم لقنوك وربوك على هذا : اليهود قوم معقوفوا الأنوف ، ماكرون ، باعوا المسيح لقاء دريهمات من الذهب •• وهذا غير صحيح •• فالمسيح أنبثق منا ، من حركة تمردنا ، غير أن بعضا منا للأسف انقلب عليه وساهم فى صلبه • وهذا هو صلب القضية •

— أية قضية ؟

— ليس هناك جنس واحد أو قومية واحدة ، تمجدها كلها ، أو تشطب عليها كلها • فى داخل الجنس الواحد أو القومية الواحدة ، تجد الثائر والمتمرد ، وتجد أيضا من هو ضد الثورة وضد التمرد •

— لم تقل لى • ما هو عملك •• وظيفتك ؟

— أنا •• مدرس تاريخ ، تخصص اثنولوجى •

ردد المصرى الكلمة •• مستوضحا معناها : اثنولوجى ••  
اثنولوجى ••

قال الاسرائيلي شارحا له المعنى : علم اصول السلالات • علم  
اجناس الأمم ، واصولها •• ومميزاتها ، وأوجه تفرقها •

قال المصري : كان اذن من الواجب أن تكون عارفا بتاريخ  
اليهود جيدا •• يا استاذنا ايليا •• بنى قومك !

قال ايليا بغضب : مالهم بنى قومي •• ماله تاريخ اليهود ••  
ياسيد ربيع ؟ تاريخنا أمجاد •• تاريخنا آلام •• والعطش فى حياتنا  
قديم •• لكننا صمدنا للمحن •• من محنة خروجنا من مصر هربا  
من اضطهاد فرعون وتشردنا فى تيه سيناء أربعين عاما ، الى محنة  
تعذيب هتار لنا فى كل أوروبا •• وبين المحنتين •• محن المذابح التى  
أجراها فينا ملوك آشور ، وبابل • وقواد الامبراطورية الرومانية •  
هل تعرف ما نلقاه من آلام على يد « بنوخ نصر » ملك بابل ، وعلى  
يد يوليوس سيفيروس الرومانى •• و ••

— قللى يا ايليا •• لماذا التاريخ مغرم بتسليط الغزوات  
عليكم ؟

قال الاسرائيلي ساخرا : انت مضحك يا صديقى •• فليس هناك  
شعب تسلطت عليه الغزوات والاضطهادات مثل شعبكم ، الشعب  
المصرى ، بعد أن دالت دولة المجد الفرعونى ، دولة الأسرات الأولى •  
تاريخكم حتى اليوم مقاومة هجمات واضطهادات •• انكم مضطهدون  
أكثر منا !

قال المصري : لكن هناك فرق كبير •• وحاسم •• أنتم هربتم  
من الاضطهاد • أما نحن •• فقد بقينا نقاوم على أرضنا •

— المسألة نسبية • فأنتم لم تبقوا كلكم •• وارجع للتاريخ ،

ستجد موجات واسعة من المصريين هربت أمام الاضطهاد . اما الى بلاد أخرى ، واما الى الصحراء . . والذين بقوا منكم على ضفة النهر هم القلة الصلدة ، هذل الةة التي بقيت منا وظلت على أرض فلسطين من يومنا حتى الآن من خلال مسلاتها . . بقيت النواة المصرية عندكم ، وبقيت النواة الاسرائيلية عندنا ( وتنهذ ) تاريخنا يا صديقي مشترك . نحن وانتم . . نحن أبناء منطقة واحدة ، وأبناء ألم واحد . . وأهل واحد . .

وفكر المصري . . غريب هذا الاسرائيلي . . هل دراسة التاريخ وتخصص الاثنولوجي خلقت عنده هذه الأفكار . . أم كل هذا من قبل الخداع ليجعلنى أطمئن اليه . . وهم مشهورون بالحرب النفسية . . والحرب دائرة . . هو نفسه كان يقول هذا منذ قليل . .

— لا يا استاذ ايليا . . نحن مختلفون . . بدليل ما نحن فيه الآن . . وان كنا أبناء ألم واحد . . نذلك فى التاريخ القديم . نعم ، بل انى اذهب الى أبعد من هذا . . ان معظم الذين اضطهروكم كانوا يضطهدوننا نحن أيضا ، مثل القرس واليونان والرومان . . غير أن المسألة اختلفت بعد ذلك يا عزيزى . . تغير موقفكم للأسف .

قال الاسرائيلي : كيف ؟

— فبعد أن كنتم الضحايا والمكافحين ضد العذاب والاضطهاد والألم ، أصبحتم أنتم الذين تعذبون غيركم . أصبحتم الفرعون الاسرائيلي الجديد أو هتلر الاسرائيلي الحديث الذى يخرج الناس عنوة من أرضهم وتشردونهم . . أصبحتم مثلما تقول أغنية مشهورة عندنا « مين عذبك . . بتخلصه منى » قالها أولا بالعربية ، ثم ترجمها له بالانجليزية . تثبتون ذواتكم الضائعة بقدرتكم على تعذيب غيركم

قال ايليا بغضب وحزن : لا يارببيع ٠٠ ليست المسألة هكذا ٠٠  
— بل هل هى هكذا يا ايليا ٠٠ انت نفسك خير مثال لهذا  
التناقض ٠

— أنا ٠٠ كيف ؟

— المفروض فى عالم الانثروبولوجى أن ينظر الى الأمور ٠٠  
ولم يكمل ٠٠ فقد عادت الانفجارات والارتجاجات مرة اخرى .  
ووجد كلاهما نفسه يمد يده الى الآخر متشبثا بها كحماية ٠ ولأنهما  
لم يسدا آذانهما هذه المرة ، بل تداخلا فى جسدى بعضيهما وانبطحا  
على الأرض ٠ فقد كان الدوى مضاعفا ورهيبا ٠٠ الهول يعود ٠٠

وصاح الاسرائيلى ٠٠ نائحا : أين الأمان ٠٠ فرعون عندكم  
متلر عندكم ٠٠

قال الصرى :

— بل عندكم ٠

ومع تتابع الدوى قال الاسرائيلى :

— عندكم ٠٠ وعندنا ٠٠ هامو الموت فوقنا نحن الاثنين ٠٠  
نحن وأنتم نقتل ٠ نحن وأنتم نقتل ٠٠ بطائراتنا وطائراتكم نقتل ٠

ومع ارتفاع الدوى وتتابع الانفجارات ، كان ربيع يمتلىء  
احساسا بالكراهية لهذه الأصوات ، سواء كانت هذه القنبلة اسرائيلية  
أو مصرية فهو الآن يكرهها ٠٠ يكره أن يدق هذا الحصن الاسرائيلى  
الذى يتواجد فيه بقنابل أو صواريخ مصرية ٠٠ الحرب عمياء ٠٠  
والموت لا جنسية له ٠٠ وحردى كل مذهبا ألا يفقد عقله ، وامتصهما  
دوى الانفجارات التى راحت تفل وتتباعد ٠ ثم انقطعت تماما ٠٠

انتهت هجمة الطيران وساد السكون .. سكون استنما له ، وتمنيا  
لو ظل العالم هكذا ساكنا وصامتا للأبد ، وبدا لهما أن كل ما قيل  
بينهما كان حلما من الأحلام .. أم ستبدا الأحلام ؟

— هل تسمعنى يا ايليا ؟

— أسمعك يارببع .

— كانوا يخيفوننا من القبر . لماذا ؟ القبر خلاء فسيح واسع .  
كانوا يخيفوننا من الموت .. الموت طيران عذب .. وتحليق فوق  
مكان الأحبة .. الأحبة من الناس ومن الأماكن والمباني والشوارع  
والأشجار .. الموت يدخلك فى عالم الذكريات .. هل تعرف أين أنا  
الآن يا ايليا .. أنا الآن فوق بلدنا .. أرفرف فوق وابور الطحين ..  
أبى يعمل مديرا لوابور طحين صغير .. فى سنورس .. ما أجمل  
منظر الصبايا والنساء .. وهن حاملات للقمح .. آه ومنظر الدقيق  
وهو يخرج مندفعا من فوهة الماسورة .. ونور تغرف لى من الشلال  
الأبيض بكفيها وتسقينى . أشرب من كفيك يانور .. مثلما شربت  
من عينيك أول يوم رأيته فيه أمام الوابور .. لكنى لم أرتو منك أبدا  
يانور ، ورأى نفسه يدخل بيت العائلة الصغير القديم ، وأمه الريفية  
بجلبائها وطرحتها السوداوين تملا له من الزير كوزا من الماء البارد  
ويشرب ويشرب حتى اذا ما انتعش وانتفش خرج الى حوارى قريته  
ورأى البشر والبهائم والباعة والذباب .. ثم برزت له نور فاخبتا  
بها بعيدا عن العيون وانهاه عليها تقبيل . واذا تركته خائفة من العيون  
ومن كلام الناس ، امتلا بالضيق وطار الى القاهرة ودخل بيتا فى  
زقاق ، مع احدى نساء الليل « مع أنى أكره الحرام .. لكنها هى  
المسئولة . نور هى المسئولة . كانت تطلب تأجيل ذلك الى ما بعد  
الزواج .. قل لى يا ايليا .. هل مارست الجنس مع زوجتك قبل  
أن تتزوجها ؟ »

ولم يأت به جواب ، فقد كان زميله الاسرائيلي فى رحلة طيران  
مماثلة ٠٠ ورأى نفسه طائرا بجناحين فوق فناء المدرسة ٠ وطلبت  
وطالباته واقفين تحت ، يتطلعون اليه ويلوحون له بانذرهم ٠٠  
مهللين ٠٠ معجبين ٠٠ صائحين عليه ٠٠

— ستعود ٠٠ ستعود ٠٠ العودة شعار حياتنا ٠

وقال لهم وهو يلوح بأحد جناحيه : ليس الآن ٠٠ ابنوا انتم  
وطنكم ٠ اما انا ، فهائم ٠ حركتى دخلت فى الفلك الأوسع ٠ الطيران  
عبر أرجاء الكون ٠ النظر من أعلى ٠ ما أروعه ٠٠ ما أوسع  
المنظر ٠٠ أن تكون أبناء العالم ( ثم بلهجة تحذير ) وليس أبناء  
الجيتو ٠ أجل يا أبنائى ٠ اسرائيل يحب أن تظهروا كيانها من  
جرثومة الجيتو ٠٠ هى مقتلنا ٠٠ تعلموا الانطلاق الى العالم بمحض  
رضاكم واختياركم ٠ اقتلوا فى نفسكم الخوف من الشتات ، فالعالم  
لو : ايتموه من فوق ، ستجدونه كله جيتو صغير ٠

وأخذته نشوة الامتزاج بالكون ، تلك النشوة التى لم يحس  
بها من قبل أبدا طيلة حياته ، ورأى نفسه طائرا يرفرف من جديد ،  
وعبر البحر الأبيض ٠ ومر على جزر اثينا ، فلوح بيده محبيا :  
تحياتى يا أرض هوميروس وأرسطو ٠٠ يا أرض الفلسفة الأولى ٠  
وحين خلق فوق سهول يوغوسلافيا فكر ضاحكا : من كان يتصور ،  
أن الشيوعية ستدخل بلدا كان يحكمها الخليفة العثمانى ؟! وما أن  
لاحت له سلسلة جبال « زاكوبانا » على مشارف بولندة من الجنوب  
حتى صاح فدوى صوته فى الفضاء : بالحضن يا وطنى الأول ٠٠  
يا أرض مولدى ٠ منذ متى لم أرك ٠ ورقص قلبه لمنظر القلاع  
والمباني بطرز القرون الوسطى الى العصر الحديث ٠٠ آه ٠٠ ها  
انت اخيرا « وارسو » يا مدينة طفولتى ٠٠ بأسقف بيوتك القرميدية  
الحمراء ، وحدائقك الزاهية الواسعة ٠٠ آه ٠٠ وما انت باذهر

الفستولا » • ورأى خط النهر الذى يشق المدينة يلمع « يأنهر  
الفستولا » • وتعجب كيف أنه طوال الست سنوات التى عاشها من  
طفولته لم يشرب مرة واحدة من هذا النهر ، ولم ير أحدا يشرب  
منه أبدا •• وقال صائحا : ساكسر القاعدة • وسأشرب منه حتى  
أرتوى • لكنه ما أن أوشك على الهبوط حتى رأى مدافع رشاشة  
تصوب عليه •• ورأى جنود الرايخ بخوذاتهم وصلبانهم المعقوفة  
وأحذيتهم الثقيلة يكتسحون الشوارع والبيوت • وأبوه وأمه يأخذانه  
من يده ويهرعون وسط أمواج الرعب الى الحدود • « وكان بدء  
الشتات • فهل يعد الشتات مرة أخرى ؟

ورأى طلبته واقفين لايزالوا فى انتظار عودته •• يلوحون  
مرحبين « قلنا أنك ستعود • لم يحن بعد أوان الخروج من الجيتو ،  
الجيتو هو عاصمتنا • وطنك فى انتظارك • يجب أن تعود •• العودة  
شعار حياتنا » •• آه •• كم اشتاق أن أعود •• وأراك ياسارة ••  
من يحملنى من هنا ويضعنى فى حضنك •• حضنك هو وطنى الأول  
والأخير ياسارة •• الحنان هو وطن الانسان • أنا أيضا معى صدق  
يحن الى حضن حبيبته • أريد أن أعرفك عليه •• انه مصرى ••  
متقف •• تخصص كيميا أراضى •• دعينى أقول لك سرا • اننى لا  
أريده أن يموت •• أريده أن يعيش ليحمر سيناء •• أليس كذلك  
ياربيع •• ستعيش لتعمر سيناء •• لماذا لا تكلمنى •• هل أنت طائر  
مثلئى ؟! أياك أن تموت وتتركنى وحدى •

قال المصرى : هل تشعر بالوحدة ؟ من قال أن الموت وحدة ••  
بل من قال أن الموت موت •• لا تكلمنى لبعض الوقت •• لا تقطع  
على ••

وفوجئ الاثنان بحركة بالقرب منهما فانتفضا لها انتفاضة



أخرجتهما من البئر .. انتفاضة فرح ممتزجة بالفزع .. قال  
الاسرائيلي :

— هل تسمع ؟ يخيل لى أنى أسمع صوتا ..

— نعم .. بالتأكيد هنا انسان .. شخص ما ..

وركزا كل وجودهما فى سمعهما .. تنهى اليهما صوت أنات .  
وأدرك الاثنان على الفور انه جريح وللحظة خاطفة أحسا بالفرح  
فقديكون أقل الما ، وقد يكون معه ماء ، أو ثمة نجم يهدى للحياة ..  
غير أن فكرة مرعبة سيطرت على الاثنين فى وقت واحد . وقال  
الاسرائيلي فى نفسه : قد يكون مصريا .. عدوا .. ويقتلنى انتقاما  
.. وقال المصرى فى نفسه : قد يكون اسرائيليا .. ويمزقنى حين  
يجدنى فى حصنه . وأنا أعزل .

قال للاسرائيلي .. هامسا متحفزا : انه عدو لواحد منا ..  
بالتأكيد ..

قال الاسرائيلي : وهو صديق للأخر ، بالتأكيد .. واذن ؟

— واذن ماذا ؟

قال الاسرائيلي : نحن اللذان نرجع الكفة . اثنان ضد واحد .  
أنت وأنا ضده .. هذا لى اختار مرقف العدوان . أما اذا اختار  
السلام فنصبح ثلاثة معا .. ماذا قلت ؟

ورغم أن المصرى وافق على الثور فى سره على المعاهدة  
المطروحة ، الا أنه لم يعلن موافقته . فماذا لو وجد نفسه بنتبك  
مع زميل له مصرى دفاعا عن اسرائيلى . واحد من جنود أعدائه  
أى مأساة وإى عار .. غير أنه قال فى نفسه : وقد يكون هذا القادم  
اسرائيليا . فهل أحسب أن ايليا سيقف ضده دفاعا عن حياتى ؟  
ودق قلبه به .. يا ..

- هل أنت صادق فى كلامك يا ايليا ؟
- ربيع • لماذا لا تثق فى •• يجب أن تثق فى •
- انت تطلب المستحيل با ايليا •• المستحيل الصعب •
- المستحيل الممكن ياربيع •• أن نعيش ، أنا وانت ، لو تعاهدنا ••
- قال المصرى محذرا : لو صدق كلانا فى عهده •
- أكد الاسرائيلى : لو صدق كلانا فى عهده •
- كان الاثنان يتناهى اليهما بين الحين والآخر • اثينا انسانيا لا يثنى بلغة صاحبه أو جنسيته •
- همس المصرى : سأذهب وأرى •
- همس الاسرائيلى : سأأتى معك ••
- بل ابق هنا •• واحد يكفى •• خذ هذا الركن المعتم ••
- سأزحف بحيث لا يسمعنى •
- وأنا أيضا أجيد الزحف •• لا تخف •• لن أحدث أى صوت •• يجب أن نكون معا ••
- وما كادا يبدأ ان الزحف ، حتى رايا باب المطبخ مسدودا بهيكل انساني ضخم ، عارى الرأس • وكان يتمايل ، ويترنج •
- وصاح فيه المصرى مباغتة : من أنت ؟ قل كلمة سر الليل •
- وجاءه على الفور الجواب كزغاريد من الجنة •
- اذن فأنت مصرى •• بالحضن يا صديقى ••

ونهبض من انبطاحته فاردا ذراعيه المتهافتين ، واندفع كلاهما  
فى حضن الآخر وراح يغمره بالقبلات •

قال الوافد الجديد •• متألما : حاسب على • اننى ملئء بالجراح  
وانزف •

أخلى ربيع يديه وقال :

— سلامتك •• اننى أيضا •• أموت من العطش •• اليس معك  
قطرة ماء ؟ قطرة واحدة أبل بها ريقى ••

— معى • زمزميتى فيها ماء •

فرحة غامرة اكتسحته : الحقنى أرجوك • الحقنى بها •

— ماهى الزمزية • حول وسطى • خذها واشرب ••

وجاهد ربيع كى يتحكم فى أعصابه وهو بخلع الزمزية ثم  
ينظر اليها بوله وعدم تصديق •• يؤكد لنفسه أنه لا يحلم • ورفعها  
بيديه المرتعشتين الى فمه •

وقال له الوافد : اقتصد فى الشرب • ليس لدى غيرها •

قال المصرى وقد أحس بكل ذرة فى جسمه تنتفض مطسالية  
بالحياة : لا تخف • لن أشرب • سأمصص • الماء لا يشرب • ولكننا  
يستطعم • ووضع فمه حول فوهة الزمزية • وأمال رأسه الى  
الخلف ، وراح يشرب قطرة قطرة • ومع كل قطرة كان يحس بدفقة  
حياة ضوئية تنتشر فى أرجاء جسمه ووعيه •• ما أجمل ما يخلقه  
الله لنا فى هذه الحياة من نعم • الماء •• ال ماء ••

وانتفض على صوت يقول بالانجليزية •• نائحا مستغيثا :

— وأنا أيضا عطشان •• لا تنسنى •• ياربىع ••

كان ايليا الاسرائيلي ٠٠

ورد عليه بالانجليزية : لا ٠ لن انساك بالطبع ٠

هنا دوت في أرجاء الحصن صرخة غضب رهيبه ٠٠ فما كاد  
الوافد المصري يكتشف وجوده ، حتى أخذته المفاجأة للحظة وشبّق

ـ اسرائيلى ؟!

ثم انطلقت منه صرخة حقد هائلة : لا ٠٠ لن يشرب ٠٠  
وسأقتله ٠

وكالوحش بجسمه العملاق اندفع مترنحا على الاسرائيلي ٠

ـ انا الذى سأشرب من دمه ٠

## - ٤ -

• ووجد ربيع نفسه يقفز ويعترض طريقه : لا • لا تقتله •

نظر اليه الواقد مستنكرا : تمنعني من قتل يهودى ١٩

قال ربيع متوسلا : افهمنى أرجوك • انه الآن ليس يهوديا •  
هو الآن •• انسان ، يموت من العطش •

•• زمجر

- لا أعطى الماء لعدوى ، ليقتلنى بعد ذلك •

- لن يقتلك ••

وصرخ الواقد : بل سيقتلنى • انهم مجرمون • قتلوا الدسوقي  
والدويرى ورافقت وموريس وحودة الاسكندرانى • ساشرب من دمه ،  
ومن دمك انت ايضا لو منعتنى • ياخيخة !

قال ربيع دافعا عن نفسه الالهانة : انا لست خيخة •

– دن فانت خائن ٠٠ أو جاسوس ٠٠ تعمل لحسابهم ٠٠  
ابتعد عن طريقى ٠

وبقوة الغضب الأعمى اندفع بكل جسمه على الاسرائيلى ٠  
غير أن ربيع انحنى بسرعة واحتواه بذراعيه من أسفل ليعرقل  
حركته ٠ وفوجيء به يقاوه صارخا من الألم وتتراخى حركته ، فأخلى  
عنه ذراعيه ٠٠ ووجده يترنح من تلقاء ذاته ، معانیا ألما شديدا

– تمنعنى من الانتقام ٠

– أفهمنى أرجوك يا ٠٠ دعنا نتعارف ٠٠

قال الوافد نائحا بحزن ٠٠

– حتى الانتقام ٠٠ لم أعد قادرا عليه ٠٠ أنه النزيف ٠ من  
أول الليل وأنا أنزف ٠٠

قال ربيع :

– أين النزيف ؟ قل لى ٠٠

– فى كل مكان من جسمى ٠ ومن عقلى ٠ انها النهاية هذه  
المرّة ٠

واستند بجسمه على زميله المصرى الذى أحاطه بذراعيه ،  
لكنه أحس بزمزية الماء تعوق من حركة يده ٠

خذ منى الزمزية يا ايليا كى أعرف أسنده ٠

واختطفها ايليا كالمجنون وفى لحظة كان يضعها على فمه  
ويشرب ٠ أخذ جرعة واحدة وتوقف يحس بطعم الماء وبالحيّة تدب  
فى عروقه ٠ وكان انهيار « الواخد » المفاجيء قد ملأه بالارتياح  
وبالأمان ٠ وجاء يشرب جرعة أخرى لكنه توقف على صوت ربيع ٠٠

– لا تنس نفسك مع الماء وتعال ساعدنى .. نمديه \*

كانت لهجة ربيع الآمرة قد نيهته للموقف ، فقاوم نداء معدته  
لجرعة أخرى من الماء ، أسرع يسد فوهة الزمزية بإحكام ، ثم  
وضعها على الأرض وأسرع يعاون زميله ليرقدانه برفق .. هذا  
الذى كان يبدو منذ لحظة وحشا هائجا ، ثم فى غمضة عين أنهار  
وتهالك \*

وقال الاسرائيلى وهو يتأمل الكيان الممدد الهامد الا من أنفاس  
تروح وتجىء بصعوبة \*

– كان يريد منعى من الشرب خوفا من أن أقتله .. ها انذا  
قد شربت ياعزيزى ، ورغم هذا لم أقتلك .. برغم أنى أستطيع الآن  
أن أقتلك ..

صرخ ربيع فى وجهه غاضبا .. متحديا :

– لا .. لا تستطيع أن تقتله .. هل سمعت ؟!

فوجيء الاسرائيلى برد الفعل هذا ، قال مقسرا : أنت لم تفهم  
قصدى يارببيع .. انا أريده أن يفهم ، رغم أننى أستطيع أن أقتله ،  
قائلى لن ..

وتوقفت كلماته على يد ربيع وهى تمسكه من صدره وتهز فيه  
بغضب : قلت لك لا تستطيع .. لا تستطيع .. كلماتك هذه أمتنع  
عنها .. عيب .. أن تشعر انسانا عاجزا بالمذلة .. أهذا بدلا من أن  
تقول له كلمة تشجيع .. كلمة حب .. انه هو الذى أنقذنا بالماء ،  
وعلينا أن ننقذه .. فلنك سترته ونتحسس جسمه ، علنا نعرف ما  
فيه ..

وراح الاثنان يفكان أزرار السترة الخارجية ، وفوجئا برقعة  
دم كبيرة \*

صاح ربيع : هاهى الاصابة •

اكمل ايليا : بجوار القلب • انه نزيف داخلى •• ويحتاج  
عملية سريعة •

كان ربيع قد وضع كفه فوق الجرح ، كأنما يريد ان يسده ،  
ورفع يده ليرى كمية الدماء التى علقّت بها ، فبر انه فوجىء بالجريح  
يقول بصوت غائب :

— ابقى يدك •• على صدرى •

نأعاد يده مسرعا فوق الجرح • • بحنان •• يربت عليه •

— اننى افديك بدمى يا صديقى • احتمال لرجوك فقد تنقشع  
الغمة سرىعا •• من يدرى • ونحن انتصرنا يا صديقى •• عبرنا  
القنال •• انت عبرت القنال ، ولكن قل لى •• من انت •• ما اسمك  
وما هى كتيبته التى عبرت معها ؟ لا •• لاداعى لأن تقول شيئا عن  
الكتيبة فهذا سر •• يكفى اسمك •• قل لى ما اسمك ومن اى بلد  
انت ؟

— نقطة ماء •• بلل •• زورى •• بنقطة ماء ••

وسال ايليا : ماذا يقول ياربى ؟

— سألته عن اسمه فقال عطشان •• يريد ماء •• هات  
الزمزية !

وفكر ايليا وهو يلتقط الزمزية من على الأرض : « لم يعد

بها غير شربتين ، وقد يجهز عليهما ، ونعود الى ضياع  
العطش » ومع هذا ، فقد وجد نفسه يفتح الزمزية وراح يحذر بالغ  
يميل بفوهتها على شفثيه •



وحذرته ربيع : قطرة قطرة يا ايليا .

- لا تخف . فانت وانا مازلنا عطاشين . . لكنه الآن اولى .  
وهو قبل كل شيء ماء . اشرب يا عزيزي . افتح فمك . .

قال ربيع : انه لا يفهم الانجليزية . . ( وخاطب زميله المصرى )  
ها هو الماء على شفتيك ، افتحهما . هات يا ايليا . ساسقيه انا .  
خذ هذه القطرة يا صديقي ، او الجرعة ان كنت تريد . كل ما تبقى  
من الماء لك . ( ثم فى سره ) رغم أن الباقي قليل ، وانا فى حاجة  
اليه .

بجهد متهافت ، راح الجريح يلحق قطرات الماء بلسانه ، من  
على شفتيه . كانت أنفاسه تروح وتجيء ببطء . واستطاع أن  
يحرك احدى يديه وقال : كفاية . لا أريد أكثر من ذلك . احتفظا  
بالباقى لكما . . انتما اولى بالماء . . اما انا . . فاموت .  
اهتز المصرى بكلماته ، ونبرته المفاجئة .

- لا . . بل اشرب يا صديقي المصرى الكريم . المصريون  
قوم كرماء . . يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . اسمعت  
يا ايليا ، يقول لك احتفظ بالماء . . انت وانا اولى منه بالماء . .  
يجب أن ننقذه . كيف ننقذه . لم يعد قادرا حتى على الشرب . .  
قل لى يا صديقي ما اسمك أرجوك . . انا اسمى ربيع يوسف  
عبد الحكيم هلال ، سنورس . فيوم . . وانت ما اسمك ؟

- انا . . انا عبرت . . ورائت على شفتيه المبللتين بالماء  
ابتسامه .

اهتز ربيع : طبعاً يا صديقي أنت عبرت . عبرت القنال ،  
واجتزت خط بارليف . نحن حططنا الأسطورة . أنت حطمتها .

— قل له ذلك • ( واتجه بنظراته الذاهية الى الاسرائيلى )

• واستدار ربيع الى ايليا : يقول لك انه حطم اسطورة بارليف •

— انا اعترف •• قل له انى اعترف ببطولته •

— يقول لك انك بطل •• واننا نحن الذين بنينا الاهرام ••

— اذهب وقل لها ••

— من هى ؟

— اذهب الى البلد وقل لهم هذا •

— اى بلد • قل لى بريك • قل لى بسرعة •

— دعنى اذهب اليها • عن ادنك •

وعاودته الابتسامة • ثم سكن جفناه •• وشفتاه •• وتجمعت

الابتسامة • والنظرة ••

شهق ربيع شهقة فجعية : لقد مات ••

وجاوب ايليا شهقته • عاد ربيع يصرخ وقد وجه صرخاته الى

ايليا : انتم الذين قتلتموه •• انتم قتلتموه •• قتلتموه ••

اطرق ايليا فى خجل •• كان حزينا وخجولا بالفعل • فان لم

يكن هو شخصيا القاتل ، فان القتل بالتاكيد من بنى وطنه • هم

الذين اصابوا هذا الرجل • « انا لا اعرف ماذا اقول لك يارببيع انا

حقيقى احس بالذنب • رغم انى لم امسه بسوء •• لكنها الحرب

الحرب التى كنت اكرهها ، لكنى بخلتها • كان لايد ان ••

قال ربيع مقاطعا فى حزن غائر : تريد ان تبرر الجريمة •

قال ايليا غاضباً : ان كنت تعثرتي مجرماً ، فأنت مجرم  
بالمثل .

رمقه ربيع بنظرة حادة : هل سنعهدها محكمة ، وبين أيدينا  
رجل ميت . هيا ندفنه ، ثم نتناقش بعد ذلك !

ارتج الاسرائيلي لكلمة الدفن . وتراءت له مع وخشة المكان  
صور ائشعر لها جسده . وغمغم : ندفنه ؟

طبعاً اكرام الميت دفنه وقد كان كريماً معنا .

ـ أجل يجب أن ندفنه . هل تسمح بقطرة ماء ابل بها ريقى ؟

ـ خذها ( ومد له الزمزية ) . أنا احتاج أيضاً الى قطرة .  
والباقي قليل .

قال له الاسرائيلي : اشرب أنت أولاً .

ـ لا . بل اشرب أنت أولاً .

ـ لا . أنت أولاً .

ـ بل أنت أولاً . أقسمت .

وتناول ايليا منه الزمزية ، وغى حذر تلقى جزءاً صغيراً من  
سرسوب ماء وأبقى عليه فى فمه ، يريد أن يستبقه أطول وقت  
قبل أن يبلعه ، وأعاد الزمزية الى ربيع الذى أمسكها بين كفيه وراح  
يتلقى الماء على لسانه . قطرة قطرة . كان كلاهما يستطعم الماء  
بعمق ويتسع ديب الحياة وهى تنتشر وتشتع كالسحر فى العروق  
وفى الشرايين .

وقال المصرى : سأصلى عليه أولاً . المسلمون يصلون على  
موتاهم قبل أن يودعونهم . عن اذنك .

ـ تفضل .

قالها الاسرائيلى وقد احس أن المصرى المسلم يستبعده تلقائيا من الصلاة ، وللمحظة استراح لهذا الموقف ، الا صلى - هو اليهودى - على المسلم • فضلا عن أن له موقفه الفكرى الخاص من الصلاة •• ( وتأمل الموضوع ) لم يحدث هذا فى التاريخ ، أن صلى يهودى على مسلم ، أو مسلم صلى على يهودى •• لم يحدث أبدا •• ولكن ( وبرقت فى ذهنه فكرة ) ما الذى جعل ربيع يعتقد أن هذا الرجل الميت مسلم ؟ اننا لم نعرف حتى اسمه • اليس من الجائز أن يكون مسيحيا ؟

وقال مغامرا بالسؤال : ربيع : هل أنت متأكد من أنه مسلم ؟

توقف ربيع عن البدء فى الصلاة ، مصدوما بالسؤال • أجل كيف لم تخطر بباله هذه الفكرة • لماذا يعتقد كل واحد منا أن العالم على دينه ؟

- نقلب فى جيوبه ، فقد نجد ما نتعرف به على شخصيته ••
- وراحا يقلبان فى جيوبه • وصاح الاسرائيلى : ها قد وجدت شيئا فى جيب جاكته الداخلى • ورقة سميكة •
- ارنيها • فأنت لا تعرف العربية •
- انها صورة فوتوغرافية •

ومضى الاثنان ينظران فى الصورة • وجه امرأة شابة •• شعرها اسود طويل ومموج ومستلق على كتفيها ، وضالعتها بعينين واسعتين بشكل ملفت للنظر ، كأنما تبحث بهما فى كل الدنيا عن هذا الرجل الذى راح منها ومات فى الصحراء ••

قال ربيع : اتن هذه هى التى كان يريدنى أن اذهب اليها لأقول لها أنه عبر ( وتنهذ ) فلنقلب الصورة • قد يكون مكتوبا خلفها شيء نتعرف به عليه وما أن قلبها حتى صاح •• منتصرا :

— اسمه يوسف ٠٠ دعنى اقرا اهداءها اليه ٠

وراح يقرأ الاهداء مترجما بالانجليزية : اليك يا يوسف ٠٠  
بروحى وجسمى معك ٠ يا حبيب العمر ٠٠ والذي ما بعده عمر ٠٠  
حبيبتك الى الأبد « رجاء » ٠

وحزت الكلمات فى نفسيهما : تراءت لكل منهما حبيته ٠٠  
تتشابه كلمات المحبين فى كل بلاد العالم ، مهما اختلفت أديانهم  
وتتشابه أيضا سعاداتهم وأحزانهم ٠٠ وموتهم أحيانا أيضا ٠

وتذكر المصرى بداية الموقف فقال بحماس : أرايت ٠ اسمه  
يوسف ٠٠ يعنى مسلم ٠ ( وهتف ) اسمه على اسم أبى ٠

قال الاسرائيلى بهدوء : لا ٠٠ ليس شرطاً ٠٠ ليس بالضرورة ٠  
فيوسف يمكن ان يكون مسلماً ، وقد يكون مسيحياً ٠٠ وقد يكون  
أيضاً يهودياً ٠٠ بل ان هذا هو أصل الأصول فى اسم يوسف ٠٠  
القرآن عندكم يؤكد هذا ؟

— تقصد سيدنا يوسف ؟

— بالضبط ٠ هو أول السلسال فى هذا الاسم ٠

قال المصرى المسلم بشيء من الضيق حاول أن يخفيه ٠ فلنبحث  
عن أوراق أخرى ، فقد تتضح لنا هويته أكثر ٠

غير أن بحثهما راح عبثاً ، وبقيت الصورة بالوجه الجميل ،  
بالشعر المموج المستلقى على الكتفين ، بكلمات الاهداء الآسدة هى  
الضوء الوحيد على شخصية الميت ٠ قال ربيع ، بلهجة قاطعة :

— احساسى انه مسلم وسأصلى عليه ( وبعد لحظة ) ثم  
افترض انه مسيحى ، أو حتى يهودى ، هل حرام أن يصلى الإنسان

على واحد ميت . ويطلب له الرحمة . الكل فى هذه الأيام مطلوب لهم الرحمة .

هن ايليا رأسه بحزن ومرارة : أجل . مطلوب لنا الرحمة جميعا الرحمة من هذا العذاب الذى نحن فيه ، يهود ومسيحيون ومسلمون هذه الصحراء يجب أن تكف عن أن تكون مقبرة لنا . . الجيل بعد الجيل . أربعة حروب رهيبة . . فى أقل من ثلاثين عاما . . كم يحتوى بطن هذه الصحراء من هياكل وجماجم مسيحية ويهودية ومسلمة .

قال ربيع مشيرا على رأس الجسد المسجى : وهذه جمجمة جديدة تضاف اليهم . جمجمة رجل اسمه يوسف .

قال الاسرائيلى : فلنصلى عليه .

فوجيء ربيع بكلماته . هل يشترك ، هو المسلم ، مع يهودى فى صلاة ؟ ماذا لو رآه أحد من أهل قريته وأشاع الخبر : كان ربيع يصلى مع يهودى اسرائيلى . جن . أفقدته الحرب عقله ( وفكر فى نفسه متنهدا ) انهم لا يعرفون .

وأحس ايليا بترده للحظة فقال :

— ألا تريدنى أن أصلى معك ؟ أنا لا أفرض عليك شيئا  
ياربيع .

قال ربيع مسرعا :

— لا . لا . ولكن . . هذه مشكلة . أنا مسلم ولّى صلاتى .  
وأنت يهودى ولك صلاتك . فكيف نشترك فى صلاة واحدة ؟

قال ايليا . فليصل كل منا صلاته . أنا شخصا لى صلاتى الخاصة . غير تلك الصلاة التى يصلها الآخرون

— ماذا تعنى ؟

— هذا موضوع كبير يا ربيع • ولا اظنك تريد ارجاء صلاتك للدخول فى نقاش حول العقائد والأديان • فضلا عن انه ليس لدينا القوة للكلام •

تنهد ربيع •• كان بالفعل عازفا عن أى نقاش •

— عن اذنك •• سأبدأ صلاتى •

وقضى به ايليا ينحنى على الأرض ويلمس الرمل بكفيه ثم يمر بهما على وجهه ثلاث مرات • كان ربيع يتيمم بديلا عن الوضوء بالماء • ثم رفع يديه مكبرا وانخرط فى صلاته • ومضى ايليا يرقيه • واستثارتة جدا لحظات الركوع والسجود • وفكر مستعيذا دراساته الأنتروبولوجية : « هذه بقايا طقوس العبادات الوثنية القديمة • الصلاة احتياج انسانى ، وليست احتياج الهى • ( وتنهد ) ولهذا أنا لا أرفضها : أنا أيضا فى حاجة الى الصلاة • صلاة لا أهمس فيها أو ارتل ، بل أصرخ فى وجه تلك القوة المهيمنة : انقذينا •• انقذينا من هذا البؤس الذى نحن فيه •

وأغمض عينيه ثم فتحهما على الجثة وقال متمتما بخشوع :  
سلاما أيها الميت • يامن جئت الى الدنيا بلا ارادة ، وخرجت منها أيضا بلا ارادة • كلنا مثلك • فى البداية والنهاية • كم يتعذب الانسان على هذه الأرض • منذ أخرج من الجنة عقابا على أنه أكل من شجرة المعرفة • هل نحن جسر للانسانية السعيدة ؟ وكيف تكون سعادة تلك التى تخرج من رحم العذاب •• أيتها الحيلة •• أيها الاله •• كفانا من الآلام ومن الرعب •• ومضى فى تغماته ، مقيما صلاته الخاصة • وهكذا استغرق الاثنان •• كل فى صلاته • ورأى كل منهما • نفسه ممددا مكان الميت وقد لا يجد من يصلى عليه • وسرت فى جسديهما قشعريرة ، ورغبة فى انتهاء الصلاة

بسرعة ٠ فقد بدا لكل منهما أنه يصلى على نفسه ويطلب لها الرحمة  
أكثر ما يطلبها للميت ومسح المصرى على وجهه بكفيه ٠٠ خاتما  
صلاته :

— فلندفنه ٠٠

— أين ندفنه ؟

— فى الخندق الأمامى ٠

— فكرة سليمة ٠ ( ثم كأنما لنفسه ) ونضع عليه شاهدا ٠ ليدل  
عليه ( وأحس بقشعريرة وبأنفاسه تتدافع ) ولكن ياربيع ، هل  
تعتقد أن لدينا القدرة على حمله أو جره الى الخارج ودفنه ؟ أنا  
أرى تأجيل هذه العملية بعض الوقت ٠

لقيت الفكرة هوى فى نفس ربيع ، فقد كان هو الآخر يحس  
بتهافته ، قال مؤيدا : وماذا نفعل فى هذا الوقت ؟

— نبحث عن الحجرة الرئيسية ٠ لقد أعطينا شربة الماء بعض  
القوة عن الحركة ٠ فلنستغلها قبل أن تتبدد ٠ آه لو نجدها ياربيع  
٠٠ سنجد فيها كل شيء ! فيها منضدة الطعام ٠

تحرك الأمل فى نفس ربيع : أنا معك ٠ فى أى اتجاه نتحرك ؟

واستدار الاسرائيلى مشـيرا بذراعه : فى هذا الاتجاه ٠٠  
سرادب صغير ٠٠ لا يزيد عن ثلاثة أمتار ، ينتهى بالحجرة ٠ بابها  
أوتوماتيكي ٠٠ الزر الى اليمين ٠ تعال ورائى ( ثم نافيا عن نفسه  
وضع الأولوية ) عرض السرداب لا يسع غير شخص واحد ٠

وتبعه ربيع ٠ وبداله إيليا فى صورة دليل ذاهب به الى واحة ،  
بابها يفتح أوتوماتيكيا ٠٠ ثم ٠٠ ثم يقفل أيضا أوتوماتيكيا ( وأجفل )  
رأى نفسه فى مصيدة ٠ « أجل ٠٠ ما الضمان ؟ ومن الجائز أن يكون



فيها مجموعة من الاسرائيليين مخنئين وينتهي الامر بقتلى ، او على الأقل باسرى . قد ينتهى الامر بخدعة ! وملاه ضيق السرداب وظلامه بهذا الشعور . الشعور بالحذر ، ، لقد دخلا مرة أخرى منطقة الظلام . هل يتركه ماضيا فى السرداب ويعود الى منطقة الضوء . فى مدخل الحصن ؟ وتذكر الجنة التى تركاها . لن يعود ليجد نفسه وحيدا مع رجل ميت . وانتبه على صوت ايليا . صائحا بالبشرى :

ـ وجدته . وجدت الباب . أين الزر . هاهو .

وسمع ربيع صوت أزيز . وفى نفس اللحظة واجهه فجأة ضوء ساطع غامر حتى أنه رمش بعينه يود لو يغمضهما . وسمع ايليا يصيح بالعبرية ان كان أحدا من زملائه الاسرائيليين موجودا ، فتحقق آخذا وضع الاستعداد لأن يعود خفية ويهرب ، وهمس فى أذن ايليا :

ـ لو وجدنا اناسا منكم ، فساهمرون أن يلحظ أحد ( ثم مذكرا ) لقد دافعت عنك .

قال ايليا وهو يصيح السمع :

ـ لم يرد أحد ( ثم لنفسه ) ترى ماذا حدث لهم ؟ ( ثم 'ربيع' ) هيا ندخل .

ما أن دخل ايليا من الباب وفى اثره ربيع، حتى رجدا نفسيهما يتسمران للحظة . بل ان ربيع فكر على الفور فى الارتداد والهرب . أما ايليا فقد وجد نفسه يصيح فى فرح . باسطة ذراعيه :

ـ ايزاك . يا صديقى . بالحضن .

كان المنظر بالغ الاثارة : منضدة وسط الحجرة ، مهيئة

بالطعام ، وشاب أسرائيلي يجلس إليها ، ويداه ممدودتان على الطعام  
وينظر إليها ، بلا كلام .

اندفع ايليا عليه :

ـ ايزاك .. لماذا لا ترد على ، هل أنت خائف أن نشاركك  
الطعام ؟

وارتعب ربيع من نظرة عيني هذا الرجل الجالس الى المائدة  
ياكل . هل أغضبه دخوله فانسدت شهيته عن الأكل ، والآن يجمع  
غيظه وحقدته ليهجم عليه ؟ وعادته فكرة الفرار .. يا للتنبؤات  
الرميية التي لا ترمش حتى ! ورأى ايليا ينظر في عيني زميله ،  
ويصيح عليه معاتبا :

ـ لماذا لا تكلمنى يا ايزاك . هل أنت غاضب لأننى ساشارك  
هذه السعادة . اننى أموت من الجوع . وهذا المصرى أيضا . لقد  
أنقذ حياتى .. المصريون فيهم أناس طيبون : كلمنى يا ايزاك .

وامسك به من كتفيه ، غير أنه وجَّه نفسه ينتفض في هلع ،  
وقد رأى ايزاك يوشك على السقوط من جلسته على الأرض بكل  
جسمه ودفعه واحدة ، فأسرع واحتضنه بكل ذراعيه وهو يصيح :  
ـ لا .. مستحيل .. مستحيل .

واتسعت عينا ربيع بالارعب وبالذهول . بينما ايليا يصرخ في  
فجعية :

ـ انه ميت .. ايزاك ميت .. مات وهو ياكل .. وهو جالس  
ياكل .. هذا مرعب . الموت على الطعام .. مرعب .

ومضى يبكى وهو يحتضن زميله الاسرائيلي الميت .

- ٥ -

كان المنظر فوق طاقة ربيع العصبية • إن يرى انسانا يصعقه الموت وهو جالس يأكل طعامه • وأدرك فجأة سر تلك الآلام والأوجاع الهائلة التي كان يحس بها في جسمه رغم أنه لم يصب بجرح واحد • ها هو يرى الصدمة العصبية تفاجأ الانسان وتقتله قتلا • ومسه بكاء ايليا المحرق على زميله • كان متيقنا من أنه يبكي على نفسه أيضا وعلى هزيمة بلده • وفكر في نفسه : لو كل اسرائيل تأتي وترى المنظر ، لكى يعلموا كم تذيبهم الحرب • كم تكلفهم • ( وتذكر يوسف الملقى الآن على الأرض ) « وتكلفنا نحن أيضا • ( غير أنه مز رأسه رافضا التشبيه ) ، فيوسف مات شهيدا • • أما ايزاك • • ،

ورفض أن يتهم الميت • • وضاق بالموقف •

- ايليا • • لنكن عمليين • • فالدموع لن تعيد الموتى •

نظر اليه ايليا من خلال دموعه •

٢- أجل يا إيليا • فلننقله من جلسته الرهيبة هذه ونريحه على هذا السرير • ان هذا أفيد له من البكاء •

ومسح اليا دموعه بأصابعه وعاد ينظر الى زميله الجالس الى مائدة الطعام ميتا • وزفر : آه لو كاميرا أو صورة وتنشر الصورة في كل صحف العالم : هذا هو ما تفعله الحـسـرب • الموت على الطعام !

قال ربيع : لكن بلادكم يا اليا ستأخذ هذه الصورة وتنشرها كنوع من استدرار الدموع • « هذا هو ما يفعله العرب الوحوش بنا » ويبررون لهجة أخرى ، ويعود الموت يا إيليا •• على الطعام •• وعلى الرمال •• ( وأشار في اتجاه جثة المصري ) وقد ننضم نحن الآخران إليهما ، ونصبح أربعة في الصورة ••

٣- لا ياربيع •• يجب أن نعيش •• هيا نحمله الى السرير •• انت من ناحية وأنا من ناحية • الأفضل أن نجذبه أولا بالكـرسـي الى الخلف حتى تسهل الحركة •

قال إيليا : سأجذب أنا الكرسي • أما أنت فأمسكه بيدك حتى لا يسقط •

وأمسك ربيع بالرجل الميت من كتفيه يحميه من السقوط ، ويتأكد أيضا أنه مات بالفعل • هذا الاسرائيلي • مات تماما ولن يهدده • مات تاركا لهما الطعام ، مثلما مات المصري تاركا لهما ماءه •• بالمعادلات الحياة الغربية • معادلات الحياة مع الموت •

وقال الاسرائيلي : نحمله من تحت إبطيه • ذراعاه فوق كتفينا •

كان ثقيلًا • وكافحا ليقطعا به تلك المسافة القصيرة التي تفصل

بين السرير ومنضدة الطعام ، وأرقدها على السرير ، ووقفنا يصليان  
قامتيهما ويلهثان •

قال ربيع : فلنغطه بهذه الملاءة •

قال ايليا ، معترضاً : لا تتعجل يا ربيع • فان الستار الذي  
سيمسك هذه المرة لن يفتح مرة أخرى !

— أى ستار ؟

هز ايليا رأسه بمرارة : كأن ايزاك فنانا •• كان ممثلاً لا  
مسرحياً ياربيع •• ويأما لعب لنا وغنى •• ويأما صفقنا له •

وغلبته دموعه فأجهش فجأة بالبكاء • اهتز ربيع لدموعه ••  
قال مقاوماً البكاء :

— كلنا ممثلون يا ايليا والدنيا هى المسرح • كلنا يلعب دوره  
الطويل أو القصير ويمضى • ( ثم بقوة ) يجب أن نكون واقعيين  
يا ايليا •• نحن فى وضع حرج • ولا ندرى أى مفاجآت أخرى فى  
انتظارنا • لقد مات ولن تعيده ذكرياتك الى الحياة أو المسرح •  
أو اذا كنت تريد أن تتذكر ، فادك لى ذكرياتك معه ونحن نأكل • هاهو  
الطعام أمامنا أصنافاً •• من كان يتصور •• أنا أعرف أنك فقدت  
الرغبة فى الطعام ، أنا أيضاً مثلك •• انه لمعرب أن يموت الانسان  
على الطعام •• لكننا مع هذا لابد أن نأكل وبسرعة • نملاً بطننا ،  
فلا ندرى أى مصير ينتظرنا • أنا شخصياً سابدأ •• ( واتجه الى  
المنضدة ) هيا يا ايليا • فلا ضمان أبدا لاستمرار هذا الوضع • قد  
نفاجأ بمن يخطفه منا ويقتلنا أيضاً !

وحركت الكلمات غريزة حب الحياة فى نفس ايليا • يجب أن  
يسلح نفسه • وفكر : يجب أن أعيش • يجب أن نقلل عدد موتانا  
وعددننا بسيط • اليهود عددهم بسيط •• سأعطيه أنا ياربيع •

وسحب الملاءة من فوق أحد الأسرة واتجه بها نحو الميت ..  
فتبعه ربيع وقال ماذا يديه : سأمسك الملاءة من ناحية لتغطيه جيدا .

وفرداها بين ايديهما ، فبدت بمساحتها الطويلة البيضاء كستار  
نهائى لقصة حياة . وحين استلقت الملاءة فوق جثمان الميت ، أجهش  
ايليا مرة اخرى بالبكاء . فالتصق به ربيع واحتضن أحد كتفيه بحنان  
وقال وشفته تترتشان :

ـ البقية فى حياتك يا ايليا . نحن المصريون نعزى بعضنا فى  
الموت هكذا . حياتك الباقية .

ولم يرد عليه ايليا . كان واقفا امام الجثمان المغطى بخشوع ،  
ويتمتع بكلمات عبرية . وفكر ربيع وهو يرقبه . « اهى كلمات وداع  
.. ام صلاة ؟ انها صلاة الوداع . وقال فى نفسه : « لقد شاركنى  
صلاتى على يوسف ، فهل اشاركه الصلاة على ايزاك ؟ » وتنبه :  
اليس ايزاك هو تبسيط لاسم اسحق .. واسحق مشترك فى الأديان  
الثلاثة ؟ اسحق هو أبو يعقوب أخو اسماعيل .. أبناء ابراهيم  
عليه السلام . فالأصل على الثلاث . اسماعيل واسحق ويعقوب  
( واتجه ببصره الى الخارج ) وعليك أيضا يا يوسف .. المسجى  
على بعد أمتار منا .

ورآه ايليا يرفع كفيه ويصلى بطريقة المسلمين . أحس بالامتنان  
العميق . وود أن يحتضنه ويقبله : هذا مسلم ثورى .. ذلك . لأنه  
متعلم . تخصصه البيولوجيا وعلم الحياة من خلال دراسته للنبات ..  
الايمان المنبثق من خلال عمليات الحياة ( وزفر ) ولكن .. ما الحياة ؟  
ما حياة الانسان .. وما جدوى نظرية التطور ، اذا كانت كل  
مرحلة جديدة لا تقوم الا على انقراض المرحلة السابقة ؟ ما الحكمة ..

ان يأتى السوبرمان فى آخر الزمان ، ولكن على جماجم آلاف  
المراحل والأجيال ؟

وتوجه ببصره الى الجثمان ٠٠ « ها انتذا يا ايزاك تموت ميتة  
لم يشهد لها التاريخ مثيلا . لو انك الآن كنت تمثل هذا الموقف على  
مسرح ، المسرح الذى كان حلم حياتك ، ثم نهضت واقفا من رقدتك  
التمثيلية هذه ، ملأت اذنيك عاصفة رعدية من التصفيق ، ولكنت الآن  
تنحنى للجمهور ، ممتلئا بالبهجة والسعادة . لقد كنت مرحا وتحب  
الغناء ولطالما صققنا لك فى هذا الخندق وأنت تلعب لنا مختلف  
الأدوار التراجيدية والكوميديية ، ولطالما رقصنا أيضا على غنائك ٠٠  
لكنك الآن لا تمثل ٠٠ بل اطبق عليك ملك الموت والصمت ٠٠ نجم  
وليد ، ما تكاد يضىء ويسطع حتى احترق وتناثر ولا أمل فى جمع  
ذراته . لو ان الأمر بيدى لأطلقت معازف العالم فى لحن جنازى  
يرثيك ويرثينا جميعا فيك . فنحن يتامى يا ايزاك . طوال التاريخ  
يتامى ٠٠ لو كانت هناك ضفة أخرى للحياة وقابلت الهنا « يهوا »  
فأشكر له ضياعنا حتى اليوم يا ايزاك . انى أرى نذيرا بضياع جديد  
يلوح لنا . قدر رهيب أن نكون شعبه المختار ولكن للألم والمعذاب ٠٠  
أم أننا نحن اليهود الذين اخترنا الألم والمعذاب أرض ميعاد لنا ؟  
مشكلة نحن أم لعنة ؟

وانقذه من أزمته صوت ربيع الذى انتهى من صلاته يقول بنبرة  
جادة :

— فلنبدأ طعامنا ( وتوجه ببصره الى الطعام الموضوع على  
المائدة ) . فأنا أولا أحس بأنى على وشك السقوط من الجوع ٠٠  
وثانيا ، لأننا يجب أن نستطلع الجو فى الخارج من حولنا . لن  
أشغل نفسى لحظة بالموت والموتى بعد ذلك . هيا يا ايليا . ( وراج

يتجول بعينيه على أصناف الطعام ) وبدأ كأنه يرى  
المائدة لأول مرة « ياله من شيء رائع .. ومذهل ، هذا شيء لا يصدق  
عقل ( وندت عنه ضحكة قصيرة ) يالها من غريبة .. الحياة .. من  
كان يتصور .. بعد ذلك الخراب ، والقحط الشامل ، نجد أمامنا  
وليمة !

— مات وتركها .

— ايليا .. لا تقاب أحزاننا . قل لى بأى صنف نبداً .. انا  
حقيقة حائر ، أود لو أضع كل هذه الأصناف مرة واحدة فى بطنى .  
لكنى خائف على معدتى من الصدمة !

قال ايليا بهدوء : سأبدا بالخبز . أحب أن أبدا بالخبز .

وقطع لقمة من رغيف ، ففعل ربيع مثله ، وراحا يمضغان على  
مهل ، وفى صمت ، مستشعرين الطعم . ما أحسا أبدا فى حياتهما  
بجمال طعم الخبز مثلما يحسان به فى تلك اللحظة . وكانت كمية  
الماء التى شرباها أجرت لعايهما فساعدهما على البلع ، وعبر ربيع  
عن احساسه بروعة طعم الخبز .

قال ايليا :

— نحن نصنع خبزا جيدا ..

وتنبه ربيع كأنما لأول لحظة ، أن الخبز الذى يدخل بطنه الآن  
خبز اسرائيلى ، وأن دبيب الحياة الذى يشتد فى عروقه بفضل  
الطعام المصنوع فى بلاد أعدائه ، ورغم هذا فان طعم الخبز لم يفقد  
ذرة واحدة من حلاوته ، وفكر : « الخبز زاد للجائع حيثما يكون ..  
الخبز لا جنسية له . والقمح هو القمح فى كل بلاد العالم . هل  
يريد أن يشعرنى بالجميل ؟ ان كان يعيد لى الحياة الآن بخبزهم ،  
فقد أعددت له الحياة بمائتنا . قال بحماس :



- والماء المصرى يا ايليا .. ماء عظيم .. اليس كذلك ؟
- آه .. ( قالها ايليا بشروء ) ماء النيل هو الذى انقذنى ،  
اتمنى لو أعيش لأحكي كيف أن ماء النيل هو الذى أنقذنى .
- وأسعدت كلماته ربيع : أنا الآخر لو عشت يا ايليا سأحكي  
لهم هذه المعجزة . ( وضحك ) طعام من اسرائيل يا أولاد هو الذى  
انقذ حياتى . يالها من حكايات ستكون يا ايليا .. لو نعيش .
- كان يأكل وهو يتكلم . وكانت معدته تفتحت وأصابها نوع من  
الهيجان المفاجيء .. فانهال على الطعام . ، مكرونة بالبشمل ، ، فى  
خندق موت .. يا الهى .. و بازلاء خضراء .. بالصلصة ..  
ياربنا .. وبرتقال ذهبي ، فى لون شمس الصبح وهى طالعة فوق  
الحقول .. أين أحمى عقل من الذهاب . يالكم من قوم مترفين  
يا ايليا .. حقا انتم مترفون .
- ورغم أن ايليا كان واقعا تحت تأثير نفس الهيجان المعوى ،  
الا انه قال ، محذرا نفسه قبل أن يحذر زميله :
- فلنأكل على دفعات ، مثلما شربنا على دفعات .
- نعم يا ايليا . ( وبدأ يتباطأ فى الأكل ، وفى الكلام . ثم  
بعد قليل ) لقد بدأت أحسن بالثقل .
- قال ايليا : الثقل فى الجسم .. وفى الرأس .. هل تعرف ماهى  
امنىتى الآن . بعد أن شربت وأكلت ؟ انام ..
- نفس رغبتى يا ايليا ..
- كان الطعام الدسم المفاجيء قد ثقل عليهما بالفعل .. وأحس  
كل منهما بالخدر وبالرغبة فى الاستلقاء . وأغراهما منظر الأسرة  
الثلاثة الفارغة ، وابتعدا بنظراتهما عن الجثمان المغطى . وثقلت

جفونهما ، فنهض كل منهما متجها الى سرير . وأسترخيا : يالروعة  
الراحلة .

وقال ربيع : الآن يا ايليا عرفت لماذا لا يعرف الانسان النجائع  
لذة النوم .

— نم يا ربيع وسأظل أنا مستيقظا . . يجب أن يظل واحد منا  
مستيقظا . .

وتنبه ربيع ، مقاوما سحر الذوم ، فhez رأسه .

— نعم ، واحد منا يجب أن يظل صاحيا . نم أنت أولا  
يا ايليا .

— بل نم أنت أولا . .

— لا . . لا . . أنت أولا .

وتعرت الحقيقة مرة أخرى بلا أى اعلان . . فرغم أن كليهما  
كان يذوب شوقا لأن يخلق عينيه لحظات ويسلم نفسه للغيبوبة ،  
مطمئنا الى أنها غيبوبة نوم ، وليست غيبوبة موت ، الا ان الخوف  
كان يقفز الى وعيه ، فينفض نفسه متنبها : يجب الا يخدع بذلك  
الوفاق المؤقت ، فقد يكون مبالغة فى الدهاء من الآخر ، وأنه انما  
ينومه بهذه المشاركة وهذا الاقتسام فى كل شئ ، ثم فجأة ينقض  
عليه !

وقال المصرى : أنا شخصا لن أنام ( وأشار على الاسرائيلى  
الميت ) غدا سنشبع نوما يا ايليا . . فلنكتف بالرقاد . ( وعاد يhez  
رأسه ) قالها لى صديق ذات يوم ، صديق فنان يكتب ويرسم ، كان  
يحزن جدا لو نام فى أحد الأيام لفترة طويلة . كان يقول : يلصديقى  
. . غدا سننام النومة التى لا تقطع منها ، والحياة للأسف قصيرة ،  
فكيف نضيع على أنفسنا جزءا منها بالنوم . . النوم هو: لصن العمر .

٠٠ أكبر لص للعمر هو النوم، ٠٠ كانت له تعبيرات جميلة ، وكان محبا وشغوقا بالحياة ٠٠ وكان أعزبا ٠٠ وله شقة صغيرة جميلة ٠٠ يزينها بالتحف والأثريات ٠٠ نجلس فيها بالساعات ٠٠ نشرب ونتحدث ٠٠ و ٠٠

وتوقف عن الكلام ٠٠ فقد اكتشف أن ايليا راح على كلماته فى نوم عميق ، فمضى يتأمل بهدوء ٠٠ كانت أنفاسه تروح وتجيء ٠ شهيى عميق وزفير أقوى ٠ كأنما يطرد به من على صدره اطنان التعب، ٠ واستلقت نظره حركة ارتفاع وانخفاض الصدر ، وصوت الشهيى والزفير ٠ وحانت منه لفظة الى الاسرائيلى الميت ، ومضى يقارن بين الاثنين ٠ النائم الميت والنائم الحى ٠ وبدت له معجزة الحياة التى تعمل رغم نوم صاحبها ، هذه الآلة العجيبة التى تعمل بداخلنا ، دون أى دخل لارادتنا أو وعينا ٠ مثلما تعمل الحياة فى النباتات فيتم التمثيل الكلورفيللى دونما أدنى ارادة أو وعى ٠ وأحس بالنوم ليس موتا ، بل أحس بأنفاس ايليا التى كانت ماضية على قدم وساق ، أنها عملية شحن وتجديد للحياة ٠ أجل ٠ لا خطر من النوم، ٠٠ بالعكس ٠٠ الخوف الآن منه ٠٠ من النوم ٠٠ فبعد أن يستيقظ سيكون قد استرد عافيته ، وأنا ٠٠ ازددت تهاافتا وضعفا ٠٠ ويصبح هو المسيطر ٠٠ فلأنم أنا الآخر لأشحن نفسى بقوة مماثلة ٠٠ ( وأغمض عينيهِ ) ٠ غير أنه عاد ففتح عينا ٠٠ نصف فتحة ٠٠ قد يكون نومه وشخيرته تمثيلية ٠٠ وراح يفتح عينيهِ ٠٠ لا ٠٠ هو نائم ، ساقط الى أعماق الغيبوبة ٠٠ ساءرك نفسى للغيبوبة ٠٠ أترك نفسى ٠٠ أنا متعب ٠٠ متعب ٠٠ وأريد ٠٠ أن انام ٠٠

ولكن ٠٠ ما هذا ؟

وانتفض فى جلسته ٠٠ متحفزا ٠٠ ما هذا الصوت ؟ أم هو يحلم ؟ وركز كل وجوده فى سماعه ٠ وتتابع أنفاسه ٠٠ تتأكد له

وجود حركة ٠٠ ليست حركة بل صوتا ، غريبا ، واندفع الى ايليا  
٠٠ وهمس قيه :

– ايليا ٠٠ اصح ٠٠ أذننى أسمع صوتا ٠

انتفض الىا فى فزع وهب جالسا وقد تطاير النوم عنه ٠٠

– ماذا ؟

وعاود ربيع همسه : أسمع صوتا غريبا ٠٠ اسمع معى ٠

وصب ايليا كل كيانه فى سمعه وتحفز اذ سمع صوتا بالفعل  
اقرب الى الخشخشة أو الخرفشة ٠٠ وقال وهو يتحكم فى أنفاسه :

– ليس صوت انسان ٠ قد يكون فارا من فئران الصحراء ٠٠

– أو انسان مستخفى فى حركة فار ا

وقفز الاثنان من على سريريتهما وقد عاودهما الاحساس  
بالخطر ٠ ومضيا ينظران فى تحفز ، فى جميع الاتجاهات ، ويتبعان  
الصوت ، خطوة خطوة ٠

– الكارثة أننا فقدنا أسلحتنا ٠

كان الصوت الغريب لايزال ، رغم خطواتهما المتجولة الحذرة  
ولأن الاسرائيلى هو ابن المكان ، فقد وجد نفسه يقترب من السرير  
الرابع الخالى ثم يصيح وقد وقع على الاكتشاف ٠

– آه ٠٠ راديو ترانزستور ٠

اندفع عليه المصرى : عظيم ٠ أرنى يا ايليا ٠٠ نريد أن نعرف  
ما الذى يحدث فى الدنيا ؟

– لحظة أو سمحت ٠ أسمع اذا عتينا ماذا تقول ؟

وراح يدير مفتاح الراديو بلهفة وشوق ، مقربا الجهاز من  
أذنه « أسمع صوت بلادى » .

قال ربيع متحرقا : وأنا أيضا . أريد أن أسمع . صوت مصر .

تركز وجود الاثنين فى أذنيهما وارتبط السمع بدقات القلب  
التي راحت تسرع بين جوانحهما يستنشقان الأخبار . وبدأت المسألة  
غريبة ومضحكة الى حد الأسى ، أن من فى قلب المعركة لا يعرف  
شيئا عنها ، بينما الذين يعيشون خارجها هم الذين يذيعون أخبارها  
على الدنيا .

وأحس ربيع بالنشوة وهو ينتظر دوره . كان لديه الاحساس  
بأن مصر الآن فيها فرح ، وأغاني ، ومواويل . يريد أن يسمع  
الأغاني الجديدة فرحا بالانتصار . . . ومحو العار . . . نعم . . . يانور .  
نعم يا كل الأصدقاء . . . صدقوا أننا عبرنا ، ودكنا حصونهم . . .  
أنا الآن فى أحد حصونهم .

ورأى وجه ايليا يسطع بالفرح : وجدتها . اذاعتنا .

وهتف ربيع : ماذا تقول اذاعتكم ؟

وضبط ايليا الصوت فجاء واضحا . وإذا كان بالعبرية ، لم  
يفهم ربيع أى كلمة ، فراح يتفرس فى وجه صاحبه بشدة ، يستشف  
نوع الأخبار من تعبيرات وجهه . وكزه فى تلك اللحظة أن يرى أمامه  
أى تعبير بالسعادة . يريد أن يرى على وجهه أسوأ الأخبار . ورأى  
ايليا يبتسم ، لكنها ابتسامة مملوءة بالمرارة والاحباط . هنا تؤكد  
من انتصاره . قال بفصول ، مخفيا سعادته : ماذا سمعت ؟ قل لى

قال ايليا باقتضاب : يذيعون تعليقا للجنرال ديان .

وارتسم على الفور أمام ربيع صورة وجه أبيض مستدير تغطي  
أحدى عينيه عصابة مستديرة سوداء : ماذا يقول ديان ؟

— لحظة من فضلك . حتى ينتهى التعليق .

وماكاد يقول هذا حتى كان التعليق قد انتهى ، وبدأ فاصل  
موسيقى . فامتدت يد ربيع فى لهفة الى الراديو : لو سمحت . أسمع  
أنا الآخر . أسمع أى شىء من بلدى . أشم نسمة هواء .

وراحت أصابعه تدوير المفتاح ، باحثا عن صوت القاهرة .  
البرنامج العام ، أو الشرق الأوسط ، أو صوت العرب . نحن  
عندنا برامج كثيرة . وجاءه الصوت ، فاحتضن الراديو بخده فى  
عشق وصاح :

— عبد الحليم حافظ . فى أغنية جديدة .

وراح يتسمع بكل ذرة فيه . ورسم له اللحن مع الكلمات  
صورة لعبد الحليم ، لابساً طاقية شبكية ، وجلاباب فلاحى . ويدور  
على قرى مصر ينشر البشرى داعياً الصبايا لأقامة الأفراح . وراح  
رأسه يتمايل مع الراديو على النغم . مع كلمات الأغنية .

— لى البلاد يا صبية . بلد بئد .

هنى الولاد يا صبية . ولد ولد .

ده المهر غالى . والعريس ابن البلد .

يود لو يرقص مع اللحن والراديو فى يده .

قال ايليا بصوت مكتئب :

— هل تريد أن تسمع أغانى ، أم اخبار ؟

— بعض الأغانى أقوى من أى أخبار .

وأدار على محطة أخرى ، وسرعان ما صاح بأمل : بيان من  
قيادة القوات المسلحة المصرية • وغغم فى سره : يارب ••  
يارب ••

سأله إيليا بلهفة : ماذا يقولون ؟

— لحظة لو سمحت •• اسمعه حتى النهاية • ثم أقول لك ••

كان البيان يذيع نبأ اتمام تطهير أحد الجيوب الاسرائيلية ،  
وأسر بعض أفراد العدو •• وأن الجيش المصرى ماض فى انتصاراته  
وعاودت ربيع كلمات الأغنية . أن البيان جاء مقما ومؤكدا لها ••  
وانتابته الرغبة فى الرقص والقفز ، وتصاعدت نشوته : نعم يانور ••  
لفى البلاد •• بلد بلد •• هنى الولاد يانور •• ولد ولد •• ده المهر  
غالى والعريس ابن البلد • المهر أنا دفعته يانور •• أنا يانور ابن  
البلد ••

كان الجندى المصرى قد نصب الفرخ فى داخله وأقام الزينات  
وأضاء الكلوبات وود لو يشترك معه أحد فى احتفاله • لكنه كان  
حريصا على مشاعر صاحبه ، وفضل أن يعانى أقراحه فى الخفاء  
على أن يلقى نبأ أسر الجنود الاسرائيليين فى وجه إيليا • أن فرحة  
كل منهما مأساة للآخر • وقد قلبها فى النهاية مذبحة •• من  
يدزى ؟!

وفوجئ إيليا يسأله بصوت مكتئب : ماذا كان يقول بيانكم ؟  
— كان يقول ( وتردد ) كان يقول أن ••

وابتسم إيليا بسخرية مرة : تريد أن تحافظ على شعورى ••  
اليس كذلك ؟ لا يا ربيع ؛ نحن هنا لا نملك الا أن نواجه الحقيقة  
أن كانت حقا حقيقة !

وفكر ربيع : يريد أن يشككنى فى انتصارنا .

ـ لكنك يا ايليا لم تقل لى ماذا سمعت فى اذاعتكم ، لم تقل لى ماذا كان يقول ديان .

ـ آه . . كان يتكلم عن خط بارليف . . كان يصفه بأنه قطعة من الجبن الهش . . ليس فى السيطرة عليه أية بطولة !

ضحك ربيع مقهقهسا ساخرا : الآن خط بارليف قطعة من الجبن الهش . . أما قبل ذلك فهو الحاجز الاليكترونى الرهيب الذى يصعب بالموت كل من يقترب منه ( وبغضب ) انتم قوم كذابون ومضحكون . صرخ فيه ايليا : لا تشتمنى . .

ترجع ربيع ، شاعرا بالأسف : انا لم اشتك يا ايليا . . انما انا أقول لك . . انا أطلب منك أن تجيبني . . تفسر لى : مرة خط بارليف هو الحاجز المستحيل ، ومرة هو قطعة الجبن الهش ، اليس احدى الحقيقتين كذبة ؟

ـ بالتأكيد . . احدهما كذبة . . لقد وانتنى الآن فكرة ياربيع . لا ترفضها أرجوك . بل فكر فيها على مهل : لم يكن خط بارليف فى حقيقته معجزة . نحن خلقنا حوله هذه الهالة لنخيفكم وحين واجهتم الخوف لم تجدوا الشئ الرهيب الذى يصدكم . ومع هذا فانتهم ستصرون على أنه كان خطأ رهيبا لتضخموا من انتصاركم . . أوهام ، يرد عليها بأوهام !

وزعزعت ربيع الفكرة . « هذا التشكيك الخبيث فى انتصارنا » ، وأحس به عدوا مؤكدا . وأن كل ما جمع بينهما من لحظات وفاق ومشاركة ، انما كانت ومضة كال حلم وانتهت . وأن عليه أن يتنبه له جيدا من الآن . فهاهما الاثنان قد اخذا حظهما من الطعام والماء .



والراحة ٠٠ « وقد يستخدم عافيته فى قتلى ، انتقاما لهزيمتهم ٠٠  
نعم ٠٠ هذا الصمت يجب ألا يخدمنى ٠ هل أقتله قبل أن يقتلنى ؟ -

غير أن منظر ايليا لم يكن يوحى بالقتل ، ولا بأبسط عدوان ٠  
كان جالسا على حرف السرير ، مطرقا برأسه فى يأس كامل ٠٠  
وخاف عليه ربيع أن يموت وهو جالس هكذا ، مثل ما مات زميله  
اسحاق وهو جالس الى مائدة الطعام ٠ فذهب اليه قائلا : استرح  
يا ايليا ٠٠ تمدد على السرير ٠

انتفض ايليا وإقفا وقال : لا وقت للراحة ٠ لقد أخذنا منها  
ما يكفى وزيادة ٠ فلنخرج من هنا ٠٠ الى باب الحصن الخارجى ،  
نستكشف ما يحدث حولنا ( ثم لنفسه ) يجب أن أفكر كيف أهرب من  
هذا المأزق ؟ ٠

قال ربيع بحماس : هيا يا ايليا ( ثم لنفسه ) قد أرى جنودا  
مصريين منتصرين يلتقطوننى ٠٠

قال ايليا : فلنكن حذرين ونحن ننظر ٠ فللصحراء هيون  
ترقب ٠٠

قال ربيع : عيون منا ومنكم :

مزيج هائل من المشاعر كان يفور ويضطرب بحدة فى أعماق  
الاثنين وهما يعبران السرداب فى طريقهما الى باب الحصن ٠ كلاهما  
يتمنى لو أن هذه الصحراء أصبحت ملكا للجيش الذى ينتمى اليه  
وتحت سيطرته وينطلق راقصا آمنا فى الفضاء ويأخذ الطريق عائدا  
فوراً الى بلاده ٠ غير أنهما ما كادا يقتربان من الفتحة ويبهرهما  
الضوء للحظة ، حتى وجد نفسيهما يرتيمان على الأرض ويدفنان  
وجهيهما فى الرمل ويسدان آذانهما وأنفاسهما تلهث من الخوف ٠٠  
وتسارعت دقات قلبيهما وهما يريان من فتحة مخبئهما معركة جوية

شراسة تنشب • ورأيا عن بعد طائرة تنفجر فى الجو • هل سيعود الهول مرة أخرى ويماد تشكيل الكرة الأرضية ؟ وما أن انتهى الانفجار حتى أعقبه أزيز رهيب راح يتضخم ويقترب •• كانت الطائرة المنفجرة تشق طريقها الى الأرض كوحش أعمى •• وامتلأا بالرعب أن تصطدم بمخبتيهما فيتبددا نثارا • وتعلقت عيونهما المرتعبة بذيل كثيف أسود من الدخان • كان واضحا أنها ضربت فى خزان الوقود فاتفجرت •• ثم أخذت تهوى •• ورأياها مقبلة بسرعتها العمياء المجنونة فى اتجاههما •

ابتعدى أيتها الطائرة عنا •• سواء كنت مصرية أو اسرائيلية  
ابتعدى •• يا شيطان الموت •• يا شيطان الموت •

## - ٦ -

ومرقت الطائرة من فوقهما كطائر مضروب أعمى ، فدفعنا وجهيهما فى الرمل يودان لو انشقت الأرض عن خندق الهى يَحْتَمِيان به • وتنفسا الصعداء ان اللحظة مرت بلا انفجار ، وأن الأزيز الجهنمى ينسحب بعيدا • غير أن صوت انفجار آخر وصل الى سمعيهما ، لكنه انفجار مكتوم • وكانت الطائرة قد اصطدمت بالأرض بعيدا عن الحصن وامتصت الرمال جزءا كبيرا من الصوت • تبادلنا نظرة بلا أى تعليق • ومع الهدوء الذى عاد يطل ، راحا يستعيدان أنفاسهما ، ويصيخان للسمع للصمت • ورأيكم تمتص هذه الصحراء فى بطنها ، تمتص الأصوات وتمتص معها الأحلام والآمال والالام أيضا بالموت • كان كلاهما يتمنى من أعماقه ألا تكون هذه الطائرة التى احتزقت ليست من طائرات قوالتة • ولم يكن الحزن لانفجار الطائرة ، انما الحزن كان على هذا الطيار الذى انفجر هو الآخر فى الفضاء وتناثر وما من قوة على هذه الأرض تستطيع أن تجمع أشلاءه لتدفنه •

لا : اسرائيلي أو مصري ، موت الانسان محترقا فى الجو  
 شىء بشع لايمكن لأحد أن يفرح له . وشملهما احساس بالتعاسة ،  
 والعجز ، واتضح لهما على نحو مؤكدا انهما أصبحا بلا أية فاعلية  
 فى تقرير مصير هذه الحرب . وأنهما أقرب ما يكون الى حشرتين  
 صغيرتين تحت نطاق أخطبوط هائل يكاد حتى لا يراهما ، لكن  
 مصيرهما النهائى بيده أو بأذرعه الوحشية . وازداد هذا الاحساس  
 عمقا فى نفسيهما وهما يريان المعركة الجوية على بعد تتجدد مرة  
 أخرى . وفى هذه المرة لم يدفنا وجهيهما فى الرمل ، بل راحا يرقبان  
 لعبة تبادل الموت بين الطائرات . لعبة مخيفة ورهيبة ، لكنها فى  
 نفس الوقت مثيرة تستحق ، بل هى فرصة ، أن ترى . هذا الروغان  
 والزوغان ، ثم الاقتراب والابتعاد بين كل طائرتين أو ثلاث مع تبادل  
 اطلاق المدافع الرشاشة . وفجأة لحا صاروخا أرضيا يصعد متجها  
 مباشرة على احدى الطائرات ويظل يتبعها حتى يقبض عليها وينفجر  
 فيها . . . وأغمض الاثنان عينيهما من بشاعة المنظر . ورغم أن  
 المعركة لم تستمر أكثر من دقائق قليلة الا أنه خيل اليهما أنها استمرت  
 دهور طويلة . أكد ذلك فى دخيلتهما الصمت المروع الذى أعقب المعركة  
 وخيم على الصحراء فبدت أمامهما ساحة للموت ، وأنهما محظوظان  
 بهذا الموقع الآمن الذى يختبئان فيه . فليلوذا به الى أن يحدث  
 ما يحدث . وكان بعد من الحقيقة قد ظهر لهما ، فان كان المصريون  
 قد عبروا قنال السويس واستولوا على خط بارليف ، الا أن المعركة  
 لاتزال تمضى شرسة وسيناء واسعة ، واسعة . وإذا كان خط بارليف  
 قد سقط ، فهناك خطوط اسرائيلية أخرى لاتزال ، أخطرها ممر متلا ،  
 والكونتلا وانعكس هذا أملا جديدا على الاسرائيلي ، وشرودا وقلقا  
 على المصري . وحزن كل منهما ان يبتعد بنظراته عن الآخر . ولم  
 يلبثا ان ضاقا بهذا الشعور . فرغم أنهم نقيضان الا أنهم يكادان  
 أن يعتزجا . . جسدا وروحا . كان كلاهما قد فقد القدرة على

الاحساس بأن هذا الآخر عدو له • بالعكس هو أنيس ورفيق ساقه  
القدر اليه فى هذه الوحشة وهذا الرعب ، ويجب أن يظلا هكذا •

قال ايليا بزفرة : ليس فى الخارج غير المسوت ( ونهض من  
رقدته ) هيا نعود الى الحجرة ، نسترجع أنفاسنا •

ووافق ربيع على الفور فنهض : هيا • فمناظر الصحراء يثير فى  
رأسى دوارا • ( وامسك نفسه من الترنح ) يبدو أن للصحراء  
مثل البحر دوارا • أريد أن أستلقى بظهرى قليلا على السرير •

قال ايليا : ونفكر فيما يجب أن نفعل • لن نظل مختبئين هكذا  
حتى يعاودنا هذيان العطش • فالماء الباقي لم يعد يكفى لطفل عطشان •  
ثم ، وهذا هو المهم • قد نفاجأ فى أية لحظة بهجوم منا أو ملكم •  
وفى كلتا الحالتين ، واحد منا سيكون ضحية ، وقد نصصرع نحن  
الاثنين •• من يدري ؟••

ـ وماذا يمكن عمله يا ايليا •• اننى أفكر فى القيام بعملية  
استكشاف صغيرة • أصعد فوق هذا الموقع زاحفا • وأرى المنظر  
بالضبط •

ـ ربيع • اياك أن تنهز • فنحن فى منطقة اختلطت فيها  
قواتنا بقواتكم ، وقد يأتيك الموت من أية نقطة • يجب ألا نلفت  
الأنظار الى مكاننا •

ـ وما العمل •• كنت تقول ؟

ـ ننتظر حتى يحل الليل ، ثم يتسلل كل منا فى الظلام ••  
عائدا الى بلاده ، متمنيا حظا سعيدا للآخر ••

اهتز ربيع للأمنية • هز رأسه موافقا : وننام بعض الوقت •  
نشحن أنفسنا ببعض الراحة تساعدنا فى رحلة العودة •

وفرح الاثنان فى أعماقهما أنهما وصلأ الى هذا القرار • وفكر كل منهما أنه عقد معاهدة يحاكم عليها فى بلاده : « فالمفروض أن يكون أسيرا تحت يدى وأسوقه أمامى مقيدا وأسلمه لقيادتى • ( ثم يابتسامه مرة ) انهم لايعلمون شيئا !

واجتازا السرداب الصغير المظلم وعادا الى الحجرة • • كانت لاتزال مضاعة • وجذب نظرهما من أول لحظة جثمان الاسرائيلى المغطى بالملاءة • كان قد حدث له شىء غريب اقشعر له جسداهما •  
\_ هل تلاحظ شيئا يا ايليا على الجثة ؟

قال الاسرائيلى بصوت ذاهب : نعم • لقد تضخمت بعض الشىء • •

قال ربيع : وستمضى فى التضخم • بدأت كيمياء الموت •  
واثار التعبير « كيمياء الموت » فى رأس الاسرائيلى رؤى مخيفة • وتراعت له جثة زميله ايزاك ، وجثة لمصرى أيضا ، وقد راختا تتضخمان وتتضخمان حتى تملأكل فراغ الحصن وتبتلعهما أيضا !

قال وقد تدافعت أنفاسه : يجب أن نسرع بدفنهما • واضح أن الغارة انتهت • فلنستغل هذه الفترة •

قال المصرى بزفرة : أجل • انها مهمة تنتظرنا ، ولا مفر منها •

واذ تصور نفسه حاملا جثة اليهودى المنتفخة ، أحس بقشعريرة لكنه تذكر أن ايليا سيقوم بنفس الدور مع جثة زميله المصرى • • وزاغت عيناه • فجأة رأى الراديو الترانزستور ملقى على السرير • قاتجه اليه بحركة غريزية والتقطه وأداره • انطلقت منه خرفشات وصفير • صاح ايليا فى ضيق :

ـ ليس هو وقت السماع • فلننته أولا من مهمتنا •• اننا ••  
قال ربيع مقاطعا ومناشدا : لحظة أرجوك • اننى أسمع شيئا  
غريبا !

ومضى يصغى بانتباه • وتماوجت على وجهه تعبيرات الدهشة  
والسعادة والتفكر • كان ايليا يرقب ملامحه مستثارا وقلقا : هل  
ثمة شيء جديد فى المعركة ؟ وما أن سمع الكلام بالعربية ينتهى ولحن  
أغنية حماسية يبدأ حتى صاح : كفى ياربيع • اقتصد فى استعمال  
الراديو وقل لى ما سمعت •

ـ سأقفله • أسمع المقطع الأول من الأغنية وأقفله فى الحال •  
ورسم له اللحن موكبا من الدراويش يغنون متمايلين • وانتبه  
لل كلمات : « وما رميت •• إذ رميت •• لكن الله رمى •• » •

وقفل الراديو أمام نظرات ايليا ، واكتسى وجهه بابتسامة  
غامضة !

ـ هيه •• فلتقل لى ماذا سمعت • على وجهك أخبار جديدة  
وود ربيع لو يحتفظ لنفسه بما سمع •• لكن نظرات ايليا كانت  
تلح عليه • قال بابتسامة هادئة : الملائكة تحارب معنا •• الملائكة  
عبرت قناة السويس ، وتحارب مع قواتنا ••

قال ايليا بسخرية مقرونة بالضيق : وهل صدقت هذا يا ربيع ؟  
أو •• ربما تكون أنت قد رأيت هذه الملائكة ، أو واحدا منها على  
الأقل ، وهو يحارب معكم •• قل لى أن كنت قد رأيت وسأصدقك •

قال ربيع : أنا شخصا لم أر شيئا • لم أر غير زملائى الجنود  
والضباط المصريين وهم يحاربونكم ببسالة • انهم يلجأون الى مثل  
هذا الكلام كنوع من رفع المعنويات • ( وشوح بيده باسما ) لا بأس !

قال ايليا بزقرة : اننى ارشى لكم ٠٠ ولنا ايضا ياربيع !

— ماذا تعنى ؟

— فرغم كل هذه التكنولوجيا وارتفاع وسائل العلم الحديثة التى استغلت فى هذه الحرب ، فما زلنا غير قادرين على الاستغناء عن استعمال الاساطير واحياء الايمان بالمعجزات القديمة وندفع بها هى الأخرى فى الحرب كاسلحة •

لقد تذكرت على الفور وأنت تقول بعبور الملائكة وحربها معكم ، تذكرت قصة خروجنا الأول من مصر ، بقيادة موسى • وعبورنا البحر الى سيناء • وفرعون وجنوده يطاردوننا • كانت ملائكة الرب يومها معنا ، فأغرقت فرعون وجنوده وأنقذتنا • ( وابتسم بسخرية مرة ) نحن وأنتم نتبادل الملائكة ياربيع • أو أن الملائكة هى التى تتبادلنا : ( وزعق ) كيف نصدق ؟

قال ربيع وقد أحس بزعزعة فى فكره وأحاسيسه :

— فلنسرع بالانتهاء من هذه المهمة • الا تلاحظ الرائحة ؟ اننى أمتع نفسى من التنفس !

— الق اذن بهذا الراديو • ولنخرج الجثة بسرعة •

وضع ربيع الراديو على السرير وقد غمره شعور بالارتياح • شمة أمل غامض تفتح فى صدره • فمهما كانت الحقيقة فى حكاية عبور الملائكة هذه وحربها بجانبهم ، فإن هذا يعنى بشكل عام ، أن النصر لايزال ، بل ويتأكد للمصريين ، مهما كان التفسير •

قال ايليا وهو يتجه الى جثمان زميله الاسرائيلى :

— ننقله بملائته مغطى كما هو : ثم ننقل يوسف المصرى ٠٠ ندفعهما فى الخندق الأمامى كما اتفقنا •



ودفعتهما الراححة الى العمل بسرعة • رفع ايليا الجثة من تحت  
الابطين ، وربيع وضع الساقين على كتفيه • وبدء السير ، كأنهما  
يحملان نعشا • أحسا بثقل الحمل ، وأنهما يكادان ينوءان تحته  
فراحا يقاومان ببسالة ، ويتشجعان بتأوهات بعضهما •

قال ايليا هو يئن : ليت ملاكا من الذين يحاربون معكم يأتى  
الآن ياربيع ويساعدنا •

قال ربيع وقد أحس فى نبرته بثمة سخرية :

ـ ملائكتنا لن تحمل جثث الاعداء يا ايليا !

ـ اذن فحتى ملائكتكم عنصريون • هذا شئ فظيع •

ـ مثل ملائكتكم يا ايليا ، الذين ساعدوكم فى الخروج وأغرقوا  
فرعون •

قال ايليا متأوها :

ـ ليس أمامنا الا أن نعتمد على أنفسنا • آه • آه •

كانا يتأوهان ويجاهدان كى لا ينهارا • واذ خرجا من الحجرة  
الى السرداب ، أحسا بقوتهمما تتلاشى • قال ايليا مسرعا وقد أحس  
بنفسه يكاد يتهاوى والجثة تسقط منه •

ـ فلنضعها لحظة على الأرض • نستريح دقيقة •

تلقف ربيع الاقتراح : نضعها •

ـ بهدوء حتى لا تؤذها •

وما أن خففا أيديهما عن الجثة حتى تهاوت منهما بكل ثقلها  
وسقطت مرتطمة بالأرض وتطاير عنها الغطاء • وقفا يستتردان

أنفاسهما وقد استندا على جدار السرداب • واحسا بالحاجة للجلوس  
لكن السرداب كان ضيقا ومعتما •• بقيا على وقفتها • وفوجيء  
ربيع بايليا يصيح مخاطبا جثة زميله بلهجة ندب : أين الرب « يهوا »  
يا ايزاك ، يساعدنا فى حمل واحد من شعبه المختار • اطلب منه  
يا ايزاك فهو يسمع الموتى كما يسمع الأحياء •

استراح ربيع الى أن ايليا يسخر من دعواهم ، الا انه خشى  
للحظة أن تتكلم الجثة وتدعو الرب وتعود الى الحياة • وركز بصره ،  
وقلبه يسرع ، على شفقتى الميت • فير أن العتمة والصمت كانا  
يسودان • فلم تتضح جيدا ملامح الجثة ، انما حجمها الكلى فقط •

– ايليا • لاداعى للدخول فى هذه المنطقة الآن •

– أى منطقة ؟

– منطقة الأديان • فان كنت ملحدا ، فأنا واحد من المؤمنين •

– مؤمن بماذا ؟

– مؤمن بوجود الله • اله واحد للجميع • لكنه لا يتدخل فى  
مثل هذه الأمور •

وعاودت السخرية لهجة ايليا : الاله شخصيا لا يتدخل ، انما  
يرسل ملائكته لتحارب بالنيابة عنه ؟ أنا أرفض الايمان بمثل هذا  
الاله ، مثلما رفضت الايمان بـ « يهوا » الهنا فى التوراة حين رأيته  
بغضب فجأة على القرى والمدن فيهدمها ، وعلى الناس فيحولهم الى  
تماثيل من الملح • آلهة تدفع الناس الى الافساد فى الأرض ثم تعاقبهم  
وتعذبهم بسبب ذلك ! هذه هى آلهتنا التى جاءتنا بها الكتب القديمة  
فانحنينا لها واعطيناها حياتنا • لابد من آلهة جديدة لهذا العالم ،  
او فلننق بلا آلهة افضل •

قال ربيع وقد توتر : اذن فانت لا اله لك يا ايليا .

قال ايليا : لست مصرا على الا يكون لى اله . انا فى انتظاره .  
فليكشف لى عن نفسه . اله يتحرك على الفور حالما يرى ظلما او  
بؤسا يحيق بالناس فيرنعه عنهم !

قال ربيع بقوة :

- ويبقى الانسان بلا دور ؟

- وائى دور لنا الآن ياسيد ربيع ( و اشار على الجثة ) هذا  
هو دورنا . نقتل بعضنا . ثم ندفن قتلتنا ( وزادت المرارة فى  
صوته ) فلتفق يارب ربيع . ايها المثقف المتخصص فى كيمياء الارض  
وعلم حياة النبات . فلنفق جميعا من هذا المخدر التاريخى .  
ولنواجه حياتنا بلا اساطير ، انهم يلعبون بنا ، نحن وانتم ، بسحر  
وسطورة هذه الاساطير . نحن فى حاجة الى آلهة جديدة ، وفكر  
جديد !

قال ربيع ، رافضا منطقة بشدة : لست هذه اول مرة اسمع  
فيها هذا المنطق يا ايليا . لى اخ فنان . رسام ومثال . يعيش فى  
القاهرة ويقول بهذا الرأى . غير اننى كنت أقول له اننى لا اقتنع  
برايك ، ولكنى اقتنع برسومك وتماثيلك . ان هذه التماثيل الجميلة  
ما كان يمكن ان تكون لو لم تكن أنت الذى خلقتها . كذلك الانسان  
نفسه ، ما كان يمكن ان يوجد لو لم يكن هناك خالق اعظم خلقه  
وصممه . وبت فيه الروح . ليس الانسان فقط . كل شىء فى الحياة .  
والذين يتعاملون مع الارض والزرع يحسدون أكثر من غيرهم بهذا .  
قانون الحياة الكيمياى . قانون واحد محكم ينطبق على الجميع ،  
فى رحم المرأة كما فى رحم الارض كما فى رحم البحار والانهار  
وتخرج الحياة . وتبزغ ثم تنمو ثم تزدهر ثم تنهى ثم الدورة . بعد ان

تكون قد بدأت دورة أخرى الى الأفضل والأحسن . . قانون محكم  
مقدس لا مفر منه ولا فكاك .

— من هذه الوجهة أنا معك ياربيع . هناك قانون موحد يحكم  
كل هذا العالم . وينظم حركته . لو اعتبرت هذا القانون هو الاله  
فأنا معك .

— سمع ما شئت يا ايليا . انما هناك قوة هي في الأصل  
مصدرنا . ذلك تكريم لنا ، اننا لم نأت من الهباء — بل من خالق  
عظيم . . هذا هو ايمانى . ولا أظن الوقت مناسباً للحديث في ذلك  
أكثر من هذا . ( وزفر ) هيا نواصل المهمة . . وندفن زميلنا .

قال ايليا بزفرة مماثلة : أجل . فلنعديها الى الذي جلب بهما  
الى الحياة . لقد انتهت دورة حياتهما ، ولاندرى متى ستنتهى دورة  
حياتنا نحن أيضا . . ساعدنا أيها الاله الرحيم .

وانحنيا على الجثة ، وجاهدا حتى رفعاهما من على الأرض  
وحملاهما من جديد . ومضيا يناضلان . وفي هذه المرة لم يتكلما ،  
بل راحا يشجعا بعضهما بتأوهاتهما . تأوهات بدت موقعة ومنغمة  
أقرب الى أغنيات العمل الاليمة . وتشسجعا أكثر حين انتهما من  
السرداب ودخلا منطقة الضوء . ورايا فتحة الحصن قريبة فتعالت  
صيحاهما متدفعين بالجثة الى عالم الضوء . وما أن بلغا حافة  
الخنديق حتى أخليا الأذرع عنها فسقطت بكل كتلتها الى أعماق  
الخنديق وارتطمت بوجهها وبطنها في الرمل .

كان منظرهما بشعا فأغمض ربيع عينيه . أما ايليا فقد اغزاه  
احساس بالذنب ، وهو يرى وجه زميله مدفونا في الرمل . انه  
أساء معاملته . قال وشفتاه ترتعشان :

— سوف أهبط إليه وأعدل من وضعه • يجب أن يكون وجهه الى أعلى •

قال المصري بحدة : الى أعلى أو الى أسفل • تتساوى كل الأبعاد والاتجاهات مع الموت • والجهد الذى نبذله فى ذلك نؤفره لحمل جثة يوسف • تذكر أنه عملاق فى حجم اسحق مرة ونصف •

وتنهذ ايليا : لقد فكرت فى هذا • من أين ستأتينيا القوة لحمله ؟ حقا ياربيع • ليت حكاية عبور الملائكة معكم هذه صحيحة ، اذن لساعدتنا فى حمله • فهو مصرى ويدخل فى دائرة مسئوليتهم •

— لا تعد الى هذه السيرة يا ايليا •• وان كنت لا تستطيع مساعدتى فسافعلها أنا وحدى • لو أنفقت فى ذلك يوما بأكمله •

— ربيع لا تكن حساسا بهذه الصورة •• اننى اخاطب فيك الجانب المرح من الشخصية المصرية • فضلا عن أن حكاية الملائكة هذه أخطر من أن تمر دون أن نعرف مغزاها •• وعمرها ما ؟

— وما مغزاها ؟

— أه •• فبعد أن عبرتم القنال وخضتم معنا معركة عنيفة وانتصرتم فيها ، خرج البعض عليكم بحكاية الملائكة هذه كى يسلبوكم انتصاركم : لستم أنتم أيها الجنود والضباط المصريون الذين انتصرتم ، بل الملائكة هى التى انتصرت • اما اذا هزمتم قالهزيمة لن تكون من الملائكة ، بل منكم أنتم •• منطق خبيث ورهيب !

ورغم أن الفكرة لقيت صدى فى نفس ربيع ، الا انه رفضها ان تأتى على لسان عدوه •• انه يريد أن يشككه فى كل وجوده ومعتقداته ••

— ايليا ٠٠ لا تضيق وقتنا فى مثل هذه التخريجات ٠ هيا نأتى  
بيوسف لندفنه هو الآخر ٠

ولم ينتظر موافقة من ايليا ، بل مضى بخطوات خفيفة مباشرة  
الى المطبخ حيث يرقد يوسف ٠ وتبعه ايليا فى صمت كانت العتمة  
شديدة ، لكنهما ميزا كتلة الجثة الضخمة ٠ وبلائى كلام دخلا  
مباشرة فى ملحمة حمله والمضى به الى الخندق ٠

وقال ايليا بكلمات متقطعة : ان نأخذ راحة هذه المرة ٠٠  
فلنمض به مباشرة الى الخندق ٠

ولم يرد ربيع ٠٠ خيل اليه ان كل ثقل الجثة الضخمة عليه ٠٠  
فمضى يجاهد ويئن ٠٠ وسمع ايليا يصيح شاكيا : لماذا الميت ثقيل  
هكذا ياربيع ٠٠ كذت اظن كيميائ الموت تعمل على تحليل الجسم  
وتخفيف وزنه ، وليس الحكس ٠

قال ربيع معانيا ومختارا كلمات مركزة ومكثفة : انها الذرورة ٠  
ذرورة الاشياء ، ثم تاتى بعدها مرحلة التحلل ٠ انها عملية تغيير  
وتحول ٠

وما ان بلغا حافة الخندق ، حتى تركا الجثة تسقط منهما فى  
الحفرة فسقطت فوق جثة الاسرائيلى حتى كادت تغطيها ٠٠ قال  
ايليا وقد عاوده الاحساس بالذنب ٠

— ليس هذا هو الوضع النهائى لهما ٠ لابد ان نعدل من  
وضعهما بحيث يكونان متجاورين ياربيع ٠

— انت مضحك يا ايليا ، تفكيرك رغم انك عالم انثروبولوجى  
مضحك جدا ٠ فما معنى اى تغيير فى وضعهما فى هذه الحفرة  
سوف يختلط تراهما وعظامهما بعد قليل ٠٠ فلا فائدة من اى شىء

- أنت مصرى يارببيع • ومن تقاليدكم القديمة احترام الميت وتقديسه •

- وأخذتم عنا هذا التقليد ، فموسى نبيكم شرب كل أفكاره وتعاليمه فى مصر •• ومع هذا فهذه العصور مضت يا ايليا والمصريون تغيروا •• هل تعرف يا ايليا ما هى الصورة التى تلح على الآن وأنا أرى هاتين الجثتين فى هذه الحفرة •• أننى أتمنى لولقى فى الأرض معهما بذرة • بذرة شجرة •• بذرة تتغذى برفاتهما •• بذرة سمادها انسانان كانا عدوين ثم وحدتهما حفرة واحدة •• ترى ماذا سيكون شكل هذه الشجرة ؟

قال ايليا كمن يحدث نفسه ، مأخوذا بالصورة : الانسان يتحول الى شجرة ، أو يدخل فى تركيب شجرة ، حقا يارببيع • ليس هناك فاصل كبير بين علم الانسان وعلم النبات • الانسان الشجرة • أو الشجرة الانسان • يا لها من شجرة ستكون يارببيع • شجرة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ • سوف تكون مزارا لنا ولكم • ( ثم قال مهتاجا فجأة ) نحن نحلم يارببيع • بينما الواقع بشع •• بشع • ( وأشار على الجثتين المجندين فى الحفرة ) •

قال ربيع وقد استيقظ من حلمه بالشجرة : فلنفظهما بسرعة بالرمل • ننتهى تماما من المهمة ، ثم نذهب الى أسرتنا ونستريح •

وانحنى على الأرض ليجمع بكفيه حفنة • غير أنه أحس بتهافتة وأنه يكاد يسقط فى الحفرة ، فوقف يجمع نفسه •

قال ايليا : لماذا نحن متعجلان فى تغطيتهما ؟ لم يعد لدينا أى جهد لهذا الآن • لا بأس أن يبقيا بعض الوقت فى الهواء الطلق !

غمغم ربيع : نعم فالسمااء تغطيهما • هيا نعود الى الحجرة  
نستلقى على السرير ونتكلم • فى مكان ليس فيه موتى •

قال ايليا وهو ينظر الى الجثتين : بالعكس • نتكلم امامهما  
حتى تكون الحقيقة هى ما نقول !

وخطر لربيع ان زميله ربما بدأ يدخل منطقة الاختلال العقلى •  
فماعننى ان يتكلما امام موتى ؟

قال بحدة : ايليا •• لاداع للندب مرة اخرى •

رد ايليا بحدة اكثر : لا يا ربيع • نحن لن نندب • نحن سندافع  
عن نفسينا امامهما • فانا متهم • وانت متهم • نحن متهمان  
بقتلهما !

وتأكدت الفكرة عند ربيع • دخل ايليا منطقة الاختلال ومع  
اختلال العقل لا امان • وأخافته عيناه • كانتا متسعيتين بشكل غير  
عادى ، ولا حركة لرمش واحد •• وبدأ بلحيته التى طالت وشعره  
الهائش الملبد بالرمال اقرب ما يكون الى انسان بدائى • رجل  
الانثروبولوجى يرتد ويصبح رجل ما قبل التاريخ • وما الوحش الا  
كائنا بلا عقل • وقد يقفز على فى أية لحظة ويصرعنى ويقتلنى  
خنقا •

قال بهدوء •• كنما يروضه : لكنى لم اقتل احدا منهما  
يا ايليا • أنت تعرف • وانت كذلك لم تمس احدا منهما •• دعك  
من هذا الاحساس بالذنب •

صرخ فيه ايليا : لا •• لا أريد ان اقتل فى نفسى هذا  
الاحساس • انه الاحساس الوحيد الباقي ليحفظ لنا كرامتنا مع  
انفسنا •• ان نحس بالذنب •• ان نجامل انفسنا كمجرمى حرب ••



كلنا ٠٠ نحن واثنتم ٠٠ سواء الذين يشعلونها ، أو الذين يقبلون أن يكونوا وقودا لها ٠

قال ربيع متحسسا فيه ابعاد العقل وابعاد الجنون ، اذن ( وأشار على الجنديين المجندين ) فهذان أيضا متهمان ، فقد قبلا ان يكونا وقودا لهذه الحرب ؟!

— نعم ٠ هى محاكمة لنا جميعا ٠ الأحياء منا والموتى ٠٠ هذه الجزرة ٠٠ على حلقات ٠٠ أكثر من ثلاثين عاما ، وقد تستمر ثلاثين أخرى ، وثلاثين ثالثة ٠٠ حرب المائة عام ٠٠ حدث هذا فى التاريخ ٠ عصر البربرية يعود ٠ يجب أن يتوقف الزمن ٠ يجب أن يتوقف كل شيء وتعقد المحاكمة ٠ ليست على نسق المحاكمات العادية ، على منصات محاكم الدول ٠ أو حتى على منصة هيئة الأمم المتحدة ، وتدور كاميرات الصحافة والتلفزيون والقمر الصناعى ويحرص الأعضاء ، الممثلون ، أن يبدوا فى هيئة أنيقة وجميلة ، وهم يلقون خطبا لم يكتبوا منها حرفا واحدا ، بل آخرون هم الذين أعدوها وكتبوها لهم ٠ انهم مجرد السنة ٠ نحن الآن لا نتكلم باللسان ٠ نحن نتكلم بالقلب الموجوع ٠ المسوس ٠ النازف من هذا الضياع ٠ اترى ما هى أميتى الآن ياربيع ٠٠ ؟ اننى أتمنى لو أن هذا الذى حدث بيننا نحن الاثنين ، يحدث بين أفراد جيشينا ٠ ان يتلاقى الجيشان فى السر ، بعيدا عن عيون قادتهم وجنراتهم ويجتمعون حول موتاهم ويناقشون القضية ٠٠ أنا واثق أنهم سيصلون فيها الى حل نهائى ٠ ووداعا للحرب الى الأبد ٠

— غريب أنت يا ايليا ٠٠ أنت تحيرنى ٠

— انا أحبك ٠٠ كيف ؟

- فاذا كنت مؤمنا بالسلام الى هذا الحد ، فلماذا لم ترفض اصلا الاشتراك فى هذه الحرب حتى ولو كانوا قد ادخلوك السجن ؟

- وهل انت دخلت هذه الحرب باختيارك ياربيع ٠٠ اقطع لو ان الأمر كان بيدك لكنت الآن فى أحضان حبيبك نور ٠٠ و ٠٠

قال ربيع مقاطعا : هذا صحيح يا ايليا ٠٠ لكن الموقف بالنسبة لى مختلف عن موقفك : فانا أحارب لكى أحرر أرضا اغتصبت منا ٠ جزءا من أرض الوطن ٠ كيف أهرب أو أراجع ٠٠ أما انت ٠٠ فقد جئت سيناء غازيا ٠ الا اذا كنت تعتبر سيناء أرضا اسرائيلية ، كما يقول بعض قادتك ، وانت تساهم فى تحريرها ٠٠

هز ايليا رأسه بالنفى ٠

- لا يا ربيع ٠٠ ولقد كان من رأى ، بعد ان هزمتكم فى حرب ٦٧ ان نترك سيناء ونعود ٠ نتركها ونحن منتصرون ٠ كان ذلك اكرم لنا ٠ كنا وفرنا هذه الدماء التى سالت منا ٠٠ والضحايا ( وعاد ينظر الى الجثثين ) ٠

قال ربيع متشككا : ولماذا اذن عدت لتحارب فى سيناء ؟

- انا لم أحارب ٠٠ كانت أيامى ضائعة فى التنقل بين الخنادق ٠٠ كنت اُدافع ٠٠ فنحن فى حاجة الى حزام من الأمان ياربيع ٠٠

- آه ٠ ها انت يا ايليا تكشف عن فكرك الحقيقى ٠ انت أيضا واحد من انصار الحرب ولا تدري ٠ عقدة الخوف ٠ انهم يربونكم من الصغر على انكم فى جزيرة والوحوش تحيط بكم من كل جانب ٠ يربونكم على الخوف والخائف بطبيعته عدواني ٠ عقدة سكان الجزر !

واستوقف التعبير ايليا : تقول عقدة ماذا ؟

— عقدة سكان الجزر • قرأت مرة قصة لكاتب مصرى حول  
 هذا المعنى : رجل خائف ، يحوله الخوف الى قاتل •• هكذا انتم  
 يا ايليا •• تغزون وتقتلون وتدمرون باسم الدفاع عن دولتكم ••  
 اية دولة هذه يا ايليا ؟ •• اننى لم ار فى خريطة العالم دولة أعجب  
 من دولتكم اسرائيل • الدولة الوحيدة التى لا تعرف لنفسها حدودا  
 تعلنها وتلتزم بها أمام العالم • وهذا هو صنب ماساتكم • انظر الآن  
 الى اسرائيل وقد احتلت كل فلسطين وسبّناء والجولان • كائن  
 متضخم تضخما غير طبيعى ، فيه كيمياء الموت لكم • ( وأشار الى  
 الجثتين ) نعم يا ايليا ، اننى ارى شبها بين هاتين الجثتين واسرائيل  
 •• انكم بهذا التوسع تحملون ميكروب غنائكم ولا تدروا •• ولقد  
 كان الاولى بك ان تعرف الخطأ الأساسى والقاتل فى دولتكم ، كعالم  
 انثروبولوجى ، يؤمن بارتداد الانسانية لكها الى اصل واحد مشترك •  
 فما معنى ان تقيموا فى هذا العصر كيانا اجتماعيا قائما على العرق  
 وعلى الدين ؟ لماذا هذا الحلقية والتعصب ؟ لماذا لا تكونوا ابناء كل  
 هذا العالم وتصبحوا اولاد الأسرة الانسانية الكبيرة وليس اولاد  
 الأسرة اليهودية الضيقة ؟ انتم تصفون انفسكم بالتحضر والعصرية ،  
 وهذا هو قمة التخلف والرجعية • انظر المسلمين والمسيحيين ••  
 انهم ينتشرون فى العالم ، فى كل بلاد الدنيا ، يعايشون مختلف  
 الشعوب ويصبحون جزءا عضويا منها ومن بنائها ونهضتها • وهكذا  
 انتم يا ايليا يجب ان تكونوا •• ان تدوبوا فى الانسانية وتنتشروا  
 فيها •• سيكون ذلك فى صالح نسلكم • ان نسلكم مع هذه الحلقية  
 الدينية التى تصرون عليها سيضعف مع الأيام ويهزل • لأنكم تتغذون  
 من بعضكم •• ان الشعوب يجب ان تتلاقح لتقوى من نفسها ••

كان المصرى يتكلم متدفقا ناظرا احيانا الى ايليا ، وحيانا  
 الى الجثتين ، وحيانا الى فضاء الصحراء • وكان وجهه الأسمر

الناتئء العظام' والذئ كاد يختفى داخل لحيته الكثة المغبرة ، مسرحاً لانفعالات عنيفة ومتعاقبة ، انما فيض من الحياة كان يتدفق من عينيه وايماءات وجهه واشارات يديه بطريقة أخذت بمجامع الاسرائيلى الذى كان يسمعه بوجوده . وكانت بعض كلمات يحفرها فى نفسه حتى لا ينساها . . . لسوف تفيدته بالتاكيد فى دراسته فيما بعد . جزء من تجربته الحية فى الحرب يضيفها الى احاديثه ودروسه لطلبته وطلاباته . تعبير : عقدة سكان الجزر . الخائف عدوانى . ميكروب التضخم . تلقيح أو تلاقح الشعوب .

— ربيع . سوف اتجاوز كلامك عنى كمدرس انثروبولوجى وما فيه من اهانة . فانا لا اؤمن كما تتصور بنظرية الجنس أو العنصر المتفوق . هذه نظرية النازى التى دمر بها حياة ملايين من البشر كنا نحن اليهود اولهم . لقد علمتنى دراستى تاريخيا انه ليس هناك شعب متفوق وآخر متخلف بالطبيعة والقدر . ان كل شعب مثل كل فرد هو ابن ظروفه . ويتغير الظروف تتغير الشعوب كما تتغير الأفراد . الظروف العبقريّة تخلق شعبا عبقرىا . . . والظروف المتخلفة تخلق شعبا خاملا ومتخلفا . . . ومع هذا ففى كلامك جزء كبير من الصدق ومن الحقيقة . فكرة التضخم الاسرائيلى . دعنى اسألك . . . على اى حدود يجب أن تبقى اسرائيل فى رأيك ؟

قال ربيع بحسم : تجاوزا ، ولكى نكون واقعيين : الى حدود ما قبل حرب ٦٧ . تعود سيناء لمصر . والجولان لسوريا ، وتنشأ للفلسطينيين دولة ، ونعيش كلنا فى جوار حسن .

— آه جئت بمعضلة المعضلات يارببيع . المشكلة الفلسطينية . . . اننى قد اختلفك فى الرأى ، وعلى نحو أكثر تطرفا منك ، وهو ليس رأى وحدى بل رأى لبعض اصدقائى وطلبتى فى اسرائيل . . . هذا ان كنا نريد أن نحل المشكلة حلا جذريا . . . وأبدىا !

— ما هو ؟

— أرض واحدة ، هي أرض فلسطين . تقوم عليها دولة واحدة يعيش عليها الجميع • الفلسطينيون الاسرائيليون والفلسطينيون العرب ، يهود ومسلمون ومسيحيون •

— أوه •• أنت تخيفنى بتطرفك يا ايليا ، فهذه مرحلة بعيدة • وان كنت أعتقد أنها يمكن أن تحدث فى يوم من الأيام • ولكننا نتكلم فى الممكن اليوم ، لوقف المجزرة بسرعة : دولة لفلسطين العربية ، بجوار فلسطين الاسرائيلية • ويمكن فيما بعد عقد اتحاد بينهما ، يمهّد لوحدة فى الزمن القادم •

— آه يارببيع •• صحيح • لماذا لا يتحقق هذا ؟ فليكن هذا نضالنا حين نعود ( واهتز بالشوق ) آه لو نعود يارببيع • سوف نعود يارببيع •• سوف نفعل الكثير من أجل هذه القضية • أنا وأنت • ستكون هذه هى قضيتى •• معركتى • فى المدرسة ، وفى الشارع ، وفى تجمعاتنا ، وفى نجواى مع سسارة فى هدوء الليل ، فى بيتنا الصغير •• وأنت •• فى ( وتوقف فجأة عن الكلام وقد شحّب لونه وراح يصيح السمع ) ألا تسمع شيئاً ؟ أسمع معى •

تحفز ربيع فى وقفته واتجه بسمعته الى الخارج : صوت دبابات •

فلنختفى بسرعة •

وقفزا الى داخل الحصن ، ورقدا على بطنيهما خلف الفتحة •

— فلنكن هنا •• بلا أى حركة • نرى ما يحدث •

وعاد قلوبهما يدقان بسرعة ، وقد اختلجا بالخوف والآمال •

## - ٧ -

وقال الاسرائيلى بصوت هامس : يخيل لى ان الصوت قاسم  
من الشرق •

قال المصرى وأنفاسه تسرع • نعم ( ثم لنفسه متمنيا ) • آه  
لو تكون مصرية ، فى طريق العودة بعد أن أتمت مهمتها بنجاح •

واصل الاسرائيلى همسه : أحد احتمالين ، اما أنها دبابات  
مصرية منسحبة ، واما أنها دبابات اسرائيلية تبدأ مرحلة الهجوم •  
ويكون الجيش الاسرائيلى قد لم نفسه بعد الضربة الأولى •

وأوشك ربيع أن يصرخ فيه : هذا كلام شؤم • لكنه تذكر أن  
أمنيته هى أيضا شؤم عليه • وما لحظات التوحد الا حلم عابر ••  
تلك هى الحقيقة ، أنها على طرفى نقيض • هل أن الألوان للإستيقاظ  
من الحلم ؟!

— إيليا .. افترض انها دباباتكم . ماذا سيكون العمل ماذا  
سيكون الموقف بالنسبة لى ؟

-- وافترض العكس ياربيع ، انها مصرية والمنطقة أصبحت  
تحت سيطرتكم .. اليس هذا ممكنا ؟

— كل شيء ممكن ( وطرب لحظة للصورة . غير أن القلق  
عاوده ) ليس اتعس على الجندي من أن يكون جاهلا بما يدور حوله .  
اننى أحس احساسا عميقا أن أشياء كبرى حدثت فى المعركة ،  
تحولات ما حدثت فى سيرها .

— وأنا أيضا . عندي نفس الاحساس . ولكن كيف نعرف ؟  
قال ربيع متحمسا : نسمع الترانزستور ..

ابتسم إيليا : تريد أن تسمع انجازات الملائكة لكم من  
انتصارات ؟

قال ربيع بضيق : نسمع اخبار الدنيا يا إيليا .. نعرف لنا  
اتجاهها . نحن بلا أى دليل .

ونهب من مكانه : سأتى به .

— ربيع . لا تستمع وحدك كثيرا .

— ثوانى وأعوذ ( وعاد يصيخ السمع ) ابتعد الصوت .  
اليس كذلك ؟

— يبتعد ويقترب ثم يبتعد . أكون وهما ؟

— ساتى بالراديو . وخل بالك من الصوت .

. ودخل المصرى منطقة العتمة . وانتابته قشعريرة . وتعجب  
فى نفسه أنه أصبح يتجول فى حصن العدو ويعرف مداخله ومخارجه

وكانه حصنه (واهتز بالحنين) أنها فى الأصل أرضنا • نعم يا أولاد •  
لقد عبرنا واستولينا على حصونهم ، واكلنا فيها وشربنا ونمنا •  
آه لو يكون صوت دبابات مصرية • ما الأخبار الآن ياترى •• ؟  
( وتذكر ما سمعه فى الراديو آخر مرة ) آه لو أن الملائكة لازالت  
تحارب معنا ، بالتأكيد ستكون قد تحققت انتصارات أخرى •

واسرع الى الحجرة • كانت ماتزال مضيئة • واستراح الى  
أنها خلت من جثة الاسرائيلى • جميل انهما قاما بهذا الجهد الهائل •  
أين الراديو ؟ ولح حجمه الصغير على سريره فاندفع عليه وفتحه  
والصقه على أذنه وراح يديره على المحطات •• « لا •• أنا لا أريد  
أغاني •• أريد كلمات •• أخبارا ترسم لى خريطة الدنيا من جديد •• »

ومضى يدير المفتاح ، متجاوزا الحانا وشوشرة وصفييرا  
وتداخل أصوات ، وهو يعدو بأنفاسه ، كأنما فى رحلة طويلة ، خلف  
صوت واضح يأتية من مصر •• آه ( وانفجرت ملامحه ) هو ذا  
صوت عربى • مصرى بالذات كم يحب اللهجة المصرية • وكم يحب  
صوت هذا المذيع بالذات •• وتدافعت دقات قلبه مع الكلمات ••  
وانقلبت ملامحه فجأة • ما هذا الذى يسمع ؟ وأحس بكياته يترنح •  
كأن ضربة نزلت على أم رأسه والأرض بالحصن تتماوج به • كانت  
الكلمات رهيبة • بشعة : ثغرة ! فتحتها الجيش الاسرائيلى ومنها  
عبر الى السويس واحتل الزيتية ، وجسر جوى أمريكى يعونه !

وصرخ : لا •• لا •• خيانة • أو اهمال يرقى الى مرتبة الخيانة •  
( وأوشك أن يحطم الراديو • لكنه عاد يسمع ) كانت الكلمات تلقى  
فى هدوء وتهوين مما جعله يوقن بصدقها • وازداد يقينه بسماع  
خبير تكوين جيش شعبى لمقاومة الغزاة وتحرير السويس • وانفجر  
باكيا : لماذا يارب •• لماذا ؟ بعد أن عبرنا ، نهزم من جديد ! يعود



عار الانسحاب ؟ تكف الأغاني وتعود سرادقات الحزن ؟ ورأى وهو  
يبكى « عبد الحليم » يرتدى جلبابا أسود ويندب بنفس الأغنية ٠٠  
اغنية الانتصار : لفي البلاد يا صبية بلد بلد ٠٠ انع مصر يا نور بلد  
بلد ٠٠ الجنازة كبيرة والكفن فيه ابن البلد ٠

ورأى نفسه محمولا في الكفن ٠ أجل ٠ الموت راحة ٠ وإن  
كانت هذه هي الحقيقة فلن يعود الى بلاده حتى لو أتيحت له فرصة  
العودة ٠ « أحفر لنفسى حفرة أختفى فيها من نفسى وأموت » ٠٠  
( وصرخ صرخة مكتومة ) أين كنتم أيها الملائكة حين دخل اليهود  
من هذه الثغرة ؟ ( وتذكر كلمات ايليا ) الملائكة هم الذين ينتصرون ،  
أما أنتم الذين تهزمون ! وأجهش من جديد ٠ واستراح الى انه يبكي  
وحده ، وإن ايليا لا يراه ٠ فليفرغ كل دموعه قبل أن يذهب اليه ٠٠  
ونخطر له أن يفسد الراديو ، حتى لا يسمع ايليا أخبار انتصار بلده  
ويختل التوازن ٠ ومادام قد اختل التوازن فليبدأ النظر الى الأمور  
على ضوء الواقع الجديد ٠ فبدلا من أن يعطيه الراديو ، يهوى به  
على أم رأسه ويسكت أنفاسه في الحال ٠ لقد أصبح في مصيدة ٠  
وما هدير الدبابات التي سمعها الا صوت دبابات اسرائيلية في  
طريقها لتأمين الثغرة ٠ ما العمل ؟ لم أعد في مواجهة فرد واحد  
من أعدائي ٠ أصبحت في مواجهة جيش بأكمله ٠ هل يستطيع ايليا  
اخفائي ؟ لقد أخفيته من قبل ودافعت عنه !

وتنبه الى انه تأخر عليه ٠ فأسرع عائدا اليه ومعه الراديو ٠  
كان يبذل جهدا جبارا ليحفظ تماسكه ٠  
- تأخرت على كثيرا ياربيع ٠ كنت تسمع طوال هذا الوقت ٠  
قال ربيع متحكما في انفعالاته : قل لي ٠٠ ما أخبار الصوت ٠  
صوت الدبابات ؟

— مازال غامضاً • قل لى ماذا سمعت فى الراديو ؟

وفكر ربيع : هل يقول له ؟ مباشرة ؟ ( ونظر فى عينيه ) :  
قل لى يا ايليا • ماذا لو سمعت ان الجيش المصرى دخل اسرائيل •  
دخل تل ابيب ؟

قفز ايليا من مكانه كأنما أصيب بانفجار : هل حدث هذا  
حقيقة ؟ لا • لا • أنت تخرف • أنت تحلم • حلما أسود •  
الوحوش يدخلون بيتى ويأخذون زوجتى ويحطمون مدرستى •  
محرقة جديدة لليهود • هل سمعت هذا حقيقة ياربيع • أعطنى  
الراديو • لماذا لا تريدنى أن أسمع ؟ مات هذا الراديو • أنه  
ملكى •

قال ربيع ، بابتسامة مرة ، قابضاً على الراديو بقوة : اقترض  
أنك سمعت العكس يا ايليا ؟

— اى عكس ؟

— أن جيشكم عبر القنال الى الغرب ودخل السويس أو  
الاسماعيلية ؟

صرخ ايليا : أنت تلعب بى • ليس هذا وقت الافتراضات •  
أعطنى الراديو قلت لك •

، قال ربيع ، ومازال قابضاً على الراديو ، وقد أطل من عينيه  
بريق مخيف • ستقتلون وتبقرون بطون الحوامل مثلما فعلتم فى دير  
ياسين حتى لا يخرج منهن أطفال يحاربونكم حين يكبرون ، وستدكون  
البيوت والمدارس والجوامع والكنائس وخطوط السكك الحديدية  
وخزانات المياه ومحطات الكهرباء ويعم الخراب واليتم والتشرد •  
أنتم وحوش افظع يا ايليا •

وعاود ايليا الصراخ • قل لى ماذا حدث بالضبط لربيع • هناك  
شيء اكيد حدث وتخفيه • اعطنى الراديو • هاته •

( وزفر ربيع ) : ساعطيه بك • ولكن دعنى اولا أنقل لك الخبر  
الحقيقى • خبر سيسعدك بالتأكيد •

ورغم أن ايليا التقط منه الراديو ، الا انه لم يفتحه فى الحال  
سال بفضول •• ولهفة : اى خبر •• وبصدق هذه المرة ياربيع !

– لقد تمكن جيشكم من اكتشاف ثغرة فى خطوطنا ، وعبر  
منها الى السويس • كما تنبأت انت يا ايليا من قبل وانت فى  
الغيوبة !

وأوشك ايليا أن يقفز راقصا مبهيجا • لقد أحس هذه المرة  
بصدق ربيع ، وبامكانية أن يحدث هذا •• يجب أن يتأكد •• آه ••  
لو يكون هذا صحيحا •• وكتم كل مشاعره ملصقا الراديو على  
أذنه ، وسرعان ما وجد نفسه يقفز صائحا •• مهلا : صحيح ياربيع  
•• الذى قلته صحيح • ( ثم مؤكدا لنفسه ) لقد عبرنا واحتللنا  
الزيتية •• و •• آه •• ( بنشوة ) ما هذا أيضا وقاوم فرخته بشدة ،  
فليس كل ما يسعده بالعبرية يقوله لربيع ، ثم متخيلا الصورة الرائعة  
وتلفزيونات العالم تصور رئيسة وزرائهم •• جولدا مائير •• وهى  
واقفة مع القوات الاسرائيلية فى الزيتية • العبقريّة الاسرائيلية ••  
» وما هذا أيضا ؟ « خرجت من بين شفتيه بلا وعى •

– ماذا أيضا يا ايليا • اياك أن تخفى عنى شيئا !

– خبر يريد منك اعصابا من حديد يا ربيع •• او ربما نكون  
قد عرفته قبلى ولم تقله لى !

– ما هو هذا الخبر • قلته بسرعة •

## – جيشكم الثالث محاصر •

صرخ ربيع : لا • كذب • أنت تكذب ( وهجم عليه وراح يهزه من كتفيه ) تكذب •

وزحفت على ربيع تنميطة انهيار شامل •• وتراخت ذراعاها عن كتفى ايليا ، واسودت الدنيا فى عينيه • جيش باكملة يحاصر فى الصحراء وجنون العطش والجوع ، وانخفاض الرأس المهين !؟

وصرخ مقاوما الانهيار : وحتى لو حدث هذا • فلن نستسلم • محال أن نترك جيشنا باكملة يموت • سندمركم ولو كان فى ذلك دمار العالم • ( وشعت عيناه ببريق مخيف ) أمريكا •• هى المجرمة الأولى فى هذه الثغرة • اياكم أن تقولوا أنكم أبطالها • أمريكا هى التى امدتكم ومازالت تمدكم بجسر جوى من الأسلحة ومن البشر •• بطيارين امريكان • مزدوجى الجنسية لكى يفلتوا من المسؤولية الدولية • النفاق الأمريكى • اما أنتم ، فى حد ذاتكم فكيان مش ، بنفخة تطيرون •• وقد جربناكم فى العبور الأول وجربتموا أيضا •• أبدا لا تستطيعون الوقوف بذواتكم •• لماذا لا ترد يا استاذ ايليا • هل تظن أنك تشفق على ؟ لا • وخلص نفسك من هذه الابتسامة وتعال نواصل المحاكمة التى كنت تدعو اليها ، نواصل الحلم الذى كنت تحلم به منذ قليل • حلم السلام • أم كان ذلك من موقع احساسك بالهزيمة •• والآن بعد أن سمعت الأخبار الجديدة لم تعد فى حاجة الى محاكمات ولا أحلام •• تكلم •

قال ايليا وقد تخوف من لهجته وبريق عينيه :

– هذه انتصارات لم تتأكد بعد يارببيع •

صرخ فيه ربيع : لا تقل انتصارات • بل قل شرور وسفالات •  
 لم يهن عليهم أن تحقق مصر لنفسها انتصارا ولو بسيطا تسترد به  
 كرامتها بعد هزيمة ٦٧ • مصر لا يصح أن ترفع رأسها مرة واحدة •  
 مصر يجب أن تظل مطاطة الرأس ذليلة • هذه هى سياسة أمريكا  
 معنا •• وتجار الحرب •• تجار السلام وتجار الأقوات •• أنتم  
 قاعدة الأمريكان فى الشرق الأوسط • أنتم العصا التى يضربونها  
 بها •• ومع هذا تخدعون أنفسكم بالمجد •• وبالعبقريّة الإسرائيليّة  
 أنتم لعبة تجار السلاح فى أمريكا • لكنكم ستدفعون ثمن هذه الفترة  
 غاليا •• ستتحول السويس الى مقبرة كبرى لأبناء إسرائيل ••  
 وسيمتلئ الشعب الإسرائيلي بالأرامل واليتامى •• وهم هناك فى  
 البيت الأبيض والبيت الأسود يضحكون على رنين بلايئهم •• وأنتم  
 تضحكون على أنفسكم بخرافة شعب الله المختار •• أبدا لمستم  
 مختارين من الله ، بل أنتم مختارون من الشيطان •• مجموعة من  
 العصابات تحرككم وتلاعب بكم • لو كنتم مختارين حقا من الله ،  
 لكان دوركم فى العالم غير هذا الدور الشرير •• يجب أن تعرف  
 هذا يا إيليا •• ولكن حتى لو عرفت واقتنعت فما الجدوى •• أنك  
 عاجز •• ( وارتفعت يده فى اتجاه رأسه بينما تراخت عياه ) أو ••

— ماذا حدث يا ربيع ؟

ولم يجب ربيع • كشلال هادر نضب فجأة ، سقط على الأرض  
 متخشباً ، وقد خرج من فمه زبد أبيض • روح إيليا من المنظر ••  
 هل سيموت هو الآخر ؟ هل سينتهى به الأمر أن يصبح وحيدا فى  
 الصحراء مع ثلاثة من الموتى !؟

وانكفأ عليه : ربيع • أفق يا ربيع • لا تتركنى وحدى يا ربيع •

وراح يدعك له فى جيبته مرة ، ويجرى له تنفسا صناعيا مرة

أخرى . لكنه كان غارقا فى الغيبوبة . طمانه قليلا أن نفاسه لاتزال ، لكن النبض السريع أخافه . قد تكون الدقات الأخيرة للقلب ، ثم يأتى بعدها الصمت وكيمياء الموت . ورأى فى موت ربيع موتا له . وأربعه صمت الحصن . وطنين الصحراء . وقد تخرج له أشباح الموتى . « كان يعطينى الاحساس بالأمان . وبالشجاعة أيضا » . أفق ياربيع . أنا فى حاجة اليك . أن نصرا واحدا أو اثنين أو حتى عشرة لذا أو لكم لن يحسم هذه الحرب . قم لتعود الى « نور » حبيبتيك ، كما أتى أريد أن أعود الى زوجتي سارة – هل تسمعى ياربيع . هل أنت عطشان ؟ وبرقت فى رأسه الفكرة : ربما الماء يعطيه شحنة حياة .

واندفع الى حيث تركا الزمزية . زمزية يوسف . وعاد مسرعا بها . وفكر فى نفسه : انها شربة ماء واحدة . فماذا لو شربها ومات . يتركزنى لجنون العطش مرة أخرى ١٩

ومع هذا ، فقد وجد نفسه ينحنى على رأس ربيع بالزمزية ، سيبلل شفثيه بالماء . قطرة قطرة . وان وجد فمه مقفولا يقوة عصبية خطرت له فكرة تحمس لها : يقطر الماء فى أنفه ، فربما يحصل للجسم كله رد فعل آلى وتنشط حركته .

وليسعاده الكبرى حدث . ما أن وضع فى فتحة أنفه قطرة ماء ، حتى رأى الجسم النائم يختلج ليطررد نقطة الماء ويستمر التنفس .

– اصح ياربيع . اصح يا صديقى . فما سمعناه لم يكن غير قوهم . أن الحقيقة هى البؤس الذى جمعنا وجعلنا صديقين . خذ بعض نقاط الماء فى فمك .

كانت الاختلاجة التي حدثت ، قد أرخت قليلا من عصبية  
فم ربيع واستطاع ايليا أن يدخل فتحة الزمزية برفق بين شفتيه  
وراح يسكب قطرة قطرة • وزغرد قلبه بالفرح أن رأى ربيع يبتلع ،  
ببطء وصعوبة •

— عظيم يارب ربيع •• أشرب •• انها آخر شربة لدينا •  
وبمعاناة هائلة حرك ربيع أصابع يده علامة الاكتفاء •  
واستطاع أيضا أن يفتح عينيه ، وأذ رأى ايليا أمامه •  
— شكرا • يا ايليا •• أريد أن أنام ••

قال ايليا بفرح وحماس :

— نم يارب ربيع • انت فعلا متعب • وأنا أيضا أريد أن أنام ••  
أنا أيضا متعب • لقد اختفى صوت الدبابات • اختفى تماما • وعاد  
الهدوء •

وربت ربيع بيده على الأرض بجواره •  
— نم هنا يا ايليا •• بجانبى •• أريدك بجانبى ••  
— ها أنا بجانبك يارب ربيع •• ( وتمدد بالفعل بجواره •• كنوع  
من التشجيع ) •

— النوم يا ايليا جميل •• هات يدك ••

— هاهى يدى •

لم يستطع أن يمسك بيد ايليا •• لمسها فقط •

— تعبنا كثيرا يا ايليا •• وتكلمنا كثيرا •• فلنسترح قليلا  
من الكلام ، ومن النظر : لا تفتح عينيك يا ايليا •• اغمضهما مثلى  
تستريح ••

– اغمضهما ياربيع ( واغمضهما بالفعل ) والنوم يزحف ٠٠  
كان اتفاقنا ياربيع أن ننام ٠٠ استعدادا لرحلة العودة ٠٠ وهانحن  
ننفذ اتفاقنا ٠٠ النوم على الأرض أجمل من النوم على السرير ٠٠  
ليس كذلك ؟

ولم يجبه ربيع ٠٠ أدرك أنه غرق في النوم ٠٠ فليأخذ هو الآخر  
سنة من النوم ٠٠ يريح الجسم المكثود ٠ وتوقف عقله ٠

راح هو الآخر في نوم عميق ٠

\*\*\*

بعد فترة لا يستطيع أحد حسابها ، استيقظ الاثنان ٠ وكان  
أول من استيقظ هو ربيع ٠ كان يحس بأعضائه مفككة ٠ وآلام  
كبرى تسرى في جسمه ٠ واذا راح يتذكر بالتدريج ما حدث عاوده  
التحفز ٠ قاوم آلامه ونهض من رقدته ٠ ولاحظ في الخارج ضوء  
النهار ٠ هل نأما ليلة واحدة أم ليالى وأيام ٠ ورأى لحيه ايليا  
النائم وقد طالت وهاشت ٠ فتحسس لحيته هو الآخر ٠ « كائننا  
أهل الكهف ٠٠ أيمن أن نكون تجاوزنا سنينا وعصورا وأجيالا ،  
ونحن الآن في عصر آخر انتهت منه الحروب وسماده الهدوء  
والسلام ؟ » فجأة اضطرب كيانه وأصاخ السمع ٠ نفس الصوت  
٠٠ صوت الهدير ٠٠ يقترب ٠٠ واندفع الى فتحة الحصن ليرى ٠٠  
قلم ير شيئا وان كان الهدير آخذا في الارتفاع ٠

وفكر : ترى نا شكل الخريطة الآن بعد فتح الثغرة وحصر جزء  
من قواتنا ؟

وجرى على ايليا : اصبح يا ايليا ٠ صوت الدبابات عاد ٠٠  
وهو قريب منا هذه المرة ٠



قفز ايليا مفزوعا : اين ٠٠ ما شكلها ؟!

— انا اكلمك عن صوتها ٠٠ اما هي فلم تظهر بعد ٠٠ تعال  
نرقبها من هنا ٠٠

فجأة صاح الاثنان فى نفس واحد :

— دبابات مصرية !!

ورغم انهما قالاهما بصوت واحد ، الا ان النغمتين كانتا  
متناقضتين : المصرى املا ٠ والاسرائيلى احباطا ورعبا ٠  
وقال ايليا فى نفسه : قد تكون دبابات منسحبة عائدة الى  
بلادها ٠

وقال ربيع مقاوما رغبة فى الخروج الى العراء ويصبح :  
النجدة ٠ انا مصرى ٠ فيرونيه ويلتقطونه ٠ ولكن : قد تكون دبابات  
اسرائيلية ممومة ، من اجل تأمين الثغرة ٠ لابد من الحذر ٠

وتعالى الهدير ٠ وازدادت الدبابات ضخامة وهى تقترب ٠٠  
كتل وحشية حديدية زاحفة تثير حولها عواصف رملية ٠٠ وخيل  
لكل منهما أنه يسمع دقات قلبه ٠٠ هذه الدبابات تحمل الانقاذ  
والحياة لواحد منهما بالتاكيد ٠٠ ولكن كيف اليقين ؟

فجأة ، توقفت الدبابات ٠ لماذا توقفت هنا ، فى المقابل تماما  
لحصنهم ؟!

تبادلا نظرة سريعة ٠٠

— احترس من أية حركة ٠٠

وفوجئاً بعربتي جيب تظهران بعد آخر دبابة ، ثم تتوقفان فى

غموض • وتحولت دقات قلبيهما الى طبول • ورايا دبابتين تفتحان  
وبعض رجال يهبطون الى الأرض قفزاً بأسلحتهم •

ومع الصدمة الهائلة التي أصابت المصرى ، وجد ايليا نفسه  
يصيح مهللاً : اسرائيليون • ( وانطلق جريا اليهم وهو يواصل  
الصياح ) العبقريّة الاسرائيلية • يا أحبائى • انا اسرائيلى • انا  
اسمى ايليا رابين • ( ومضى يجرى اليهم قاردا ذراعيه للأحضان ) •

خوف هائل اكتسح ربيع •• امثلاً بالاحباط وبالفجيعة • فى  
لحظة واحدة تعرى كل شيء • أهكذا يتركه دون حتى أن يسلم عليه  
أو يطمئن على موقفه • أكثر من هذا قد يرشد عليه • وغامت الدنيا  
فى عينيه وهو يرى ايليا يعانق أبناء وطنه ويعانقونه • وتمنى لو  
أن هذا يحدث له • « لكنى وقعت فى المصيدة ولا بد أن اتصرف  
بسرعة •• أم •• أخرج رافعا ذراعى وأسلم نفسى بهدوء •• أتجنب  
أى احتمالات للعدوان أو التوحش • سنوف ينتقمون لموت أيزاك  
منى •• ليتى كنت غطيته بالرمال وأخفيته !

ورأى الاسرائيليين يتقدمون بخطوات مسرعة فى اتجاه الحصن  
ومعهم ايليا •• كان يتحدث مع رتبة كبيرة ويشير على الحصن ••  
هل خانه وأرشد عليه ؟ أم أنها عملية استطلاع واسترجاع لحصن  
مهم سقط منهم ؟

وارتد مسرعاً •• وتخبط فى عتبة السرداب ، ثم اندفع الى  
المطبخ يلتمس مخبئاً فيه •• آه •• خلف الثلاجة •• وتكرر على  
ذاته ••

أما ايليا ، فما كادت لحظة العناق الرائعة تنتهى ، حتى انتهى  
معها سحر المعجزة • فقد بدا أن كل شيء يتلاحق ويلدفع بقوة غير

منظورة ، وأن هناك أمورا أخرى أخطر من أنقاذ حياته • ونجدت نفسه مواجهها بأسئلة حادة وسريعة من القائد • كان باتر اللهجة والنظرات ، وفكر للحظة أنه المانى المولد • وكان الجنود يصغون الى اجاباته على أسئلة القائد بفضول وقلق ، وغيونهم تدور في محاجرها بحذر ، خوفا من أى هجوم مفاجئ • وحدهم عن هجوم المصريين على الموقع • والمركة الوحشية التى نشبت ، ثم ذلك المنطقة بالقنابل ، ثم سقوطه فى الغيبوبة فلم يدر شيئا بعد ذلك مما حدث لزملائه • فقط « ايزاك » هو الذى بقى فى الحصن ولكنه كان ميتا • مات وهو جالس يأكل • ورأى الغيظ والتلمظ يرتسمان على الوجوه • • فجأة ووجه بالسؤال :

— هل يعنى هذا أنك وحدك ؟ اليس فى الحصن أحد ؟

وارتسمت امامه صورة ربيع • أحس بخلخلة كبرى وأنه يكاد يسقط • قال مجاهدا الا يبدو عليه أى اثر للكذب : نعم ( وباللهجة سريعة ) لم يبق معى غير جثة ايزاك ، وجثة جندى مصرى • • مات وهو ينزف •

وساله القائد وفكاه يرتعشان : وأين جثة ابننا ايزاك ؟

— فى الخندق الأمامى • لم أجد مكانا أنسب منه لدفنه •

قال القائدة مخاطبا جنوده : فلنحملها ونسلمها اليهم ( وأشار على عربتي الجيب ) ولكن • • أولا نطمئن على تطهير الحصن • •

سقط قلب ايليا فى قدميه • • ماذا سيكون موقفه حين يقبضون على ربيع ويكتشفون كذبه ؟ • • كانوا يتقدمون الى الحصن بحذر ، شاهرين أسلحتهم •

— مرة أخرى • هل انت متأكد من أن الحصن خال من

الأعداء ؟

قَالَ بَلْقَة : نعم ٠٠ ( وود أو يقول : ربيع ليس عدوا ٠٠ وهو  
اعزل ٠٠ ليس منه أى خطر ) ٠ ( ثم مهونا ) لم يعد فى الحصن غير  
انهيارات ٠ فلنحمل جثة ايزاك ونمضى ٠

وانذ بلغوا الخندق واطلوا فى جوفه ليروا جثة ايزاك ، رأوا  
جثة اخرى منبطحة فوقها ٠٠ صاح القائد فى دهشة وفزع :

— من هذا ؟

قال ايليا وقد طأطا رأسه : مصرى ٠ وجدته ميتا ، فدفنته  
معه ٠٠

وارتسم اشعثزاز وغضب هائلين على وجه القائد : تدفن مصرى  
مع اسرائيلى ٠٠ ياخنزير ٠٠ هل اصابتك لوثة ١٩

وأحس ايليا بالاهانة ٠٠ لكنه ابتلعها ٠٠ كان يحمل هم الجنود  
الذين دخلوا الحصن واكتشافهم لربيع ٠ وتلعثم ٠  
— قلت اتخلص من رائحته ٠

— وتترك رائحته تلوث جثمان ولدنا الطاهر ٠٠ ( وانطلق من  
عينيه بريق مخيف ) لقد لوثت شعبا بأكمله ياملعون ٠٠ شعب الله  
المختار ٠ عقابك يجب أن يكون فى أوسع ميدان ٠

وأحس ايليا بخزى شديد مع نفسه ٠ لولا كذوبته الكبرى عن  
ربيع لرد عليه الاهانة بأقسى منها وليحاكم فى أوسع ميدان أمام  
شعب الله المختار ويقول لهم تجربته ٠٠ لكن عقله كان وراء الجنود  
الذين دخلوا الحصن : ماذا ياترى ٠٠ ولم يكتمل سؤاله ، فقد رآهم  
يخرجون وأمامهم ربيع رافعا ذراعيه بحركة استسلام ٠ وانذ جاءت  
عينا ربيع فى عينيه ، أحس فيهما بالاثهام وبالفجعة ٠ وود لو  
يصرخ : أنا لم أرشد عليك ٠ العكس هو الصحيح ٠ واياك أن تبدر  
منك أية حركة أو كلمة يعرفون منها أننا صديقان ٠

غير أنه أرتج على صوت القائد : كنت تعرف أنه موجود  
وتكذب علينا .

ولم يرد ايليا . كان ذلك دليلا قاطعا على كذبه .

وتحول صوت القائد الى فحيح : اعترف انك كذبت علينا ،  
وعرضت أفرادا من جيش الدفاع للخطر .

قال ايليا مدافعا بثقة : ليس منه أى خطر . أنه أعزل كما  
ترون .

وصرخ القائد : جبان . رعديد . هذا هو سر هزيمتنا الأولى  
( ثم للجنود ) لابد أن يحاكم محاكمة ميدان . فليس لدينا فى اسرائيل  
وقت لك ايها الكذاب الخائن . أين جهاز اللاسلكى ؟

وأسرع أحدهم اليها بجهاز صغير ، فتناوله منه وابتعد خطوات  
وراح يتحدث بكلمات ، وفوجيء ايليا وربيع ياحدى العريتين تتحرك  
وتقبل مسرعة ، وفى الحال نزل منها ضابط كبير وفى اثره آخران .  
هل هؤلاء هم هيئة المحاكمة . وداعب الأمل ايليا أن يجد لديهم صوت  
العقل والتأخى وتقدير الظروف . . وشجعه أن رأى القائد الجديد  
يسأل فى هدوء : ما الحكاية ؟

قال القائد الأول : جريمتان يحاكم عليهما . الأولى انه أخفى  
اثناء الحرب عدوا . . أخفاه عمدا وكذبا ، ولم يعبأ بتعريض حياتنا  
للخطر . والثانية أفطع وتكشفس عن حقيقة فكره ، فقد دفن كلبا  
مصريا بجوار جثة اسرائيل فى حفرة واحدة . سبى . لا تظنوا أنه  
مجنون . انظروا فى عينيه لتدركوا أنه ارتكب الجريمتين بمنتهى  
العقل والوعى .

قفزت الكلمات من ايليا : نعم .. لست مجنوناً ، وما فعلته  
ليس بجريمة !

وصاح القائد وقد عاودت الرعشة فكيه : هل سمعت ياسيدى ؟  
على كل حال ، فى وجودكم يصبح مثله ليس من اختصاصنا ..  
( ونفخ بأنفه ) انتم المخابرات الاسرائيلية قادرون على اكتشاف  
حقيقة هذه النوعية والتعامل معها . نحن فى مرحلة مصيرية  
ياسيدى . وجيشنا بل واسرائيل كلها يجب أن تتطهر من هذه  
النوعية ..

- بل من نوعيتك انت ايها المتعصب الأعمى .. هاهو امامك  
اعزل .. رافعا يديه فى استسلام ، يكاد يسقط من التعب ، ومن  
الجوع والعطش ..

ورغم أن ربيع لم يكن يعرف العبرية التى كانوا يتكلمون بها ،  
الا انه صاح بالانجليزية وقد أدرك المازق الذى وقع فيه ايليا بسببه :  
لا يا ايليا . لا تضحى بنفسك من أجلى . دعهم يفعلون بى ما  
يشاءون .

ذهل الجميع .. وارثست على شفتى رجل المخابرات ابتسامة  
غامضة وقال بهدوء ، وهو يتنقل بنظراته بين ايليا وربيح :

- واضح أنكما صديقان . ليس كذلك يا ايليا ؟ ( والتفت  
الى المصرى ) وأنت يا .. مصرى .. واضح أنك مثقف وتجيد  
الانجليزية . ( قالها بالانجليزية متكسرة ) قل لنا ما اسمك ، وعملك .

قال ربيع بهدوء شديد : اسمى ربيع عبد الحكيم . متخرج  
من كلية الزراعة .. تخصص كيميا أراضى ..

– أوه عظيم • أنت على درجة عالية من الثقافة ، وتحمل السلاح وتحارب أيضا •• وما هي الكتيبة التي كنت تحارب معها إذن ؟

لم ينطق ربيع بحرف • أرخى عينيه ملتزما الصمت •

– مثقف ومحارب ومخلص لبلاده أيضا • ( والتفت الى ايليا )  
فلنرى مدى اخلاص ابننا ايليا لبلاده • فلنتناقش في بعض الأمور ••  
أما اخوتنا ( وأشار الى قائد الدبابات الأول علامة الانصراف )  
فلتفضلوا أنتم •• امضوا في طريقكم كما هي الخطة المرسومة  
واطمئنوا على سلامة صفوفنا • سوف نلحق بكم بسرعة •

– هل ستحفظون بالمصري أيضا ياسيدى ؟

– نعم •• ألم تتأكدوا أنه أعزل ؟

– لقد فتشناه جيدا ومع هذا يجب الحذر منه ؟

– اطمئنوا • و ( اشار الى العربية الأخرى ) ونحن ثلاثة ••  
مسلحون جيدا •• ( وأشار على رجلى المخابرات الآخرين اللذين  
تحسسا على الفور اسلحتهما •• ثم للقائد الأول وجنوده بلهجة  
منذرة ) : أنتم لم تروا شيئا •• لم يحدث أى شيء • ستكون  
المحاكمة على أضيق نطاق ، حتى لا يحدث أى اثر سيء على سير  
المعركة •

رفع القائد الأول يده بحركة تعظيم عسكرية ، ثم مضى منصرفا  
هو وجنوده الى دباباتهم • وفى أقل من دقيقة كانت الدبابات تمشي  
مبتعدة يضجتها • ولم يبق فى الموقع سوى ضباط المخابرات الثلاثة ،  
وايليا ، وربع ، رافعا – لايزال – ذراعيه ، والجثتان فى الحفرة ،  
الجيب الأخرى الواقعة بعيدا ترقب فى غموض •

قال الضابط يهنوء ، بالغبرية ، راسما على شفثيه ابتسامة  
ثمنى ايليا أن يصدقها فقد توجس شرا من ملامح الرجلين الآخرين  
ومن نظرات عيونهما وهما واقفان يرقبان الموقف فى صمت مخيف .

— ها أنت يا ايليا رايت حرج اللحظة التى نحن فيها ، والوقت  
لا يحتمل أية مناقشات . ومع هذا ، فنحن نعطيك الفرصة كاملة  
لقدافع عن نفسك فى الاتهامين الموجهين اليك . ولو أنك مكانى لفعلت  
مثلى . وتكد أننا يهمنى تبرئتك كجندى . واساسا كانسان ينتمى  
الى الشعب اليهودى ، ليس فقط أمام اسرائيل بل أمام العالم كله ،  
فالجريمتان بشعتان يا ايليا كما سمعت من قائد الدبابات . قل لنا  
ما اسمك ووظيفتك وأين ولدت .

— اسمى ايليا رابين . مولود فى بولنده . فى وارسو .

— آه . لم تولد اذن على ارض اسرائيل .

— للأسف ياسيدى . وجئت الى اسرائيل مع أبى وامى  
هربا من الغزو الألمانى ، وأعمل مدرس أنثروبولوجى . ومتزوج من  
مدرسة أطفال ، وشاركت فى حربى ٦٧ و ٧٣ .

— وأنت اذن صاحب تجربة عالمية فى الاضطهاد يا ايليا .  
فكيف سمحت لنفسك وأنت المثقف والمدرس الذى يرى أجيالنا  
الجديدة بأن تكذب وتخفى عدوا والمعركة دائرة ، معرضا زملاء لك  
للخطر . هل هذا هو الوفاء للبلد الذى ضحك من الشتات !

قال ايليا بصوت يملأه التوسل والناشدة : صدقنى ياسيدى  
كنت واثقا الا ضرر منه . فها أنتم ترونه أعزلا ومتهاقنا وغير قادر  
على الوقوف . ثم هو — ان أردت الصدق الكامل ياسيدى — أنقذنى  
من زميل له كان سيقتلنى ، كما أنقذنى أيضا من العطش !



— تتكلم عنه بعاطفة شديدة • نحن طبعاً لسنا ضد التصرف  
الانسانى ، ولكن ، هل انت واثق أنه لا يخفى قنبلة أو سلاحا يرجى  
استعماله للوقت المناسب • ألم تسمع عن مكر المصريين ؟!

وود لو يقول له : المصريون ليسوا أمكر من اليهود •

قال : أنا واثق ياسيدى • فقد كشف لى كل نفسه • أنا عندى  
حاسة أعرف بها الصدق من الكذب •

— جميل أنك تملك هذه الثقة الاسرائيلية بالنفس • كنت تقول  
أنه كشف لك عن كل نفسه • هذا يعنى انكما تكلمتما معا كثيرا •

— لفتل الوقت ياسيدى •

— كم من الوقت قضيتما معا ؟

— لا أدرى ياسيدى • لقد فقدت الاحساس بالزمن ••

— وفيما كنتما تتكلمان طيلة هذا الوقت ؟

— فى كل شىء وفى أى شىء •• وقد وجدتها فرصة لكى  
أتعرف على تفكير واحد من هؤلاء المصريين •

— ووجدت تفكيره طيبا ومسالما وضد الحرب يا ايليا اليس  
كذلك ؟

— لا ياسيدى •• ليس بالضبط •• هو مع الحرب حتى تتحرر  
الأرض الذى يرى اننا اغتصبناها منهم ••

— ووافقته على ذلك يا ايليا ، لكى تحافظ على حياتك !

قال ايليا بقوة : لا ياسيدى •• أنا لم أكن جباناً معه • وهو  
ايضا •• للحق •• انما كنا نتناقش مجرد أفكار نعرض بها القضية •

— أية قضية ؟

— قضية الحرب والسلام .

— واتفقتما فى النهاية يا ايليا . . وأصبحتما صديقين .

• ثمة رعشة خاطفة فى عيني الرجل أحس ايليا معها بالخطر .  
وتذكر فجأة أسلوب رجال المخابرات . التفتيش داخل العقل ،  
مع المبالغة فى الاشعار بالأمان لادخاله المصيدة واحكامها عليه .  
— لم نتفق بعد ، على شىء ياسيدى .

• وفوجيء بأحد الرجلين الصامتين ينقره بعينه : أنت تكذب .

قال الرجل الأول مشـيرا لزميله بالهدوء : لا داع أن نفقد  
أعصابنا . ( ثم لايليا ) لم أقصد أنكما اتفقتما على فعل عاـدى معاـدى  
بل أقصد انكما اتفقتما فى الأفكار . . وذلك شىء طبيعى وانسانى  
بحكم الظروف .

— هو ذاك ياسيدى . ونحن نهذى من العطش . كنا نحلم  
بيوم يأتى فيه السلام ويظلل كل المنطقة . وأظنك ياسيدى تحلم بهذا  
اليوم أيضا . . اسرائيل كلها تحلم بالسلام .

— هذا صحيح يا ايليا . . ولكن كيف . قل لنا ، فقد نستفيد  
برأيك . لقد سئمتنا هذه المجازر التى لا تنتهى ، ما الحل فى رأيك ؟  
هـ ؟

— وما قيمة رأيى والطوفان على أشده !

— قد نستهدى به لوقف الطوفان . قل ما فى نفسك يا ايليا  
وبكل صراحة .

— لقد تعقدت المأساة ياسيدي وأصبح كل منا ينادى بالثأر لموتاه ٠٠ والنتيجة مزيد من الموتى والضحايا ٠٠ هناك شيطان ياسيدي يصب الزيت على النار كلما رآها توشك على الهدوء والانطفاء ٠ ولا اكتفك سرا لو، قلت لك أن هؤلاء هم تجار السلاح الذين يخافون بوار صناعتهم وتجارثهم في أمريكا ٠٠ لقد استغنوا عن سلاح الاتحاد السوفيتي ٠ فلنستغن نحن أيضا عن السلاح الأمريكي ، ونتواجه بالعقل ٠ نتصارع بالفكرة ٠٠ بل لماذا نتصارع ٠٠ ونحن أبناء عمومة ٠٠ ؟ أينام منطقة واحدة وتاريخ مشترك واحد ٠٠ انبأ في الحق ياسيدي ، ولو رجعت للتاريخ ، أقرب الى المصيريين والعرب منا الى الأمريكان ٠٠ هنا كان أصل مولدنا ونشأتنا ٠٠ وهنا تجسد لنا حلمنا بالاستقرار ٠٠ فكيف نستقر ونحن نجعل من مستقرنا جريزة مجاعة بالإعداء ٠٠ لقد اضطهدنا حقا ياسيدي ٠٠ ولكننا لسنا وحدنا المضطهدين ٠ المصريون تاريخهم اضطهاد وكذلك كل البلاد العربية ٠٠ كلهم كانوا محتلين مستعمرين ٠ فلم لا نبدا جميعا عصرا متحررا من الاضطهاد ومن الاستعمار ٠٠ نحن نستطيع أن نكون مجموعة بشرية رائعة في هذه المنطقة ، لو نستطيع فقط أن ننسى ما راح منا من ضحايا ٠ لو صدقنا أن هذه الضحايا — حقيقة ياسيدي — لا تريد الثأر ٠٠ بل قفل كتاب الحرب وبدء كتاب السلام ٠

— وكيف يبدأ كتاب السلام يا استاذ ايليا ؟

— هو ليس كتابا ياسيدي ، ولا حتى صفحة ، بل هو مبدأ نتفق عليه جميعا ، في جملة واحدة : فلسطين اسرائيلية ، وفلسطين عربية ، وينشأ بينهما ، مع الأيام ، وحدة أو اتحاد !

ورأي فكي الرجل يرتعشان ٠ لكنه قاوم غضبه ٠ وتبادل مع الرجلين الآخرين نظرة ٠ ثم قال وقد أخفى كل مشاعره الداخلية ٠

- وحدة أو اتحاد .. ولهذا وحدتهما في القبر .. دفنتهما  
في قبر واحد .. رمزا للسلام المرتقب .. اليس كذلك يا ايليا ؟ أنت  
تدافع عن نفسك في الجريمة الثانية ..

- سيدي ، انه الأمر مضحك أن نعتبر دفن المصري بجوار  
الاسرائيلي جريمة كما قال قائد الدبابات المحترم .. لقد ماتا وسيذهبان  
الى لقاء ربهما .. لقد دخلا في رحاب الرب فلا معنى للتفرقة بينهما ..  
الرب هو الذي يجرى التفرقة بينهما كما يشاء .. يجب أن نبدا  
تفكيراً جديداً في هذا الموضوع .. وأقولها لك بصراحة أكثر  
ياسيدي .. لقد صليت على هذا الرجل المصري الميت ( وأشار على  
الجثة ) دون أن أعرف بالضبط ما هو دينه ، وكذلك هذا المصري  
- ربيع - صلى على ايزاك صلاته الاسلامية رغم أنه يعرف أنه  
يهودي .. إذن من الممكن ياسيدي .. أهل الأديان الثلاثة يمكن أن  
يعيشوا معا على أرض واحدة في سلام ..

قال الرجل وهو يتبادل نظرة جديدة مع الرجلين الآخرين ..  
كأنما ينفقان على الحكم .. نقطة بنقطة ..

- وما رأيك في الثغرة التي أحدثناها .. واحتلال السويس ،

- رأيي الحقيقي ، ليس الآن ياسيدي .. فأننا يهمنى سير المعركة  
الآن وانتصار وطني اسرائيل ..

- واضح أن لك رأي يا ايليا .. ويجب أن نعرفه ، فقد تكتمل  
استفادتنا منه .. تكلم يا ايليا بالصدق الذي تتميز به شخصيتك !

- رأيي ياسيدي .. رأيي أيها السادة .. ان كان ماحدث  
يؤكد العبقريّة الاسرائيلية ، ويؤكد صداقة أمريكا الحميمة لنا .. إلا  
أننا بهذا العبور إلى السويس نعتقد المشكلة .. ان اسرائيل بهذا تزدد ..

تضخما .. لا يتناسب مع حجمها .. فلنحذر ياسيدي فهو تضخم  
غير طبيعي .. فيه كيمياء الموت .. مثل تضخم هاتين الجثتين ..  
يجب أن ننسحب بسرعة .. هذا لو كنا حقا نملك تقرير مصيرنا  
.. والا ..

وانقطعت كلماته على صرخة من أحد الرجلين الصامتين :  
كفى ( وراه يميل على قائدهم بصوت كالضحك ) هذه النوعية  
لا يصح أن تدخل إسرائيل ، فقد دخلها الميكروب الخبيث ويجب أن  
تباد بسرعة .

— وهذا أيضا خطير ( ونظر الى المصري ) يجب أن يباد  
هو الآخر .

— أجل وضماننا مطمئنة . يجب أن نلحق بقواتنا بسرعة ،  
فربما الميكروب بدأ ينتشر في قواتنا وقواتهم . فلنسرع .. انتهت  
الحاكمة .

ورأى ربيع الذي كان واقفا يرقب ويسمع دون أن يفهم ،  
رأى أحد الرجلين الصامتين يضع يده خفية في جيبيه الخلفي ثم  
يخرجها ويوجد نفسه يقفز على يده التي تحمل مسدسا وهو يصرخ  
بالعربية :

— لا .. لا تقتلوني .

لكن الرصاصات من الرجال الثلاثة انهالت عليه ، فارتدى على  
الرمل ساكنا بلا حراك .

وروع المنظر ايليا فانتابته لومة صراخ : ايها الوحوش . لماذا  
قتلتموه .. كان يمكن أن تأخذوه أسيرا .. ربيع انسان طيب ..  
انسان وفي .. مخلص ..

وبابتسامة ملتاثة : اتريد أن تعرف لماذا لم نأخذ أسيرا ؟  
لأن الأسير قد يعود يوما الى بلاده ، وهذه النوعية لا يصح أن تغود  
الى مصر ، تماما كنوعيتك يا أستاذ ايليا • لا يصح أن تعود الى  
اسرائيل • ولهذا ( وشد من قامته واندلع من عينيه بريق رهيب )  
لقد حكمت المحكمة عليك • بالاعدام !

واذ رأى الرجلين الآخرين يصوبان عليه مسدسيهما فى هدوء  
وجد نفسه يصرخ : لا • لا تقتلونى • هناك استئناف • وهناك •

وتوقفت كلماته على شفثيه واتسعت عيناه بالعرب وهو يرى  
الرصاصات تنهال عليه ، ، فسقط على الأرض مضرجا بالدماء •

— الآن تطهر شعب الله المختار • تطهرت اسرائيل •

وبلغت سمعه الكلمات وهو ملقى على الرمل • وجاء ينطق فلم  
يستطع ، ومع هذا فقد راح يجاهد • يريد أن يختم المحاكمة •  
وبالفاظ متقطعة • غائبة •

— الآن أدركت سر المأساة ( ونظر الى قاتليه ) : من نوعيتكم  
• أنتم • يجب • أن تتطهر اسرائيل • نوعيتكم هى التى •  
تاجرت باليهود • طوال التاريخ • هتلر • لم يمت حتى الآن •  
— ماذا يقول :

— لم أسمع كلماته • ها قد لفظ آخر أنفاسه •

وأعادوا أسلحتهم الى أماكنها • كانوا ينظرون الى الجثتين  
المضرجتين بالدماء • والنفتوا الى الجثتين الآخرين فى أعماق  
الخدق •

— فلنسحبهما ونلق بهما فى الحفرة ، ونغطيهما ببعض الرمال •

- وهذه الدماء أيضا يجب أن تزال ..
- كان صوت الدبابات قد اختفى ..
- من السهل ازالة الأثر من على الرمال .. بالرمال ..
- وتبدلت النظرات بلاى كلام : عظيم أن أحدا لم يرنا ..
- ونفضوا الرمال عن أكفهم ، وركبوا العربة الجيب وتبعتهم  
العربة الأخرى ..
- وعاد السكون الى الصحراء .

« أغسطس ١٩٧٨ »





# • امْرَأَةٌ فَوْقَ الثَّلَجِ

---

قصة امرأة من الشمال  
وثلاثة رجال من العالم الثالث



## ( ١ )

ما كان يخطر ببالي وأنا أضغط على جرس هذه الشقة ، انى أدق  
جرس أحداث قصة غريبة ومثيرة سرعان ما ستكشف لى عن نفسها ،  
بمجرد أن انفتح الباب وأطلت « هى » بوجهها ، وقوامها ، ومن  
فرط الجمال ، جمال الوجه وجمال القوام ، خشيت أن اكون أخطأت  
الشقة ، وهممت أن أسأل معتذراً ، أن كانت هذه هى شقة صديقى  
« فأضل » العراقى ، وإذا بها تسرع باستقبالى مرحبة ببعض  
التحفظ :

— مستر مصطفى . المصرى . اليس كذلك ؟

هزئت رأسى مؤكدا بفرح ، سعيدا بكلمة « المصرى » طالعة من  
بين شفثيها اللانيتين الجميلتين . . بالانجليزية .

— نعم . . انا هو . .

طار عنها التحفظ . . أضواء وجهها الجميل بالترحيب . .  
وأشارت بذراعها البض العارى :

ـ تفضل بالدخول • فاضل سيكون هنا بعد قليل •

دخلت • واغلقت باب الشقة •

لو أن فى الفوضى أحيانا جمال له طعمه وموسيقاه الخاصة ،  
فهو فى شفق المحبين الصغيرة حين تكون الحياة فى فوريتها وتأججها  
وليست فى مرحلة ثباتها ونظامها • تذكرت أيام عزوبتى بالقاهرة •  
ابتسمت لمنظر منضدة الطعام الابنوسية المستديرة ، والتي تحتل  
جزءا من المدخل • كتب وأطباق وأكواب شاي واسطوانات موسيقى،  
وفازة بها زهور عمرها أيام • همست لنفسى « لا وقت للنظام » •  
الوقت هنا •• للحب •

وتصاعدت نغمة المرح • لفت نظرى مشجب •عالى ينتمى مثل  
• المنضدة الى طراز أوروبى قديم • نصفه العلوى مغطى بكومة ضخمة  
من الملابس •• ملابسها وملابسه •• متداوية ومتداخلة فى بعضها •  
ولأن لا شئ يجسم علاقة الرجل بالمرأة مثل علاقة ملابسها بملابسه،  
فقد أيقنت أن هذا الجسم الرائع يختلط بجسد صديقى العراقى •  
تفتحت مسامى • « مريحى يا أبناء العالم الثالث • انكم تعطونى  
الأمل فى المستقبل » • تصاعدت النغمة المرحية ، وفرحت انى قبلت  
منه هذه الدعوة •

على كنبه مريحة وثيرة نصف عمر ، اشارت لى بالجلوس •  
جلست • ظلت هى واقفة • كان يبدو عليها العجلة • قالت ، مواصلة  
ترحيبها :

ـ شاي • أم قهوة ؟

تذئبت لو أجيب مباشرة بقولى : لا شاي ولا قهوة • الأفضل أن تجلسى أنت معى حتى ياتى فاضل ، وبتكلم • وجميل أنك تعرفين الانجليزية • لكننى امسكت • اعرف شغفى بالجمال ، لكنى أعرف ايضا كيف اكبت شغفى هذا ازاء الجمال الملوك للآخرين •

لم يكن الوجه هو الباهر وحده ، بهالة الشعر الذهبى الفاتح المنسدل على كتفيها ، بل الصدر أيضا ، بنوع خاص ، نهذان معتلئان يكادان أن يقفزا من فتحة الثوب القصير الضيق الذى ترتديه • وفكرت كملاحظة : نادرا ما تجتمع هذه النهود مع هذه الرشاقة فى البلاد الأوروبية •

قلت مسرعا : الأفضل قهوة • سكر خفيف • ( ثم مشيرا على رف عليه صف من الكتب ) ولو سمحت لى ، ألقى نظرة على هذه الكتب •

قالت متحمسة : اوه بالطبع • هذا شئ جميل • لكن معظمها بالألمانية • هل تعرف الألمانية ؟

قلت معترفا : بضع مفردات قليلة مع الأسف ( وبالألمانية ) صباح الخير • نوم طيب • مدهش • • وبضع كلمات أخرى •

استقبلت ردى بنصف ابتسامة • • تساءلت فى نفسى :

اين النصف الآخر من الابتسامة ؟ • • فى عينيها شعاع ذاهب الى بعيد ، وشعاع آخر معى • قالت معلقة على حصيلتى المضحكة من اللغة الألمانية :

يمكنك أن تحاول ( وأشارت على الكتب ) بينما انا أصنع لك القهوة ، واتباع الطعام على النار • فاضل سيصل كعادته يصرخ من الجوع •

واستدارت متجهة الى المطبخ • وجدتنى مشدوداً لمتابعة خطوط  
واستدارات قوامها الطويل الرشيق من الخلف • « ليس جوع فاضل  
للطعام الذى تعدينه •• جوع فاضل لكل هذا الجمال الانسانى الحى  
•• انت طعامه الحقيقى الرائع » •• ورايتها تخطو الى أحد الأركان،  
وادارت جهاز تسجيل صغير فصعدت منه على الفور موسيقى هادئة  
•• ومضت الى المطبخ •

استنامت روحى للجمال • بعض الناس يمضون لكنهم يتركون  
أطيافهم خلفهم • بقيت فى جلستى • عزفت عن التخليب فى الكتب •  
الكتب تملأ الدنيا والعيون تعبت من القراءة ومن الكتابة ومن ملايين  
الحروف المرصوصة الجافة •• أما هذا الجمال الحى المشع ••  
فما أندر أن يقابله الانسان ويجد نفسه معه فجأة فى مكان واحد !

مع دقائق بيانو كانت تتصاعد من اللحن وتتقافز فى فضاء  
الصالة • كنت اتخيل صديقى العراقى فاضل مع هذه الالمانية  
الجميلة الشقراء • يكونان وحدة انسانية طروبة •• هو ببشرته  
القمحية •• لا فرق كبير بينهما فى لون البشرة •• انما الفرق  
الواضح بينهما فى لون الشعر • شعرها الذهبى الناعم المنسدل •  
وشعره الأسود الهائش يكاد يغطى جبهته •• رائع أن يختلط  
الشعران وتمتزج رائحتهما وتتوحد •

وفكرت •• باسم : ربما تكون هى أطول منه قليلا •• أم •  
صدره العريض • وتربية جسمه هى التى تعطينى هذا التصور ؟

ساحر ذلك التوحد الذى يصنعه الحب بين اثنين من قارتين  
مختلفتين • هو من الشرق • من بغداد • من آسيا • وهى من  
الشمال • من برلين • من أوروبا •

لكن العالم صغير ، والأرض فى النهاية كرة تدور ، وسط  
ملايين الأجرام الدائرة .

كانت موسيقى وثرية دائرة تتنوع ، مع دقات بيانو تتراقص ،  
حين رايتها خارجة من المطبخ ، حاملة بين يديها صينية عليها فنجالا  
قهوة . فرحت أنهما فنجالان وليس فنجالا واحدا .

اذن ستجلس معى ونتكلم على مهل .

قالت وهى تقترب بحذر بالقهوة : ألم تجد كتابا مناسباً ؟

قلت : الحق أنى لم أتحرك من مكانى . . والمسئول هى هذه  
الموسيقى التى أدبتها .

ندت عنها نظرة خاطفة . نظرة لم تستغرق أكثر من برهة أو  
ومضة . . أحسست بها تخترق عمق أعماقى . كأنها تستكشفنى ،  
هل جانبى الصواب فى كلامى ، وربما فى نظراتى ؟ داهمنى شعور  
بالاغتراب . غير أنها قالت بسرعة ، بلهجة اعتذار ، وهى تضع  
الصينية على المنضدة : أوه . أنا آسفة . لم أستاذنك قبل أن  
أديرها . لكنها موسيقى خفيفة ، من النوع الذى يستطيع الانسان  
أن يقرأ ويعمل معه ، دون أن تنبهه أو تعطله .

قلت مؤكدا : هذا صحيح . واششكرك عليها . لكنها فى  
الحقيقة جذبت انتباهى بشدة . هى فعلا موسيقى هادئة ، لكنها فى  
تلك اللحظة ، كان وقعها على نفسى وقع سيمفونية هائلة .

كانت تصب القهوة فى الفنجال ، فوجئت بالكنتكة النحاسية  
تتوقف فى يدها لبرهة وتنظر لى . فى عمق عينى . نفس النظرة  
الخاطفة المخترقة . ماذا تريد أن تعرف عنى ؟ وعلى أى نحو تتقبل  
كلامى ؟

وانتهت الى أن الكنكة والفنجانين من طراز عربى .. قلت  
بحماس : قهوة عربية ؟

قالت بنصف الابتسامة : أجل . فاضل علمنى اياها . أرجو  
أن تعجبك .

قلت : بالتأكيد ستعجبنى .

عاودت نفس النظرة الى عينى : لماذا بالتأكيد ؟! الحكم  
الصحيح بعد التجربة .

قلت : أحيانا يسبق الاحساس التجربة . ( وددت لو اكمل  
ما فى نفسى وأقول : وفى الحقيقة ، أن النظر اليك وحده ، خير  
من شرب ألف فنجان قهوة عربية أو المانية أو تركية .. أو من أى  
جنسية ) .

تناولت فنجانى وأخذت منه رشقة على مهل : اه .. ( وعاودنى  
الحماس ) صدق احساسى . كائن فى القاهرة أشرب فنجان قهوة  
على احدى مقاهى السيدة زينب .. واحد من أعرق وأشهر أحيائنا  
المصرية الشعبية .

قالت وقد عاود وجهها نصف الابتسامة : نفس العبارة قالها  
لى فاضل : كائن يا ايفا أشرب قهوة فى حى الكاظمية .. أشهر  
أحيائنا الشعبية فى بغداد .

قلت متحمسا : هذا يثبت أن هناك حقيقة اسمها « الأمة  
العربية » تفرز خصائص واحدة . أبناء أمة واحدة . أنا وفاضل .

قالت بهدوء ، وهى ترشف من فنجانها : ليس المهم أن نكون  
أبناء أمة واحدة . أبناء البيت الواحد يختلفون . المهم أن نكون  
أبناء أفكار واحدة ، ومواقف واحدة . ليس على مستوى الوطن



الواحد ، بل على مستوى العالم كله . العالم اصبح صغيرا جدا ،  
فاضل يتفق معى فى هذا .

قلت : وأنا أيضا اتفق معك ومع فاضل فى هذا ( ثم باسم )  
ومع هذا تبقى هذه القهوة الجميلة من صنع يديك ، قهوة عربية  
تتنوقها كل القوميات وكل الطبقات وكل الأجناس .. هى قهوة  
إنسانية وعالمية .

— أوه .. شكرا .

ونهضت فجأة واقفة .. وبدأ فى عينيها بريق غريب ذاهب الى  
بعيد .. وقالت كمن يستجمع أفكاره بعد تشتت وشرود : يجب ألا  
أنسى الطعام على النار . لحظات قليلة .. استأنذك .

كانت رائعة فى وقفاتها مثلما هى رائعة فى جلستها . وقاومت  
النظر الى صدرها الناهد . وفكرت : لا حيلة للإنسان الا ينظر الى  
مثل هذا الجمال . بل ان الانسان يدارى نفسه بالكلام وهو ينظر  
اليه ، ويتأمل معاله .

قلت مبددا عنها وعنى الحرج : اهتم أنت بالطعام . سأخذ  
نظرة من هذه الكتب . ( وابتسمت مشسيرا على الجهاز ) أنتهت  
الموسيقى .

فى تلك اللحظة ، حدث شيء مفاجيء خفق له قلبى . فقد سمعت  
صوتا عاليا لطفل يبكى . ورأيتها تعتلد فى وقفاتها وتقول : أوه .  
لقد صبحا من نومه . الآن موعد وجبته . استأنذك .

ومضت مسرعة الى حجرة عن يسارى ودخلتها .

هزة داخلية عنيفة غامضة أيقظتنى من خيالاتى .

طفل من هذا ؟

ايكون طفلها من صديقي العراقي الذى يدرس الاخراج المسرحى  
هنا منذ أكثر من عامين ، ولم يبق له فى هذه البلاد سوى أشهر  
قليلة ؟

لم يحك لى فاضل فى ذلك اللقاء السريع السعيد ، لقاء الصدفة  
الذى حدث بينى وبينه منذ أيام فى إحدى محطات القطار ، تحت  
الأرض ، وكلانا ذاهب الى موعد ، لم يحك لى ولم أحك له ، الا  
علامات سريعة لكلينا فى هذه العاصمة الأوروبية ، مع استرجاع  
بعض ذكرياتنا الساطعة المبهجة ، مرة فى القاهرة ومرة فى بغداد .  
وما نحن نلتقى فى مدينة أوروبية . كلانا جاء يسعى خلف آخر صبيحة  
للعقل الأوروبي . هو فى الاخراج المسرحى ، وأنا . . ككاتب  
وصحفى .

ـ لابد أن نلتقى . وتقول لى وأقول لك . ليس فى المسرح أو  
فى الفن فقط ، بل وفى الحياة هنا . . التجربة الانسانية بشكل عام .  
ـ هاك عنوانى . انها شقة صديقة لى ( ثم قال مستدركا ) أنا  
أيضا لى شقتى أستذكر فيها وأحضر رسالتى .

وأوشكت لحظتها أن أقول له مازحا : أما شقتها دهى عش  
الغرام والرومانسية .

لكن القطار جاء وسلمنا . . وافترقنا على هذا الميعاد .

كان بكاء الطفل قد توقف فور دخولها اليه ، وران على الشقة  
صمت عميق .

ليس هو اذن عش غرام رومانسى . أو أن الرومانسية  
تصاعدت بهما حتى تجسدت أخيرا فى كائن حي صغير من لحم ودم  
. . هو هذا الطفل الذى سمعت بكاءه منذ قليل . . ووجدتني أربط بين

نهدبها الممثلين ، وكونها اما . تراجع طعم الانوثة ، وحل محله طعم الامومة ورمزها الجليل . واستبد بى الشغف لأن ارى هذا الطفل الذى يتغذى من هذا الصدر الرائع العظيم .

غير ان المفاجأة الثانية التى حدثت جعلتنى اكتم شهقة دهشة كادت تخرج من فمى ، وبذلت جهدا جبارا كى احتفظ بتوازنى وتماسكى . فقد رايتها خارجة من الحجرة وهى تحمل طفلا . . . أسود .

اقول احتجت الى طاقة هائلة لكى اكتم مشاعر دهشتى واستغرابى لذلك التناقض الضارخ فى اللون . . بين بشرة الطفل وبشرة أمه . . أم انها . . ربما ليست أمه ١٩

غير ان الشك فى امومتها البضاء سرعان ما تبدد وأنا اراها تفتح علبة طعام محفوظ صغيرة ، ثم راحت تطعمه ، وهو جالس على ركبتها . فى رقة وحنان . هى أمه بالتأكيد . وبالتأكيد أيضا فان صديقى العراقى فاضل ، القمصى اللون . . ليس أباه . أبوه بالقطع رجل أفريقى . أسود . زنجى . وما أكثر ما سمعت ورأيت فى هذه البلاد قصص حب عارمة بين بيض شقراوات وسود زنوج مغفلوا الشعر موشوموا الوجوه . . قصص حب وعلاقات رايتها تتحرك وسط هذا المجتمع كشيء عادى وطبيعى ، مؤكدة فكرة الأخوة والتقارب بين البشر ، كأنما هى تكفير عن ذلك الشعار الهتلرى الذى انتهى بهم يوما الى الدمار والمأساة : عظمة الجنس الآرى . والمانيا فوق الجميع .

ايضا هذه . . هى احدى رائدات تطبيق الشعار الانسانى ، أم هى ضحيته ١٩

وبدا لى ائى وجدت التفسير لنصف الابتسامة التى ترسم على شفيتها • كانت عينائى تتنقلان بين الوجهين المتناقضين والمتكاملين فى نفس الوقت على نحو ذكرئى بتراجيديات القدر • وأنا أرى ثمة حزن هائل ، لكنه عاجز يطل من عينى الطفل الواسعين فى وجهه الشاحب رغم أنه كان يتناول طعامه ، بيد أمه • شئ غير الطعام ، وغير الأم ، ضائع منه : الأب !

من هو أبوه • وأين هو الآن ؟ تحركت فى نفسى رغبة لاحتضانه أعوضه عن هذا الافتقاد • توجهت اليه بابتسامة وضعت فيها كل رجائى ، الا يفزع منى أنا الغريب • أن يأنس لى • وكم كانت سعادتى حين وجدت نظراته تثبت على ابتسامتى وراح يتفرسنى فى هدوء • كأنما يسأل نفسه : من هذا ؟

ايمكن أن يكون أبى • أو طريقا لأبى ؟

أرسلت له قبلة فى الهواء ، تقبلها بسكينة ، مثبتا عينيه لايزال على ••

قلت لها : سوف يصبح صديقى بعد قليل •• عندى تجربة طويلة فى اكتساب صداقة الأطفال •

.. أوه • سيكون هذا شيئاً طيباً •

قالتها وندت عنها تنهيدة لمست قلبى • أيقنت أن فى القصة بعد خفى محزن • خرج السؤال منى بلا وعى •

– أين أبوه ؟

– فى بلاده •• ولأن يعود ••

ورغم أنها قالتها ببساطة شديدة ودون أن تنظر لى ، الا أن دقة

هائلة عنيفة مثل تلك الدقات التي تصاحب وقوع الأحداث الكبرى  
على خشبة المسرح حدثت بداخلي وتفجرت آلاف المشاعر ، ولم أعرف  
ماذا أقول على الفور . ثمة احساس بالندم ملأ نفسى . انى أقدمت  
نفسى عليها وجعلتها تكشف لى أنا الغريب عن اسرار عالم لم أدخل  
فيه الا منذ دقائق .

غير انى سرعان ما تخلصت من هذا الاحساس حين رأيت وجهها  
لا يحمل ضيقا ، وأنها لم تبج بسر كان من الواجب أن تخفيه .  
فتلك حياتها التي تعيشها بوضوح أمام كل الناس : أجل ، هذا الطفل  
الأسود ابنى . من رحمى . أيها الناس . وأنا أمه البيضاء .  
الشقراء .

وإذ لمحت فى تلك اللحظة عربة أطفال صغيرة بعجلتين فى أحد  
الأركان ، ارتسم لى بالخيال منظرها وهى تدفع بطفلها الأسود أمامها  
فى الشوارع على مهل .

وفكرت : ماذا نقول نحن فى بلدنا لو رأينا هذا المنظر ؟

وعاودنى طعم التراجيديات اليونانية ، حيث الصراع ضد ما  
يحدث هو صراع ضد حكم الأقدار ومشية الآلهة .

كانت تجلس أمامى على المقعد المقابل والصغير على ركبتيها .  
طعمه فى هدوء ، مشجعة أياه ببعض كلمات المانية ، وهو ينظر  
إليها فى صمت حزين . تفجرت كل طاقات الحب عندى نحوه .  
تحديث نفسى أن سيانس لى . رحت أصطنع حركات وأصواتا من  
تلك التى تثير فضول الأطفال ودهشتهم . فجأة ابتسم لى .

صحت فرحا عليها : رأيته وهو يبتسم لى ؟ لقد أصبحنا  
صديقين .

## اشرق وجهها بالسعادة وقالت :

— هذا شيء جميل ( ثم بصوت سارح .. متنهدة ) أنه في مزاج غير طيب منذ أيام .

تحركت في نفسى جرثومة الفضول من جديد . أن أعرف أكثر أبعاد القصة أو المأساة . غير أنى فضلت أن أحرك فى نفسها عوامل البهجة والسعادة بأسعاد الطفل ، وليس بتقليل الأحزان . وأحببت نفسى حين رأيت الطفل يستجيب لى ويعاود الابتسام .. ثم حدث الانتصار الأعظم حين نددت عنه ضحكة ذات رنين اهتز لها قلبى بالطرب . لست وحدى ، فقد رأيتها تبتهج ، وضمته الى صدرها بسعادة وحنان .

قلت لنفسى سعيدا ومنتشيا : أن اضحك طفل حزين ، أصعب وأعظم من فتح جيش مدينة بالسلاح .

ونهضت فجأة واقفة وهو بين ذراعيها وخاطبته بشكل هادئ حاسم بما يعنى أنه ما دام قد تناول طعامه ، فعليه أن يعطيها الفرصة لكى تعد الغداء . وددت لو أقول لها : هاته . أحمله عنك ، وأهتم أنت بالطعام .

لكنها أسرعت به ودخلت الحجرة ، ثم خرجت بعد لحظات بدونه . وإن لم يصدر عنه أى صوت ، تصورته نائما على سريريه فى صمت وامتنال .. راضيا بقدره . وفكرت أن ادخل اليه وأزانه ، بينما هى تنتهى من تجهيز الغذاء . غير أنى قدرت أن هذا قد لا يتفق مع خططها فى تربيته والتعامل معه . أن عمره لا يتجاوز العام الواحد الا بأشهر قليلة . لم يصل بعد الى السن التى تذهب به الى « الكندر جارتن » أو روضة الأطفال ، ولابد أنها تتركه وحيدا وتخرج . وانقبض قلبى لمنظر طفل صغير وحيد فى شقة ومقفول

عليه . واين ؟ فى بلاد أجمل من رأيت فيها هم الأطفال ، وأعظم ما فيها الأطفال . غير انى تصورت بعض طيور وحيوانات وهى تترك أفراخها وأولادها الصغار . . . وحدهم ، وتنطلق بحثا عن الطعام .

أجل . . مثل أطفال الغابة يمكن أن ينمو هذا الطفل ويعيش . وقانون الحياة الأكبر هو التكيف والتأقلم ' .

قالت وهى تقطع المسافة الصغيرة بين حجرة الطفل والمطبخ :

.. تستطيع لو أحبيت أن تخرج الى الشرفة وترى المنظر . ان جزءا من البحيرة يبدو منها .

صحت فرحا بدهشة : بحيرة . هذا شئ رائع . ان يسكن الانسان قريبا من بحيرة . لم يقل لى فاضل . لم يكن هناك وقت ليقول لى .

واذ رأت حماسى « اسرعت وفتحت بابا جانيبا وأشارت لى بالدخول فدخلت . واذا بمسطح أبيض يتراعى أمامى .

صحت مأخوذا باللون الأبيض : انها متجمدة . أول مرة أرى فيها بحيرة متجمدة .

أسعدتها سعادتى . قالت متبسطة : بماذا توحى بحيرة متجمدة لكاتب ؟

أحبيت منها السؤال .

قلت : توحى برواية رائعة أحداثها غير معروفة بعد ، (وضحكت) لكن الرغبة التى تتملكنى الآن حقيقة ويوحى مدها ، أن اذهب اليها وأمشى فوقها . أن يسير الانسان فوق أرض من الثلج . تجربة .

قالت منبهة : آه . ولكن يجب أن تأخذ حذرك . ان السطح

وحده هو المتجمد • أما الأعماق فهي مليئة بالمياه • وفى بعض المناطق لا يغطى السطح سوى قشرة رقيقة مشة من الثلج ، تضدع السائر فيسقط فى مياهها العميقة !

ورأيتنى أسقط فجأة فى بطن البحيرة • فى أحد المواقع الخادعة تغرقنى المياه الثلجية • انتابتنى قشعريرة وقلت ضاحكا : قلتكن التجربة بالخيال فقط •

ورأيت فجأة مجموعة من البط تمشى فوق الثلج بخطى هادئة وثيدة وعلى نحو طبيعى • استثارنى المنظر •

— أترين هذا البط السائر فوق الثلج ؟ • منظر غريب حقا !  
— ما وجه الغرابة ؟

— هذه القدرة على الاحتمال • • واضح أنه لا يعانى من برودة الثلج •

قالت ببساطة :

— كل الكائنات تتكيف مع بيئتها • وظروفها •

— هذا صحيح • ولكن ، ما الذى يجبر هذا البط على العيش فى البحيرة فى فصل الشتاء • يستطيع أن يخرج ويعيش على البر الى أن يأتى الصيف والدفء فيعود الى البحيرة •

قالت : لا أحد يجبره • أنه يجد حياته فى البحيرة • سواء فى لشتاء أو الصيف • ابن مخلص للبحيرة •

وبدا لى كلامها خليطا من الواقع والرمز • وإن ما ينطبق على بط البحيرة قد ينطبق عليها • ورأيت نظراتها تشرد لمعطيات



الى بعيد ثم قالت متنبهة : اوه . الطعام . سرحت معك . استاذنك  
اسرح أنت مع البحيرة وبطها .  
ومضت مسرعة .

كانت ثمة نشوة هائلة تسرى فى كيانى . أجل : سم توحى بحيرة  
متجمدة لكاتب ؟

توحى برواية عظيمة لم تعرف أحداثها بعد . . . أجل يا ايفا  
. . . أنت . . . بالطفل الأسود . . . بالآب الذى رحل . . . بالصديق الذى  
لم يصل بعد . . . وما أشبهك بالبحيرة نفسها . . . هذا الزخم وهذا  
التجمد وهذا الغموض .

كانت البحيرة ممتدة أمامى حتى الأفق . والسحب الرمادية  
تملأ السماء ، ومساحات الثلج المختلط بياضها برمادية الغيوم ،  
والبط السائر بتؤدة فوقها . كنت مازلت مدهوشا بايقاع خطى البط  
. . . وهو يسير فى مملكته الثلجية ، وعادتنى كلماتها : كل الكائنات  
تتكيف مع بيئتها . وهى الأخرى ستتكيف مع ماساتها ، هى وطفلها  
. . . هذا هو قدرها .

وتصورتها سائرة على الثلج بين البط حاملة ابنها . وتذكرت  
المناطق الخادعة وقد تسقط فيها . خذى حذرك يا ايفا . أرجوك . .  
لو فعلت هذا .

وهبت موجة هواء باردة لاسعة ارتعد معها لكل جسدى . .  
أسرعت وقفلت باب الشرفة ودخلت . وعلى نفس المقعد جلست . .  
قدر سعيد هذا الذى ألقانى بفاضل فى هذه المدينة وجعلنى أتعرف  
على هذا العالم المثير . لماذا غبت هكذا يا فاضل ؟

وانتهيت على صوت جريد مفتاح يدور فى باب الشقة : وفى

نفس اللحظة رأيته تخرج مسرعة من المطبخ قائلة مهللة : فاضل  
وصل ..

كان كيانه كله يتشبع بالسعادة على نحو طفولى ، انتقلت  
السعادة الى روحى . وتخيلت ثلوج البحيرة ، تتفكك وتذوب ، والبط  
يسبح سعيدا فى مياهها ويصفق بأجنحته .

ليست السعادة فقط فى أن نحب . السعادة أيضا أن نرى  
الآخرين . يحبون .. بكل هذه الحرارة وهذا الصنق .  
ودخل فاضل .

## ( ٢ )

كانت جلستى فى مواجهة الباب .

ورأيتهما وهما يتعانقان بلهفة ، كأنما يلودان ببعضهما . كان  
أسيرى اللون ، عريض الفكين ، متين البنيان ، أسود الشعر هائشه  
كرجل الغابات . ومرت بخاطرى فكرة الصيد والصياد ، لكنى  
أبعدتها بسرعة من ذهنى وأنا أرى شعره الأسود يختلط بشعرها  
الذهبي ويتضامان ثم يفترقان .. ثم يتضامان .. بحنين .. وفكرت  
باسما : انهما بنفس الطول .

وما كاد يرانى حتى صاح مندفعاً على : آه مصطفى . بالحضن  
باصديقى المصرى العزيز .

وكان وهو يخطبنى بكفه العريضة على ظهري مرحباً ، ينظر  
اليها ويقول :

هؤلاء المصريون لهم طعمهم الخاص . ومع أنهم أرض المأسى ،  
الا أنهم مصدروا النكات والضحكات للمنطقة العربية كلها .

قلت ضاحكا مقاولا خبطاته : ليس الضحك عندنا الا نوعا من  
الدفاع عن النفس . لولا ذلك لمتنا من زمن ( ثم مستدركا ) ومع  
هذا ، فاسمع لى ان ابدى تحفظا . مصر ليست وحدها هى ارض  
الاماسة فى المنطقة . هل نسيت . . كربلاء . . يا ابن العراق ؟

واخلانى من ذراعيه . . صائحا : آه . لا تذكرنى . بالكرب  
وبالبلاء . قل لنا آخر نكتة من مصر . ستفعلها لنا ونحن نأكل .  
( وخلق معطفه والقى به ) ايها . . أكاد أسقط من الجوع . وأنت  
ايضا لا بد جائع . . آه . . لم أعرفكمنا ببعضكما .

قلت مسرعا : لقد قدمت لى فنجانا من القهوة لا ينسى . .  
انها سيدة نبيلة وكريمة . . وجميلة ايضا .

— آه . . ألم اقل لك انه مصرى ؟ ها هو يغازلك أمامى . وأنا  
سعيد بذلك . ( واحتواها برقة . . باحدى ذراعيه . . ناظرا لى )  
ايها . . من لا يستطيع الا يحبها ؟ ( وضمها بقوة ) ايها . . لو لم تكن  
هى ، لكنت مت هنا من زمن ( وقبلها بين حاجبيها ، وهى واقفة بين  
ذراعيه هاجعة مستسلمة ) .

ساحر انت يا فاضل يا ابن العراق . . يا ابن ارض الشعر  
والشعراء . . وواصل حماسه وحيويته : هيا أعيدى لنا الحياة  
بطعامك يا ايها . . واهتمى باطعام هذا الكاتب المصرى . انه يعمل  
باحدى المجالات المصرية الواسعة الانتشار ويتميز بأسلوب انسانى ،  
يستحق أن يغذى من أجله .

قالت وقد تفتتح وجهها : ليس غريبا اذن انه جعل البرت يضحك  
. . انه حقا يملك قدرة سحرية مع الأطفال .

مع شعورى بالامتنان لهذا الشئ ، لاحظت اضطراباً معتماً في  
عينيه سرعان ما تجاوزها وقال بحماس : اذن نستبقيك هنا  
يامصطفى ، وتكون رسالتك في الحياة اسعاد طفل واضحاك .

قلت جادا : أنا شخصيا مستعد . البرت طفل رقيق ولطيف .  
يستحق .

قالت بانفعال : اوه . كم أنت طيب القلب . أشكرك .

وجدت من صدرها نفسا تحول الى تنهيدة ، وشردت عيناها الى  
بعيد . . عاودتني نظرات الطفل الواسعة الحزينة . . مهما كانت  
كلماتي طيبة ، فقد حركت في نفسها مأساة راقدة . طفل أسود  
في بلاد بيضاء ، بلا أب . وتذكرت منظر البحيرة المتجمدة والبط  
السائر فوقها في عز الشتاء .

قالت بصوت سارح : سأجهز لكما الغذاء . عن اذنكما .

وتركتنا ومضت بقوامها الشامخ في اتجاه المطبخ .

وفكرت : قد تبكى وهى وحدها في المطبخ .

قال وهو يتبعها بعينه : عظيمة هذه الانسانية . أنا لم أحك  
لك قصتنا . سوف أحكيها لك . بعد أن نأكل ، نخرج ونجلس في  
أى مكان . وأحكي لك . ( وأشار لى بالجلوس ) استرح . دقيقة  
وسأعود اليك .

ولحق بها في المطبخ . وتصورته يمحو عن وجهها وروحها  
الآسى بقلباته . وفكرت : رجل من افريقيا يقدم لها الحزن ، وآخر  
من العراق ، من آسيا ، يمحو هذا الحزن عنها . أى قدر عجيب  
هذا الذى ربط بين هذه الفتاة وبين اثنين من أبناء العالم الثالث .  
وانتابتنى فكرة درامية ، أن دمها لم يعد قابلا أن يمتزج بدم رجل

أبيض ، من بنى جنسها • سيطر عليها دم المناطق الحارة • حسن  
انهم لم يعودا يصفوننا بالعالم المتخلف • بل بالعالم النامى •  
وداخلنى نوع من الفخار !!

وتناهى الى صوته آتيا من المطبخ صائحا بنشوة وتلذذ :  
يا الهى • رائع • مذاق طعامك رائع • أبشر يامصطفى • أبشر •

وددت لو أرد عليه مداعبا : بل هى نفسها طعامك الالهى أيها  
الجن • وائت الآن ، أنا واثق ، تتذوق طعم شعرها وخدما وعنقها  
وليس طعم الأكل • المحبون يحلو لهم اختلاس القبلات والمداعبات  
بعيدا عن عيون ضيوفهم • أرنى يا فاضل قدرتك على اذابة الآسى  
من وجه ايها • اذب الثلوج واجعل بط البحيرة يسبح فى سعادة !

وسرعان ما ثبتت لى قدرته بالفعل ، فقد رأيتها يخرجان معا ،  
حاملين أطباق الطعام • ونظراتها عاودها الرضا والابتسام ،  
ووجنتاهما ، بفعل حرارة المطبخ ( أم بحرارة الغرام ؟ ) بلون وردى  
ضارب •

واستعادت الشقة طعمها الفوضوى الحلو المرح ، ونحن نخلى  
المنضدة مما عليها ، ونضع الأطباق وزجاجات البيرة والأكواب ،  
وهى تنسق المائدة بوضع لمسات • ويدت الزهور التى رأيتها لحظة  
دخولى قديمة ، بدت جديدة فى زهرتها وسط الطعام • كانت  
جلستها قبالتى ، وفكرت وأنا أتاامل توردها خديها ، وشعرها  
المسترسل : أنها زهرة بشرية رائعة • زهرة على ضفاف بحيرة ،  
تتجمد فى الشتاء وتفتح فى الصيف وتزدهر •

وتذكرت الطفل • ليته يظل نائما لتبقى ايها جالسة معنا •  
وكان عند حسن ظنى • فلم يصدر عنه أى صوت • وسرعان ما نسيته

تماما وفاضل يحدثنى بحماس عن رسالته المسرحية التى يعدها  
وسيتقدم بها قريبا للمناقشة . وكان أكثر ما جذبنى فيها :

فصل بعنوان : الایهام المسرحى .. والغاء الحائط الرابع .

وفى البدء كنا نتكلم انا وفاضل بالعربية . أما ایفا فكانت  
تراقب تعبيرات وجهينا ، وهى تاكل على مهل ، تحاول أن تستشف  
معنى ما نقول من مجرد أصواتنا . ثم اذا بها تبتعد بظراتها ،  
سارحة عنا

قلت : فلننكم الانجليزية . حبذا لى شاركتنا ایفا .

قالت بحماس : كنت أود أن أقول هذا . ما دمنا نحن الثلاثة  
نملك لغة مشتركة ، فلماذا لا نستعملها !

وبدأنا نتكلم بالانجليزية .

مع ترديد كلمات : الایهام المسرحى .. الغاء الستار .. هدم  
الحائط الرابع ، داخلنى احساس عميق بأن هذه الفكرة النظرية ،  
تجد مجالا لتطبيقها على حياتنا العملية .

قلت متحمسا : اسمحوا لى أن أعبر لكما عن وجهة نظرى . اننى  
أرى أن عملية الایهام فى المسرح هى جزء من المتعة . جزء أساسى  
فى صميم عملية الخلق الفنى . اننى لا أتحمس كثيرا لالغاء الستار ،  
ومزج الصالة بخشبة المسرح ، وخلق الممثل بالمتفرج . ذلك سلب  
المسرح أجمل ما فيه : خصوصيته وتفردته واستقلاليته .

اننا لو ضيعنا الایهام السحرى من الفن .. فماذا سيبقى لنا  
غير الواقع الموجود والمكرر بلا فن . أنا شخصا من أنصار وجود  
ستار مسدل لكى ارفع قبل العرض .. من أنصار دقائق الجونج

الثلث معلنة من خلف الستار بدء اللعبة • ويبدأ المخفى فى الانكشاف •

الاستخفاء هو روح الفن العظيم •

قالت ايفا : ربما يكون هذا صحيحا ومناسبا للمسرح فى بلادكم • فان فكرة الستار كرمز للاخفاء مازلت محتاجونها فى بلادكم • أما نحن ، هنا ، فنكره الستائر • ليس فقط لأن سماءنا مليئة بالغيوم • بل أيضا لأن كل الأشياء انكشفت وتعتري •

المسرح العظيم هو الذى يتعامل مع المتخرج بلا مقدمات من ستائر أو حائط رابع • هو الذى يبدأ من أول لحظة بالغناء هذه المسافة التى تفصل بين الممثلين والجمهور •

كانت تتكلم بحماس • واستثنائى ربطها للمسرح بالحياة وبالأنظمة • لقيت الفكرة هوى فى نفسى : أجل • نحن مازلنا بلاد الاخفاء • أما هم « فكل الأشياء انكشفت وتعتري » جملتها التى قالتها بقوة وبساطة • والتى يكمن فيها - ربما - تفسير مواجهتها للعالم بطفلها الأسود • ولكن ••

هل حقا كل الأشياء تعتري يا ايفا ؟ أنا شخصا أحس أن بينى وبينك ألف ستار • فهل يأتى الوقت وترفعين هذه الأستار ؟

قلت : واضح أنك تحبين المسرح ••

ابتسمت وقالت : وليست أوهامه ( ثم مؤكدة ) المسرح فن عظيم •

قلت : هذا من حظك يا فاضل •

قال : هل تعرف أن ايفا تحضر رسالة فى الاقتصاد السياسى •

بوغت بما قال : الاقتصاد السياسى ؟ انه نقيض للمسرح والفن بشكل عام •

قالت ببساطة : وفيما التناقض ؟ دراسة الاقتصاد تزيد من قدرة الانسان على فهم الفن العظيم . والعكس صحيح . جوته كان شاعرا عظيما ، وعالما انثروبولوجيا كبيرا فى نفس الوقت .

- وتحبين جوتة أيضا .. هذا عظيم ( واندفعت بحماس )  
ما رأيك لو أجرى معك حوارا عاما .. شاملا .. فى الفن وفى الاقتصاد وفى الحياة وأنشره فى مجلتى .. نموذجا للمرأة الألمانية الجديدة .

قالت : ولم لا .. فى أى وقت تريد .. تستطيع أن تتفق مع فاضل .

قال فاضل .. مسرعا : سنتفق على ميعاد . سنتفق .  
الا ان نظرة خاطفة من عينيه ، جعلتنى أحس أنه قليل الحماس لحدوث هذا . ربما هو لا يريد للستائر أن ترفع بينى وبينها الى هذا الحد ، وأنا لا أريد لمشاعره أى ازعاج .

- فلنعد الى موضوعنا الأصيل .. رسالتك المسرحية ، انها هى الأخرى تستحق موضوعا فى مجلتى .  
عاود وجهه الحماس والتفتح .

قالت أيضا : عموما ، ان الجيد فى دراسة فاضل ، أنها تعرض مختلف النظريات ، ما هو ضدها ، وما هو معها . لكن أحسن ما فيها .. خاتمته : ان المسرح الأب .. المسرح الاغريقى العظيم ، نشأ وعاش فى العراء .. فى الهواء الطلق .. بلا ستائر

صحت بحماس : اذن فلتسقط الستائر . ( ورفعت يدي الى اعلى بكوب البيرة ) حتى فى بلادنا المشمسة ، تلك التى لا تعرف الغيوم ولا البحيرات المتجمدة ، تسقط الستائر .



للحظة بدت عليهما الدهشة لمنظري ، غير أنهما سرعان ما  
ابتسما في رضا وسعادة ، ورفع كل منهما كوبه الى اعلى .. وصحنا  
معا في صوت واحد : تسقط الستائر .. تسقط الستائر .

في تلك اللحظة ارتفع صوت الطفل فجأة بالبكاء . رعدة شملت  
كل كياني . ورايت الاثنين .. ايفا وفاضل .. ينهضان فجأة من  
جلستهما ليذهبا اليه .

قال لها : ابقى أنت يا ايفا .

قالت بحسم : لا .. لا .. ابقى أنت مع صديقك .

وجرت مسرعة الى حجرة الطفل . وعاود الجلوس .

حل علينا الصمت لحظة . كنت أفكر : غريب الا يرتفع صوت  
الطفل الا ونحن نهتف بسقوط الستائر . كأنه يريد أن يشتركنا  
الهدف !

قال فاضل .. سارحا : أنا لم أحك لك عن الحفل . سرف  
أحكى لك .. بعد أن نكمل طعامنا ، سنخرج على الفور وأحكى  
لك .

قلت : أنا شخصيا شبع .

قال ناهضا : وأنا أيضا . فلنستعد . ( واتجه بخطواته الى  
حجرة الطفل ) لحظة أرى فيها البرت واطمنن عليه . ثم نخرج على  
الفور .

### ( ٣ )

فى صالة واسعة ، منخفضة السقف ، مليئة بظلال أضواء خافتة قال انها « نادى المسرحيين » ، جلسنا وامامنا كأسان من الكونياك الألماني طلبهما بمجرد دخوله . جرع كأسه الأول مرة واحدة ، ثم طلب آخر . كان المكان أقرب الى العتمة حتى انى لم أتبين ملامح الجالسين فيه . قلت مداعبا ومدربا عينى على درجة الضوء أو العتمة : هذا تأكيد لنظرية الايهام المسرحى . اعتقد أن ايفا لا تحب الجلوس طويلا فى مثل هذا المكان . انها ضد الاستخفاء وضد الغموض وضد الستائر .

قال وقد لمعت عيناه فى العتمة : هو ذاك . حقيقة يا مصطفى . انها لا تتحمس للمجئ هنا كثيرا . لو أردت أن أسميها اسما آخر لاسميتها : ابنة النور . فقوتها فى الصدق ، وفى المباشرة .

قلت : ربما اكتسبت ذلك من حياتها بجوار بحيرة : الامتداد . . والاتساع . . ولا حجب ولا ستائر . مازلت أذكر منظرها وهى رافعة كوبها وتهتف معنا ، تسقط الستائر . هذا مكن الدراما فى شخصيتها .

— أى دراما ؟ ( وشرب جرعة كبيرة من كأسه ) .

— المفروض أن من فى وضـعها ، يميل الى الانزواء والى التخفى . لكنها تبدو متحدية . . مجابهة . . كانت تبدو لى وهى تهتف معنا بسقوط الستائر . انها تقول للعالم : نعم أيها الناس . هذا الطفل الأسود ابنى . . من رحى . . وأنا غـذورة به . .

هات وأحك لى عن هذا الطفل وعن أبيه وعن قصتك معها كما وعدت .

قال وهو يجرع بقية كأسه الثانى ، ويبحث بعينيه عن الساقى  
ليطلب كأسه الثالث : أجل . سأحكى لك . غريبة هى الحياة  
يا أختى ، حين يجد المخرج المسرحى نفسه فجأة ممثلاً فى مسرحية  
من تأليف الحياة نفسها . الحياة هى المؤلفة العظمى . ليس عليك  
كمؤلف أو كمخرج ، الا أن تتفرج على الأحداث فى مواقع الأحداث ،  
ثم تعيد صياغتها على نحو فنى . سأحكى لك موقفاً واحداً من  
قصتنا . يعطيك القصة كلها . (ونادى على كأس ثالثة )

... فى يوم من الأيام ، ذهبت إليها فى شقتها كالعادة بعد الظهر  
مثلاً رأيت اليوم . فوجئت بها تقول لى : لا أريدك أن تبين معى هنا  
هذه الليلة !

قلت لها : لماذا ؟

قالت : لأن جوليوس أبا الطفل سيأتى الليلة . وصالتنى منه  
برقية بذلك .

كان كتلة ثلج هائلة سقطت على رأسى . أكان كل ما بيننا وهم  
منى وخداع منها ؟ لو كنت تركت الأمر فى تلك اللحظة لمشاعرى  
لامسكتها من رقبتها وخنقتها ، وأثار لكرامتى . لكننى أمسكت نفسى  
بقوة . انها تصنع حياتها بالصدق من أول لحظة تعرفت فيها  
عليها . لم تكذب أبداً على فى شىء . لم تقل لى يوماً أن أبا الطفل  
انتهى من حياتها تماماً . كان جرحها العميق الذى لم أشأ أن أضغط  
عليه ، آملاً أن يلتئم بالتدريج وعلى مهل . ولكن هامو الجرح يبدو  
غير قابل للشفاء . . والرجل الأول . أبو الطفل ، يعود فجأة من  
أعماق أفريقيا ، ليرمىنى خارج حياتها .

وواصلت كلامها بهدوء . . بصراحتها الرهيبة : أريد أن أكون  
أنا وهو فقط . . ومعنا ابننا . . وسينام البرت . . وسنبقى معا طوال  
الليل . . وحدنا . لو وجدتنى مازلت أحبه ، سأقول لك . أنت  
تصدتنى . سأقول لك .

خرجت يومها هائما على وجهى لا أدري الى أين أذهب • فكرت  
أن أرمى نفسى فى البحيرة •• استلقى بظهرى على الواحها  
الثلجية وأتخشب من الألم وأموت • قضيت ليلة سوداء رغم أن  
الثلج كان يتساقط والعالم كله ناصع البياض •• لماذا تركتني أحبها  
وفى قلبها يسكن رجل آخر ؟

فى ذلك اليوم كرهت كل شئ •• كرهتها •• وكرهت نفسى •  
وفكرت أن أستبدل دراستى عن أوهام المسرح بدراسة أخرى من  
أوهام الحب •

كنت أصرخ صرخات يمتصها الثلج المتساقط بطول الليل •  
فى اليوم التالى •• فى نفس الموعد الذى كنت أذهب فيه  
اليها فى بيتها بعد الظهر ، فوجئت بها تفتح باب شقتى وتدخل وهى  
تقول جملة الوحيدة العظيمة : فاضل • أنت حبيبى •  
كنت أنظر اليها وقلبى يرتعش من السعادة • واندفعت نحو  
وراحت تغغم ورأسها على صدرى •

— الآ •• أيقنت أنه خرج من نفسى •• لم استطع أن تلمس  
أصابه جسمى • لقد رحل مع الفجر •

عند هذه النقطة توقف •• كأنما انتهى من مشهد كامل ، ومضى  
ينظر لى ليرى ويسمع أثره على • وكنت طوال ما هو يحكى وخيالى  
هناك •• فى شقة أيفا •• بجوار البحيرة •• أحاول أن أتخيل  
تفاصيل ما حدث • لكن نظراته أوقفت خيالى •• كان يطل منهما  
بريق واضح محدد المعنى : الاحساس بالنصر وبالتفوق • وكان قد  
شرب كثيرا ، وما هى الأعماق الحقيقية تبدأ فى الظهور •• أعرف  
جيда هذا الشعور • حين ينتصر الرجل منا على رجل آخر دون أن

يلتحما فى قتال ، حين تؤثرنا امرأة رائعة الجمال والشخصية على  
غيرنا •

وفكرت ان اهنئه - مجاملا - على انتصاره • غير اننى ام  
استطع • كنت متأثرا فى نفس الوقت بقصة الرجل الأفريقى الأسود  
وهو يرحل حزينا •• مهزوما •• مع الفجر •

واوشكت ان افجر معه القضية كما أراها : أقول له : لقد فتحت  
لك قلبى فأرسلت اليه عاصفة بددت أمنى وسكينتى •• وحزنى  
أيضا • ان المسألة ليست مسألة انتصارك فقط يا صديقى العراقى •  
انها أيضا هزيمة لرجل آخر أفريقى • وأنا مصرى • والمصرى عربى  
وأفريقى • لأن كان جزء منى أنتصر فى هذا الصراع •• فان جزءا  
آخر منى انكسر وانهزم •• وكلاكما عزيز على قلبى •• ثم ان القصة  
كما هو واضح تحتوى على مشاهد وفصول أخرى •• فهاتها لى من  
الأول • ( وعادنى وجه ايفا والطفل وبط البحيرة المتجمدة ) بل ان  
القصة تحمل فى أحشائها بذور فصل أو فصول جديدة ومثيرة على  
ما يبدو •

غير انه كان قد أفرط فى الشراب ولم يعد قادرا على التركيز •  
وجاء بعض الألمان والألمانيات •• القوا عليه التحية ، فنهض  
مرحبا ودعاهم على الجلوس فجلسوا معنا •

انتهى تماما أى أمل فى ان يواصل الحكاية •

لابأس •• فالأيام بيننا •• وتسقط كل الستائر •

## ( ٤ )

افترقنا فى تلك الليلة على ميعاد ، وكان هو الذى افترح أن يكون لقاءنا يوم الأحد القادم مباشرة ، قائلا بحماس : تأتينا فى شقة ايفا ٠٠ فى الصباح ٠ لا تتأخر بقدر الامكان ٠ يوم اجازة ، نقضيه معا طول النهار ٠

وقد سعدت بالاقترح ٠ وتصورت يوما باكملة مع ايفا ، فى شقتها المطلة على البحيرة المتجمدة ٠ بكل احياءاتها ٠٠ وقد ننطلق ايضا الى الخارج ٠ الى أحد الميادين أو إحدى الحدائق ٠٠ وايفا معنا ٠ والطفل ايضا ٠ وظل رجل أفريقي رحل مع الفجر يتبعنا ٠٠ وتتوالى مشاهد القصة ٠

وتفجرت فى نفسى نشوة مقترنة برؤى غامضة رائعة ، هى خليط من النغم والصراخ ٠٠ رؤى الخلق الفنى !

كنت استعجل مرور الأيام ليأتى يوم الأحد هذا ، وأخلت نفسى فيه من أى ارتباط أو التزام ٠ غير أنى فوجئت يوم السبت السابق عليه بفاضل يطلبنى فى التليفون ويعتذر لى عن الميعاد ٠

امتلت بالاحباط ٠ وأوشكت أن أعبر له عن ضيقى ، غير أن صوته كان مرهقا حتى خشيت أن يكون مريضا ٠ قال أنه مشغول لشوشة رأسه ، وأنه يحارب فى أكثر من جبهة فى وقت واحد ٠٠ وتراءى لى لحظتها وجه ايفا بالطفل ، فسألته : أى جبهات ؟!

قال : سأحكى لك عندما نتقابل ٠ أننى اكلمك من الشارع ، وخارج الكابينة أناس كثيرون ينتظرون دورهم فى الكلام ٠ سأتصل بك خلال أيام ٠

لكن الأيام مرت ، والاسباع ايضا ، ولم يتكلم ٠ وخلال فترة الصمت هذه فكرت أنه ربما يكون مريضا ومن الواجب أن اذهب اليه

فى بيت ايفا وأطمئن عليه ، لكنى وجدتنى أفكر : وحتى لو كان مريضاً ، أأمكن من الواجب عليه أن يطلب من ايفا أن تتصل بى وتعطينى تفسيراً لهذا الصمت ؟ انه لم يفعل أكثر من أنه أخى زيارتى لهما . أجل ، وربما هو يقصد هذا الصمت . ربما أحس بالندم ، انه فى لحظة شراب وانفعال مضطربة ، وبأثر من لقاء الصدفة فى بلاد الغربة ، حكى لى عن الأشياء أم يكن له أن يحكيها لى . وأنه قرر ابقائى خارج دائرة حياته مع ايفا . ألا يلغى معى الحائط الرابع ، ولا تسقط الستائر أكثر من ذلك بينى وبينها .

وغزائى احساس بالمضيق وبالاكتئاب ، ولأنى أكره اقتحام حياة الآخرين ، كما أكره الاستجداء فى العواطف . وفى الفن أيضاً ، فقد قررت إيقاف سيطرة قصة ايفا والطفل والبحيرة على ذهنى . وقلت لنفسى : اننى أم ات الى هذه البلاد لأتصيد قصصاً أكتبها . أنا جئت لكى يكون لى أنا نفسى قصصى وتجاربى الحية المعاشة . وانطلقت فى حياتى ، وتراجع بالتدريج عالم فاضل وايفا وبطلها ويط البحيرة المتجمدة من خيالى .

فى تلك الأيام ، كان الشتاء يتراجع ، والريعم يتقدم ويمس العالم بعصاه السحرية . وبدأت الثلوج تذوب والأشجار العارية والجافة تورق وتكتسى بالخضرة وبالزهور ، والسناجب خرجت من جحورها وراحت تتقافز بين فروع الشجر فرحة بالدفء والضوء . وبقدر ما كان ذلك الشتاء قاسياً وطويلاً كان الربيع يبدو لى أقرب ما يكون الى انفجار البركان . بركان الحياة التى انكشفت وتداخلت فى بعضها كنوع من الدفاع عن النفس ضد الجفاف وضد الموت ، ثم فجأة اذا بالطاقة الشتوية الثلجية الكامنة تنفجر مجسدة فى ملايين الملايين من الأوراق والأزهار بمختلف الألوان والأشكال .

وتفجرت فى نفسى أنا الآخر طاقة الحياة . كنت مشدوها ومنتهشياً وأنا أتابع على الطبيعة سحر معجزة بعث الحياة . وتراءت

لى الأشجار كأرامل خرجت من حزنها واكتست بثياب الفرح الجميلة  
 ٠٠ وفكرت مشتاقا :

ترى ٠٠ كيف منظر البحيرة الآن من شرفة ايفا ، وما حال البط  
 فيها ؟ لابد أن موسم السباحة والانطلاق بدأ ٠ وانتابنى حنين دافق  
 لأن أرى المنظر ، وايفا واقفة معى ، تحمل طفلها الأسود وقد ابتهج  
 وجهه وتوهج بأشعة الشمس الدافئة ٠٠ وبمنظر البط يسبح فى ماء  
 البحيرة ويكاكى ويصفق بأجنحته ٠ لم لا ؟ أن القادر على منح  
 الطبيعة الشتوية الثلجية كل هذا الدفء وكل هذا الازدهار ٠ قادر  
 على أن يمنح القلب الانسانى الحزين بهجته ومسرته ٠

انا أيضا أريد أن تكون لى بهجتى ومسرتى ٠ واذ سمعت من  
 بعض الأصدقاء والزلاء عن رحلة جماعية الى بعض مدن ومناطق  
 الشمال ، حتى أسرع بالاشتراك فيها ٠ ومن أول لحظة ركبنا فيها  
 القطار ، عاودنى ذلك الاحساس الرائع البهيج بأن العالم أوسع وأغنى  
 من أن يحصر الانسان نفسه فى وطن أو فى بيت أو فى انسان ٠٠ أو  
 فى مأساة ! تلك هى الأيام التى أحسب بها عمرى ، حين أكون طليقا  
 كطائر ، أتنقل من قطار الى قطار ، ومن مدينة الى مدينة ، ومن  
 فندق الى فندق ، ووجوه وأماكن تفرح لأنك تراها ، وتحزن أيضا  
 فى نفس اللحظة لأنك ستفارقها ولن تراها بعد ذلك أبدا ! اناس  
 ومبانى وقلاع وكاتدرائيات وعصور من التاريخ ، ومصانع ومناجم  
 ومعامل تعطى ملحمة الانسان الذى خربت الحرب أرضه فبناها من  
 جديد ٠ وخطر لى معنى دونته فى ورقة :

« الانسان هو أعظم مادة خام فى الوجود » ٠٠ هذه بلاد قست  
 عليها الطبيعة فلم تمنحها مناجم فحم أو حديد أو آبار بترول ، ومع  
 هذا فهى بالعمل الانسانى بنت وشيدت وأبدعت وحققت المعجزات ٠  
 « الانسان المبدع هو أعظم المناجم فى الوجود » ٠



وكان أحدها معه جيتار ، وبيننا فتاة تغنى ، وأحبينا غناءها  
فغنيانا معها • ومع انى لم اكن أعرف معنى الكلمات ، ألا اننى كنت  
أشارك فى الغناء • ذلك هو المعنى الأروع • أن نشترك جميعا فى  
أداء واحد وإحساس واحد • المعنى الأكبر هو المشاركة فى الفرح  
بالحياة •

وكنت أمام بعض المناظر الرائعة أقفل عيني وأثبت صورتها فى  
خيالى • أريد أن آخذها معى لتصبح رصييدا لى أيام الجفاف  
والضنك ، مثلما ندخر النقود لآيام الفقر والعجز •

وعدنا من الرحلة • كان الكل مشتاقا بعد فترة السفر والتجوال  
الطويلة الى بيته والى حجرته والى سريره •• تلك الأوطان الصغيرة  
التي نصنعها لأنفسنا فى الغربة ، ونحن اليها •

غير اننى ما أن وضعت حقيبتى وغيرت ملابسى حتى فوجئت  
بمديرة البيت الذى أسكن فيه تقدم لى ورقة صغيرة ببضع أسماء  
اتصلت بى اثناء الرحلة • فرحت جدا أن بينها اسم « فاضل » وارتسم  
لى على الفور وجه ايفا •• وطفلها •• ووقفنا أمام البحيرة المتجمدة،  
يقينا ذابت منها الثلوج •• واكتسحتنى رغبة جارفة فى أن اذهب  
اليهم على الفور وأقضى معهم هذا المساء وجزءا من الليل •• غير  
أن بيتها كان بعيدا •• نصف ساعة بالقطار •• وإذا عائد لتوى من  
قطار ، وضجيج الرحلة ، وزحام المشاعر والصور •• فلاؤجل  
زيارتهم للغد •• لكننى فى الغد وجدتنى مشغولا ببعض أعمال  
وواجبات كانت تنتظر عودتى من الرحلة ، فتأجلت زيارتى لهم رغما  
عنى •

الى أن حدث ذات يوم ، ودون قصد منى ، وجدتنى أسير فى

المنطقة التى تسكن فيها ايفا ، بل وقريب من بيتها ، تفتح قلبى .  
واتجهت مباشرة الى هناك .

كانت هى التى فتحت لى الباب . وما أن رأتنى حتى شمع  
وجهها بالسرور وصاحت :

— أوه . . مصطفى . . تفضل بالدخول . .

أسعدنى استقبالها ، وأسعدنى أكثر أنها نادتنى باسمى هكذا  
مباشرة دون القاب . أحسست أنى أصبحت صديقا قديما لهذا البيت ،  
وفكرت أن أسأله — قبل أن أدخل — أن كان فاضل موجودا ، لكنى  
أحببت أن أمارس الاحساس بعدم الاغتراب . . دخلت . . قفلت ورائى  
الباب .

كانت ترتدى فستان خروج أزرق صافى وحذاء بكعب رفيع  
عالى ، ودت لو أقول لها ، كصديق : مازال القوام الفارع الرشيق .  
والصدر الناهد ، والشعر الذهبى المسترسل والمتسق مع لون  
الفستان .

— آسف أننى جئت بلا تليفون . . كنت . .

قالت مسرعة : لا تلق بالآ . . لمطيف أنك جئت فى هذا الوقت  
بالذات . كنا على وشك الخروج ، أنا والبرت ، لأشتري بعض  
الأشياء قبل أن تقفل المحلات .

— آه . . اذن فأنا محظوظ أنى لحقت بك ورأيتك . ( واذ  
تصورت أنها ستتركنى وتخرج ) أمل أن يكون فاضل هنا الآن .

لم تجب على الفور . ولحت بريق عينيها يضطرب « ماذا هناك  
ياترى ؟ » . قلت مستفسرا : ألم يعد من الخارج ؟

قالت بهدوء : فاضل رحل .

كان قبضة هائلة دقت على طنبلة قلبي : رحل ؟ الى اين ؟

— الى بلاده ٠٠ الى بغداد ٠٠

واصلت صياحي :

— ومتى رحل ؟

— منذ يومين ( وشردت نظراتها ) فى الفجر ٠

— مع الفجر ؟ ( قلتها بدهشة واسى ) هو الآخر رحل مع  
الفجر ؟

قالت مستغربة : من تقصد بالآخر ؟

قلت معذرا ٠٠ بحزن : لقد حكى لى فاضل عن موقفك مع  
والد البرت فى زيارته الأخيرة لك ٠ قال لى : انك قلت له ٠ انه رحل  
مع الفجر ٠٠ وما أنت تقولين لى ٠٠ ان فاضل هو الآخر رحل مع  
الفجر ؟

هزت رأسها بابتسامة حزينة وحكيمة وقالت : هذا صحيح ٠  
قلتها لنفسى أنا أيضا : الاثنان رحلا مع الفجر ، جوليوس ،  
وفاضل ٠

رن الاسم الأفريقى فى رأسى : جوليوس ٠ وأوشكت أن أكون  
له صورة فى خيالى ، غير أن صوتها وهى تنطق بالاسمين ، بدا  
وكانها تشيع راحلين عزيزين ٠٠ الواحد بعد الآخر ، فى ضباب  
الفجر ٠

قلت وقد احتشدت نفسى بشتى المشاعر والانفعالات :

— لكن فاضل سيعود ٠ بالتأكيد سيعود ٠

— لو عاد ، فلن يكون من أجلى ٠

قالت لها بهدوء حاسم ، واتجهت بنظراتها بعيدا عني ، كأنما  
قالت كل ما عندها وأن القصة انتهت وانتهى فاضل صديقي من هذه  
الشقة ، وإن فقد أنتهى مبرر وجودي أنا الآخر هنا ٠٠ وعلى أن  
أسلم وأمضى ٠٠ وماودتني صورة فاضل وهو يحكي لى فى نادى  
المسرحيين عن موقفها مع الأفريقى ومعه ٠ وكان يحكيها لى كانتصار  
له ٠ ليلتها حزنت من أجل الأفريقى ، مثلما فرحت له ٠ هل دارت  
عليه الدائرة ورحل هو الآخر ههزوما مع الفجر ؟

واكتنفتنى ضباب لم أر معه أى شيء !

قلت بتعاسة : ولكن ما الذى حدث يا أيفا ؟ أعلم الا وقت عندك  
الآن للكلام ٠ لكننى فى ظلام كامل ولا أرى أى شيء ٠ أنا فى حاجة  
لأن أجلس معك بعض الوقت ٠ فى أى وقت ٠ وفى أى مكان  
تحببته ٠ ولتكن المرة الأخيرة ٠

— ولماذا الأخيرة ؟ ليس فى الأمر مشكلة ٠٠ تستطيع أن تقترح  
الموعد الذى يناسبك ٠٠

— ويناسبك أنت أيضا ٠٠ الأحد القادم ٠٠ هل يناسبك ؟

— يناسبنى ٠٠ نأخذ البرت ٠٠ ونجلس قرب البحيرة ٠

تفجر ينبوع فرح فى قلبى ٠

— عظيم ٠٠ هذا عظيم ٠٠ والآن أين البرت ٠٠ صديقى البرت  
٠٠ أراه قبل أن أخرج ٠

قالت : سنخرج معا ٠ الآن ذورا ٠٠ أسفة انى لم أقدم لك  
شيئا ٠٠ لكن يجب أن أضمن عشاءه ٠٠ لم أخرج من البيت طوال  
اليوم ٠

قلت بحماس : يمكننى ان اذهب بسرعة واشترى له كل ما يلزمه  
 .. ويلزم البيت .. ثم اعود أنا ببتي .

قالت بهزة نفى من رأسها : شكرا .. البرت فى حاجة للخروج  
 وتغيير الهواء .. استأنذك ..

ومضت بسرعة الى حجرة الطفل . لحظات وعادت تدفعه  
 امامها فى عربته .

هل اسلم وامضى بعد ان اذكرها بالميعاد ؟ واذا وجدتتها تسير  
 بعربتها فى نفس الطريق الذى على ان اقطعه لأصل الى محطة القطار،  
 ظللت سائرا بجوارها فى صمت .. متنقلا بعينى بين وجه الطفل  
 الأسود البادى من العربة ووجهها الأبيض بشعرها الذهبى .. كانت  
 سائرة بثقة .. وشموخ .

اندفعت مسرعا نحوه : آه .. البرت .. يا صديقى العزيز ..  
 نحن صديقان قديمان .. كيف حالك يا البرت .. البرت جوليوس .

واذا حانت منى نظرة الى ايفا .. وجدت وجهها وقد سطع بفرحة  
 غامرة وقالت بصوت يملؤه الحنين والامتنان : هذه اول مرة اسمع  
 فيها رجل ينادى البرت ، باسم ابيه .

قلت : هذا هو الطبيعى يا ايفا . وهى الحقيقة ، ويوما سيكبر  
 البرت .. وسينادون عليه فى المدرسة . البرت جوليوس . يا البرت  
 جوليوس . وحين يكبر اكثر ويدخل الجامعة ويصبح مهندسا أو طبيا  
 ويفتح عيادة سيعلق لافتة باسمه .. دكتور البرت جوليوس .. و ..

— أوه .. انت رجل متفائل .. أشكرك .. هيا نخرج ونشترى  
 الطعام .. ( وازداد انفعالها ) آسفة جدا انى لم أقدم لك شيئا هذه  
 المرة .

قلت : ساشرب القهوة هنا فى المرة القادمة .. ساشربها ثم  
نخرج الى البحيرة .

مزت رأسها بارتياح .. وأشارت لى بالخروج وهى تدفع  
عربة الطفل أمامها . وفى لحظات .. كنا نحن الثلاثة فى الشارع .

كل انتباهى كان على نظرات الناس .. ما وقع منظر فتاة شقراء  
خرج من رحمها طفل أسود ؟! وحقيقة كان المنظر لافتا للعين ، لكنى  
لم أر أبدا نظرة استغراب أو استنكار تطل من عين أحد . ربما  
نظرة رثاء واشفاق وبالذات من بعض أزواج عواجيز كنا نمر بهم أو  
يمرون بنا .

وفكرت .. ماذا لو كان هذا المنظر فى القاهرة .. أو فى بغداد؟

ايكون هذا المنظر الحى هو المدخل لتفسير المأساة .. أم أنها  
ليست مأساة الا فى خيالى ؟

— مام .. مام ..

صاح الطفل فجأة على أمه .. وبدأ أنه على وشك البكاء .  
توقفت عن السير . انحنت عليه بحنان : ايه .. البرت .. ماذا  
تريد ؟ تريد أن تخرج من العربة وتمشى ؟ ليس الآن .. البرت ..  
بعد أن ننتهى من شراء طعامك . لقد اقتربنا .

قلت : الا تلاحظين اننى لم أسلم عليه حتى الآن .. أن البرت  
مديق تديم لى .. وسبقى تنه .. معنا .

ابتسم وجهها وقالت ، . بتهديده خفيفة : انه لم يضحك من  
يومها .

لمستنى الملاحظة . قلت وقد انتابتنى رغبة جارفة فى احتضانه

• سوف اضحكه يوم الاحد القادم • سنضحك ونلعب معا •  
شردت عيناها : ها هو المحل •  
قلت : سادخل معكما • امسك بالعربة وأعتنى بالبرت حتى  
تشتريين ما تريدين •  
استحسننت الفكرة : هذا لطيف منك •• سيساعدنى هذا على  
الانتهاء من الشراء بسرعة •

امسكت انا بالعربة • ومضت هى تدور على الارفف وتنتقى  
ما تريد • أما الطفل • فكان مأخوذا بما حوله ، وبوجوه المشتريين  
والمشتريات • ثم جاءت عيناها فجأة فى عيني •• أرسلت اليه قبلة •  
ابتسم لى • يا صديقى العزيز البرت •• لولا هذا الزحام للاعتبك  
وضاحكتك •• و ••

وبدا فجأة أنه ضائق بجلسته داخل العربة ، وأنه على وشك  
بالبكاء : لا •• لا يا البرت •• طفل لطيف مثلك لا يصح أن يبكى  
•• ذلك معناه أنى فشلت فى مهمتى •• ماذا تريد ؟ ( كان يرفس  
برجليه ) هل تحب أن تمشى قليلا •• على قدميك ؟ هذا من حقه  
يا البرت • يجب أن تكثر من المشى •• يجب أن تكبر بسرعة يا البرت  
جوليوس •

كنت اكلمه بالعربية • وكنت أعلم أنه لا يفهم شيئا مما أقول •  
لكنى كنت أريد أن أنقل اليه احساسى •• بأى لغة وبأى صوت •  
وملت عليه باسم ما ذراعى الاثنين اليه • لم يجفل منهما •  
حملته بغاية الرقة والحنان والحذر وأخرجته من العربة • وأوقفته  
على رجليه •

أضاء وجهه الأسود بسعادة كبرى •• ومن فرط الفرح كان  
يتعثر وهو يمشى • ويوشك على السقوط لولا ذراعى اللتين كانتا

تتبعانه وتحيطان به • وأحدث سيره فى المكان حالة مرح ، رانسمت  
ابتسامات الرجال والنساء والفتيات وهن ينظرن له •• ولى •• وراته  
ايفا يسير على رجليه وسط الناس فجاءت جريا ووجها خايط من  
الفرح والخوف :

— أوه •• فرض رأيه عليك •

— لا •• ليس فرضا •• انما هو رغبة منه ، وتجاوبا منى •

— آه • هذا لطيف • ولكن •• انت ترى الزحام ••

— يجب أن يتدرب على زحام العالم من الآن •• الدبرت يجب  
أن يكبر بسرعة ويتعود على مواجهة العالم •

نظرت فى عيني •• نظرة امتنان •• ثم قالت بصوت جاد  
وحاسم : هل هناك ما يشغلك الليلة ؟ ارتباط أو موعد ؟

قلت : لا شيء اطلاقا فى العالم يشغلنى •

— اذن •• فل تكن الليلة جلستنا التى طلبتها منى •• لاداع  
لأن ننتظر الى الاحد القادم •

ونبت لقلبي جناحان ورفرف بهما •

## ( ٥ )

هناك لحظات تتحول فيها نفس الانسان فجاة الى غابة استوائية  
تزدحم فيها الأشجار والنباتات •• تختلط وتلتف ، وتسرح فيها  
الزواحف والوحوش والغزلان والهوام والطيور ، وتضج جنباتها  
بالزئير •• وبالأغاريذ ••

ها هو الطفل قد تناول عشاءه ونام • واصبحت أنا وايفا وحدنا



فى شقة تطل على بحيرة كانت يوما متجمدة ثم ذابت منها الثلوج •  
وما هى ايفا نفسها تخرج من حجرة الطفل وقد غيرت فستانها ولبست  
روبا ناعم الزرقة طويلا يكاد يغطى قدميها ويهف على الأرض وهى  
تسير ، وشعرها عقدت خصلاته الى الخلف ، فبان كل العنق بالأذن  
الوردية الساطعة • ودبت لى أقول لها : ان كنت تقصدين الاحتشام  
فأنت لا تعرفين أن هذا النسق من التكوين يلهب مراكز الاحساس  
بالجمال عندى • أنت ايضا لا تعرفين غرامى بالمرأة ذات الأذن  
الدقيقة البديعة التكوين ، وكم يفرح قلبى حين أجد امرأة او فتاة  
أذننها غير مثقوبة • أكره الثقب فى الأذن • جسدى يقشعر منه ••  
أعتبره من بقايا عصور الجوارى والحريم • آه •• ما أروع أذنك  
الدقيقة الملساء يا ايفا •• بالعنق •• بلون الشعر المنسجم مع لون  
الزوب ولون البشرة •• و ••

وماذا أيضا يا قلب ؟ يا قلب اهدأ وتعقل • فليس من أجل هذا  
عادت بك الى شقتها وأنامت طفلها ، وعجلت بالجلسة التى تنسدها  
•• و •• ها هى تعلن اقتراب رفع الستار •• تقول وهى واقفة فى  
وسط الصالة :

— فى البدء نشرب قهوة •

قلت متحمسا •• متعجلا : نشرب قهوة •

قالت : نشربها فى الشرفة • الجو اليوم لحسن الحظ دافئ •

نهضت واقفا مرحبا بالاقترح : أنت تصنعين القهوة • وانا  
أعد الجلسة فى الشرفة •

— لا شئ سوى أن تنقل هذه المنضدة الصغيرة ، وهذا هو  
مفرشها •

وناولتني اياه .. وأسرعت الى المطبخ .

رفرفت على الشقة روح بهيجة .. ها نحن نتشارك فى صنع الجلسة ، وهى التى اقترحت المكان . والغروب فى صيف هذه البلاد طويل ، ومازال فى الامكان رؤية البحيرة . البحيرة التى أصبحت تلازم خيالى منذ ان رايتها أول مرة وسألتنى يومها ايفا : ترى .. بما توحى بحيرة متجمدة لكاتب ؟

لعلها الليلة تسألنى : بما توحى بحيرة ذابت ثلوجها، لكاتب ؟

تفجرت فى نفسى نشوة الحياة حين يمر الاحساس ويتوهج بقرب ميلاد جديد . هذه الليلة هى عطية من عطايا الله لك -ككاتب .. فهل يمكن ان تخرج هذه الليلة بتكوين لرواية أو مسرحية جديدة تحطم بها الحلقة الحديدية التقليدية التى أصبحت تدور فيها كتاباتك بل وحياتك كلها فى السنوات الأخيرة ١٩

منتشيا ومتهللا ، حملت المنضدة الصغيرة الى الشرفة ، وعدلت الكرسيين فى تقابل . وجه ايفا سيكون لى .. أنا وحدى .. طوال الجلسة . لا . بل سنقف أولا بعض الوقت . ووجهانا للبحيرة ، ننظر الى امتداد المسطح الكبير فى ضوء نهايات الغروب . كان ثمة قارب بشرع . يبدو وكأنه سيطير . آه .. وهذا هو البط لا يمشى هذه المرة فوق الثلج ، بل يسبح فى مياه متموجة .. أياكون أو ان انقشاع الحزن عن ايفا ، مرتبطا بذوبان الثلوج ، وفى نفس الوقت بخروج الرجلين من حياتها ، ورحيل كل منهما الى بلده ١٩

— آه .. هو ذا انت ايتها الذئب المصرى .. تنتهز فرصة غيابى لتحل محلى .

كان وجه فاضل .. بشعره الهائش .. ينظر لى بابتسامة تقطر غضبا .. ومرارة !

– لا ٠٠ بل انطلق معها الى آخر المدى ايها المصري ٠ فلم نعد  
– أنا وهذا العراقي المغرور بالنسبة لها غير شبحين من أشباح  
الماضي !

كان وجه أسود زنجى غائم ٠٠ أبو الطفل ، يتقسم أيضا  
بسخرية وعيناه تلمعان حزنا ٠٠ واحباطا ٠

صحت في نفسي رافضا منطق الاثنين : لا ٠ أنا لم آت هنا  
لأخذ مكانكما ٠٠ أنا أتيت لكي أعرف منها قصتكما معها ٠٠ ليكون  
بعد ذلك الحكم والحساب ٠ وأنت أيها العراقي ، يا فاضل يا صديقي ،  
لا تنظر الى هكذا نظرة المستريب غير المصدق لكلامي ٠ ليس في  
طبع الذئاب الغادرة ، وان رأيتني مجذوبا بعنف نحو جمالها ،  
فلذلك قدرى أمام الجمال حيثما يكون ٠ ليس في المرأة وحدها بل  
حتى في الطبيعة الصامتة أيضا ٠

– أنا واثقة أنك ستكتب عنها ٠ هذه البحيرة ٠

انتبهت على صوتها ٠

– آه ٠٠ تلك أمنية لى ٠

كانت قادمة تحمل صينية القهوة وأطراف روبها الحريري  
الطويل تهف على قدميها ٠ هرعت اليها ٠

– هات عنك هذه الصينية ٠

– ٠٠ ليست مشكلة ٠٠ أنا مدينة لك بفنجان قهوة ٠٠ أنا  
التي سأقدمه لك ٠

ووضعت الصينية على المنضدة ٠

.. كم أنت كريمة وعظيمة ٠

– الكرم ربما • أما العظمة ، فهذا كثير •• أرجوك ••

– أنا أقول احساسى •

نظرت فى عينى وقالت بشيخ ابتسامه : دعنا لا نعتد على  
الاحساس كثيرا • آن الأوان لكى نعتد على العقل بعض الوقت •

( وشردت بعينها ) على كل حال • العقل ظاهرة حديثة على  
الانسان • وهذا هو ما يغفر لنا •

قلت وقد تفتحت نفسى للحوار : أنا متفق معك • حداثة العقل  
على الانسان • ولهذا يجب أن نتدرب على استعماله بكثرة • ومع  
هذا ، وحتى بعد استواء العقل ونضجه ، سيظل الانسان فى حاجة  
الى الاحساس • أن يعتمد على مجرد الاحساس وحده والا ( وأشرت  
الى امتداد البحيرة ) فماذا يمكن أن يقول العقل وهو يقف أمام  
بحيرة مثل هذه •• فى نهايات الغروب • هذا المنظر البديع ، بألوانه  
وتكويناته الالهية • هذا الجو الملىء بالرموز الرائعة الغامضة ••  
ماذا يمكن أن يقول العقل فيه !<sup>٤</sup>

ندت عن صدرها تنهيدة : كلكم شعراء • ( قالتها وجلست على  
أحد المقعدين ) كلكم أبناء العالم الثالث • أغنى ما فيكم منطقة  
الاحساس • وهذا هو لب المأساة •

– أية مأساة ؟

– تذوق أولا القهوة ••

– ولنشعل أيضا سيجارة •

أشعلناها ••

– رائعة قهوتك • أقولها بالاحساس ، فلا مجال للعقل هنا •

– شكرا • (وعاودتها نصف إبتسامتها الغريبة ) ولو كنت من  
أصدقاء جوليوس ، لكنت الآن تقول لى ، شايك رائع • كنت أصنع  
له ولأصدقائه الأفريقيين الشاى على الطريقة النيجيرية التى تعلمتها  
منه • طريقة أهله وقبيلته • كان كل شىء يتم بالاحساس • بل ان  
الحكاية كلها معه بدأت باحساس • احساس بدأ خارج منطقة العقل  
والادراك •

قلت متحكما فى لهفتى متعجلا رفع الستار : انا لا أعرف من  
قصتك مع جوليوس سوى الموقف الأخير • زيارته الأخيرة لك • ثم  
رحيله مع الفجر •• بلا عودة • فاضل حكى لى هذا •

قالت بنصف ابتسامة ، ممتزجة بسخرية مرة : لم يحك لك من  
كل قصتى مع جوليوس الا هذا الموقف • لأنه بدا وكأنه انتصار له  
على رجل آخر • حكى لك النهاية • ولم يحك لك البداية • بداية  
قصتى مع جوليوس • كانت رائعة • وكان فاضل يعرفها • حكاها  
جوليوس له أمامى •

قلت مسرعا : اكان فاضل يعرف جوليوس ؟

قالت : هناك جاذبية خفية تشد أبناء العالم الثالث الى بعضهم  
فى بلاد الغربة وتسرع بتعارفهم • لقد تعرف عليه فى احتفال أقامته  
السفارة النيجيرية بمناسبة أحد أعيادهم القومية • وعرفنى جوليوس  
بالتالى عليه • ومن ليلتها أصبح صديقا لنا •

أوشكت أن أقول لها : وخليفة أيضا له فى الحب •

كتمت التعليق فى نفسى !

وواصلت كلامها : لم يكن فاضل يحب سماع بداية قصتى مع  
جوليوس • البداية بالذات • وكنت أعطيه العذر • فقد كانت شيئا

ليس فوق العقل فقط ، بل وفوق الخيال أيضا • نعم • هكذا كانت • •  
طوفانا من المشاعر والاحاسيس دفعتنى دفعا الى كل ما حدث • الى  
ما أنا فيه الآن • لكنى غير نادمة أبدا • أبدا • ( وجذبت نفسا من  
سجارتها ، ونظاراتها الى بعيد ) •

ذات يوم ، كنت أزور احدى صديقاتى ، وهى تعمل مديرة لأحد  
الأقسام فى أحد المستشفيات • فجأة ونحن جالستان فى مكتبها  
جاء من أبلغها بان حالة خطيرة دخلت الآن المستشفى : امرأة مصابة  
فى حادث وتحتاج أول ما تحتاج • نقل دم اليها • استأذنت منى  
صديقتى وهرعت الى المصابة • وجدتني اهرع خلفها ورغبة طاغية  
تتملكنى لأن أرى هذه المصابة ، فقد تكون قريبة منى أو معروفة لى ،  
من يدري •

واذ رفعوا الملاءة البيضاء من على وجه المصابة ، رأيت وجه  
امرأة المائنة شقراء فى حوالى الخمسين ، ضائعة فى غيبوبة ، ورغم  
أن الوجه لم أكن أعرفه ، الا انها ذكرتني بأى • اكتسحني حزن هائل  
وخوف من الموت لأول مرة • كان السباق على أكبر كمية من الدم  
يجب نقلها اليها بسرعة • وأدركت من الهمس أنهم نقلوا اليها كل  
البلازما الموجودة فى ثلاجة المستشفى ، لكنه لم يكن كافيا لحالتها •  
مازالت فى حاجة لنقل دم • ولا بد من متطوعين ، غير أن المشكلة  
لم تكن فى ايجاد المتطوعين • فقد تطوع بعض الألمان والألمانيات  
الموجودات بالمستشفى باعطاء دمهم ، لكن فصيلة دمهم للأسف لم  
تكن من نفس فصيلة دم المصابة • ورفرف شبح الموت • صحت على  
صديقتى وأنا أمد ذراعى :

ـ فلتجربوا دمنى • أرجوك •

فى تلك اللحظة ، فوجئنا بمن تقول مهللة : لقد وجدوا من هو

دمه من فصيلة دم المصابة • ويا للسماء الر-يمة • تصوروا • انه  
شاب أسود • صديق للدكتور ليتن •

اهتز كل كياني •• دم رجل أسود ينقذ حياة امرأة بيضاء •  
أى دم هذا ؟ وأى رجل ؟ واستبدت بى رغبة جارفة أن أراه • هو  
الآن فى العمل معهم ، ويسحبون من ذراعه الدماء ! كان ما يحدث  
يأخذ فى نفسى شكل معجزة تتخلق أمامى وتتكون • دم رجل من  
الجنس الأسود يغذى جسد امرأة من الجنس الأبيض ، ويرد إليها  
الحياة !

الاحساس الطاغى الذى غزانى فى تلك اللحظة أنى وجدت  
الدماء فى شرايينى تنادى وتطلب الامتزاج بالأسود • ليس فقط  
بدمه ، بل بكله • كان هذا هو احساسى • ما هو التفسير ؟ لا أدرى •  
وقررت الا أغادر المستشفى الا بعد ان أرى الشاب الأسود ، بطل  
المعجزة • ورايته وهو يخرج من حجرة العمل بعد أن أخذوا كمية  
من دمه • كان أسود •• عميق السواد • وكان مبتسما •• بشفتيه  
الغليظتين • مرتديا قميصا فضافاضا • مزخرفا ، قويمى الطابع •  
وخطواته ثابتة وقوية ، كأن شيئاً لم يسحب من عروقه ، وبعض  
الواقفين والوافيات من جهاز المستشفى يجرون عليه ويحتضنونه  
ويقبلونه •

— أوه • كم أنت انسان نبيل • ومضحى • وكريم •

— لا كرم ولا تضحية • الله أعطانى • وأنا أعطيتها مما أعطانى  
الله • ( وكان وجهه الأسود يلمع ويتشعق فرحاً وسعادة ) الله أعطانا  
دماءً واحدة • رغم اختلاف البشرة • لكن الجوهر واحد • ماء  
الحياة واحد • لكن معظمهم من البيض والأسود أيضا لا يعرفون ذلك  
للأسف • والسبب هو هذه البثرة المظلمة • ( وأشار بإصبعه على

جلد وجهه ) ثم فوجئت به يحول أصبعه من وجهه الى وجهى أنا  
بالذات ويقول : فى مقابل لون هذه البشرة البيضاء المتوردة البهيجة •

ووجدتنى أصبح عليه ، مهتزة كلى بكلامه : لا • بل بشرتك أنت  
المضيئة •

واندفعت اليه اقبله مثلما فعل الآخرون والآخريات • فوجئ  
بما فعلت • بدا للحظة كطفل كبير مشدوه وقال : هذه القبلت تساوى  
ألف لتر أنزفها من دمائى • أشكرك يا الهى • هذا يوم تاريخى • من  
اليوم سأحلب لوني الأسود وأنا أراه أمامى فى المرآة •

ضحك الواقفون والواقفات • أوشكت أن أقول له : أنا على  
استعداد لأن أكون مرآتك • ترى فيها وجهك المضيء الجميل •

لكنى أحجمت أمام الموجودين • فقد تعودت فى حياتى ، بفضل  
تربية أبى وأمى على ضبط انفعالاتى • ووجدته يقول مخصصا  
الكلام لى :

أستطيع أن أحكى لك حكاية طريفة ، تفسر لك كيف أن حب  
إنسان أسود للون بشرته ليس حدثا بسيطا ، بل هو حادث هائل ،  
حادث كونى وعالمى •

قلت بفضل ولهفة : احكها لى • أرجوك • احكها لنا •

قال : سأحكيها بعد أن نطمئن على الأخت المصابة • أريد أن  
أطمئن عليها من صديقى الدكتور « ليتش » يا لها من صدفة ( وكان  
يوجه الحديث لى ) ووجدتنى قريبا من المستشفى ، فقررت المرور عليه  
لكى أراه ولو لدقائق • كان القدر أرسلنى فى هذا اليوم وهذه الساعة  
لكى يكون دعى من نصيبها •



وددت لو أقول له : وأنا أيضا • ما جئت اليوم هنا لأرى صديقتي الا بالصدفة • كان القدر أرسلنى لكى أراك أنت بالذات •

ولا اغرقك فى تفاصيل ذكريات ذلك اليوم ، فقد وجدنا نفسينا نتقارب امام الجميع • امام صديقتى مديرة القسم ، وامام صديقه الدكتور ليتش الذى خرج من حجرة العمليات مبتهجا ، يحتضنه • ويكرر شكره قائلا له : يا له من قدر يا جوليوس • أن تاتى لزيارتى هذه الساعة بالذات • وعلى غير ميعاد •

ونظر فى عيني : ألم أقل لك ؟ هناك قوة خفية عظيمة تدبر الأحداث ؟

فى ذلك اليوم • وجدنا نفسينا نخرج معا ، وحدنا ، من المستشفى ، نمشى فى الشوارع سعيدين كطفلين فرحين عثرا على معجزة • وراح يحكى لى الحكاية التى وعد بها • قال أنه لم يشأ لحظتها أن يحكيها للجميع ، بل أحب أن يختصنى أنا بها وحدى • ثم بعد ذلك أحكيها أنا للآخرين •

حكى لى عن شقائه وهو صغير بلونه الأسود ، وحلمه بأن يكون له بشرة على الأقل سمراء ، وكيف أنه كان يغطى وجهه بالدقيق الأبيض وينظر الى شكله فى المرآة • وحين أحس بفشل العملية ، وأن اللون الأسود سيظل قدره الى أن يموت امتلا بالحزن الشديد • الآن وبعد أن قبلت بشرته ، ووصفتها بالضئيلة ، الآن هو يحب هذه البشرة السوداء ، ويريد أن يعلن ذلك العالم كله •

واحتويته • نعم • كنت أحس به منيرا ، ناصع البياض ، وفرحت ان حبى الأول قام على اكتشاف عظيم لم تسبقنى فيه الا أقل

القليلات • وأحببت من أول لحظة أن يكون أى طفل منه • وأسعدنى أنه لم يعارض أو يتردد ، بل كان يتعجل مجيء الطفل • وكما كانت قرحته أن الطفل جاءت بشرته سوداء • وأنه العنصر الأقوى • وفرحت أنى منحتة هذا الاحساس • ( وتنهدت ) كانت فترة فيضان الاحساس • • ليس أجمل من الحياة بالاحساس ، أن يأتى الحب نتاج معجزة • الأبيض والأسود يختلطان لتخرج منهما معجزة أخرى ( وأشارت على حجرة الطفل ) الآن يكفينى البرت •

وتوقفت فجأة عن الرواية • سرحت بعينها عبر البحيرة • كان الليل قد حل • ولم تعد ثمة امتدادات أمامنا ، بل كتلة ظلام تحولت الى مسرح لأحداث تلك القصة العجيبة • وكان ثمة دوار قد أمسك برأسى • دوار الصور والرؤى والأحداث المتلاحقة المثيرة •

قلت لها : تلك كانت البداية يا أيفا • هذا الامتزاج الالهى الرائع بينك وبين جوليوس ، فلماذا انفصلتما بعد ذلك ، رغم أن المعجزة أنتجت زهرتكما الجميلة الحبيبة • البرت ؟

جذبت نفسا طويلا الى صدرها وقالت : لأن عصر الاحساس كان قد انتهى ، وبدأ عصر العقل •

— كيف ١٩

— كانت بعثته الدارسية انتهت ، ولابد أن يعود الى بلده • قلت له أننى مستعدة للذهاب معه أنا والبرت ونعيش معه فى نيجيريا • وإذا به يقول لى : دعينا يا أيفا نتحدث بالعقل • لأول مرة كان يقول العقل • أنت تعرفين كم أحبك • وما الذى يمثل حبنا لى فى الحياة • لكن الحب الآن ، فى الموقف الجديد الذى أنا فيه ، لم يعد هو كل شئ • هناك زوجتى التى تنتظرنى ، ولا أستطيع أن أعود إليها بعد

غياب ثلاث سنوات ، ومعى زوجة اخرى جميلة بيضاء . سنتقتلنى  
أو تقتل نفسها !

كانت الصدمة رهيبية لى . لا لشيء الا لأنه كذب على من اول  
يوم وأخفى عنى أنه متزوج . صرخت فى وجهه : لماذا كذبت على  
ياجوليوس ؟ لماذا أخفيت عنى أنك متزوج ؟

— لأنك كنت ستضيعين منى يا ايفا . هى الكذبة الوحيدة التى  
كذبتها عليك طوال حياتنا معا . هل كذبت عليك فى شيء آخر ؟  
ذكرينى . ومع هذا ، دعينا لا نتعجل الأمر يا ايفا . أعطنى فرصة  
لاتدبر الأمر وأنا هناك . أنت تعرفين ألا حياة لى بدونك أنت والبرت  
. أعطنى فرصة أرجوك .

وأعطيته الفرصة . بل أعطيتها لنفسى . وامتزجت دماؤنا قبل  
رحيله بمثل ما لم تمتزج من قبل . بقوة الوداع والخوف من الضياع  
الأبدى . لا . لن يضيع منى ومن ولده . سيفعل الفارس الأسود  
الذى أنقذ البيضاء بدمه ما ينقذ به حبنا . . وابننا ( وندت عنها  
شبهة ) لكنها كانت منطقة الاحاسيس . وحين استيقظ العقل بهرور  
الزمن ، أدركت كل شيء على حقيقته . عرفت بعد شهور قليلة من  
وصوله بلده ، أنه أصبح شخصية مرموقة . لم أقل لك أنه سياسى  
وينتمى الى أحد الأحزاب الوطنية فى بلاده . كلهم أبناء العالم  
الثالث ، حتى غير السياسيين منهم ، حينما يأترون الى هنا يصبحون  
سياسيين ويهاجمون تاريخ أوروبا الاستعماري مع بلادهم . بيدون  
وكانهم يريدون الانتقام منها . المهم ، بدأ يلعب فى بلاده كسياسى  
له جماهير تلتف حوله وتؤيده . وله أيضا خصوم يهاجمونه ويريدون  
ضربه وطعنه ! وفى احدى خطاباته القليلة . قال ان هناك كلاب بشرية  
تنبج حوله وتتشم نقطة ضعف فى حياته الشخصية ليسبهاوا به .

قال هذا بشكل غامض ملفوف • كان يعنى أن قصتنا معا لم  
عرفت ، فستكون مصدرا للتشهير به • واذن ، فقد أصبحت أنا نقطة  
الضعف التى تؤدد صعوده السياسى ، ومسيرة حياته الجديدة فى  
بلاده •

حينذاك أيقنت أن قصتنا معا وصلت الى نهايتها ، فأرسلت له  
بذلك • لكننى فوجئت به يتخذ موقفا عجيبا • يريد أن يوقف حياتى  
لحسابه ، ممنيا إياى أنه سوف يأتى لزيارتى عدة مرات كل عام •  
يأتى من افريقيا عبر الصحارى والأنهار والغابات والبحار ليرانى ••  
لا •• بل ليمارس الحب ليلتين أو ثلاث فى السر مع البيضاء ، ثم  
يعود الى بلده •• الى زوجته والى أحلامه السياسية !

لا يا جوليوس • لن أكون لك بعد هذا • لن تكون بيننا حتى  
لمسة اليد لليد • وهذا ما حدث فى زيارته الأخيرة • وكان رحيله فى  
الفجر • كما حكى لك فاضل • انتهت القصة التى عاشت حية متأججة  
لثلاث سنوات •• لم يبق منها الا هذه الزهرة ، فاحتضنتها  
واكتفيت •

( ونظرت فى عيني بابتسامة حزينة شاردة ) الا يكفى الانسان  
أن يكون له طفل مثل البرت ؟

أوشكت أن أقول لها : لا يا أيفا • الأطفال وحدهم لا يكفون •  
من ذاق روعة الحب لا يمكنه الاستغناء عنه • ولهذا دخل « فاضل »  
حياتك ليحل محل صديقه جوليوس على الفور •

غير أنى طردت الفكرة من رأسى ، وأسدرت أربت على نفسيته  
المرهقة : أجل • البرت هذا يساوى العالم كله • أنه ابن المعجزة •

ابن العالم الذى لم يأت بعد • العالم الذى يمتزج فيه الأبيض بالأسود ويتكاملان ، لا ليتصارعان ويجلبان لبعضهما الدمار !

قالت مغممة : كان يقول لى نفس الكلام • حين كان ثائرا ، متمردا على تخلف العالم الذى جاء منه • وبمجرد ان عاد ، فقد ثورته ، واستكان وتماشى مع ما كان يتمرده عليه • وأصبح له طريقا آخر • اشترى أرضا • وبیتا جديدا • وعربة • هو الذى كان يتحدث كثيرا عن زهد الثوار • وأعتقد أن طموحه الآن يوصله لأن يفكر فى ترشيح نفسه للرئاسة فى بلاده ( وطردت نفسا عميقا من صدرها ) انتهى جولايوس القديم • المتحرر المنطلق البسيط الذى يعطى دمه للآخرين • وحتى عطاءه الدم فى ذلك اليوم ، لم يكن فقط بقصد انقاذ انسانية من الموت ، بل كان أيضا بقصد أن يتحقق من تلك المعجزة الغريبة ، أن دم الأسود هو نفس دم الأبيض •

وتنتهى العقدة المساوية القديمة • ومع هذا • فأنا لا أكرهه • أبدا لا يمكن أن أكرهه • بل أرثى له • أنه ابن تراث قبلى وانطاعى عتيق • ليست نادمة • لقد حملت فى الطفل أيام الحب • وسيبقى الى الأبد • ابن الحب !

هل أتعبها الكلام والذكريات ؟ كانت قد لزمّت الصمت وشردت ببصرها فى الظلام • وفكرت ان اعتذر لها عما أكون قد سببته لها من ارهاق • غير أن دوائر الضوء رغم الظلام كانت تتسع امامى • لقد جئت معها لأعرف حكاية رحيل صديقى فاضل ، فاذا بها تبدأ بالكشف لى عن عالمها مع جولايوس ، والد الطفل • كأنها تقدم لى عناصر القصة • قصة رجلين من العالم الثالث • وامرأة بيضاء تسكن بجوار بحيرة تتجمد فى الشتاء وتذوب فى الصيف • قلت طامعا فى مزيد من رفع الستائر :

— هذا عن جوليوس يا ايعا • وفاضل ؟ أم هو الآخر ينطبق عليه نفس الكلام • كواحد من أبناء العالم الثالث ؟

فأتت بسرعة : لا • ليس بشكل مطلق ، وإن كان الجوهر واحدا •  
لقد عرض فاضل على قبل أن يرحل ، أن أتزوجه • لكنى رفضت •

قلت مندهنا : أنت التى رفضت ؟ لماذا ؟ اعتقد أنك احببت فاضل حقا •

قالت بهدوء : هو الوحيد الذى عوضنى عن فقد جوليوس •  
وهو الذى حمانى من وطأة الحزن واليأس • هو الذى أضاء حياتى بعد الظلام الذى حل • كان أبا ثانيا لألبرت • لقد بكيت على رحيل فاضل كثيرا •

— فلماذا إذن لم تتزوجيه وتسافرى معه •

— والطفل ؟

— يسافر معكما •

— مستحيل • هل تعرف أن فاضل ولد فى مدينة اسمها « كريلاء » وأن أهله مازالوا يعينون فيها حتى اليوم ؟

تلت مستثارا بطريقة نطقها لاسم المدينة • كر • • بلا : أعرف بالطبع هذا • وقد أخذنى ذات مرة فى زيارة لهذه المدينة ، وعشت فيها يومين • كان ذلك منذ ما يقرب من سبع سنوات •

— أكانت الزيارة أيام الاحتفالات ؟

— أى احتفالات ؟

— الاحتفالات الدينية التى تقام كل عام ، فيجتمعون فى

الساحات وقد لبسوا السواد • الجميع • الرجال والنساء وحتى  
الأطفال • ويضربون أنفسهم بسلاسل من حديد • رمزا للندم على  
جريمة قتل ارتكبوها الأجداد • هل تعتقد أن بلادا مثل هذه يمكن أن  
تتقبلنى كزوجة لأحد أبنائها ، ومعى طفل أسود من رجل آخر ؟

لو ذهبت معه ، فسأنضم لهذه الجموع وسأضرب نفسى بسلاسل  
الحديد ندما على ما فعلت • ليس فقط للمعاناة التى سأسببها  
لفاضل ، بل أساسا من أجل الطفل • البرت يجب أن يعيش فى وطن  
يجد فيه سعادته ( ونهضت واقفة وعيناها فى اتجاه البحيرة ) المانيا  
• وطنه •

كنت ممثلا بفيضان من السعادة الممتزجة بالأسى • ذلك  
الاحساس الذليل بالقطهير الذى تحدثه فى النفس التراجيديا • • خليط  
أنا بين أن أخذها بالعناق كما كنت أخذ صديقاتى بطلات مسرحياتى  
فى القاهرة بعد انتهاء العرض بالأحضان أعجابا ومحبة ، وبين أن  
أحنى رأسى للقلب الذى يثقله الحزن • • حزن امرأة تعيش وحيدة  
مع طفلها أمام بحيرة ، وحالا سيعود الشتاء وتتجمد المياه ويعود  
البط للمشى ويبدأ فوق الثلوج •

وددت لو أهتف عليها : أنا يا أيفا • • أستطيع أن أخفف عنك  
الحزن وأشباح الوحدة •

لكن الموقف لم يكن يحتمل منى أى كلام ، أو فليكن كلاما من  
نوع آخر •

— فلنستند لحظة على سور الشرفة • نشرب سيجارة ، وبعدها  
أمضى على الفور • كى الحق بآخر قطار •

– مازال هنك وقت كثير على آخر قطار •

اشعلنا سيجارتين ورحنا ندخن فى صمت • كانت البحيرة  
يعمها الظلام • ثمة أضواء بعيدة تبرى وترتعث • وتخليل البط  
سابقا أو غافيا على سطح الموج • بدا لى وكأن العالم كله نهار •  
وان كل شىء أراه •

– أتذكرين يوم هتفت معى أنا وفاضل : تسقط الستائر ؟ كنا  
ساعتها بالنهار ، لكنى كنت أحس بعشرات الستائر بينى وبينك •  
الآن والدنيا ظلام ، أحس أنى أرى كل شىء • حظ سعيد أن يلتقى  
الانسان بانسانة مثلك •

سكتت ولم تعلق بشىء •

– لماذا لا تقولين اى شىء ؟

– ماذا أقول ؟ • لقد قلت كل شىء •

اذن فقد انتهى وقتى فى بيتها • وقفت متأهبا للخروج •  
واذ تصورت أنى لن أراها بعد ذلك أبدا ، اندفعت قائلا بحنين :  
– ايفا • ألا يمكن أن نصبح صديقين ؟

قالت بابتسامة يظللها الأسى : هكذا بدأ فاضل • ( وتنهدت )  
الأفضل الا يأتى يوم وترحل أنت الآخر فى الفجر ، مثلما رحلا •  
القلب متعب • وفى حاجة الى أن يستريح •  
وابتسمت وهى تخرج من صدرها تنهيدة طويلة :

– فلنتعلم من تجاربنا (وأعطت ظهرها لفراغ ظلام البحيرة) •  
فلنبدا عصر العقل •



- أجل .. فليبدأ عصر العقل .. اسمحي لي أن أرى البرت  
واقبله قبل أن أمضي .
- لو أضأنا عليه النور فسيصحو .. و ..
- اذن قبله لي .
- وسلمت عليها ..
- ومضيت ..

« ١٩٧٩ »



• محاکمة فآر

---



والفار هنا فار حقيقى وليس رمزا ٠٠ والمحاكمة التى جرت له محاكمة حقيقية اكتملت لها ومنذ لحظاتها الأولى كافة الشروط والاجراءات القانونية التى تعارف عليها الناس منذ فجر الديمقراطية فى اثينا ، بل وما قبلها من أيام بابل وقسانون حمورابى ٠ حتى ديموقراطيات هذه الأيام !!

وضمانا لاكتمال السلامة القانونية ، فقد حرص الرجال الذين قاموا بهذه المحاكمة على مناقشة الشكل الذى يجب أن تتم من خلاله : هل تكون محاكمة مدنية أم عسكرية ؟ ٠٠ وما يستتبع هذا من ضرورة الالتزام بالمواد الخاصة بكل منهما ٠ ذلك أن واحدا منهم كان جنديا ينتمى الى القوات المسلحة ا

وحين اتفقوا بالاجماع على أن تكون المحاكمة مدنية ، وكان المجند أول المحضين لهذا ، تشكلت هيئة المحكمة من ثلاث ، واخذت مكانها فى الصدارة ٠ ووقف ممثل الاتهام متحفزا للالقاء بالتهم وتكييفها التكييف الكفيل باصدار الحكم شنقلا وبلا أية رحمة ، بينما

وقف « الدفاع » فى الناحية الأخرى ، متأهبا لتفنيد أدلة الاتهام  
وانقاذ رغبة الفأر المسكين من المصير المؤلم !

ولابد أن نؤكد من الآن أننا لسنا حيال احدى قصص العبت  
وشطحات الخيال ، الا اذا اعترفنا بأن الواقع نفسه كثيرا ما يكون  
أكثر غرابة وعبثية من أى خيال !

انما نحن حيال لحظة تغير فيها تماما كيان هؤلاء الرجال  
النفسى ، بعد خمس سنوات قضوها فى ذلك السجن النائى  
المطوح فى الصحراء ، والذي اشتهر باسم « سجن المحاريق » .  
حيث فى جهنم الصيف ، أو فى زمهرير الشتاء تحترق أو تتمجد  
الأشياء والكائنات الحية ولا يبقى منها الا القدرة على التكيف  
فتتحول الى كائنات كل همها الافلات من الفناء ومن الانقراض .

وقد بدا ذلك واضحا من طريقة نومهم فى تلك الليلة ، قبل  
أن يتسلل الفأر اليهم من تحت عقب الباب ، وهم ممددون جميعا  
فوق اسفلت الزنزانة ، شبه عراة من شدة الحر ، فى مساواة  
تامة . رغم أنهم كانوا قبل المجيء الى هنا ينتمون الى فئات ومهن  
ومستويات اجتماعية مختلفة . فمنهم من كان مشهورا الى حد  
النجومية ، مثل اسماعيل يسرى الشاعر الذى أخذ شهرته بسبب  
قصائده الهجومية العنيفة على النظام وعلى السلطة والسلطان .

ومثل كامل البدرى المحامى الذى احتدرف النضال السياسى  
منذ أن كان طالبا بالجامعة . وبعد أن تخرج نذر نفسه كمحام  
للدفاع عن المتهمين فى القضايا الوطنية والسياسية ، كما كان  
المؤسس الأول للجنة الدفاع عن الحريات الشهيرة حينذاك .

ومثل احمد رضوان الذى كان يعمل مستشارا بمجلس الدولة،

قسم الافتاء والرأى ، ثم نحى عن موقعه بسبب فتاويه المضادة لاتجاه الدولة ، فعكف على كتابة كتب ومقالات تتضمن رؤيته وتفسيره لأحداث التاريخ المعاصر ، فطاردوه وطاردوا أيضا كتبه ومقالاته !

ومنهم من كان شخصية عادية مغمورة ، لا صلة لها أصلا بدنيا النضال الوطنى والسياسى ، لكن قدرها أوقعها فى شباك هذا العالم المتفجر البركانى .. مثل محمود المنادى .. الموظف الصغير ، رغم أنه كان اضخمهم جسما ، والذي كانت كل طموحاته فى الحياة أن يسد أفواه أسرة كبيرة ، تبدأ بأمه وأبيه ، وتنتهى بزوجه وأولاده الصغار الثلاثة ، ثم صدرت عنه ، من فرط احساسه بالأزمة ، نكتة لاذعة ، وصلت « المسئولين » فكان ذلك بدء نكته وماساته !

ومثل ذلك المجند الهارب الذى قبض عليه فى المظاهرات ونجح فى اخفاء حقيقة أمره ، فعومل كمدنى .. وكتبوا أمامه : منصور البنهاوى : عاطل .. و محترف ثورى !

ومثل العاطل حقيقة .. عرفان أبو الليل ، الذى كان يسير شريدا فى شوارع القاهرة ، يبحث عن أى عمل ، ثم فوجئ بالمظاهرات تكتسح الشوارع ، فوجد نفسه بلاوعى يدخل فيها ويهتف بحماس مع الهاتفين .. كأنما وجد لنفسه عملا !

ومنهم من هو « بين بين » مثل حازم سعد ، الطالب بالسنة النهائية .. كلية الاعلام قسم صحافة .. والذي يتدرب فى قسم التحقيقات الصحفية باحدى الجرائد اليومية الكبيرة .

ومثل ابراهيم العلاني ٠٠ عامل النسيج ، والريفي الأصل ،  
والموهوب في صناعة التماثيل من الطين أو من لباب الخبز المتبقى ٠

رغم هذا التباين الواضح في الهوية ، فقد قبض على الثمانية  
في ليلة واحدة ، ضمن حملة اعتقال واحدة هائلة غطت أرض مصر  
كلها ، وألقى بهم في هذه الزنزانة !

وقد أدرك الفار من أول لحظة أطل فيها برأسه وشواربه  
من تحت عقب الباب ، أن لا شيء عادي في المكان ٠ كانوا  
جميعا نائمين أو مغلقين عيونهم تماما ليخففوا من وقع ضوء  
الكهرباء الساطع ٠ وما أكثر ما تمنوا لو كان مفتاح النور في متناول  
أيديهم ٠ لكن المفتاح الرئيسي كان هناك ، في مبنى الإدارة ، حيث  
مأمور السجن ، وكلايه ورجاله ، لا يفلقونه الا مع انتشار  
ضوء النهار ٠ أما الليل ، فلا بد أن يبقى ضوء الكهرباء ساطعا ،  
كاشفا لأية حركة مريبة يقوم بها أحد هؤلاء « السياسيين » الملعين  
الخطيرين الذين لا يؤمن لهم أبدا !

ومع هذا ، رغم الضوء الساطع المركز عليهم ، فقد بدوا  
جميعا وقد سقطوا في جب النوم العميق ٠ أو ٠٠ في حلم يقظة  
أعمق ٠ أو ٠٠ هي غيبوبة عقلية أورثها إياها ذلك التبدل والتحجر  
الذي أصاب أدمغتهم وخيالهم بالتدريج ، يوما بعد يوم ، وعاما  
بعد عام ٠٠ مع تواتر الحياة الجهنمية وتكرارها ، منذ جىء بهم  
الى هذا المنفى مكبلين بالحديد ، عبر رحلة الأهوال في الصحراء ،  
وكل مجموعة تربطها سلسلة واحدة ٠ بالنهار ، من طلعة الشمس ،  
يعملون في تكسير الأحجار ٠ وفي المساء والليل لا شيء غير  
التجمع والتمدد تعباً على الأرض والتسلى بالحديث ٠٠ ولكن حتى  
الأحاديث فرغت ٠٠ الأحاديث الحقيقية والأحاديث المتخيلة ٠٠ لم  
يعد ثمة جديد أو مثير ٠٠ ولا ثقب ضوء من الأمل ٠٠



الكل كان نائما ، أو هامدا ، أو ساقطا فى الغيبوبة ، حين  
احس أحدهم ، وهو الشاعر ، بثمة حركة غريبة ، ففتح عينيه وإذا  
به يرى فارا يتشم وجهه • وإذا التقت نظراته بنظرات الفأر ، حدثت  
انتفاضة فزع من الاثنين • الفأر أنطلق قافزا يجرى • وهو •  
هب واقفا ، وحمل بطانيته واندفع على باب الزنانة ، وسد بها  
العقب الذى دخل منه الفأر • وما ان نجح فى ذلك حتى صاح على  
الفأر بلهجة المنتصر : ووقعت يا ابن الـ • •

ومضى يضحك ، بينما الفأر كان يجرى متخططا مذعورا فى  
كل اتجاه • • انتفض الباقون • صحوا من نومهم • وما أن راوا  
المنظر حتى خيل لهم أنهم فى حلم أو كابوس مزعج • وراح كل واحد  
منهم يتفادى اصطدام الفأر به • وإذا اصطدم بالفعل بأحدهم ،  
وهو « محمود المناديبى » • والخربب كما قلنا أنه كان أضخمهم  
جسما ، حتى صرخ فى وجه الشاعر كأنما أصابته هستريا : ما هذا  
الجنون الذى تفعله ؟ هل نحن ناقصون فئراننا ؟ أخرجه قورا •

قال الشاعر وقد أخذ بثورته • • وكلماته : ولماذا تصرخ  
هكذا • • لم يحدث شيء يستحق منك هذه الثورة • أتريد لهذا  
الوضع أن يذرح بهذه البساطة ، بعد أن وقع لـ ؟

حملق فيه المناديبى : وما الذى تريد أن تفعله به لـ ؟

ـ سنرى • • بعد أن يستقر أخذها • • أرجوك • •  
ببساطة •

كان الآخرون يتابعون حركة الفأر المذعور • • وحين راوه  
يلجأ الى الركن المجاور لباب الزنانة خلف جردل الماء ، ويقع  
ساكنا فى ظله ، هدأت توتراتهم ، وتحول استغرابهم وذهولهم الى

ابتسامات ، أو الى نظرات ضيق .. انهم يعرفون زميلهم الشاعر  
وحبه الشديد للهزل يحارب به البؤس واليأس .. كم له فى هذا  
من فصول .. هى محض تخاريف خيال ..

قال كامل البدرى المحامى وهو يتأمله بابتسامة ساخرة  
ودودة :

— حقا ان الشعراء لقوم مشعورون .. لم يبق غير الفئران  
تجعل منها لعبتك ، وتقوى بها عزيمتك ؟

قال الشاعر متماديا ، مؤكدا موقفه : ولم لا ؟ الغاية تبرر  
الواسطة !

— واسطة حقيرة .. ومقرفة .. هيا خلصنا منها .. انت  
تعرف ماذا ينتظرنا فى الصباح .. ولا بد أن نأخذ راحتنا ..

قال المناديبى : انا شخصا سأنام .. سواء أخرجته أم  
استبقيته .. سأنام .. نحن فى سجن ، وليس لنا فى مستشفى  
مجاذيب !

وبالفعل .. تمدد على الأرض بجسمه الضخم .. معطيا  
ظهره لهم ، ووجهه للحائط فى سكون ..

قال كامل البدرى ، محامى الحريات ، مخاطبا الشاعر بجدية :  
ان لم تتركه يخرج .. سأخرجه أنا ..

صاح الشاعر بغضب ، وقد وقف معترضا ومتصديا لأى  
تحرك : قلت لا .. لن يخرج بهذه الطريقة .. لن أسمح بذلك ..

حين رأى المحامى جدية غضبه وانفعاله تمهل .. وحسب حساب  
أن يكون زميله قد انتابته نوبة ، ولا بد أن يتعامل معه بهدوء وحكمة  
.. وحانت منه نظرة الى الباقيين ليستطلع مواقفهم وأثر الحادث

عليهم ٠ كانوا جميعا - باستثناء الذى نام ووجه الى الحائط ، ينظرون ويتابعون فى ذهول مختلط بابتسامة رضا ٠ كما لاحظ ان اوسع الابتسامات هى ابتسامة اكبرهم سنا ٠٠ الأستاذ رضوان المستشار السابق والمؤرخ الحالى ٠ تراه ينظر الى هذا الذى يحدث كاحدى العلامات الساخرة للتاريخ المعاصر !؟ ٠٠ كما رأى الطالب حازم ، الحالم بأن يكون صحفيا وكاتباً بالجرائد ، وقد انتابته حيوية وحماس شديدين ، وقال معلقا بمرح :

- شاعرنا عنده حق طبعاً ٠٠ كيف يترك هذا الفأر يخرج قبل أن يخرج هو منه بقصيدة شعر جديدة ويسميتها ٠٠ يسميها ٠٠  
أسرع العلانى عامل النسيج والموهوب فى صناعة التماثيل ٠٠  
قائلاً : يسميها الطاعون ٠٠ ما رأيكم !؟

شوح البنهاوى - الشريد - بيده فى سخط وضجر : أعوذ بالله ٠ ما هذه السيرة المقرفة ٠ أتعرفون أين كنت ؟ ( وسرح بنظراته ) جالسا على النيل ٠٠ ومعى بنت حلوة ٠٠ أجمل بنت فى حيناً ٠ وكنت على وشك أن أحتضنها ، وأشرب من العناب الذى فى شفتيها ٠٠ ثم فجأة ٠٠ أصبحوا على فأر !؟

قال الشاعر مداعباً : أليس أحسن من أن تصحوا على لا شيء !؟

ضحكوا ٠٠ ضحكة انتقلت عداها الى الناديبى الذى كان يبدو أنه نائماً ، وإذا به يستدير بوجهه عن الحائط ويقول : وماذا كان يحدث لو أنه صحا على فأرة ، وليس فأراً !؟

ضحكوا ٠٠ قال الطالب حازم : كان سيأخذها بالحضن فوراً !

ضجوا جميعا بالضحك • ونرح الشاعر بأن المناديبى تخلى عن موقف المقاطعة للعبة ، وبدأ يشارك فيها • وصاح مخاطبا اياه : هو ذاك • اكتشف يا مناديبى عن موهبتك العظيمة التى أودت بك الى هنا • موهبة التنكيك والاضحاك • لكن نكتتك لم تكن جنسية على ما أنكر •

— لا تذكرنى ارجوك •• والا أعطيت وجهى للحسائط من جديد !

ضحكوا مرة أخرى • ضحكة عالية صاقية • كانت أعلاها واصفاها ضحكة كبيرهم فى العمر ، الأستاذ رضوان ، بجسمه المربع وشعره الأبيض • والذي لم ينطق من أول الموقف بكلمة • وحين راوه يقهقه فجأة وبكل هذه البساطة والطلاقة ، فرحوا مثلما يفرح الأبناء حين يرون أباهم الوقور المهوم بمسئوليات الحياة فى لحظة متخففة بهيجة • واكتسبت اللحظة طعما جماعيا عائليا حلوا •• وبدأت لهم المسألة فجأة كلعبة لطيفة وطريفة • فلتستمر بعضا من الوقت •

قال المستشار للشاعر دون أن تزايل الابتسامة وجهه •

— والآن ياسيد اسماعيل يسرى •• فلنتحدث بشكل موضوعى • لماذا أنت مبق على هذا الفار حتى الآن ؟

— ذلك لأننى لم أصل بعد الى التصرف الواجب معه • فلتشركوا معى فى الرأى !

قال المناديبى من مرقدته : وهل أشركتنا فى الرأى حينما استضيفته معنا ؟

— قصدك اعتقاله ••

هز الشاعر كتفه لا مباليا ..

— يمكن أن تقول هذا ..

رفع كامل البدرى المحامى ذراعه منبها : اذن فلجنة الدفاع  
عن الحريات تحتج .. كيف تقبض عليه دون اذن ؟!

رد الطالب حازم مبديا دهشته : وهل اللجنة تدافع عن حرية  
الفران ؟!

— تدافع عن أى مظلوم أو مقهور فى العالم .. انسانا كان أو  
حيوانا ، أو حتى نباتا .. لجنتنا راقية وتؤمن بوحدة الكائنات ..

صاح المناديبى متأثرا بالكلمات والمعانى : اذن فلتعيش لجنة  
الدفاع عن الحريات ..

قال الشاعر مؤكدا : مهلا أيها السادة .. مهلا .. فأننا أيضا  
أؤمن بوحدة الكائنات .. انما متى ؟ حين تكون كائنات صالحة ..  
خيرة .. وتعمل فى انسجام للصالح العام .. هل ينكر استاذنا  
المناضل ، مؤسس لجنة الدفاع عن الحريات ، مبدأ التناقض والصراع  
بين الكائنات !

قال كامل البدرى : بالطبع لا .. لكننى مع المظلوم ايا كان ..  
ضد الظالم مهما كان ..

قال البنهاوى .. الذى كان شريدا : اذن فأنت مع هذا الفار ..  
ذلك لأنه فار مظلوم .. اعتقد هذا .. هو فار من فران الصحراء  
.. كان شريدا جائعا يبحث عن قوته ، ثم أدخله سوء حظه عند أناس  
أكثر جوعا منه .. هذه هى كل الحكاية !

قال البدرى : بهذا المنطق ، يجب أن نطلق سراحه فوراً ..

واضاف المناديبى : ونعتذر له ايضا بحرارة .

ضحكوا ..

صاح الشاعر معترضاً .. بصوت فيه نبرة تحذير : لا أيها  
السادة .. ليست المسألة مسألة جوع أو شبع .. فضلاً عن أنه  
أكثر سمناً منى وأشار على عظام قفصه الصدرى البارزة ) لكنه  
ليس قاراً عادياً .. يؤكد لكم .. بالعكس . انه قار من نوع خطير  
خطير . انكم لا تتصورون الجريمة البشعة التى جاء الى هنا متسللاً  
ليرتكبها ضدنا .

انتبهوا جميعاً : اية جريمة هذه ١٩

— هذا القار جاسوس . تسلل الينا مبعوثاً من قبل اسياده  
ليعرف دخيلة اخبارنا ، وحتى احلامنا ونحن نيام .

هب المناديبى من رقدته : قار جاسوس ١٩

— هاهما .. ( واختلطت الضحكات بالتعليقات )

— الصماويل فككت تماماً ..

— واضح ان اللعبة انتهت ..

— نضحك آخر ضحكة ثم ننام . .

وعاد المناديبى يقول : ألم اقل لكم أن النوم أفضل ١٩

— ارجوكم .. لحظة من فضلكم . ( قال الشاعر بغضب  
وحدة ) تستنكرون أن قاراً يصبح جاسوساً ١٩ ولماذا لا تستنكرون  
أن الجاسوس الرجل يتحول مع الأيام الى قار ؟ .. يصبح وجهه وجه  
قار ، وتصرفاته تصرفات فئران . جبان . متسلل . متشتم . فيه  
طبيعة الغدر . يلجأ دائماً الى الظلام والى الأركان . الجاسوس قار .

والفار جاسوس • لا فرق • وثبتوا تاريخ أى رجل عمل بالتجسس •  
ستجدون فيه من الأصل جزء فترائى •• الفئران أيها السادة مؤهلة  
بطبيعتها لهذا العمل الحقيقى •• ولا تتعجبوا •• فقد دخل العلم  
والتكنولوجيا فى الموضوع ١٩

— العلم والتكنولوجيا •• كيف ١٩

— ألم ينجحوا فى تدريب الدرافيل على أن تقوم بدور  
الجواسيس على غواصات الأعداء تحت سطح الماء ١٩ فهل سيصعب  
عليهم تدريب الفئران على ذلك ؟ بالعكس •• ان الأمر يصبح أسهل  
بكثير • هذا لو أخذنا فى اعتبارنا طبيعة الفئران •

— وهل وصلوا حقا إلى هذا مع الدرافيل ١٩

— ومع غير الدرافيل • ( أكد الشاعر ) لقد حقق العلم  
اكتشافات مذهلة وخطيرة •• انما نحن الذين نعيش على هامش  
العالم ولا ندرى بما يستجد فيه • وانتم تعلمون طبيعة هؤلاء المجرمين  
•• انهم يلتقطون اكتشافات العلم العظيمة ويحولونها الى خدمتهم •  
هل نسينا ما حدث بعد اكتشاف امكانية انقسام الذرة ١٩ حولها الى  
قنبلة ذرية هدموا بها مدينتين على سكانها •• ثم أبقوها بعد ذلك  
سلاحا لارهاب وهدم نضال الشعوب • اليوم تستكثرون أن يجعلوا  
من الفئران جواسيسا ١٩

قال المناهيدى منفلا ، بصوت خفيض ، كأنما يكلم نفسه :  
لا •• ليس كثيرا عليهم أى شيء •• الأوغاد • القنلة • قتلة الضمير  
قبل الأجساد !

تشجع الشاعر بتعليق المناهيدى وإنفعاله •• واصل : تصيح  
عيناه ، بفضل العدسات اللاصقة ، كاميرتان خفيتان تصوران ،

١٩٣

( م ١٣ - امرأة فوق الثلج )

وتسجلان . شواربه . تصبح قاذرة على التقاط الذبذبات الداخلية  
للإنسان . حتى وهو يحلم . العلم الآن يفعل الأعاجيب ! وهذا ما  
يجب أن يتنبه اليه رجال القانون ( ونظر الى المحامي والمستشار ) .

قال المستشار : لو افترضنا أن هذا الكلام صحيح . ما الذى  
يؤكد لنا أن هذا الفأر بالذات هو من هذا النوع ؟

قال الشاعر مسرعا : ذلك ما أحسسته فيه لحظة أن استيقظت  
عليه يتشمم وجهى ورأسى . فما كنت يا اخوانى أفتح عيني حتى  
وجدتني أمام وجه الرجل الذى قبض على . كنت ليلتها مستغرقا  
فى النوم ، وجاء هو متسللا فى الظلام ، وبنفس الأسلوب الذى لجأ  
اليه هذا الفأر ، حينذاك انتفضت وقبضت عليه . أنهم جميعا  
فئران . هؤلاء الذين قبضوا علينا فى تلك الليلة الكالحة الباردة !

نقلتهم الكلمات فورا الى ليلة القبض . استرجع كل منهم ذكرى  
الحادث كما وقع له ، وتراءى لهم الرجل أو الرجال الذين انقضوا  
عليهم فى صورة فئران . أجل . كلهم يتسللون فى الليل . ودائما  
وقت النوم . يقتحمون دوط استئذان ، ويتشممون ثم ينقضون .  
لم يعد الفأر قارا . أصبح هو القور والبطش والام وعذابات المنفى  
والبعد عن الأهل والأحباب .

— هذا الفأر يجب أن ننتهى منه فورا . بقتله !

قالها الشريد الذى كان منذ قليل متعاطفا مع الفأر .

واضاف المجند مؤيدا : وأنا الذى سأقوم بهذه المهمة .

وتحرك فى اتجاه الفأر . غير أن الشاعر أسرع باعتراضه  
وقال راجيا . بشدة :



- لا . ليس بهذه الصورة . نهاية هذا المجرم يجب ان تكون  
نهاية تاريخية ومشهودة !؟

- ماذا تقصد !؟

- الا يكون ما نفعله مجرد قتل فار . بل يكون قتلا لجميع  
الفئران . . هذا هو المغزى .

- وكيف يتم ذلك !؟

- نحاكمه .

- نحاكم من !؟

- الفار طبعا !

وان ضحك البعض لغرابة الفكرة وخرافيتها ، صاح الطالب  
منبها بها . . كموضوع يمكن ان يكتب وينشر فيما بعد . .

- يالها من فكرة ! . محاكمة فار . . نحاكم من خلالها جميع  
الفئران . . لم لا . . ألم نتفق على ان هذا الفار ليس فارا عاديا !؟

قال الشاعر سعيدا برأيه : ولكي نثبت لهم اننا افضل وأرقى  
منهم ، واننا المؤمنون . . قولنا وعملا . . بالعدل وبالحرية  
وبالديمقراطية . خمس سنوات أيها الزملاء ونحن بلا محاكمة . .  
المتوحشون . . القتلة . . بينما هو - عميلهم - ( وأشار على مكان  
الفار المختفى ) يحاكم قبل مرور ساعة من القبض عليه . . ( ونظر

اليهم واحداً واحداً ٠٠ مخاطباً بالاسم ( ليس كذلك يا رفاق المحنة  
والأيام السوداء ٠٠ انها لفرصة تاريخية ، يجب ألا نفوتها ٠٠

وإمام غرابة الفكرة وطرافتها ، وتجاوبها مع المأساة التي ترقد  
في الأعماق •

وافقوا جميعاً على الفكرة ٠٠

صاح الشاعر : اذن نبدأ بتشكيل المحكمة •

وهكذا دخلت اللعبة الدرامية الغريبة والمثيرة مرحلة جديدة .  
وبدوا جميعا متحمسين . من أصغرهم سنا ( الطالب الجامعي  
وهاوى الصحافة الذى لم يتعد الثانية والعشرين ) الى المستشار  
السابق رضوان الذى قارب الستين . الكل بدأ حريصا على أن  
يشارك ويلعب دورا فيها . لهذا لم يستغرق تشكيل هيئة المحكمة  
وتحديد بقية الأدوار غير دقائق قليلة . فقد وقع الاختيار بالاجماع  
على الأستاذ رضوان ، بحكم السن والمستشارية ، لكى يكون رئيسا  
للمحكمة . ووافق هو على ذلك بابتسام ورضا .

كما رحب صاحبنا الشريد بأن يتقلد منصب عضو اليمين .  
وكذلك المجند الهارب بعنصب عضو اليسار ، وانفخخت أوداجهما  
كبرياء وفخرا .

أما الشاعر فهو بالطبع ممثل الاتهام ، باعتباره المفجر الأول  
للموقف ، وانضم اليه فى هذا ثلاثة : الطالب حازم . وابراهيم  
العلائى العامل ، ومحمود النباديى الموظف ، حسب ما أبدوا من رغبة  
. . . وأن بدأ الماديبى الضخم مجازيا لا أكثر .

ولم يبق غير الأستاذ البدرى المحامى • قال محددا دوره :  
تعلمون حضراتكم انه فى مثل هذه المحاكمات الهامة ، قد درج العرف  
على ضرورة وجود رقابة شعبية ، تأكيداً لفكرة العلنية ، وضماناً  
للعدالة المطلقة •

تحمس الشاعر : يالها من فكرة • وبالنسبة لظروفنا ، يكفى  
ممثلاً واحد للشعب – للجمهور •• وليكن أنت • لا أظن أن أحداً  
يعترض •

ولم يعترض أحد • غير أن المشكلة ثارت فجأة حين قال رئيس  
المحكمة :

– القانون يوجب انتداب محام عن المتهم •

– آه ••

تبادلوا النظرات • كان الكل قد تحدد دوره • عم الصمت ••  
لم ينطق أحد بكلمة •

تفرقت النظرات • فمن ذا الذى يقبل القيام بهذا الدور البغيض،  
ولو حتى تأكيداً لفكرة العدالة ؟

قال رئيس المحكمة : فلتؤجل الجلسة حتى يتم انتداب محام  
للمتهم •

أسرع الشاعر مناشداً •• راجياً : لا يا سيدى الرئيس ••  
أرجوك •• أنتم تعرفون دقة لظروف • لو تأجلت المحاكمة هذه  
الليلة فلن تنعقد بعد ذلك أبداً •

– إعطنى حلاً ••

– قليلاً من رحابة الصدر ياسيدى • وستحل المشكلة • لابد  
ستحل • ولو اقتضى الأمر فسأقوم أنا بهذه المهمة • ولن يكون فى

ذلك اى عيب • ذلك لأننا فى النهاية لا نبغى غير تأكيد العدل •  
(وارتسمت على وجهه التعاسة • وراح يدور بنظراته على الموجودين)  
ليس من انسان كبير القلب •• رحب الصدر •• واثق بنفسه كل  
الثقة ، يقبل القيام بهذه المهمة •• وينقذ الموقف ؟!

ولا يدري لماذا تمهلت عيناه قليلا عند المناديبى ، وابتسم له ••  
ابتسامة استعطاف وعشم •• خجلا فى ذات الوقت مما يفعل ••  
وإذ التقت النظرتان ، رأى انقلابا فى ملامح المناديبى ، ومضة غريبة  
لمعت بها عيناه •• حول عنه نظراته فى الحال ، خائفا من أن ينفجر  
الرجل فيه •• غير أن المفاجأة الغريبة حدثت •• فقد رفع يده بجدية  
شديدة وقال :

— أقبل انتدابى للدفاع عن المتهم • هل بهذا تنتهى المشكلة ؟!

صاح الكل مهلا ، بين دهمشة واستنكار سرعان ما اخفوهما ،  
بينما اندفع عليه الشاعر يحتضنه : أقسم أنك صاحب أكبر وأنبى  
قلب فىنا •• وسيسجل لك تاريخ العدالة هذا الموقف الانسانى • الآن  
لم تعد هناك مشكلة ياسيدى •

\*\*\*

سيدى الرئيس •• السادة المستشارون أعضاء الهيئة الموقرة •

إننا اليوم ازاء محاكمة تاريخية لم يشهد لها التاريخ مثيلا  
من قبل •• محاكمة لو نجحنا فيها فأننا نقدم بهذا للانسانية تراثا  
ثمينا وجليلا ينفعها فى مسيرتها الى الأمام •• ذلك لأن الهدف الأعظم  
والأسمى منها هو تطهير العالم من الفئران •• وانكم لتعلمون  
ياسيدى أن عالمنا اليوم يمر بمرحلة أو بمرحلة غاية فى الخطورة •  
والسبب فيها هى سيطرة الفئران • ان ظاهرة انتشار الفئران

وتسيدها على حياتنا ليست صدفة عبثية من صدف الطبيعة .. انما  
هى مخطط اخطبوطى هائل ينتهى بان ..

قال الرئيس مقاطعا بهدوء :

- مع احترامى لكلام المدعى وادراكى لأهميته « الا اننى ارى  
الدخول مباشرة فى موضوع الدعوى . أولا بسبب الظروف التى  
تجرى فيها المحاكمة ، والتى اشترتم انتم بالذات اليها منذ قليل ، ان  
عنصر كمسب الوقت امر هام جدا . فقد يدهموننا فى أية لحظة  
ويفسدوننا علينا .

ثانيا . وهى نقطة قانونية هامة يعرفها جيدا السيد المراقب  
( وأشار على البدرى المحامى ) وهى اننا يجب أن نكون حيال جريمة  
محددة بالذات . فالقانون ينص على أن الجريمة شخصية . وكذلك  
العقوبة . ( هز المراقب رأسه موافقا .. مؤكدا ) ذلك لأن المتهم ..  
أى متهم .. لا يصح أخذه بذنب غيره .. فما هى أدلة اتهامك ضد  
هذا الفار بالذات ؟!

ارتسمت على وجهه ابتسامة واثقة ، وأحنى رأسه باحترام :  
معذرة سيدى الرئيس . اننى أقدر جيدا ما اشترتم اليه .. فعن النقطة  
الأولى . لابد فعلا من مراعاة الظروف التى نحن فيها . ولكننا  
- وعفوا ياسيدى - لا يصح أن نقع فى خطأ الاستعجال المخل . ذلك  
لأن المحاكمة يجب أن تستوفى أسباب نجاحها واكتمالها . وأحب  
أن اطمأنكم جميعا ، وبكل ثقة ، أن هذه المحاكمة لابد ستكتمل .

حتى ولو جاءوا فى أية لحظة وقضوها .. حتى لو جاءوا  
وساقونا امامهم الى الجبل كالمعتاد لنكسر الأحجار ، فاننا سنعود  
بعزيمة أشد لنواءها .

مال عضو اليمين « الشريد » على الرئيس وهمس في اذنه  
بكلمات • قال الرئيس :

– على المدعى أن يتذكر شيئا • أن لحظة واحدة يفتح فيها  
الباب ، سيقفز المتهم ويفر هاربا الى الأبد •

– نحاكمه غيابيا ياسيدى •

– غيابيا ١٩

– لم لا أيها السادة ؟ • ولدنا في ذلك نقطة مشجعة • أن  
زميلى فى الاتهام ( وأشار على العامل ) ابراهيم العلانى ، يستطيع  
وهو الفنان الموهوب ، أن يصنع للفار تمثالا ونمضى فى محاكمته •

( رفت على الوجوه ابتسامة ) ألم نقل أننا نجرى محاكمة  
غير تقليدية • محاكمة لم يشهد لها التاريخ مثيلا من قبل ١٩

تقدم العلانى خطوة من هيئة المحكمة متحمسا وقال : أنا  
شخصيا مستعد • وسأحاول هذا من الآن •

صاح عليه الشاعر : أحيى ثورتك أيها الفنان الشعبى العظيم •  
العامل حين يكون فنانا يصبح أعظم الناس • ومع هذا فأنا حريص  
على أن تكتمل المحاكمة فى حضور هذا المتهم الخطير اللئيم • هذا  
عن النقطة الأولى ياسيدى • أما عن الثانية • وهى أن الجريمة  
شخصية والعقوبة أيضا ، ولا يؤخذ أحد ، أو فار بذنب غيره • •  
فأنا حريص على هذا • ذلك لأننى واثق كل الثقة ، بأن هذا الفار  
أجرم فى حقى وساقيم الدليل على هذا • أن أبسط حقوق الانسان  
ياسيدى أن يعيش حياته غير مؤرق بأخر يتجسس عليه ، ويتشمم  
أثر خطواته ، ويسجل عليه كلماته فى الخفاء • ولقد حول هذا الفار

حياتى الى سلسلة من المضايقات والتوترات . تلك هى اول جريمة ارتكبتها فى حقى . . جريمة اختراق حياة انسان وهتك أسرارها بدون رضاه ! . . وسوف تسألنى المحكمة الموقرة : كيف يتأتى لفار ان يقوم بهذا ؟! . . اقول ياسيىدى أن هذا الفار قادم من مدينة يسخطون فيها الرجال ويحولونهم الى فئران . ليس كل الرجال بالطبع . هناك رجال ونساء تتنافى طبيعتهم الراقية مع هذا ، وهم ضد مسخ الانسان . ولهذا فهم يكرهونهم ويسلطون عليهم هؤلاء المسوخ ليتعقبونهم ويفسدون عليهم طعم الحياة . . وهذا الفار واحد منهم !

لقد خصصوه ليتعقبنى . . وكنت أحس به ، بجانب الحيطان ، وفى التاكسيات وفى الأتوبيسات . . وكنت أظاهر بأنى لا أحس به . الى أن جاء يوم ضاق فيه صدرى بمطارداته . فامسكت به بغتة من خناقه ورحت أصيح . . فاضحا إياه : يا ناس . . هذا الرجل يلاحقنى ويتجسس على . . اننى أشهدكم عليه . . ولو خنقته الآن بيدى لـ . . .

ولم اكمل فقد فوجئت بقبضة يده تهوى على وجهى فترنحت وسقطت على الأرض . وما كنت انهض حتى كان قد اختفى ، بينما كان بعض الشهود يضحكون والآخرى يمصصون شفاهم أسفا على . . .

مرت بعد ذلك أسابيع لم أره ولم أحس به . . خيل لى أنه وعى الدرس جيدا فأصبح يتجنب مطارديتى . الى أن كانت ليلة دعيت فيها لسهرة فى بيت ممثل سينمائى مشهور بمناسبة حصوله على جائزة . كانت ليلة رائعة تموج بالأضواء وبالنجوم . . وبينما أنا واقف مع مجموعة نتحدث ، اذا بى الملح وجهه يمر من امامى . . تعجبت . كان مصدر العجب ملاپسه الذى يرتديها . كان بثياب



السهرة ٠٠ بالغ الأناقة ٠٠ بينما تعودت عليه من قبل يلبس جلبابا  
بلديا فضفاضا ، أو بنطلونا وقميصا وحذاء كاوتش ٠٠

راجعت نفسى بسرعة ٠ لايد أنه شبيهه ٠ ويخلق من الشبه  
أربعين ٠ ألقيت بالشكوك خلفى ٠ غير أنها عاودتنى بقوة حين  
لاحظت عينيه ترصدان كل تحركاتى ٠ عاودنى ضيق الصدر ٠ قررت  
أن أقطع الشك باليقين ٠ خرجت وحدى الى الشرفة المطلّة على  
الحديقة ٠ ثم هبطت من الشرفة ومضيت سائرا فى الحديقة ٠  
بين الأشجار ٠ فى الظلام ٠ وإذا بى أسمع حفيف خطواته ٠  
كان يتعقبنى ٠ كدت انقض عليه ٠ قلت له مواجهها ، وعيناي فى  
عينيه : انك هو ٠ وعبثا تتذكر فى هذه الملابس الأنيقة !

ابتسم وقال : ومن قال أننى أتذكر ٠ أنا هو أنا ٠ أما تغيير  
الملابس فهو ليس من قبيل التذكر ٠ انما أنا فى الغالب أحب الملابس  
الخفيفة التى لا تعوق حركتى ٠ سواء كان جلبابا فضفاضا ، أو  
بنطلونا وقميصا ٠ واستريح جدا للحذاء الكاوتش أو الكريب بنوع  
خاص ٠ لكنى كما أنا عليه الآن ، هو أنا الحقيقى ٠ ويمكنك أن  
تزورنى فى مكتبى لتعرف بالضبط قدرى ومركزى ٠

قلت : هل يعنى هذا أنك رئيسهم ، أو واحد من الرؤساء ؟

هز رأسه بالموافقة ٠٠

اشتعل الغضب فى رأسى ، وقد تذكرت الضربة التى كالمها  
لى فى وجهى ٠ أمسكته من خناقه : مهما كان قدرك ومركزك ، فلا بد  
أن أزد لك الضربة !

قال مدهوشا :

... ضربة ؟! أية ضربة ؟!

— الضربة التي وجهتها الى في وجهي وأوقعتني على الأرض  
أمام الناس ..

قال مستنكرا : انا .. ضربتك !؟ لم يحدث .. متى حدث هذا ؟  
مزنته بقوة من خناقه : لا تكذب .. فأنت قلت لتوك .. أنك  
هو .. وحتى اذا لم تقلها .. فلامحك تنطق بها ..

ابتسم دون أن يحاول إخلاء يدي من خناقه : لا تجعل عصبيتك  
توقعك في الخطأ .. هناك حقيقة يجب أن تدرکها .. أننا كلنا  
متشابهون .. وهذا يسبب لنا كثيرا من الحرج ..

احسست بدونيته وحقارته .. شددت على خناقه : سواء كنت  
هو أم شبيهه .. سواء كنت الضارب أم الأمر بالضرب ، لابد أن آخذ  
منك حقي الآن ..

قال دون أن تزايل وجهه ابتسامته الكريهة : ها انا أمامك ..  
أضرب ان كنت تريد .. ولكن تذكر أن ضاربك الحقيقي قد تقابله  
بعد قليل ، حينذاك ستندم كثيرا .. والآن دعني أتنفس ..

— حقراء .. انتم أحقر خلق الله ..

وأخليت يدي من خناقه .. عدل من ملاسسه ومن رباط عنقه  
وقال : هذا هو عيكم .. عصبيون .. تفرغون طاقتكم في سب وشتم  
أعدائكم ..

— اذن فأنت تعترف بأنك عدوى ..

— وهل يحتاج هذا الى اعتراف ؟ انني أحاربك ، ولابد أن  
أوقع الهزيمة بك !

لولا أنه كان يتكلم بهدوء بالغ ، لقلت أن به لوثة .. قلت  
ساخرا : الى هذا الحد تظن أنني خطير ؟ أنت وأهم .. فانا لمست في

تنظيم سرى ٠٠ تؤكد لك ٠٠ ولا فى اى تشكيل من تلك التشكيلات  
الخطيرة التى تزعجكم ٠

قال : وهل تظننى لا اعلم هذا ٠ انا اعرفكم بالواحد ٠ الذين  
تحت الأرض ، والذين فوق السطح ٠ وأنت من الذين فوق السطح ٠  
وهذه هى خطورتك ٠

— كيف ١٩

— منذ قليل سمعتها وهى ترجوك أن تكتب لها أغنيات فيلمها  
الجديد ١

— وماذا فى هذا ؟

— فى هذا الكثير ٠ الأغنية الواحدة أخطر من ألف منشور ٠٠  
فهل نترككم تدخلون هذا المجال ببساطة ؟

رغم أنى أحسست بالسماعة لآحساسه بقيمة وخطورة كلماتى ،  
الا أن صدرى فى نفس الوقت تعباً بكل الكراهية المعكنة ضده ٠

— شئ بشع أن تكون وظيفة الانسان هى محاربة الكلمة !

— أنا لا أجارب الا الكلمة المسمومة ٠

— أنا ٠٠ كلماتى مسمومة ١٩

— من وجهة نظرى ١

ضحكت رغماً عنى ساخراً :

— أنت ١٩ لك وجهة نظر ١٩

قال دون أن تزايله ابتسامته الكريهة : تخطئ خطأ كبيراً حين  
تتنظر لى على ائنى مجرد آلة منفذة لأخط وأوامر صادرة من فوق ٠٠

لا ٠٠ اننى مؤمن بما افعل ٠ ولهذا انا ناجح ومتفوق فيه ٠ ليس هناك من خطة تمس مصير البلاد الا ولابد ان اوافق عليها أنا ٠٠ ذلك لانهم يثقون فى وطنيتى ٠٠ وفى ثقافتى ٠٠ واننى لادعوك الى زيارة مكتبتى ٠٠ سترى فيها كتباً لن يتاح لك طوال حياتك ان تقرأها ٠٠ انا اكثر ثقافة من هؤلاء المهرجين الذين يركبون الجماهير بديما جوجيتهم ولعبهم على الالمهم ٠٠ جرب مرة ان تفكر بان وجهة نظر خصمك قد تكون سليمة ٠٠ لم لا ؟! فلنبدا جلسات معا ٠٠ تناقشنى وناقشك ٠٠ اننى اتحداك ٠ فهل تقبل التحدى ؟!

لم يفض لقائى بهذا الشيطان المتلون الا صديقى الممثل الذى كان يبحث عنى واكتشف مكانى ٠ وكدت ازعق على جميع المدعويين بحقيقة شخصية هذا الرجل ٠٠ هذا الفار الأنيق اللامع ، والذى يحوز مكتبة يتحدى بها مكتبات كل المثقفين والثوريين ٠٠ ولكنى تخرجت من افساد بهجة الليلة ٠٠ وتركته كى اواصل السهرة من الساهرين ٠٠ لكنى لاحظت أنه اختفى تماما من المكان ، ولم يعد له من اثر غير انقباضة ثقيلة تركها فى روحى ٠

فى تلك الليلة ياسيدى أدركت حقيقة هامة ورهيبة فى عالم الفئران ٠٠ أنهم من أقدر الكائنات على التخفى وعلى التذكر ٠٠ يتنكرون بالملابس ، وبالمراكز ، وبالمكتبات وبالثقافات العالمية المختلفة ٠

وقد اصابنى ذلك بالاحباط لفترة ٠ لكنى سرعان ما تنبهت الى ان هذا هو قصده النهائي ٠٠ ان اياس وانسحب وانعزل ٠٠ شحنت نفسى بالشجاعة والتحدى ، ومضيت كما انا فى الحياة طائرا بأجنحة الشعر والرغبة فى اكتشاف العالم وتغييره انا والأصدقاء الى الأفضل ٠٠

وثوقفت أن أراه مرة أخرى فى أية لحظة ، وتحت أى شغل  
أو قناع سأكتشفه ٠٠ غير أنه اختفى تماما من حياتى ٠٠ ولم يعد  
شبحه يعاودنى ٠٠ الى أن كانت الليلة اياها ٠٠ ليلة رأس السنة ،  
وكنا مجموعة نحتفل بها فى بيت أحد الأصدقاء ، نلقى الأشعار  
ونغنى ونضحك ونرقص ٠ دفء الأرواح حين تجتمع على المحبة  
وعلى التأخى وعلى الفكر المشترك ٠ وقرعنا كؤوس الأمل فى عالم  
جديد يطل علينا وعلى كل البشر ٠٠ وحين خرجت من السهرة عائدا  
الى بيتى فى السيدة زينب ٠ كانت تسابيح الفجر تسرى متماوجة  
فى الفضاء وفى السكون ٠ تملكتنى رغبة عميقة فى الصلاة ٠ صلاة  
شكر لله على انى جنّت الى هذه الحياة ٠٠ وتفجرت فى قلبى  
ارهاصات قصيدة جديدة بهذا المعنى ٠٠ وتصادعت نشوتى ٠٠  
متهيئا للميلاد الجديد ٠٠ قصيدة حب وامتزاج : لو ٠٠ لو كنت  
نجمة ترسل شعاع ٠٠ لو كنت دعوة تحقق شفاء ٠٠ لو كنت مدفع  
يصم الأذان ٠٠ ويهد أركان الشيطان ٠٠ لو ٠٠ لو كنت بسمة تفرش  
على وش اليتيم ٠ لو كنت شلال متدفق عظيم ٠٠ يكسح من النهر  
صخور الاعتراض ٠٠ لو كنت أنا النهر ٠٠ لو كنت أنا المنبع والمصب  
٠٠ وأجمع فى قلبى كل أنهار الحياة ، ٠

وبدا لى أن الحياة تحقق لى أمنيته ، حين وجدت زوجتى  
وحبيبتى فى انتظارى ، والطفلين لحسن الحظ نائمين ٠٠ كنت أحس  
ونحن متعانقان أنا النهر وأنا المصب ٠٠ وأنا ندور مع دورة  
الأفلاك البهيجة ٠٠ نشع ضياء ٠٠ وأملأ ٠٠ وفرحا ٠٠ وأن العالم  
فى صمت الليل سعيد بنا ٠٠ وبحبنا ٠٠ غير أن أحدا الطفلين صحا  
فجرت الحبيبة اليه ٠٠ جرى قلبى معها ٠٠ نشوة أخرى تضاف الى  
القلب ٠٠ حين تكون الحبيبة هى نفسها أما لأولادك ٠٠ كيف لا أفرح  
انى جنّت الى هذه الحياة؟!

غير أن الرجل ياسيدى ، أقصد الفأر .. كان للحظتى السعيدة  
 بالمرصاد .. فما كنت أغمض عيني ويأخذنى النوم ، حتى استيقظت  
 فجأة عليه واقفا فوق رأسى ومعه مجموعة من نفس الفصيلة ..  
 وقبضوا على .. توقفت دورة الأفلاك البهيجة وتبدد شمل الهناء ..  
 وكان ما كان !

وكان يمكن أن أنسى كل هذا الذى كان بعضى المدة .. خمس  
 سنوات احترقنا فيها واحترقت حتى الذكريات ، الا أنني فوجئت به  
 هذه الليلة .. هو نفسه .. يعدو متسللا .. زاحفا على بطنه ..  
 ليتجسس على داخل الزنزانة .. الى هذا الحد وصل به التحدى  
 والاستهانة .. ليس بى وحدى .. بل بنا جميعا !

ذلك نذير خطير ياسيدى بأفعال أخرى أبشع سيرتكبها ضدنا ،  
 ولهذا فلا بد من مواجهته بسرعة وحسم .. اننى أطالب بتوقيع أقصى  
 وأقصى العقوبات عليه .. بحيث نجعل منه عبرة لكل فئران العالم ..  
 هؤلاء الذين يستبجحون حياة الناس ، ويحولونها الى مسلسل طويل  
 من الرعب والخوف والتشكك والمطارادات .. بينما المفروض أن يكون  
 الانسان للانسان نجدة .. ومنارة فى الظلام ..

سيدى .. ان لدى عشرات القصص كان يمكن أن أقدمها لكم  
 دليلا على عراقته فى الاجرام .. لكننى التزم الاختصار مراعاة  
 للظروف ، ولكى أترك الفرصة لزملائى الآخرين ..

وبعد .. فاننى أترك تقدير العقوبة لعدالة المحكمة .. وإثقا  
 من احساسها الشديد بالمسئولية أمام عشرات القرون من القهر  
 والهوان بسبب سيطرة الفئران .. ان التاريخ يرقبكم الآن فى انتظار

حكمكم ٠٠ اجدد ثقتي ياسيدى الرئيس ٠ وشكرا على اتساع  
صدركم ٠

\* \* \*

وقد أوشك الأستاذ رضوان أن يبتسم لكلمات الشاعر الأخيرة ،  
الا أن المواجه والذكريات المؤلمة التى حركتها المرافعة فى نفسه غطت  
على كونها لعبة ٠ تراجع الاحساس تماما بأنها لعبة ، وقام فى نفسه  
أنهم يقومون بمحاكمة حقيقية لهؤلاء الزبانية الذين جاءوا به الى هذا  
الجحيم ظلما واعتسافا ٠ : بدءا من ذلك الفأر الذى كان يعمل معه  
بالمجلس ووشى به ثم حل محله ٠ الى الفئران التى قبضت عليه فى  
تلك الليلية الكالحة ٠ لم يقنروا شيبته ولا سنه ولا مركزه ٠ لم  
يقدروا اية قيمة انسانية : لا حزن رفيقة العمر ، ولا بكاء اولادها  
البنات ، ولا صراخ الأحفاد الأطفال الذين راعهم ما يحدث دون أن  
يفهموه ٠ كانت الأسرة كلها مجتمعه فى ظله ٠ تلك العادة الحلوة  
التي حرصوا عليها منذ سنوات ٠ أن يجتمعوا جميعا فى البيت  
الكبير كل ليلة رأس سنة ٠ ويحتفلون بها ٠ وي طرح كل واحد  
حلمه ٠ وأحيانا كان يأخذ الاجتماع شكل النقد والنقد الذاتى ٠  
« من أجل أن نكون أجمل وأفضل يا أولاد ٠ الأعظم هو من لا يتوقف  
عند حسناته ومميزاته ٠ بل عند أخطائه وسلبياته ٠ أنا لا أقول  
هذا الكلام لكم فقط ، بل أقوله لنفسي دائما ٠ ولجديتكم العزيزة  
ايضا ، ويحتضنها أمامهم ٠ لم يكن فى هذا الحزن أى ملق أو  
ادعاء ٠ أن تاريخ حياتهما معا ينطق بالصدق وبالاخلاص وبالعطاء  
المتبادل ٠ والوفاء ٠ وعارده منظر بالذات : رفيقة العمر وهى  
تجرى متعثرة خلفه ، بعد أن قبضوا عليه حاملة بطانية من الصوف  
وتصيح عليهم أن يسمحوا له بأخذ البطانية ٠ لكنهم لم يأبهوا

برجائها ٠٠ حينذاك انقلبت الى نمره غاضبه وراحت تصب عليهم  
سيلا من الشتائم وكلمات الاحتقار ٠٠ متحديه ومطالبه ان يقبضوا  
عليها هي الأخرى ٠٠ غير أن الفئران سرعان ما ادخلته العربيه ،  
وانطلقوا به فى جوف الظلام ٠٠

الأوباش ٠٠ الفئران ٠٠ أحس بدماء ساخنة تتصاعد الى  
رأسه : أين أنت يا أوسع الميادين لأقف فى قلبك وأخطب وأعزى  
وأفضح ٠٠ كان خطأ منى أن أقبل منصب القاضى فى هذه المحاكمه  
٠٠ كان يجب ان اكون فى موقع الادعاء ٠٠

ورأى أصغر المعتقلين سنا ، الطالب حازم ، يرفع أصبعه  
بالحاح وحماس ، طالبا الكلمه ٠ أحس نحوه بحب جارف : « ذلك  
ما يجدد فى النفس الأمل ٠ ان كان العمر مضى والشيوخه خذلتنا ،  
فالحياه مازالت فى اندفاعها تعطى ٠٠ الأرض مازالت تطرح ٠٠  
والتطور سائر سائر ٠٠ الفئران لم تجهز على كل الحقول ٠٠ مازالت  
الأرض تنبت ٠٠ لم تقضى الفئران بعد على حماسه وشجاعة كل  
الرجال ٠٠

— تفضل يا استاذ حازم ٠ هات ما عندك ٠



- عندى الكثير ياسيدى • لكنى مراعاة للوقت والظروف ،  
سوف أكتفى بذكر واقعة واحدة ارتكبتها ضدى هذا الفار المتكرر  
الخشيس • هى واقعة واحدة ، وبسيطة جدا على ما تبدو ، لكنها  
كافية للكشف عن مدى خطورة الدور الذى تقوم به هذه الفئران فى  
حياتنا • انهم وراء كل شر • وسند كل تخلف • وكل احباط يصيب  
أحلام الانسان فى بلادنا •• ١١

ذات يوم ياسيدى ، كنت أتمشى فى الشوارع أنا وخطيبتى  
ليلى ، الطالبة معى بنفس الكلية •• نتمشى ونحلم بمكان يضمنا ••  
مكان له سقف يظللنا ، وباب نقفله علينا وحدنا •• كان المشى  
والتصعلك فى الشوارع المزدحمة قد أرهقتنا ، فالجلوس على  
الكازينوهات أصبح فوق طاقتنا المادية •• انتم تعرفون أن جميع  
الكازينوهات أصبحت أسعارها سياحية •• اذن فليس أمامنا الا  
المشى ، أو الجلوس على شاطئ النيل نريح أقدامنا •• ولكن هذه  
ايضا أصبحت صعبة •• فالمقاعد الرخامية الجميلة التى كانت منتشرة  
بطول الكورنيش اختفت ياسيدى •• ما الذى رفعها ؟ •• ما الذى

حطمها ٠٠؟ أو من الذى سرقها ؟ ٠٠ لأحد يدرى ٠٠ وكذلك الحداثى ياسيدى اختفت من المدينة وأصبحت نادرة ٠٠ المهم ياسيدى لم يكن أمامنا ، لكى نبقى معا ، إلا أن نمشى ونمشى على أقدامنا ٠٠ فجأة وقفت ليلى أمام احدى العمارات العالية الضخمة وقالت وهى تصعد بنظراتها الى أعلى ٠

— هل تتصور يا حازم أن هذه العمارة كلها ٠٠ كلها فارغة ٠٠ رغم أنها مكتملة منذ سنوات ؟

قلت مندهشا : معقول هذا ؟

قالت :

— وتصور أيضا أنها بنيت فى الأصل خصيصا من أجل العرائس والعرسان !

دب فى الغيظ : ومن هو مالكها ؟ لابد أنها الحكومة !

قالت : فى الغالب ٠ لكنها تبدو بلا صاحب ٠ ولا حتى حارس !  
قفزت الصورة أمامى : السنا عروسين ؟ ما رأيك لو صعدنا وفتحنا احدى الشقق ، ولتكن فى الدور الخامس أو الرابع ٠٠ وفى الناحية البحرية ٠٠ وفرشناها بأثاث بسيط ، وعشنا فيها ٠٠ ما الذى سيحدث ؟

قالت ضاحكة : سنجد أنفسنا ، ووراءنا عفشنا ، طائرين من نوافذها البحرية ٠ أو مقبوضا علينا ٠

اصطكت أسناني بغضب : هذا لأننا اثنان فقط ٠٠ انتما ٠٠ لو أن عرائس وعرسان بعدد هذه الشقق ، اجتمعوا واقتحموا منا فى لحظة واحدة ٠٠ هذه العمارة واحتلوها ٠٠ لن يقوى عليهم أحد ٠٠ يؤكد لك ٠٠ ستخرج الحكومة من طردهم ٠٠ ستتغلب الاعتبارات

الانسانية ، وستكون حديث الصحافة ووكالات الأنباء العالمية ..  
وسينتصر الامر الواقع !

كانت الفكرة مزيجاً من المزاح والجدية ، لكن الجانب الجدى  
فنها سرعان ما سيطر على تفكيرى ، ووجدتني ياسيدي اكتبها  
وانشرها فى مجلة الحائط التى تصدرها بكليتنا ٠٠ غير اننا ياسيدي  
ماكبنا نعلق المجلة على الحائط ، جتى يأتى هذا الفار يظهر فجأة ،  
مبتكراً فى زى طالب بنفيس الكلية ، وراح يقرأ المکتوب ٠ دقائق  
قليلة ، وإذا به يصرخ وقد أريد وجهه ، وامتدت يده الى المجلة  
بالتهميز : البلاشفة ٠ الشيوعيون !

هجمت عليه أجول بينه وبين المجلة ، لكن عدداً من الفئران  
احاطوا وانهاكوا على بالكلمات ٠٠ و حين جاءت خطيبتى تحاول  
الدفاع عني ، صفعوها على وجهها ودفعوها بوحشية فسقطت  
- لحسن الحظ - على العشب القريب ٠ ولم يلبثوا أن اجثفوا جميعاً ،  
ومعهم عدد المجلة الممزقة ٠

رغم بشاعة ما حدث ياسيدي ، ورغم الدموع الكثيرة التى  
ذرفت حبيبتى الا اننا بعد قليل وجدنا انفسنا نسير فى الشوارع من  
جديد ونطلق الضحكات ٠٠

قالت : حمداً لله انها مرت بخير ٠

قلت : ليس اجمل من اننا مازلنا معا تحت الشمس ٠

قالت : بسمه محذرة : ولنكف عن احلامنا المجنونة ٠٠

قلت : لسبب واحد فقط ٠٠ ان يظل العريس مع عروسته ٠٠  
ولى على الرصيف ٠٠ واياك من المرور مرة أخرى امام هذه العمارة  
الفارغة المنحوسة !

## وعدنا نضحك من القلب .. القلب الممرور ..

ذلك ياسيدي لأن الفئران لا تترك مثل هذه الواقعة تمر ببساطة .. فقد فوجئت بنفس هذا الفار ومجموعته ، ولكن بزى آخر ، يهجمون على بيتي ليلة المظاهرات ويقبضون على .. هذا رغم أنني كنت مريضا فى تلك الأيام وملازما فراشى .. وحين صاح أبى الشيخ فيهم : هذا ظلم بين .. ابنى منذ ما قبل المظاهرات بأسبوع وهو راقد هكذا فى سريره .. فكيف ولماذا تقبضون عليه ؟ ابتسموا ساخرين : ابنك لم يشترك فعليا فى هذه المظاهرات .. هذا صحيح .. لكنه أخطر من المشتركين .. أنه من المخططين والمحرضين .. ابنك يدعو الرعاع للهجوم على بيوت وعمارات وممتلكات الأغنياء والاستيلاء عليها بالقوة .. وهو لا يمكن أن ينكر ذلك .. قدعوته المكتوبة بخط يده موجودة تحت أيدينا .. لكن الخطورة لا تكمن فى هذا .. الخطورة أنه لا يتصرف هكذا وحده .. أنه يعمل ضمن تنظيم اكتشفناه .. شبكة واسعة تدعو الى قلب نظام الحكم ، وتدمير أسس المجتمع المستقرة بالقوة والعنف .. ستقرأ الأخبار غدا فى جرائد الصباح ..

وقد كان ياسيدي .. طلعت جرائد اليوم التالى بنباً اكتشاف المؤامرة الخطيرة التى شاركت أنا وخطيبتى فى الاعداد لها ، وذلك لحساب جهة أجنبية .. مؤامرة مدعمة بالوثائق والصور .. وكانت صورتي أنا وخطيبتى ونحن نتهامس حبا ، دليلا على خطورتنا كمتآمرين ضالعين مع الآخرين ..

( وجذب نفسا عميقا من صدره ) ما الذى يمكن أن يفعله الشيطان أكثر وأبشع من هذا .. أن يحولوا حلم اثنين بشقة يسكنانها ، الى خيانة وطنية ! .. وباليات الشر والكذب .. والتزييف

٠٠ قد توقف اثره عندي انا وخطييتي التي القوا بها هي الأخرى في السجن ٠٠ انما الذي حدث بعد هذا ياسيدي كان هو الأفظع ٠٠ ولن أدخل بكم في تفاصيله ٠٠ يكفيني أن أقول لكم أن والدي الشيخ بعد صدمة تلك الليلة لم يعيش طويلا ٠٠ ( وارتعشت شفتاه بالحزن ) سقط مريضا ياسيدي ، ثم بعد شهرين مات ٠٠ وشيعت جنازته ٠٠ وأنا ٠٠ ابنه الوحيد ٠٠ هنا ٠٠ لم أستطع السير في جنازته ٠٠ انهم لا يقتلون الحب فقط ، أنهم يقتلون البشر أيضا ٠٠ ان بحار العالم لا تكفى لحو دماء جرائمهم ٠٠ أن استئصالهم ومحورهم من على ظهر الأرض هو الواجب العاجل والحتمي ٠٠ اننى لا أطلب الا بأن يكون العقاب من جنس العمل ٠٠ واكتفى بهذا القدر ياسيدي ( مقاوما دموعه ) تاركا الفرصة لمن يريد الكلام من الزملاء .

وانسحب بهدوء من مكانه .



ازدحم الكل بمشاعر الحزن والغضب . ما أقسى أن يموت الأحباب ونحن في المنفى ، أو نموت نحن فيه ولا تحدث التعازي الا بعد زمن طويل !

وطار كل واحد منهم بخياله الى الخارج ، عبر الأسوار والصحراء والأرض الخراب : ترى ٠٠ ما هو الحال الآن هناك ؟! من الذي مات ، ومن الذي مازال حيا ٠٠ من الأولاد والزوجات والأهل والأصدقاء ؟! تصاعد الاحساس بالقهر والعجز والهوان ٠٠ تأججت شحنة الغضب في الصدور .

لم يبق من ممثلى الاتهام غير واحد فقط ، هو اراهيم العلائى ، عامل النسيج الموهوب في صناعة التماثيل . اندفع يشحنة الغضب آخذا دوره .

— سيدى • ( وبسط كفه أمام هيئة المحكمة فظهرت عليها قطعة من الصلصال ) لقد حاولت جادا أن اصنع تمثالا لهذا الفأر كى نحاكمه غيايبا لو نجح فى الهروب ، لكنى قشلت وهذا طبيعى • فانت لا تستطيع أن تصنع تمثالا الا لمن تحب • لا يمكنك صنع تمثال لمن امسك بسكين وراح يذبح فيك وانت موثق اليدين والقدمين • وهذا هو ما فعله بى هذا الفأر الخسيس ( ورمى بقطعة الصلصال الى احد الأركان ) ذلك لأن دوره الاجرامى لم يبدأ معى الا بعد القبض على وترحيلى ! ( وندت عنه تنهيدة حارة ) فهو لم يكتف بما حدث لى من فصل واعتقال ، بل اعتبر ذلك فرصته السانحة كى يوجه لى الضربة التى تذل كبريائى وتخطم نفسيتى • لقد قرر أن يضربنى • بزوجتى • بعروستى التى لم يكن مضى على زواجها منى اكثر من شهرين •

( اتسعت نظراتهم • امسكوا أنفاسهم ) انكم تذكرون يوم الزلزال • حين جاءنى الخطاب منها طالبة الطلاق • ثم بعد أن استعدت نفسى وتجاوزت الموقف ، وكتبت لها بالموافقة ( ورفع رأسه باعتراز ، مستعيدا بعض كلمات الخطاب ) • « ان الذى يكافح من أجل حرية شعب بأكمله ، لا يمكنه الوقوف فى وجه حرية انسان يريد أن يعيش حياته كما يريد » • مازلتم تذكرون • وتم الطلاق •

غير أن ذلك لم يكن غير صفحة واحدة فى الجريمة أو المأساة • ثم بدأ الزمن يكشف عن بقية الصفحات •

لقد كان لومى فى البدء ياسيدى موجهها اليها • لكنى سرعان ما اكتشفت أنها وقعت تحت تأثير مخطط نفسى دقيق • رسمه لها هذا الوغد الحقير ، باعتباره أخاها • نعم أيها السادة • شقيقها • ابن أختها وأبيها • وتلك عظم المصيبة • حين نكتشف

ان المجرم من اقرب الأقربين الينا ، والمفروض أن يكون نصيرا لنا ٠٠  
يساندنا ويؤازرنا فى المحنة ، فاذا به هو نفسه الضارب بلا رحمة ٠  
فبدلا ياسيدى من أن يقف بجانب اخته ويقويها ويشجعها على احتمال  
الآزمة ، راح يحاوطها ، ويلقى فى نفسها ببذور اليأس ٠ والخوف ٠  
الحزن الذى كان ناشرا أجنته السوداء على البلاد كلها : لأن يعود ٠  
لقد تلقفته الأبالة ولا رجعة ٠ لا تضيعى حياتك وجمالك وراء مغامر  
مخبول مثله ٠ لم يؤمن لك حتى لقمة عيشك قبل أن يعتقل ٠ ويا ما  
قلت له ونصحتة: أمن أولا حياتك ومستقبلك ومستقبل أولادك القادمين  
٠ فكان يهز كتفه ساخرا ٠ لامبال «مستقبلى ومستقبل أولادى  
مرتبط بمستقبل الشعب كله ، ٠ فهل تريدان الانتظار حتى ينصلح  
حال الشعب كله ١٩ ٠٠ انه واحد من المجانين بحب الظهور وحب  
الزعامة ٠ اعلى يا اختى ٠ وانفدى بجلدك بسرعة ٠ والحمد لله  
انك لم ترزقى منه بطفل أو طفلة ، وألا كانت حياتك ستحول الى  
نكبة ٠ لا تدفنى صباك وجمالك هذا ، بينما أحسن الرجال ٠٠  
المحترمين ٠٠ والأغنياء ٠٠ يتمنونك ٠٠

ثم انك يا اختى لابد أن تنتبهى الى شىء هام جدا ٠٠ بعد هذا  
الذى حدث له ، وفى الظروف التى نعيشها ، أصبح ارتباط اسمه  
بنا ، ضارا بنا ٠٠ وبمشاريعنا التى دخلنا فيها ٠ ان أبسط شبهة  
فيها ، معناها سحب الثقة منها ، وتحويلها الى غيرنا ٠٠

وكان هذا هو مربوط الفرس ياسيدى ٠ فقد أصبح ، هو الذى كان  
فقيرا يغسل القميص ثم ينتظر حتى يجف ويكويه ويلبسه ، أصبح  
واحدا من نجوم عالم الاستيراد والتصدير ٠٠ يركب الكاديلاك  
والمرسيدس ٠٠ ويسهر فى نوادى الفنادق الليلية ويتعامل بالشيكات  
السياحية ٠٠

المهم ياسيدى ، لقد ظل يضغط على اعصابها ، ويفسل فى  
مخها ، يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ٠٠ غمرها بالهدايا  
المستوردة ٠٠ طوق ذراعيها وصدرها بسلاسل الذهب ٠٠ اصطحبها  
معه فى احدى رحلاته للخارج ٠٠ الأكثر من ذلك علمها قيادة  
السيارات ٠٠ عملية شيطانية رهية ياسيدى توجهها بتزويجها من  
تاجر مقاولات كبير ادخله فى بعض مشاريعه ٠٠ وكانت هدية هذا  
التاجر لها ٠٠ سيارة مرسيدس !

عملية محو لانسان واستبداله بشخص آخر تماما ٠٠ حتى  
يتخلص منى ومن أثرى ٠٠

هنا ياسيدى اختفى اللوم من صدرى ناحيتها ٠٠ اشفقت عليها  
٠٠ كانت حمامة او يمامة طيبة رقيقة ، فانقضت الصقور او النسور  
عليها ٠٠ كنت بالطبع ارجو أن تكون أكثر قوة ووعيا من ذلك ٠٠  
لكن الحمامة او اليمامة وقعت فى شبكة الاخطبوط ٠٠ فقضى عليها ٠  
ذبح قلبها ٠٠ ذلك لأنى عرفت فيما بعد من أخى ، فى زيارات الأعياد  
انها لم تعيش غير شهور مع هذا التاجر المقاول وطلبت الطلاق ٠٠  
وقد رآها أخى بعد ذلك فصعق من منظرها ٠٠ زال جمالها وصباها ٠٠  
وكأنها كبرت مائة عام ٠٠

سيدى ٠٠ ان مياه المحيط لا تكفى ٠٠ كما قال زميلى حازم ،  
لغسل جرائم هذا الفار وأمثاله ٠٠ أن العقوبة لا بد أن تكون على  
مستوى بشاعة الأفعال التى قاموا ، ومازالوا يقومون بها ٠٠ اننى ،  
مع زملائى ، نترك الحكم لـ ٠٠

وام يكمل الجملة ٠٠ فقد انتبهوا فجأة على صوت ٠٠ وأدركوا  
على الفور انه المفتاح يدور فى ثقب الباب ٠ لحظة وراوا الباب يفتح  
ووجه الحارس يطل منه بعينين مستريقتين !



أوشك الشاعر أن يصيح عليه : أقفل الباب بسرعة أرجوك حتى  
لا يهرب الفأر • لكنه كتم صيحته ، ومضى يراقب مكان الفأر خلسة  
وبقلق ، متوقعا هروبه في أية لحظة من فرجة الباب •• بينما الحارس  
واقفا ، في الفرجة ، يتفرسهم ••

عاجله الأستاذ البدرى المحامى ، باعتباره المسئول عن الاتصال  
بالادارة : خير يا شاويش •

— وهل يأتى خير من وراء « السياسية »

تبادلوا جميعا نظرة توصى بعدم مد الكلام ، متعجلين خروجه  
وقفل الباب • وجميل أن الفأر حتى الآن لم يخرج • لابد أن منظر  
حذاء المسجان الضخم أربعه ، فازداد انكماشاً على نفسه !

وراح الشاويش يعدهم •• برؤوسهم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ••••  
•••• مرة ومرتين ، حتى اذ ما اطمأن على أن « التمام »  
سليم ، خرج وقفل الباب خلفه •

في نفس اللحظة اندفع الشاعر على بطانيته التى كانت قد  
ترجرت من مكانها ، وسد بها عقب الباب مرة أخرى ، وصاح  
هامسا •• مهللاً :

— الحمد لله •• لم يهرب •• فلنواصل المحاكمة •• بسرعة  
وبصوت منخفض ••

قال الرئيس : ننتظر قليلاً •• حتى تباعد خطواته تماماً ••  
أصاخوا السمع لصرير الخطوات ، حتى تلاشت تماماً ، ولم  
يبق من صوت غير أنفاسهم •• وطنين الليل ••

قال رئيس المحكمة ، مستعيداً حماسه :

— أظن أن الادعاء قال كل كلامه ، ولم يعد هناك اتهام جديد  
يمكن أن يضاف .. وأذن .. فليبدأ دور الدفاع ..

— لا .. ليس بعد ياسيدى .. مازالت هناك جرائم أبشع  
وأقطع لم يواجه بها هذا المجرم !

فوجدوا بأن المتحدث هو « المجند الذى اختير فى البدء عضو  
اليسار »

التفت اليه الرئيس مستنكرا .. ومنبها ..

— أنت قاض ولا يجوز لك .. هل نسيت .. أنت هكذا تفسد  
سير القضية ..

قال بغضب ممزوج بالتوسل :

— اسمع ياسيدى .. اسمعونى أيها السادة .. ليس ذنبى  
أنكم اخترتمونى عضوا فى هيئة المحكمة وقبلت أن أجلس ساكنا طوال  
الوقت كالبلاصى ، وذلك بقصد واحد ، هو أن تنعقد المحاكمة وتأخذ  
شكلها القانونى .. لكننى ياسيدى فى الأصل مجنى عليه .. فى قلبى  
صرخة تريد أن تخرج ، وأن لم تخرج الآن فمتى ستخرج ؟ اننى  
أناشدكم أن تجدوا لى مخرجا قانونيا ، كى آخذ أنا أيضا فرصتى ..  
وأودى واجبى .. فكاتم الحق شيطان أخرس .. ولقد عشت سنين  
طويلة .. وآن الأوان أن أنطق بما كتتمته فى نفسى .. وأتكلم ..

تأثر الكل بصدق انفعاله ..

قال رئيس المحكمة ، وقد تراءى له أن المحاكمة تزداد ثراء  
وغنى : ليس أمامك غير مخرج واحد .. أن تطلب التنحي .. وفى  
هذه الحالة لابد من قاض آخر يحل محلك ..

قال البدرى الحامى ، متقدماً الموقف ، ودافعاً به الى الامام فى  
نفس الوقت •

— انا مستعد لأن آخذ مكانه • لو تقبل المحكمة بهذا •

— المحكمة تقبل •

قالها الرئيس بحماس •

وهكذا حلت المشكلة •



سيدى الرئيس •• السادة المستشارين ••

قلت ان كاتم الحق شيطان أخرس • وانا الآن أسأل : من  
يكون اذن هذا الذى يفرض علينا كتمان الحق فى صدورنا ؟ • انه  
شيطان الشياطين !

ولقد انقضت على الآن ياسيدى خمس سنوات وانا اكتم السر  
فى نفسى خشية شيطان الشياطين هذا • اما وقد استباحوا حياتنا  
الى حد التناكر فى شكل قتران تتجسس علينا ، فلم يعد هناك جدوى  
من الكتمان ! ثم أية لغنة سنتصيب المزء اكثر مما أضابته !؟

اسمحوا لى ان احكى لكم قضيتى لكى تعرفوا بشاعة الجريمة  
التي ارتكبها هذا الفار فى حقى ، حين ملأنى بالرعب ، وجعلنى أعيش  
باسم غير اسمى •• على مدى خمس سنوات !

ولقد بدأت الحكاية ياسيدى حين أخرجونى يوم المظاهرات  
إياها ، مع مجموعة كبيرة من العساكر لحاصرة المتظاهرين ودقهم

بالعصى ، بعد تدويخهم بالغاز المسيل للدموع ، لكننى ياسيدى وأنا  
 أسمع هتافاتهم وصراخهم .. كنت أحس أنهم يعبرون عما فى نفسى  
 .. وتمنيت لو أصرخ وأهتف بما يهتفون ويصرخون به . فالعيش  
 أصبح مرا ياسيدى ، والقطط السمان هى التى باتت تأكل خير  
 البلاد ! لهذا لم يطاوعنى قلبى أن أرفع العصا على أحد منهم ..  
 وقد لاحظ الضابط ذلك فاندفع نحوى بغضب وصاح على يشجعنى :  
 أهجم ياوحش . اضرب ياوحش !

وأمام نظراته المتوحشة الغاضبة ، رفعت العصا لأضرب ، لكن  
 ذراعى تخشب فى الهواء ووجدتنى أصرخ : شلت يداى .. شلت  
 يداى ..

دفع بى الضابط بعيدا : أيها الخرع .. سسترى ما الذى  
 سينالك ..

وتركنى وأنهمك فى المعركة . لم تكن معركة . كانت مذبةحة ..  
 وتصورت العقاب الذى سينالنى . فانتهزت فرصة الهوجة ووضعت  
 ذيلى فى أسنانى وهريت .. قابلتنى بعد ذلك مظاهرة أخرى ، فدخلت  
 فيها ، بعد أن خلعت سترتى ورميت بخورتى وعصابتى .. وبلاشعور  
 وجدتنى أصرخ وأهتف مع المتظاهرين بما يهتفون به .. فجأة ..  
 إذا بنا داخل كماشة .. وقبضوا على أنا والآخرين .. قبضوا على  
 دون أن يعرفوا هويتى الحقيقية .. خمس سنوات ، وأنا أعيش منكرا  
 نفسى وشخصيتى .. وهاهم الليلة يرسلون بهذا الفار ليتسمع  
 ويكتشف سرى ..

أهناك أجرام أكثر من هذا ؟ لا أقل من الحكم بالاعدام  
 يا حضرات المستشارين . على حضراتكم اصدار الحكم .. وعلى  
 أنا التنفيذ .. أنا أعرف جيدا كيف تقتل الفئران ؟ !!

فى تلك اللحظة حدث شىء مفاجىء • خرج الفار مذدفعاً من مخبئه خلف الجردل ، وراح يجرى مذعوراً فى كل اتجاه •

صاح الشاعر مؤكداً : هل ايقنتم الآن انه بالفعل جاسوس ••  
حين أيقن من اقتراب نهايته ، خرج ييغى الفرار !

كان وضع المحكمة قد اضطرب • كل واحد كان همه أن يتفادى اصطدام الفار به • الا المجند •• اشتعل غضبه أكثر وانكب عليه يطارده لكى يمسكه به •• وصاح عليه « المناديبى » مشجعاً : هيا أمسكه •• وخلصنا منه •• هيا أرنا مهارتك وشطارتك !

قال رئيس المحكمة « رافعا اصبعه محذرا الجندى : اياك أن تفعل هذا يا بنهاوى • اتركه وسيعود تلقائيا الى مكانه • ( ثم نظر الى « المناديبى » غاضبا ومستنكرا ) •

— كيف يا استاذ ، وأنت المحامى المنتدب للدفاع عنه ، تحرض على قتله •• كيف ١٩

أرتبك المناديبى للحظة ، ثم قال بجدية وعصبية : لأنه مقتول •• مقتول •• بعد كل ما قيل فيه •• بعد كل هذه الاتهامات الرهيبة التى انصبت فوق رأسه ، هل يبقى أى أمل فى تبرئته ؟ !

قال الرئيس بهدوء : هذا يتوقف على نوع الدفاع !

— نوع الدفاع ١٩

— طبعاً ••

وتجمعت كل الأنظار عليه •

لو ان كاميرا خفية تسجل هذه اللحظة ، لتوقفت عند عيني  
« المناديبى » . فقد كان يطل منهما بريق غريب متمساج مزدهم  
المعاني ، ثم سرعان ما تحدد فى معنى واحد : البؤس . الغاضب ، أو  
الغضب البائس .. وقال وهو يجز على أسنانه :

— وأى نوع من الدفاع هذا ياسيدى يمكنه انقاذ رقبة مجرم  
عتيد مثل هذا ؟ ، فرق الأحباب ، وحطم الأحلام ، وأشاع الكآبة والخوف  
فى قلوب الناس .. الخوف ياسيدى .. الخوف .. لو لم يكن لهذا  
المجرم من ذنب أو جريمة . غير اشاعة الخوف . ونشره فى تلافيف  
الدماغ وفى العروق ، لكان ذلك سببا كافيا لقطع دابره من الوجود ..  
( وهذا صوته قليلا ) سيدى . اننى نادم على انى قبلت القيام بهذه  
المهمة .. معذرة .. أرجو اعفائى منها .

حدثت مهمة ضيق واستنكار ..

وقال المستشار : اذن فالمحكمة مضطرة لتأجيل الجلسة أو  
حفظها الى أجل غير مسمى ..

صاح الشاعر بغضب : مناديبى ٠٠ أنت هكذا تضعي كل ما فعلناه ٠ لقد قبلت من الأصل ٠ والرجل لا يتراجع عن كلامه مهما كان الأمر ٠٠

وقال الطالب ملاحقا : هل أنت خائف من أن يقال عنك أنك دافعت عن الفأر ؟ أنت تدافع بهدف نبيل ٠٠ ونحن كلنا في النهاية على خط واحد ٠٠ لا تنسى أن الحكاية من الأصل لعبة ٠٠

وعاد الشاعر يخاطبه ٠٠

لا تردد يا مناديبى ٠٠ قل أى كلام ٠٠ هل تسمع !؟ أى كلام ٠٠ المهم أن تستوفى المحاكمة بقية شروطها الشكلية ، حتى تصبح المحكمة قادرة على إصدار الحكم عليه !

نظر اليه المناديبى فى عمق عينيه ٠٠ لكارها ٠٠ ثم محولا الكراهية بسرعة الى سخرية : أليس هذا هو ما يفعله الفئران فى محاكماتهم لخصومهم بالخارج ٠٠ توفير الشكل القانونى والديمقراطى بينما الحكم مسبق وجاهز !؟

بدا على رئيس المحكمة الاستياء وقال : هذه اهانة كبرى للمحكمة ٠ انشبهنا بالفئران يا أستاذ مناديبى !؟

أسرع المناديبى قائلا ٠٠ معذرا : ليس قصدى ياسيدى الرئيس، ان ثقى فيك أنت بالذات لا يتطرق اليها أى شك ٠٠ ولكنى أرد على كلام الأستاذ اسماعيل يسرى الذى يريد إنهاء المحكمة بأى شكل ٠٠ فما معنى أن أقول أى كلام ؟ اننى أبحث عن هذا « أى كلام » فلا أجد كلمة واحدة أقولها ٠٠ واننى لأتحداهم جميعا ٠٠ أن يجد واحد منهم منفذا للدفاع عن هذا الفأر ٠٠ بعد كل الذى قيل فيه !!

قال الرئيس : أعتقد أن كل ما قيل فى هذا المتهم يكفى للحكم عليه !؟ لا ياسيد مناديبى ٠٠ أن أية جريمة لكى تثبت على فاعلها

لأبد أن يتوافر فيها ركنان : الركن المادى ٠٠ والركن المعنوى ٠ هل تفهمنى ؟!

ولقد ركزوا جميعا على الركن المادى ٠ لم يقدموا غير الوقائع والأفعال المادية التى قام بها الفار ٠٠ أما الركن المعنوى ٠٠ القصد الجنائى لم يتطرق أحد اليه ٠٠ أن المحكمة لا يمكنها الحكم بالاعدام على قاتل ، ما لم يثبت لها ثبوتها قاطعا أنه قتل عامدا متعمدا ، مع سبق الاصرار والترصد وحتى فى هذه الحالة كثيرا ما تكون لديه ظروف قاهرة دفعت له هذا القتل وحينذاك ينص القانون على تخفيف الحكم عليه ٠٠ اعتبارات انسانية !

اندفع المناديبى قائلا متشبثا : هو ذاك ياسيدى ٠٠ هو ذاك ٠٠ القصد الجنائى ٠٠ أن يكون للمجرم قصد ٠٠ فالأعمال بالنيات ٠٠ فكثيرا ما يكون القاتل ضحية للقتل نفسه ٠٠ لكنه يبقى قاتلا ملعونا ٠٠ ذلك لأنه ٠٠

وسكت فجأة ٠٠ واتخذت ملامح وجهه شكلا غريبا ٠٠

ـ ذلك لأنه ماذا يامناديبى ٠٠ اكمل دفاعك ٠٠ هذا دفاع عظيم عن الفار ٠٠

صرخ : لا ٠٠ أنا لا ادافع ٠٠ لا تعتبروا الذى قلته دفاعا ٠٠ فانا ٠٠ لم ٠٠ لم ٠٠

ولم يكمل ٠٠ فوجئوا بشيء بالغ الرعب يحدث له ٠٠ تهاوى بكل جسمه الضخم وارتمى على الأرض ٠٠ اضطربوا ٠٠ تحلقوا حوله ٠٠ انكبوا عليه حاول الطالب والمجتد أن يجريا له تنفسا صناعيا ، عجزوا عن ذلك ٠ فقد كان جسده متصليا ومتخشبيا الى درجة استحالة ثنى ساق أو ذراع أو حتى اصبع ٠٠ وكان مع هذا ينتفض ٠٠ ويخور ٠٠ وزبد يخرج من بين شفتيه ٠٠



قال البدرى المحامى : أنها حالة صرع ،

– جاءت مرة من قبل ٠٠

– بل مرتين ٠٠ اذكر هذا جيدا ٠٠ ونقلوه فى المرة الثانية الى المستشفى .

– هل نبغ ١؟

– اياكم ٠٠ نوبة وسرعان ما ستزول .

– عندي بصلة ٠٠ ما رايكم ؟

– هاتها ٠٠ اكسرها وشممها له ٠٠

– بلطف وهدوء ٠٠ حتى يفيق بالتدريج ٠٠

مرت نصف ساعة كأنها نصف قرن ، ثم لاحظوا ان عينيه بدأتا تختلجان تحت الجفنين المغلقين ٠٠ استبشروا ٠٠

همس له الشاعر مشجعا : الحمد لله : غمة و زالت يا مناديبى .  
وستعود بأحسن مما كنت . أفق أيها العزيز ٠٠

– اتركه يفيق على راحته . فالصرع يترك الانسان كالفئات ٠٠  
انا قرأت عنه كثيرا ٠٠ تراكم توترات تنتهى بانفجار بركان ٠٠ ليته  
ينام ٠٠ ويستغرق فى النوم ٠٠

– سأصنع له وسادة أضعها تحت رأسه ٠٠

– لا ٠٠ دعوا رأسه كما هى على الأرض بمستوى الجسم ٠٠  
ذلك يفيد التنفس الطبيعى . انه ماض فى التحسن .

كانت الرعشة قد توقفت ٠٠ والزبد كف عن الخروج من فمه ٠٠

لكن عينييه بغيثا مغلقين ٠٠ الا ان مخجريهما كانا يتحركان تحت  
الجفنين ٠٠ كانما انسانا آخر بداخله يتحرك ويتجول ويشير ٠٠

اقترب منه المستشار رضوان ، وهمس له بحنو بالغ : اخ  
مناديبي ٠٠ كيف حالك الآن ؟!

غمغم المناديبي ، دون ان يفتح عينيه ٠٠

— من ؟! الأستاذ رضوان ٠٠

فرحوا جميعا بعودة الوعي اليه ٠

— نعم انا ٠٠ انا سعيد لأنك عرفت صوتي دون ان تراني ٠٠

— وهل ٠٠ هذا ٠٠ يحتاج ٠٠ الى رؤية ٠٠ اننى  
( وانفجر باكيا فجأة ٠٠ وراحت الدموع تنهمر كالسيل من عينيه ) ٠٠  
همس البدرى : اتركوه يبكى ٠ هذه هى نهاية النوبة ٠٠ انها  
الغسيل الأخير ٠

ظل يبكى ٠٠ حتى هدا من تلقاء نفسه ٠٠ غمغم : قليل من  
الماء ٠٠

اتجهوا بعيونهم جميعا الى الجردل ٠ جرى الشاهر عليه وهلا  
منه كوزا وعاد به الى المناديبي وراح يسقيه ٠٠ قطرة ٠٠ قطرة ٠٠  
الا انهم لاحظوا شيئا غريبا ٠٠ لكنهم لم ينطقوا بحرف ٠٠ فأتين  
الفار ؟!

ونظروا الى عقب الباب ، فرأوا البطانية التى كانت تسده قد  
انزاحت ٠٠ واذن فقد هرب الفار ٠

جسن انه هرب ٠٠ وليكتفوا من اللعبة السوداء بهذا القدر ٠

لكنهم فوجئوا بالمناديى - بعد أن شرب جرعة ، يقول بصوت خافت : الآن أنا أحسن • الآن • أستطيع أن أدافع عنه •

- تدافع عن من ؟!

- عن الفأر •

- لا يامناديى • لا تتعب نفسك • كانت لعبة وانتهت ••

- لا •• لم تكن لعبة •• بل كانت محاكمة حقيقية •• ويجب أن تصل الى نهايتها •• أرجوكم أن تساعدونى •• لا تدعوا اللحظة تطير منى •• فانا الآن عقى صافى والحقيقة واضحة أمامى •• وأستطيع أن أصوغ دفاعى •• نعم •• هو يحتاج الى من يدافع عنه ، رغم أنه اقترف جريمته المنكرة •• ليس طلبا للبراءة وإنما •• هذا الفأر الذى كان يوما رجلا •• لماذا أصبح فأرا •• هذا هو موضوع دفاعى ياسيدى •• فهل يصلح دفاعا مقبولا ؟!

- دفاع عظيم يا استاذ مناديى •• استمر •

هنا فتح عينيه نصف فتحه •• فتهللوا واستبشروا رغم مأساوية الموقف وحشيته •• وجال بنظراته المرمقة فيهم •

- كان المفروض أن أكون واقفا وأنا أتكلم •• احتراما للهئية الموقرة ، لكننى غير قادر •• والكلام والانسان معمد على الأرض لا يعنى عدم الاحترام •• بالعكس •• اننى وأنا بهذا الوضع ، تتراءى لى الحكاية واضحة جدا •• وأستطيع أن أقدم شيئا يرضى ضمير المحكمة ( كان جفناه قد اغلقا منه مرة أخرى ) هل تسمعنى ياسيدى •• هل تسمعونى كلكم ••

- كلنا آذان صاغية •

سوف أحكى عليكم قصة الفار الذي كان رجلا ، كيف تحول الى  
فار !

وتقبضت ملامحه حتى خشوا أن تعاوده النوبة ، لكن ملامحه  
عادت وانفرجت •

أحس كل واحد منهم برعب خفى •• شئ أشبه بعقبات الجنون  
أو الجحيم يسحبهم هذا الرجل اليه •• ان كلماته توحى بأشياء  
يرفضها العقل ولكنها مثيرة للفضول •• فليستمعوا اليه بهدوء يوازي  
هدوء ••

هذا الفار يأسادة كان يوما رجلا ولا كل الرجال •• كان فتى  
ولا كل الفتيان •• رغم أنه ولد لأبوين فقيرين •• لكنهما كانا  
من اصل طيب •• كان حلمه أن يدخل الجامعة ويحمل شهادة عالية  
ترفع رأس الأسرة وتعيد اليها كبرياءها القديم •• لكن الحلم للأسف  
لم يتحقق •• ذلك لأن الوالدين كانا قد كبرا وأصابهما الرهن ••  
فاضطر للعمل بشهادته المتوسطة ، موظفا صغيرا فى إحدى المصالح  
الحكومية لتغطية احتياجاتهما وعلاجهما •• ثم ضحك القدر ضحكته  
الثانية أو الثالثة حين أرسل له فتاة من أقربائه فتزوجها لتهون عليه  
الحياة وترعى والديه بينما هو فى عمله بالخارج •• لكنها بعد ثلاث  
سنوات كانت قد عمرت البيت بثلاثة أطفال صغار •• وهكذا بعد أن  
كان يعمل فقط بالنهار أصبح يعمل بالليل أيضا •• لم تعد الشهادة  
العليا حلمه •• أصبح الحلم هو تحقيق الاكتفاء للأسرة الكبيرة  
بمختلف أجيالها •• ( وسكت قليلا لكى يجذب من صدره نفسا واهذا  
طويلا ) •• التقت نظراتهم •• اتسعت عيونهم وأطل منها معنى مرعب  
•• حاول كل منهم أن يستبعده بقوة •• انه يحكى قصة حياته ••  
هى •• فهل يعقل هذا ؟

تعالّت دقات القلب وتعلقت الأنفاس والنظرات بشفتيه ٠٠ وكان  
المناديبى قد اتخذ وضعا عجيبا ٠ وكان ساكنا ثابتا ٠٠ كأنه جثمان  
محدد بجوانب تابوت ٠٠ وكان يتكلم بصوت رائق قادم من بعيد ٠٠  
كانما من عالم آخر ٠٠ هل تأخذ المحكمة بكلام المنومين ٠٠ أم أنها  
الآن أمام أصدق اللحظات !

— وكان كل شيء ياسيدى يمضى على نحو طيب ٠٠ حتى الفقر  
كان يبدو طيبا ، والمعاناة أيضا طيبة ٠ ذلك لأن الحياة كان فيها أيضا  
أشياء أخرى جميلة بالمقابل ٠٠

دعوات الوالدين ٠٠ دفع نظرات الزوجة ٠٠ لمعة السعادة  
المطلّة من عيون الأولاد ٠٠ وهو عائد لهم بما يحبون ٠٠ الى أن  
جاءت ٠٠ لحظة ٠٠ تراكمت فيها المشاكل عليه ٠٠ وأحس أنها ضاقت  
٠٠ واستحكمت حلقاتها ٠٠ فخرجت منه بالاشعور ٠٠ كنوع من  
التنفيس ، نكتة يعالج بها ضيقه وحزنه ٠٠ لكن النكتة وصلت رؤساءه  
فى المصلحة ، فكان بدء الجحيم !

الآن ايقنوا أنه يتكلم عن نفسه ٠ تبادلوا النظرات ٠٠ تسارعت  
الأنفاس ٠٠ يا له من جحيم — لو صح — يفوق أى جحيم !

— ماذا كانت النكتة ١٩ وهل كانت تستحق كل هذا ١٩ هل كانت  
تساوى ١٩ ثم انها ٠٠ لم تكن نكتة ٠٠ كانت صورة تراءت للمسكين ٠  
واضحة ٠٠ مجسمة : حمار يركب بغلة ٠٠ والبغلة راكبة حصانا ٠٠  
والحصان راكبا لبؤة ٠٠ واللبؤة راكبة من ١٩ راكبة الأسد طبعاً ٠٠  
ماذا يعنى هذا ٠٠ لا أدري حتى الآن ما هو تفسير هذه الرؤية ٠٠  
لكنهم ضحكوا جميعا لسماعها ، وسرعان ما انتقلت وسرت حتى  
دخلت مكتب رئيس المصلحة ٠٠ صوّرت له على أنه هو الحمار ٠٠

ورأى النكتة هو الأسد المغلوب على أمره ٠٠ غضب الرجل غضبة  
رهيبة واستدعاه وواجهه بالاتهام ٠٠ فأنكر بالطبع وقال له انه  
لا يقصد الا نفسه ٠٠ فهو يحس بنفسه أحيانا فوق ٠٠ ولكنه حمار ٠٠  
وأحيانا يحس بنفسه ٠٠ أسدا ٠٠ لكنه تحت ٠٠ أسد مركوب !

لا أطيل عليكم ياسيدى ٠٠ انتشرت النكتة أو الصورة ٠٠  
واتخذت معنا سياسيا ٠٠ فقبض عليه مع الخطرين !

حتى ذلك الوقت ، كان رجلا ولا كل الرجال ٠ واحتمل فترة  
السجن التى استمرت أكثر من سنتين ٠٠ رأى فيها الأهوال ٠٠ أهوال  
يعرفها كل من دخل السجن فى تلك الأيام السوداء ٠٠ ثم خرج وبدأ  
يعاود حياته على نحو طيب ٠٠ حتى المعاناة بقى لها معناها الطيب ٠٠  
اذ يكفى أنه حر طليق قادر على الكفاح من أجل الأبوين ٠٠ ومن أجل  
الأولاد ٠٠ يكفى أنه محيط ومحاط بالزوجة ٠٠ وبالصغار ٠٠  
وبالكبار ٠٠

الا أنه فوجيء بهم ذات ليلة ٠٠ نفس الليلة الكالحة التى كنتم  
تتحدثون عنها ، يقتحمون عليه بيته ٠٠ ويقبضون عليه : صرخ فيهم  
بكل ما فى العالم من بؤس : لماذا تقبضون على ١٩ ؟ أنا لم أنطق بحرف  
٠٠ أنا لا صلة لى على الإطلاق بأى شخص يعمل بالسياسة فى هذا  
البلد ٠٠ والنكتة إياها لم تتكرر ٠٠ أبدا !

— هل انت متأكد من صدق ما تقول ؟

— تأكدى من وجود أبوى العجوزين ، وأولادى الثلاثة وأهمهم  
٠٠ رحمة بهم ٠٠

خيل له لحظتها ان الشفقة مست قلوبهم : نحن مصدقون ما  
تقول ٠ لكن الأمر بالقبض عليك صدر ولا مفر من تنفيذه الآن ٠٠

المشكلة أن اسمك لم يرفع من قوائم الخطيرين ٠٠ منذ الحبسة الأولى  
٠٠ لا تقلق ٠٠ المسألة فى أيدينا ٠٠ سنتكلم من أجل رفع اسمك ،  
ونحقق لك الافراج السريع ٠٠

– أرجوكم ٠

– الأمر لا يحتاج الى رجاء ٠ الأمر فى يدك أنت شخصيا ٠

– أنا ؟ كيف ؟

– تعطينا الدليل ٠

– أى دليل ؟

– أن يصدق المسئولون الذين تحت يدهم القائمة ٠٠ أنك معنا  
٠٠ ولست مع هؤلاء المخربين !

– كيف ؟

– تبلغنا وبصدق بكل ما يفعلون ويفكرون ٠٠ بهذا تؤدى خدمة  
لذفسك ولوطنك ٠٠ وإن يصدر لك فقط الأمر بالافراج ، بل وستعود  
الى عملك الذى فصلت منه ٠٠ وسنؤمن ، من هذه اللحظة ، لأسرتك  
كل احتياجاتها ٠٠ بغير هذا ستعامل كقائد للمظاهرات ٠ هذه المرة  
ليس فيها غير الحكم بالاعدام !

الاعدام ٠٠ والحبل الملفوف حول الرقبة ٠٠ وسقوط الجسم  
بالحبل والجثة تتأرجح ٠٠ وسقط من الخوف سقطته الفظيعة التى  
كانت أبشع من أى اعدام ٠ تحول فى لحظة واحدة من رجل الى فأر  
حقير ٠٠ خسيس ( وتسارعت أنفاسه ٠ وجاهد كى يفتح عينيه نصف  
فتحة ٠٠ وهو ممدد الجثمان ) هذه هى القصة ياسيدى ٠٠ وهذا هو  
الدفاع ٠٠ والفأر أمامكم ٠٠ تحتكم ٠٠ فاحكموا بما ترون !

صرخ عليه الشاعر : مناديبى • لا نصدق يا مناديبى • قل انك  
تلعب •• انك تضحك ضحكة سوداء مثل التى ••

قاطعه الطالب والشرر يتطاير من عينيه : لا •• بل الحقيقة  
طفحت منه رغما عنه •• الآن انكشف السر فى ذهابه الى المستشفى  
عدة مرات •• كم تقريراً كتبت ، وماذا كتبت أيها الحقير ؟! الآن  
تبدأ المحاكمة الحقيقية •• فلنحاكمه •

— بل نرمى به الى الخارج ونتخلص منه •

— نتركه حياً ؟! لا •• لابد ان يصبح عبرة ••

— هدوء ايها السادة •• ( قالها كبيرهم رضوان ، ووجهه  
يفيض حزناً وأسى ) لن نحاكم جثة • لقد حاكم نفسه •• خنق نفسه •

عاد الشاعر يصرخ : ولكن كيف ؟ كل هذه المدة • كل هذه  
السنوات وأنت تخذعنا يا مناديبى ؟!

ارتسمت على وجهه الشمعى ابتسامة باهتة مريرة : ولم يكن  
المناديبى يخدع •• الا نفسه •• كان يظن أنه يصنع جميلاً لأولاده  
•• وزوجته •• فاذا به •• وصمة فى جبينهم •• آه •• لا يمكن  
للأبناء أن يغفروا للأب أنه أصبح فأراً •• ماذا يبقى بعد ذلك ؟!  
( وداهمته نوبة البكاء مرة أخرى ) اتعرفون لماذا أسموه بالمناديبى ؟  
لأن قدره فى هذه الدنيا ان يمضى فيها وهو يندب وجوده وحياته ••  
ايك يا مناديبى •• ايك طويلاً وابك جسمك الضخم وقلبك الضعيف  
الهنش •• ضحكوا عليك •• اصطادوك من نقطة ضعفك •• تلقفوا  
لحظة خوفك وقتلوك بها •• خمس سنوات •• سنفرج عنك ••  
سريعاً •• وحول وراء حول •• ولا افراج •• بل مذلة وهوان ••  
لا امان للفئران •• لا امان للفئران •• ،



وفوجئوا به يحاول النهوض ٠٠ ناظرا بعينين غائمتين ، آملا  
فى أن يسنده أحد ٠٠ سار وحده ٠٠ بجسمه الضخم المنهك ٠٠ يترنج  
٠٠ فى اتجاه الباب ٠٠ وحين بلغه ٠٠ حاول أن يخبط عليه ٠٠  
خانته قواه ٠٠ قتلتمونى يا أولاد الزناة ٠٠ وستقتلونى مرة أخرى ٠٠  
حين تعلمون أنى كشفت السر ٠٠ لا مفر من الاعدام ٠٠ هنا أو هناك  
٠٠ لا مفر من الاعدام ٠٠

وسقط منهارا بجوار الجردل ٠٠ مكان الفار الذى هرب ٠٠ بلا  
حرك ٠٠

واشتعلت المحاريق بنيران الجحيم ٠٠



# العودة للحياة

---

حلم الخروج من النكسة



## مقدمة

كُتبت هذه الرواية ونشرت مسلسلة ، عقب هزيمة يونيو ٦٧ بستة شهور . كانت الهزيمة صاعقة ، دشتت أرواحنا قبل أن تدش أجسامنا . رغم أن لوح زجاج واحد لم ينكسر فى بيت أو فى مدرسة أو فى مصنع ! كانت هزيمة مخجلة الى حد التكفير بأشتياق الموت أو الاختفاء عارا فى جوف الأرض . حملنا نعوشنا وسرنا فى جنازة أنفسنا ونحن أحياء . ولهذا فقد بدا عنوان الرواية أيامها : « العودة للحياة » . صرخة استنقاذ وهمية ، أو رؤيا سرابية . ضاق بها البعض . كانوا ينادون أيامها بالكف عن الكتابة . أن يكون صمتنا نحن الكتاب هو تعبيرنا عن الاحتجاج على ما حدث . كان نداء مضحكا ومقيتا بقصد المهرب من المسؤولية .

ان صوت مصر ، ممثلا فى كتابها وفنانيها ومفكرها ، يجب ألا يصمت للحظة ، فما بالنا بتلك اللحظة بالذات ، والأمة كلها تترنح .

ان الكاتب والفنان والمفكر هم عمود الأمة الفقري الذي يصلب  
عودها في المحن ، وكان هذا هو احساسى وأنا اكتب : انى أصلب  
عودى وعود اهلى واصدقائى وكل من يقرأ كلماتى ، او يقرأ على  
الأقل العنوان « العودة للحياة » ، كل أسبوع ، لمدة ستة شهور .  
اجل أيها الناس . يجب أن نعود الى الحياة ، أن نطرح أرضا النعش  
الذى نحمله على اكتافنا ونبدأ الحياة من جديد . نبدأها بكلمة ،  
بصرخة ، بلحن ، او حتى بمندبة ! وقد كان أطرف ما فى الموضوع ،  
انى شفعت العنوان بهذا التنويه ، ونحن فى عام ١٩٦٨ . « رواية  
تقع أحداثها بعد عام ١٩٧٠ » . لم يكن ذلك من قبيل التنبؤ . انما  
انطلاقا من الاحساس باننا لو صمدنا عامين او ثلاثة أعوام بعد  
الهزيمة ، لو حافظنا على لبنا ، فباليقين ستنتطلق بعدها مصر ،  
وتتجاوز النكسة .

واتفق هذا الاحساس مع النبأ العالمى بنجاح الدكتور برنارد  
( يناير ١٩٦٨ ) فى عملية نقل قلب ، من انسان ميت الى آخر حى ،  
لينقذه من الموت .

لماذا لا تجرى هذه العملية لنا . فى مصر . نقل قلب جديد  
الىنا ، او على الأقل علاج القلب الذى صعقته الكارثة ؟

بهذه الروح كنت اكتب « العودة للحياة » . ولم أكن طبيبيا يجرى  
عملية ، بل كنت انا المريض الراقد فى حجرة الانعاش يحلم حلما .  
وبهذا الحلم ، عام ١٩٦٨ استطاع ان يعبر سراديب وأهوال برزخ  
الموت .

ولقد عبرنا البرزخ حقا ٠٠ ولكن الحقيقة أيضا أننا لا نزال على  
الشاطئ ٠٠ الشاطئ الآخر ، تمتد الصحراء أمامنا كبرزخ أصفر  
من برزخ الموت ٠ يطالبنا بعبوره ٠٠ عبر أهوال وسرايب ومفاجآت  
أخرى في انتظارنا ٠٠ حينئذ فقط ، تكون العودة للحياة قد اكتملت ٠

فهل من حلم آخر ؟

« عيد الله الطوخي »

## - ١ -

نجحت أول عملية نقل قلب فى مصر • فطيرت الخبر المثير  
وكالات الأنباء الى كل صحف واذاعات العالم • وكان الذى أجرى  
العملية طبيباً مصرياً شاباً ، فاعتبر ذلك مقياساً حاسماً للمستوى  
الحضارى الذى بلغه أحفاد بناء الأهرام • وقالت إحدى الدوريات  
الطبية المشهورة بأوروبا ، فى تعليقها النهائى على نجاح التجربة :  
وعلى أية حال ، فإن هذا النجاح النابغ ليس بغريب على المصريين  
الذين تفردوا بفن التحنيط واكتشفوا علم التشريح ، وبفضل اكتشافهم  
للكتابية سجلوا فتوحاتهم الطبية والجراحية فى بردياتهم المسماة ••  
بالقراطيس ••

ان « أبو قراط » الذى كان معتبراً أباً الطب ظهر أنه أخذ عنهم  
الكثير ••

لقد اعتبر قدماء المصريين القلب مركزاً للأوعية المنتشرة فى سائر  
الجسم ، ووصفوا نبضها بأنه « كلام القلب الداخلى » •



ان نجاح هذه التجربة لهى احدى علامات البعث الذى يتحقق  
يوما بعد يوم ٠٠ فى حياة المصريين ٠٠ وحياة العرب بشكل عام ٠٠  
ولكن ٠٠

مع هذا الاتجاه فى متابعة التجربة والتعليق عليها ، كان هناك  
اتجاه آخر ، خرجت به احدى المجالات المصرية التى تهتم بالموضوعات  
المثيرة تحت شعار « الانسانيات » ٠٠ التفت أحد محرريها « الأذكياء  
الأشقياء » زاوية أخرى من الموضوع :

« هل القلب حقا ، هو حصىلة عواطف الانسان ومركز احساسه  
ومشاعره ، أم هو مجرد مضخة لتوزيع الدم السائل على بقية  
أنحاء الجسد ؟! »

وكان السؤال فى مظهره يبدو بريئا ومنطقيا ومحا للوسائل  
بالفعل ٠٠ الا أن المحرر الشقى كان يعلم أن سؤاله خطير ٠ ذلك أنه  
لن يكون سؤالاً نظرياً ، بل تطبيقياً على الأبطال الحقيقيين للتجربة :  
يا له من قدر ٠ وراح ، وعيناه تلمعان ، يشرح فكرته لرئيس تحريره :  
« أن الرجل الذى مات واخذوا قلبه ، له زوجة فى الأربعين ٠ جميلة  
وطبعا حزينة ٠ وهى التى وافقت على أن ينقلوا قلبه لهذا المريض  
الذى عاش ٠ هذا المريض الذى انتقل اليه القلب الجديد له زوجة :  
ما هو شعور هذه الزوجة ؟! أنه يحبها وهى تحبه ٠ هل سيظل يحبها  
بعد أن زرعوا له قلباً آخر ٠ القلب الذى كان يحب به الرجل الميت  
زوجته ؟! ٠ ليس من الجائز أن يظل قلب الرجل الميت على حبه  
للأرملة الحزينة والجميلة ؟! ٠٠ وحينذاك تصبح أول دراما من نوعها  
فى التاريخ » ؟!

حين عرض المحرر الشقى فكرته هذه على رئيس التحرير ،  
اتسعت نظرات هذا ، وقال وقد انتفض من على كرسي مكتبه مسرورا

فرحا : اسمع • هذا الموضوع سيدحدث هزة • لن يهز الناس في بلدنا فقط ، بل في الدنيا كلها • صحيح : ما هي ماهية القلب ؟ هل هو قطعة لحم • عضلة • مضخة • أم هو جماع عواطف الانســان وأحاسيسه ومشاعره ، ويظل محتفظا بسرهِ العجيب ، حتى لو انتقل الى جسم انسان آخر ؟ • على هذا المستوى أريد أن يكون تحقيقك الصحفي • لكن الضربة الحقيقية لن تكون في هذا • إنما ستكون بنشر الصور : صورة الزوجة التي تبرعت بقلب زوجها الذى مات • وصورة الزوجة الأخرى • زوجة الرجل الذى عاش بعد أن انتقل اليه القلب الجديد والرجل بين المرأتين : الى أين سيتجه هذا القلب ؟!

من هنا ينطلق تحقيقنا الصحفي •• المصور !

بكل الطموح الذى يملأ جوانح الصحفي الشقى فى أن يدير اليه عيون العالم ، غادر حجرة رئيس التحرير ، واصطحب مصورا •• وعسكر الاثنان بالقرب من العنبر الذى يقيم فيه الرجل الذى أجريت له العملية ، ولم يلبثا أن رأيا الزوجة قادمة !

لكن الصحفي زميله المصور فى جنبه وقال هامسا : تنبه •• استعد •• انها خمرية •• جميلة •• هل تلاحظ •• خذ لها عدة لقطات بينما أنا أتحدث معها ، انها متوترة • هل تلاحظ •

واتجه اليها الصحفي • رسم على شفثيه ابتسامة ، واعترض طريقها فى ادب وبانحناء خفيفة :

— كامل قدرى ، محرر فى مجلة « أضواء الليل » •

— أهلا وسهلا ••

— يا أقندم • احنا بنعتبر العملية دى عملية البلد كلها •• عملية الانسانية كلها •• احنا بنهنى انفسنا على نجاحها •

— ربنا يتم بخير يا أستاذ ..

وقجاة ، رمشت بعينها ، وارتسمت على شفثيها ابتسامة عفوية مرتبكة . وعفويا أيضا تحسست خصلات شعرها لتطمئن على منظرها وكان المصور يقوم بمهمته !

وواصل الصحفي :

— احنا بنعتبر العملية دي يا أفندم عملية تاريخية • حضرتك زوجة أول رجل فى مصر ينتقل له قلب جديد • • وتنجح العملية معاه • • خلاص ، عدى مرحلة الخطر •

— ربنا موجود يا أستاذ • ده حياتى • عشرة عمرى •

هنا أخرج الصحفي من فمه صيحة اعجاب : « ياسلام على التعبير • اكتبه لو سمحت » •

وأخرج « عدة شغله » الورق والقلم ، وراح يكتب مطريا أذن الزوجة : « ده حياتى • عشرة عمرى » •

واقترب منها المصور أكثر • فنظرت اليه بابتسامة كبيرة ، ورمشت عيناها مرة أخرى مع ضوء الفلاش •

وقال الصحفي : متجوزين بقالكم كام سنة يا مدام ١٥

— سبع سنين • •

— عندكم أولاد ؟

وابتسمت : هو ابنى • • وأنا بنته !

صاح الصحفي الخبيث باعجاب : الله • ده تعبير مايقولوش نجيب محفوظ ولا حتى توفيق الحكيم •

قالت فى هدوء وقد سرحت عيناها فى حلم : دى الحقيقة ..  
واذا كان ربنا شفاه ، ونجحت العملية ، فعلشان خاطر . حبى  
الأول والأخير .

قال الصحفى وقد بدأ ينعطف الى هدفه الأصيل :

- وهو يا أفندم !؟ .. نفس الشعور طبعاً !

ابتسمت ،

- تفكرى مش يحصل تغيير فى الشعور !؟

- تغيير فى الشعور .. ازاي ؟

- عشان القلب الجديد ..

- ( وارتبكت الزوجة للاحظة ) ماله القلب الجديد !؟

- أقصد القلب الللى كان بيحبك به راح طبعاً . وقلبه الجديد

دلوقت مش قلبه ، قلب انسان تانى ، كان بيحب انسانة تانية . الزوجة  
الللى لسه عايشة ..

- مش فاهمة قصدك ..

- قصدى . مش جايز يلاقى نفسه بيحبها . بفعل القلب

الجديد ، من غير أى تعمد !

هنا انقلبت ملامح السيدة ، واكفهرت بالغضب وصرخت فى

وجهه :

- ده كلام فارغ الللى بتقوله ده . هو ده الموضوع الصحفى

الللى أنت عايز تعمله معاى . عايزين تضيعوا على فرحتى .. انتم

مجرمين . متوحشين .

رغم ثورتها المفاجئة ، والمتوقعة بالطبع من الصحفي والمصور ،  
 الا أن الأخير انتهن فرصة ثورتها واصفرار وجهها ، والنقط لها  
 صورة • حينذاك ، أحسست السيدة بثمة مؤامرة تحاك ضدها ،  
 واندفعت نحو المصور ، وأمسكت به تحاول أن تنزع منه الكاميرا ،  
 غير أنه نجح في أن يقلت منها بمساعدة زميله الصحفي ، وانطلق  
 يجرى • وبكل براعة الصحافة الذكية الشقية مضى الصحفي يهدى  
 من ثورتها ، ويطمئنها الى حسن نيته ، وأنه - لا هو ولا غيره -  
 يجرؤ على أن يمس زوجة أول رجل في مصر نجحت معه تجربة نقل  
 القلب بكلمة تجرحها • انما سيتناول التجربة من الناحية العلمية  
 البحتة و ...

وقاطعته صارخة : لا • أنتم كدابين • منافقين • وإذا ماكنتش  
 أنت ، حبيقي غيرك • أنا كنت عارفة ان الكلام ده حيتقال • وحيثقال  
 أكثر منه • الناس مش حتسيبنا في حالنا • بعض قرايبي قالوا لى  
 الكلام ده على أنه ضحك ، وهو مش ضحك • هو سم • وعايزين كمان  
 تنشروه في الجرايد • عايزين تقتلونى • وتقتلوه هو كمان •

على الضجة ، تجمع الناس ، وهرع بعض الأطباء ، وما ان  
 رأوا هياج الزوجة ودموعها ، حتى أحاطوا بالصحفي • ضربوا حوله  
 حصارا من الوجوه الغاضبة المتحفزة واختلطت التساؤلات • وهدد  
 البعض بضربه •

فجأة انحسرت الضجة ، وهدأت في لحظة • كان الطبيب الذى  
 أجرى العملية قد وصل •

كانت أية كلمة من هذا الطبيب تعنى فورا الامتثال والخشوع  
 والاحترام • انه الطبيب الذى حقق المعجزة • فخر البلاد وفخر

الانسانية • صحب معه زوجة مريضه ، وكذلك الصحفي • ودخل بهما حجرته •

ـ ايه الموضوع بالضبط •

ويدموع حبيسة ، قالت الزوجة :

ـ بيقول ان جوزى ماعدش حيبنى • القلب اللى كان بيحبنى به مات ، والقلب اللى فيه دلوقت مش بتاعى • بتاع الست الثانية •

رغما عنه ، تراجع برأسه • اتسعت عيناه • مأخوذا ••

أسرع الصحفي ••

ـ مش انا ابدأ يا دكتور اللى قلت كده • انا كنت بأسألها : هل ممكن ١٩ ••

ويصوت هادىء رهيب :

ـ ممكن ايه ١٩

ـ باقول لحضرتك مش انا اللى قلت • هى اللى بتقول • ان بعض قرآيينها قالوا لها • انه ماعدش حيحبها • حيحب الست الثانية اللى اعطته قلب جوزها • اسألها •• !

أخذ الطبيب نظرة سريعة من الزوجة : كانت ترتعش ، وفى عينيه دموع • ولونها شاحب • ومكياجها فسد • ! داهمه شعور بالخطر • كان ذهنه يفكر بسرعة • ها هو بعد جديد وحقيقى يظهر فجأة فى التجربة • لم يكن يفكر فى العملية • سواء قبلها أو اثناءها أو بعدها ، الا بشكل تكتيكى ••

حتى هذه الساعة ، كانت « العملية والطب » أما الآن « فالعملية والناس •• القلب الجديد والمجتمع •• »

وأحس برجفة تهز كيانه • كيف لم يفكر فى هذا ولو للحظة •  
ان مريضه العزيز لا يزال فى المستشفى • ولكن على وشك الخروج •  
هل يخرج الى الحياة لتواجهه هذه المشكلة التافهة والخطيرة فى  
نفس الوقت ••

ان أكثر ما أقلقته ، صوت الزوجة • كانت تتكلم بشعور الخائفة  
فعلا ، بل المرتعبة ، من امكان أن يحدث هذا ••

وتجسد له هذا الشعور القاتل : الغيرة • أى سخف • ولكنه  
لواقع • والواقع أيضا انه لا تزال عندنا صحافة من هذا النوع ••  
صحافة الاثارة • لا •• لن يسمح لأحد باللعب بالمعجزة •  
وسيقاتل •

— شوفى يامدام • أنا واثق أنك اكبر من كده بكثير • اكبر  
من كلام فارغ وجامل زى ده • أنت يامدام قدامك مسئولية خطيرة •  
قدامك دور كبير من يوم ما الأخ كمال حيخرج من المستشفى •• دور  
يوازى الدور بتاعى اللى قمت به • أنك تحافظى عليه • وأنا واثق  
أنك حتكونى عند حسن ظنى ، وظن الجميع •

واستدار الى الصحفى •

نظر اليه فى عينيه نظرة طريفة • عيناه وقحتان • هازئتان ،  
رغم ما يبدو عليه ، من صمت وانكماش • انه يفهم هذا النوع من  
الصحفيين • واقترب منه وكأنما سيطبق فيه •

— وأنت يا أستاذ • ( ولوح باصبعه فى وجهه محذرا  
ومهددا ) أى كلمة تمس الحياة المتخفية لأى انسان اشترك فى  
العملية دى • مش حيحصل طيب •• وإذا كنتم فاكيرين البلد هيصة  
•• لا •• البلد فيها رئيس جمهورية • فيها نقابة أطباء • فيها نقابة

صحفيين ٠٠ ( ولوح مرة أخرى بيده ) أنا باحملك المسؤولية  
التاريخية !

\* \* \*

فى نفس ذلك اليوم ، كانت هناك تعليمات مشددة قد أرسلت  
لجميع الصحف والمجلات .

٠٠ » لخطورة التجربة التى تعطينا وجها متقدما امام العالم  
المتحضر ، ولفائدها الجليلة المنتظرة ، فى أن يستفيد منها أكبر عدد  
ممكن من مرضى القلب فى هذه المنطقة . رجاء عدم تناول هذه التجربة  
من ناحية حياة الأفراد الشخصية على الإطلاق . وأى موضوع يمس  
هذا من قريب أو من بعيد ، لابد أولاً أن يعرض على الجهة المختصة ،  
وهى فى هذا الشأن : الطبيب الذى أجرى العملية ٠٠ »

وهكذا ، أسدل الستار على مولد تحقيق صحفى مثير ، كان  
بالفعل سيحدث ضجة كبرى فى المدينة . تلك المدينة التى باتت  
أهلها لا يحبون شيئاً فى الدنيا أكثر من حبهم للجدل والمناقشات ٠٠  
خاصة وكانت هناك كلمتان أصبحتا على لسان الجميع : العلم  
والتكنولوجيا والى أى مدى يمكن أن تصل قدرة الانسان . ما هى  
المسافة التى ستظل محفوظة بين الاله والانسان !؟



- ٢ -

جاء اليوم الموعد • اليوم المرتجى • اليوم الذى ظل الرجل  
الذى رأى ظلام الموت بعينه يحلم به • اليرم الذى يخرج فيه من  
المستشفى الى الشارع سيرا على قدميه ..

تلك كانت لحظة تاريخية فى حياة « كمال أدهم » • وكان يمكن  
أيضا أن تكون لحظة تاريخية بالنسبة لمصورى الصحافة والسينما  
والتلفزيون ، لولا أن الطبيب الذى أجرى العمية كان قد أخذ درسا  
من حادثة الصحفى والزوجة ، فقرر أن يخرج مريضه المعافى من  
المستشفى من غير ضجة أو ازعاج ! وقد قال الطبيب للثلاثين طبيبا  
وممرضا وممرضة الذين عاونوه فى اجراء العمية .. « حقا ان  
مسئوليتنا عن مريضنا المعافى تقف عند هذا الحد ، والمجتمع كله بعد  
هذا هو المسئول عن حياته ، غير أننا يجب أن نكون معه إنسانيين  
الى أقصى حد • ( ونظر الى زميل له أخصائى قى علم النفس  
والأعصاب ) وقال : ان مجرد خروج الأخ كمال أدهم الى الشارع

على قدميه ، يعتبر فى حد ذاته صدمة قوية عليه ، فما بالكم لو وجد نفسه فجأة محاصرا بجيش من مخبرى الصحف والاذاعة ومصورى السينما والتلفزيون ؟! ٠٠ لا ٠٠ ان مسئوليتنا عنه يجب ان تستمر حتى يصل الى بيته ٠٠ » نعم ٠ سنعلن عن خبر خروجه من المستشفى ٠٠ كنجاح نهائى لعمليتنا ٠ ولكن بعد ان يكون قد خرج فعلا واصبح فى بيته ٠ وبعد ذلك ، يصبح السيد كمال ادهم ، بمدى حبه للحياة ورغبته فى المحافظة على صحته ، هو المسئول عن نفسه ، عن قلبه الجديد ، فى مواجهة أى موقف يقابله فى الحياة ٠

وابتسم الطبيب ذو الوجه الدقيق الشاحب ، فنور وجه العالم ، وقال : ولنستعد من الآن ، أيها الأعزاء ، لنقل قلب آخر ٠٠ وإلهنا معنا ٠٠



هكذا فى هدوء بالغ ، خرج كمال ادهم من المستشفى ، غير ان هذا الهدوء لم يكن الا من وجهة نظر الطبيب فقط ٠ أما « كمال ادهم » نفسه ، فكان وهو ينتظر مجيء زوجته ليعود معها الى بيته ٠٠ كان كل ما فيه يضج بالآلاف المشاعر والانفعالات والصور ٠ كان يدبذب بقدميه على الأرض ويقول فى نفسه أنا أعيش ٠ أنا أحيا ٠٠ أنا أتنفس بلا ألم ٠ أتنفس طويلا وعميقا ( ويجذب للمرة الألف نفسا طويلا طويلا يطمئن به على قوة قلبه ) حمدا لله ٠٠ شكرا لله ٠ وشكرا لك يا دكتور ٠ أنت معجزة !! وكان ينظر فى مرآة الدولاب الطويلة ، ليطمئن على منظره بالكامل ٠ كان لأول مرة بعد عام كامل فى المستشفى ٠ يرتدى بدلقته وحذاءه ٠٠ ورأى نفسه أنيقا وطويلا وازداد سمنة بعض الشيء ٠ أى سعادة ٠ كان مشهد السعادة مجسدا ٠ وكان يقترب جدا بوجهه من المرآة كأنما يطمئن الى أن

الوجه وجهه بكل التفاصيل بكل الملامح • ولونه القمحي الغامق • •  
وعيناه الواسعتان السودوان ، بأهدابهما الثقيلة ، كأنها اطار يحيط  
بهما ، ويبرز بريقهما •

ويضحك فجأة بصوت خافت ، وهو يقبض بيده على أنفه  
ويتحسس : يا أنفى الكبير العزيز - كم أحبك • • كان أنفه كبيرا •  
من النوع المتكور ، بشكل يمكن أن يبعث على الضحك • وفيما مضى  
• • زمان • • خصوصا أيام الصبا ، كان يتضايق جدا من هذه  
الضخامة فى الأنف • كان يتضايق من أنفه ، ويتمنى لو يصحو من  
نومه ذات صباح • فيجد نفسه بأنف صغير • • وحينذاك يصبح  
وسيمًا وجميلاً •

الآن • كم يحب هذه الضخامة • يحبها ويعتز بها !! لو كان  
قد خرج من هذه العملية بأنف صغير دقيق ، لما فرح • ولما صدق أنه  
صدق أنه هو • • الذى تحققت معه المعجزة • •

- انه أنا • • كمال ادهم • • رجعت الى الحياة بقلب سليم • •  
مضى زمن الآلام • • ( ويريح كفه على قلبه • • ويحس بالدقات • •  
ويجذب نفسا طويلا ) • • شكرا لكم أيها الناس الذين وهبتمونى قلب  
رجلكم • قلب أعز انسان لديكم • أريد أن أراكم • أركع أمامكم • •  
كيف سأعبر لكم عن امتنانى • • وشكرى • • وعرفانى بالجميل • •

وحين رأى زوجته سناء قادمة نحوه ، تكاد تجرى ، لا يعوق  
سرعتها غير كعب حذاءها العالى ، اندفع نحوها • • لم تكن وحدها ،  
كان معها أخوها « يحيى » وصديق زوجها « أحمد زهران » المحامى  
صديق طفولته • • والثلاثة يتسابقون عليه ، غير أن السابق فى هذه  
المرّة يجب أن يكون للزوجة • • وفى لحظة • كان الجسدان اللذان

التحما ، جسدا واحدا • وتهدج صواتهما وهما يتبادلان بحرارة  
القبلات •

وصاح أحمد زهران بصوته العريض ضاحكا :

– واحدنا كمان لنا حق ياست سناء •

– يا صديقى العمر كله • يا ابن بلدى •

واندفع الصديقان الى بعضهما ، وتهدج صواتهما أيضا وهما  
يتعانقان ••

– وأنت كمان يا « يحيى » ( وفرد له كل ذراعيه ) تعال  
بالحضن • وحشنتنى سنتك المكسورة ، وريها لى ••

وضحك يحيى من كل قلبه ، فبانت سنته المكسورة • غير أن  
ضحكته لم تلبث أن تحولت على الفور الى بكاء وهو يدخل فى صدره  
ويعانقه • كان « يحيى » بعكس « زهران » يميل الى القصر ، مع  
متانة فى البنيان • وتناول زوج أخيه من وجهه ومضى يربت على  
وجنتيه فى تأثر وحنان ••

– ألف حمد الله على السلامة ( ويطمئنه ) المصنع ماشى  
كويس جدا • ماتحملش همه • ماتحملش هم أى حاجة • أبدا ••  
أبدا ••

ويقول الرجل مهتزا :

– متنكر • متشكر يا يحيى • أنا كلى ثقة فيك • والمصنع  
مصنعه • أنا ماليش غيرك ( ويزفر ) الحمد لله • كفاية انى عايش  
وشايفكم ( ويعود ويضغط على يد زوجته بحرارة وحنان ) •• ازيك  
ياسناء • ازي البيت •• نفسى أشوف بيتى •• نفسى أشوف

سريرى • نفسى اشوف الحيطان نفسها •• والصالة و « ركس » ••  
عامل ايه ركس ياسناء ؟

– حيتجنن عليك ••

وقال يحيى : من يوم ما سبت البيت ، وهو راقد قدام الباب ،  
فى انتظار أنك ترجع فى اى لحظة ••

– يا حبيبى ياركس • بالحضن •• عايز آخده بالحضن (وتذكر)  
وحوض السمك •• عامل ايه السمك ياسناء •• قوليلى ما ولدش ؟

– لسه يا حبيبى •• اليومين دول الموسم بتاعه ( وتضحك )  
منتظرك عشان يولد •• كل شىء فى البيت فى انتظارك دلوقت ••  
وماما وبابا كمان فى انتظارك ، فى البيت •

وهتف فرحا : ماما وبابا ؟ •• ازيهم •• ليه ماجوش معاكو ؟!

– ماحبناش نعمل هيصة • حسب كلام الدكتور ••

كان يغمرها احساس بالفرح ، وشعور بالغ بالطمأنينة • وتذكرت  
سناء وجه الصحفى الخبيث ، محرر مجلة « أضواء الليل » ••  
وتمنت لو كان هنا ، فى هذه اللحظة • ويرى كمال كيف يحتضنها ،  
ويكاد يمتصها • ويسمع أيضا كلامه • ها هو زوجها بعد أن نقلوا  
اليه القلب الجديد ، يتكلم عن الأشياء القديمة التى كانت فى حياته  
قبل العملية • عالم ما قبل العملية يسأل عنه فى حنين وشغف • لا يزال  
يحب ركس وحوض السمك • حوائط البيت يريد أن يراها • لم يفعل  
به القلب الجديد •• أيها الصحفى الخبيث ، اى شىء •• وأنا ••  
مازلت ، وسأظل حبه الوحيد •

وقال أحمد زهران : وعربيتك كمان فى انتظارك • فى الحوش •

— عربيتى انا ؟

.. آه .. قلنا لازم نرجع البيت بعربيتك • وأنا اللى حاسوق  
ده يوم تاريخى !

يا صديق الطفولة وأيام شربين ودمياط • ياربيب السجون  
والمعتقلات • لم تفقد أبدا شهامتك • وأنا الآخر ، كنت شهما معك  
ومع زوجتك وولديك • جريت وراءك سبع سنوات وأنت فى السجن •  
وقبل السجن ، كنت أخفيك فترات • كنت وفيًا لصداقتنا •  
وركبوا العربية •

أحمد زهران على مجلة القيادة ، وكمال أدهم يجلس بجواره ،  
رسناء وأخوها « يحيى » فى المقعد الخلفى ••

كان الوقت بعد الغروب بقليل ، وغلالة الليل الصيفية شرعت  
تلقى بنفسها على المدينة ، غير أن العربية ما كادت تتجاذب فناء المستشفى  
المعتم ، وتخرج الى الشارع ، حتى خطفت بصر كمال أضواء النيون •  
وحركة العربات ، والبشر • انتابته لحظة ذهول • شبه دوار ••  
وزغللت عينيه أنوار كهربائية ملونة للافقة أحد الكازينوهات  
الواقعة على فرع النيل الصغير • كانت على شكل كرات تضيء  
وتنطفئ • وصاح فجأة ، يقرأ اللافتة وقد خاف أن يستسلم للدوار :

— زهرة اللوتس •• فاكرة ياسناء ؟

واصل فرحته بكل ما تقع عليه عيناه ، يريد أن يرى أكبر عدد  
ممكّن من الأشياء •

كان يهتف لنفسه أكثر مما يهتف لمن معه ••

— وقصر محمد على القديم • عمر الخيام ، والكوبرى الصغير،

ونهر النيل ، أنا دلوقت فوق نهر النيل ( وهذا صوته قليلا ، وقال  
مغمغما وهو يحدق فى مجرى النهر :

– فيه حاجات مابتموتش أبدا •

والتقط أحمد زهران كلمته وقال :

– مادام فيه تجدد ، يبقى مفيش موت •

يا صديقى الحبيب • المناضل القديم • شاب شعرك ، أصبحت  
فيلسوبا • هل مضى زمن البطولة والمغامرات والسجون والمطاردات،  
وجاء الزمن الذى حولكم الى فلاسفة وحكماء ١٩ •

– عاملة ايه السياسة دلوقت يا أحمد يازهران ؟

– انت عارف طبعا ان فيه انتخابات قريب •

– آه • كنت باشوف عناوين الجرايد • لكن تفاصيل ماعنديش  
فكرة طبعا • ( ثم هز كتفيه باستهانة ) يعنى • معركة زى آلاف  
المعارك اللى فاتت •

قال زهران ، وقد داخل الحماس فجأة صوته :

– لا ياكمال • أنا فى اعتقادى أنها حتبقى أخطر معركة انتخابية  
فى الفترة الأخيرة ••

– ليه •• ١٩

– كل الخلافات اللى كانت متغطية فى المرحلة اللى فاتت  
حتبان ، وحتحدد فيها اليمين من اليسار •

– مين اليمين •• ومين اليسار !

ندت عن زهران ضحكة قصيرة ، وقال بلهجة تحذير لطيفة :

– اسمع ياكمال • مش وقته الكلام ده •• ( وأشار بيده على

الطريق ) ده اليمين • وده اليسار • خلينى أوصلك لغاية البيت  
سليم •• ( وضحك عاليا ) حياتك من النهاردة بقت مسئولية  
عالمية ••

وقال يحيى معلقا بابتسامة « فعلا •• أنت يا أبو الكمال دلوقت  
ثروة انسانية •• أنت أهم انسان فى العالم النهارده مفيش شك •  
— لا •• حاسبوا على شوية أرجوكم •

كان فرحا بأن هذين الاثنين بالذات هما أول من رأى فى هذا  
اليوم العظيم ، وابتسم فى نفسه : أنهما من نوع واحد • لقد تعرف  
« يحيى » على أحمد زهران عن طريقه • فاستهواه الكفاح فترة ••  
احترف الكفاح تاركا دراسته فى الكلية • ثم دخل السجن مع زهران ،  
وأيامها ، أحس بالذنب أنه كان سبب المعرفة • غير أن « يحيى »  
خرج بعد ستة أشهر ، تاركا زهران فى السجن • فتلقفه كمال ••  
وربطه بمصنعه ودخل « يحيى » دنيا العمل ، بكل ما يمتلك من طاقة •  
تاركا خلفه دنيا الكفاح ، والدراسة •

منذ أن اشتدت على كمال أزمة القلب ، وهو القائم بإدارة  
المصنع • أثبت أنه شاب جاد • لقد أصبح تماما مثل ابنه الكبير •  
وهو بلا أولاد •

وقد توقفت العربية فجأة أمام إشارة مرور حمراء • وتراكمت  
على الفور كميات ضخمة من العربات • بينما انطلقت أعداد أضخم •  
مضت تنهب الشوارع المقاطع • ما هذا الزحام •• ١٩ وبدت الأرض  
لكمال وكأنها تنبت بشرا • تتنفس بشرا • وعاودته كلمة  
« زهران » : مادام فيه تجدد • مفيش موت • وفكر : لو كانت العمالة  
قد فشلت ، وانتهيت ، لما نقص عددهم • لما حدث أى تأثير • واعترفته  
مسحة كآبة • وهز رأسه : لا •• أنا لست كأى واحد من هؤلاء •  
لقد رايت ما لم يروا وتجربتى لم يمر بها أحد •• فى مصر !!





قال زهران مستدركا : بس أنا راى غير كده • السجن للمكافح  
مش موت •

بالعكس بيبقى موقف • بيختاره المكافح ، عشان يؤكد به حريقه  
•• ( وضغط على الكلمات بشكل واضح ) ويستمر فى كفاحه •

لسبب ما ، احس يحيى بالضيق • ترى ، هل يقصد « زهران »  
غمزه بأنه تخلص نهائيا ، بعد خروجه من السجن عن الكفاح السياسى  
•• « اى كفاح يا عم زهران ؟ ماهو كفاحك الآن • قل لى • نحن  
دفناه سويا يا زهران » ••

تملكته رغبة أن يقول هذا ، لكنه أمسك : هو اولا يكن له احتراماً  
من أجل أيام قاسية مضت وجمعتهما سويا • وثانياً لأن هذا ليس  
وقته ، أن تحتدم بينهما مناقشة سياسية • وكمال أدهم ليس رجل  
سياسة ، ولا حكماً ، حتى يثير أمامه لب القضية • واستراح الى  
أن اخته سناء تملكت فى جلستها بجواره وقالت محتجة على اتجاه  
الحديث :

— سجن ايه ، وموت ايه ، وكفاح ايه يا جماعة ؟ ده وقته ؟  
قولوا لنا حاجة حلوة كده تفرح • والا ايه يا كمال •

قال كمال أدهم معبراً عن قمة فرحته • أنت عايضة فرحة أكثر  
من كده ياسناء • انى الاقى نفسى من تانى قاعد مع « زهران »  
و « يحيى » بنتكلم وبنتناقش ؟ ده أنا خفيت بصحيح يا أولاد ••  
( وسرح بصوته ) • أنا أحياناً ما باصدقش ••

ثم قال مغمماً :

« مش عارف أشكرهم ازاي » ••

— تشكر مين ١٩

— الناس اللي وهبوني القلب • (وشرد صوته) أنا مش عارف  
أرد لهم الجميل ازاي • كان ممكن يرفضوا • كنت زمانى انتهيت !

قالت سناء مندقة :

— ويرفضوا ليه ١٩ • هو المرحوم مش كان مات ؟ كانوا  
حيسقفيديا ايه بالقلب بتاعه ١٩

صدمه منطقتها • نظر اليها بدهشة واستنكار •

أسرع يحيى قائلا لأخته بلهجة عتاب حادة : ( وكان قد تذكر  
حادثة صحفى مجلة « أضواء الليل » المسألة ماتتصورشى بالشكل  
ده ياسناء • ده موقف عظيم منهم مقيش شك •

وقال أحمد زهران مؤكدا : فعلا • موقف عظيم • موقف ضخم •  
مش بسيط أبدا ( وعلا صوته فجأة وبحماس ) ياسلام على شعبنا  
ده • بشرقى شعب عظيم • مش صدفة أبدا ، ان أول عملية نقل قلب  
ناجحة ، تتم بفضل قلب واحد عادى من الشعب ( والتفت الى صديقه  
كمال ) صح والا لا ؟! ( وضحك ) يعنى القلب اللي جواك دلوقت ،  
هو قلب الشعب !

ورغم أن أحمد قالها بضحكة ، الا أن كمال أدهم أحس معها  
بكل كيانه يرتج ، « قلب الشعب » • هو يعرف ماذا يعنى « الشعب »  
عند زهران : معبوده المقدس الذى ضيع العمر من أجله • لايمكن أن  
يكون هناك تكريم له من صديقه السياسى أكثر من هذا •

لكنك تضع على كاهلى ثفلا ضخما يا زهران : آلام الناس ،  
والمرارة ، والشوك ، والمستحيل • وطالعتة وجوه الفلاحين فى قرите ،

والحقول ، والظهور المحنية بالفئوس ، وعمال التراحيل • وعمال  
آخرون • وعمال مصنعه •• و •• أصدقاؤه أصحاب المصانع •

— لا • لا ياعم أحمد يازهران • حكاية قلب الشعب دى كبيرة  
أوى على • أعمل معروف أنا • أنا رجعت للحياة بفضل قلب رجل  
بسبب • عادى بيشتغل فى السكة الحديد • وساب وراه زوجة وبنت  
وولد • مساكين •

قال زهران : تصور بقى • هم دول اللى أخذوا القرار • بمنتهى  
الشجاعة • ووهبك قلب أعز انسان عليهم • مش عايزه دراسة دى ا  
— ربنا يقدرنى أوفى لهم الدين ••

كان يتكلم بخشوع وابتهاال • وأحست سناء بشيء ما يتقلص  
فى داخلها • ومع ضيقها بكلام زهران ، تذكرت وجه الصحفى الشقى،  
وطالعتها وجه الزوجة • زوجة الرجل الذى مات • أيمكن أن تكون  
هذه هى البداية • وتصح النبوءة !؟

كانت العربية قد انحرفت عن شارع النيل •• ودخلت شارع  
رمسيس • وكانت عينا كمال داثبتين على التقاط الأشياء بقدر ما يستطيع  
يؤكد عودته للحياة • وفى أحيان ، كان يغشى عينيه نوع من الذهول •  
وفى احدى اللحظات ، ولا ندرى كيف حدث هذا بالضبط ، رأى  
الأرض كرة تدور ، وأنه يدور معها • وهز رأسه متخلصا من هذا  
الاحساس المروع ، وساعده على هذا ان العربية كانت تجتاز ميدان  
باب الحديد ، بزحامه الشهير • ولمح تمثال رمسيس الضخم ،  
والنافورة ، والبحيرة المستطيلة ، والتقطت أذناه صفير قطار، اهتزت  
روحه بالشوق ، رأى بعين الخيال أرض مولده • ارتسمت له القرية  
الصغيرة الواقعة قرب البحر الأبيض • والمصيف • وتراءى له الفضاء  
الفسيح • وزرقة البحر • والأمواج تضرب فى الشاطئ •

– تعرفوا أنا فين دلوقت يا أولاد ١٩ في « رأس البر » ولبس  
مايوه وباجرى وبانط فى البحر •

سارع « يحيى » قائلًا وبحماس : وده لازم يحصل ياكمال • لازم  
السنة دى نصيف بدرى •

قالت سناء بنفس الحماس : كل سنة بنصيف فى أغسطس ••  
السنة دى ناخذ يوليو •• ايه رأيك ياكمال •• المصيف يفيدك تمام ••

( وسرح ) – فعلا •• ناخذ يوليو السنة دى • بس تيجى معنا  
يا أحمد يازهران • ولو ماجيتش مش حاسافر !

ضحك أحمد مندهشا وقال : وأنت ذنبك ايه ترتبط بى • افرض  
ماقدرتش آجى •

– وماقدرش ليه ١٩ محاكم وأجازة • اظن حتقوللى : المعركة  
والانتخابات ١٩ ( وابتسم مداعبا ) ! ايه رأيك لو ترشح نفسك عن  
دمياط ورأس البر • تبقى كافحت ، وفى نفس الوقت صيفت •  
ضحك أحمد وقال : الكفاح على الطريقة العصرية ••

وعاد أكمال يؤكد على صديقه : بجد يا أحمد • يا أخى لازم  
تعيش ، عيش حياتك يا أحمد يازهران • الحياة مش سياسة ويس •  
الحياة : اسألنى أنا عن الحياة !

ورفع أحمد زهران إحدى يديه عن عجلة القيادة ، وأشار بها  
على الرصيف :

– طيب لو سألتك عن دى ١٩ ••

كانت العربية قد توقفت عند إشارة مرور أخرى ، وكانت فتاة  
رشيقة جهيالة ، ترتدى المبنى جيب ، وتخطو على الرصيف بايقاع

نشيط ، وخصلة عريضة من شعرها الناعم الأسود تنسدل وتغطي نصف وجهها الأيسر ، وفي خديها غمازتان تضحكان .

وأسرع أحمد زهران يضحك موجهها حديثه الى سناء :

– لامواخذة يامدام ، أنا يس بأسأله عن رأيه ، مش أكثر .  
فيه ياكمال ، رأيك ايه فى الحاجات دي ؟

وقالت سناء ضاحكة : قول يا كمال ، ولا يهملك . خد راحتك .

قال كمال وقد تعلقت عيناه بالفتاة ، من أسفل الى أعلى :  
حاجة فى منتهى الجمال والظرف . ماله المينى جيب . حلو المينى  
جيب ( كان صوته فائضا بالحيوية ، وطوح بيده ) خليفهم يعيشوا .  
يستمتعوا بحياتهم !

قال « يحيى » متشاقيا : عيني يا عيني ، سامعة ياسنت سناء !

قالت سناء ترد على المداعمة ، وفي نفس الوقت متحدية بلطف:  
دبقى على كده حافصل لنفسى فستان ميني جيب . وأخرج به !

– أنا شخصيا ماعنديش مانع .

قالت وقد فوجئت برده ولهجته : كده ؟

– طبعا . مش دي رغبتك ؟ أنا مش عايز أشوف حد نفسه فى  
حاجة . له رغبة فى شىء ، ومايحققهاش لنفسه ، مادام فى أمكانه !

أسرع زهران اى حاجة ؟ اى رغبة ؟

– اى حاجة . واى رغبة . مادام راضى عن نفسه وهو  
بيعملها !

قال زهران ، مثبتا يديه جيدا على عجلة القيادة ، ده كلام

خطير وجديد عليك يا كمال .. يستحق المناقشة .. بس لازم  
تاخذ فرصة .. لغاية ماترجع للحياة مضبوط .

اضاءت الاشارة الخضراء . وانطلقت العربية من جديد . مع كل  
احظة كانت تمضيها العربية منطلقة ، كان يدرك أنها تقربه من البيت :  
أخيرا . يا بيتي العزيز . أخيرا سأدخلك .. وياركس الحبيب ..  
كيف سيكون عناقنا . لن أعانقك فقط . سأعانق خشب الباب . بخدي  
سأتحسس . وياسمكى العزيز الملون . سأراك من جديد وأرقبك وأنت  
تتوالد . تلد . وياسريرى العزيز . وياسناء . ربما ننجب هذه المرة :  
قال لى الطبيب اننى سأنجب . لم أقلها لك . سأتركها لله . وإذا  
حدثت فستكون المعجزة المقدسة .

وحين لاح البيت ، وجد ذراعه - دون وعى منه - ترتفع ، وتمتد  
فى هدوء الى الخلف .. نحو سناء .

مدت ذراعها اليه أخذت كفه نى كفها . وتعانق الكفان !

### - ٣ -

كان لقاء مثيرا ومؤثرا ، ذلك الذى حدث بين « ركس الصغير »  
وصاحبه كمال أدهم ، آمن كل من رآه ان الكلاب مثل الناس تضحك  
وتبكي وتعرف دموع الفرح !

كان ركس راقدا تحت أحد المقاعد فى الصلاة وقد مد رأسه  
برقبته أمامه على الأرض فى حزن واكتئاب • وكانت أم سناء  
وأبوها جالسين فى نفس الصلاة ينتظران وصوله فى صمت وقلق •  
وفجأة ، اذا بالكلب ركس ينتفض من رقدته ، وراح يمد أنفه فى الهواء  
ويتشمم بشواربه المرتعشة ، ويزوم بأصوات غريبة •

نهضت الأم من على مقعدها ، وقالت لزوجها بانفعال :

- ايه رأيك أنهم حيوصلوا دلوقت ؟! الكلب ده أصله بيحس  
به • كان دائما يشم ريحته من بعيد وهو جاي ••



قال الرجل العجوز ، وقد اقنعتة حركة الكلب بما قالتة زوجته :  
جايز • ما هى الكلاب دى فيها سر ، مش فى الانسان •

وتنهدت وقالت وهى تمصمص بشفتيها فى حسرة وابتهاال - لو  
ربنا يعطيه ، يعطيه ولد من صلبه ، عشان خاطرك ياسناء يابنتى •

قال الرجل معترضا بكفه • مستعيذا كأنما يدفع شرا : استغفر  
الله العظيم • أنت حتكفرى ياست أنت • ده انكتب له عمر جديد ••  
أكثر من كده يبقى طمع • يبقى كفر •

واصلت المرأة الكبيرة ابتهالها عن يقين : ويبقى كفر ليه ••  
مادام الانسان بيقصد الرب • مش العبد • ( ونظرت الى القوة العليا  
من خلال السقف ، ترتجيبها ) اكرم منه مقيش • تادر على كل شىء •

- اى نعم قادر على كل شىء • لكن كمان له حكمة فى كل  
شىء •

كان الكلب لا يزال على حالته التلفة ، وكان يروح ويندو فى  
الصالة ، ويمد بوزه من تحت عقب الباب ويتشمم ، ثم ينظر اليهما  
وهو يعوى عواء خافتا متصلا ، ثم يعود فيشب على الباب • يريد أن  
يفتحه ••

فجأة فتح الباب وظهر كمال أدهم : يتقدم سناء ويحيى وأحمد  
زهران • وما ان رآه ركس ، متى بدا عليه اللحظة أنه لا يصدق ثم  
فجأة ، ومن النقيض الى النقيض انقلبته حالة فرح جنونية ، وراح  
يشب عليه ويتفزع ويعصيح بأدبوات بين الناب بعاف : كان بيقن حينا ،  
وحينا آسن يتساب فى الهواء ، وحينا ثالثا يتدورغ فى الأرض تحت

قدمى كمال ، ثم يشب من جديد ، ويقفز الى صدره ويتمسح فيه بعنف ، ويتمسح وجهه وملابسه وينشج نشيج الفرح !

وكان كمال مهتزا باللقاء ، حلم اللقاء الذى تحقق ، نسى كل من معه ، نسى حتى حماته وحماه اللذين انديعا نحوه بهدف العناق . اعتذر لهما بنظرة دامعة ، فياضه بالحب وبالشكر وبالحنان ، ودخل مع الكلب فى اللقاء العنيف . يضمه الى صدره باشتياق شديد ، يريد أن يحتويه ، ويغمره بالقبلات ، يقبله من وجهه ومن جبهته ومن فمه ، ويربت على خديه ويدعك له جسده ، بشعره الطويل الأسود . ويهدده على صدره ، كطفل صغير ويحدثه ، مغمما . بصوت متهدج - ازيك ياركس ، وحشتنى جدا ( ويرد عليه الكلب بصوت معاتب ) . ايه زعلان منى . معلش معلش . خلاص ، جيت لك وحاقعد معاك على طول . . ( ويتحسس لحمه وعظامه ) مالك خاسس كده ليه ( وينظر الى سناء معاتبا فى ود ) فتقول مدافعة :

— ماكنش بيرضى ياكل . اسأل يحيى .

ويؤكد يحيى مسرعا بانفعال :

— فعلا يا كمال . كان راقد على طول قدام الباب . ليل نهار . على أمل أنك ترجع فى أى لحظة .

— يا حبيبى ياركس ( ويضمه بانفعال ) أنا اللي حائكك بايدى من هنا ورايح ، زى زمان .

وبالكاد ، استطاع أن يتخلص من ركس للحظات ، واندفع يعانق حماته وحماه . غير أنه وجد نفسه مجذوبا الى ركس من جديد .

كان الواقفون يرقبون المنظر بانفعال شديد . وكانت أم سناء

وسناء تبكيان • أما أحمد زهران ، ويحيى البدرى والبدرى الكبير ،  
فكانوا – كرجال – يقاومون الانفعال ، ليميزوا عن النساء •

وهز أحمد زهران رأسه ، وقال بصوت خافت كأنما يكلم نفسه •  
– ياسلام على الوفاء •

وقال البدرى الكبير ، بصوته الضخم المتناسب مع ضخامة  
جسمه ، وهو يهز رأسه فى صمت الحكماء :  
– لو البنى آدم يتعلم من الكلاب •

وقالت زوجته ذات الشعر الأشيب المفضض بلهجة ذات مغزى ،  
وهى تجفف دموعها : لو • •

وضحك يحيى لهذه الغمزة من أمه لأبيه • « أين أنت من وفاء  
الكلاب يا بابا • لقد تزوجت على أمنا الغالية هذه أربع مرات » •  
واللقاء بين كمال وأدهم وكلبه لا يزال • وبدأ لسناء أن الكلب  
لو ترك هكذا ، فلن يترك كمال حتى الصباح ، وقد يجهد بحركته  
الدائبة الراقصة العنيفة •

– كفاية بقى كده ياركس • عايزين أحنا كمان نقعد معاه • •  
يا الله تعالى •

قالتها بلهجة أمرة ، وأمسكته من شعره الطويل ، وحاولت أن  
تجذبه إليها ، غير أنه تشبث بكمال ، وبدامن صوته المحتج أنه على  
وشك البكاء •

قال كمال منفعلًا وهو يحتضنه من جديد : سيببه ياسناء • خليه  
معاى شويه ( ويقبله ) سنة بحالها ماشافنيش ولاشفته ( ويضحك )  
أنما أنت كنت بتيجى تزورينى ( ويقول معتذرا للواقفين يتفرجون عليه

هو ركس ) ، لا مؤاخذه يا جماعة • اتفضاوا اقعداوا استريحوا •  
أصله واحشنى • عايز أشبع منه •

وجلسوا ضاحكين ، واستغرق مع ركس من جديد •  
على نحو ما ، غاصت ضحكة سناء فجأة • وتململت فى  
جلستها •

كانت ازاء هذد العلامة تدس بنصه ، ومع هذا المشهود الذى  
يرقبه صديقه زهران واخوها يحبى وامها وأبوها ، كانت تحس بجرح  
حياتها يتقلب عليها : ان يأخذ زوجها كمال من كلب ، بديلا للطفل  
المفتقد ، وأمام الناس بلا أى حرج ( وتهز رأسها بعصبية ) • لا •  
ليس هذا أو ان نبش الجراح • الليلة فرح ياسناء ، علقت له أوراق  
الزينة ، وأعددت له الشرابات • الحبيب عاد ( وتطفو على وجهها  
ابتسامة ) ياما حلمت بهذا المنظر بالذات أيام القلق السوداء • أفرح  
ياكمال بركس وافرح ياركس بكمال • أحيانا تسميه « بالولد » •  
( وتعاودها الغصة رغما عذيا فتحاول الفصل بينهما بحارية ذكية ) :

– انت ناسى السمك ياكمال • مش كنت بتسألنى عنه ١٩

وصاح كمال ، كمن يدفع عن نفسه انهما لا يقبله لنفسه :

– ازاي • أنا من اول لحظة دخلت فيها من الباب ، شفته  
نفته ، وفرحت به • واتجه بنظراته الى الحوض المضىء ، بأسمাকে  
الملونة السابحة • وخضرة الماء والأعشاب ، وفقايق الأكسوجين  
المندفعة من أسفل الحوض ، الى سطح الماء فى خط رأسى ثابت  
لا يحيد ) •

.. ده عايز قعدة طويلة لوحده • سمكة سمكة عايز انوفها  
( وحول نظره فجأة عن السمك ) مش السمك بس • كل حاجة فى  
البيت عايزة قعدة لوحدها •

وراح يدور بعينيه فى أرجاء الصالة : على الأبواب ، والمستائر  
والجدران ، والمكتبة والتلفزيون • حتى لوحات الكانفاه المعلقة على  
الحوائط من شغل سناء !! • ومع أصغر الأشياء التى كانت تلتقطها  
عيناه ، كان يزداد إيمانه ببهجة اليقين • يقين العودة ، لايزال يؤكد  
عودته للحياة • هذه الصالة وحدها تذكره بكل ما كان • هذا البيت  
يجسد له قمة كفاحه فى الحياة وفى الانتصار •

وقالت سناء :

— تعال شوف الترتيب الجديد بتاع البيت •

قال بحماس :

— تعالى ، عن اذنكم يا جماعة • دقائق • آخذ نظرة من البيت •

وأخذها من يدها واندفعا فى مرح • يتبعهما ركس • ومن المطبخ  
الى الحمام • ومن حجرة الصالون الى حجرة الطعام • الى حجرة  
النوم •

معجزة • منذ عام ، خرج من هذا البيت محمولا على عربة  
مخمى عليه ، وقلبه القديم يقوده بخطوات سريعة نحو الموت • اليوم  
يعود • واقفاً على قدميه • يجرى • يضحك • يحتضن الأشياء •  
يحتضن سناء •

— فأكره ياسناء • أول يوم جينا نسكرن فيه الشقة دى ١٩

— كل لحظة من عمرى معاك يا حبيبى فأكراها •

وجذبها فجأة نحوه • يضمها بحنان شديد • كأنما يضم الماضى  
كله الى صدره يضم الحياة التى كانت • والتى ستكون !!

— ربنا يقدرنى ، أسعدك ياسناء •

زغرد قلبها بالفرح • تذكرت وجه الصحفي الشقى • تعال أيها  
الشیطان الخبيث واشهد •

وتملكته رغبة في أن تلتصق بصدرة أكثر • تضغط عليه •  
تحس بقلبه الجديد • غير أنها أحست بالخوف عليه •

وابتعدت قليلا بجسمها عنه ، وشبكت يديها في يديه :

— مجرد وجودك معايا يا حبيبى هو السعادة • أنا خلاص •  
مش عايزه حاجة من الدنيا أكثر من كده • ( وجذبتة في رفق ) •

— لسه البلكونة مداخلتهاش • تعال نشوف المنظر منها ••  
وحشتنى القعدة فيها •

ما ان فتحت سناء باب الشرفة ، حتى اندفعت موجات متتابعة  
من الهواء • قوية وباردة ومنعشة • جذب نفسا طويلا ملا به كل رثيته  
ثم تقدم الى سياج الشرفة ، واستند عليه بمرفقيه ، ومضى ينظر •  
كانت الشرفة عالية بعض الشيء ، منها يستطيع الواقف أن يرى بعض  
ثكنات الجيش القديمة وجامعة عين شمس ومن بعيد أضواء الضواحي  
وأضواء مصر الجديدة والنجوم في السماء • وفيما هو مأخوذ ببقاء  
العالم كما هو منذ أن تركه ، تراءت له فجأة صورة ارتجف لها : رأى  
أنوارا كاشفة في الظلام • وقطع نور حمراء تضيء في السماء •  
وطلقات مدافع ودوى قنابل وأزيز طائرات • وكل شيء يترنح ••  
ويتساقط وينهار • يونيو ٦٧ • الأيام السوداء • وأحس بفزع داخلي  
اذ قفزت له هذه الصورة وأسرعت دقات قلبه وتتابعته أنفاسه :  
وغامت نظراته : البداية ••

كانت تلك بداية تصاعد الأزمة في قلبه • وظلت تتصاعد  
وتتصاعد حتى وصل الى مرحلة لم يعد فيها وسطا : اما موت او  
حياة • الحياة بمعجزة • وحدثت المعجزة • قلب جديد !

ونفض رأسه بشدة يدفع الصورة • وعاد يجذب نفسا عميقا  
يطمئن به على قوة قلبه • « الحمد لله • عاد كل شيء كما كان وأحسن  
•• وكفى اليوم ذكريات » !

## - ٤ -

- أنت يا كمال يا أدهم منتظرك مستقبل عظيم ، وحتشوف •  
قالها أبو سناء فى هدوء •  
رنت الكلمة فى اذننى كمال • نظر الى الرجل العجوز الضخم  
فى فضول •  
واصل الرجل : كلمة عمك البدرى عمرها ما تنزل الأرض •  
( ولوح له بكفه الضخم ) أنت بقيت راجل مبروك ا  
عفوا ، وبلا ارادة ، انطلقت ضحكة من أحمد زهران ، وقال  
بروح مرحة لا تخلو من سخرية :  
- أبسط يا عم كمال • وحنجيب لك سبحة كمان !  
بسط كمال كفه فى وجه الرجل ضاحكا ، ومنزعجا فى الوقت  
نفسه :



– لا ياعمى البدرى • أرجوك سييك من حكاية المشيخة دى ،  
اعمل معروف •

قال الرجل ولم تعجبه لهجة زهران وتفسيره :

– لا ياكمال • مش بالشكل اللى بيصوره الأستاذ زهران ••  
البركة اللى اقصدها حاجة تانية خالص ( ثم لزهران ) أنا عارف برضه  
يا أستاذ زهران ، اننا فى عصر العلم و « التاكنولوجيا » •

تراجع زهران مسرعا ومجاملا : أنا فاهم ياعمى قصدك • أنا  
بس بأضحك معاه •

وابتسم كمال أدهم ناظرا لحميه : متشكر ياعمى • أنفاسك معانا  
باستمرار •

( والتقى بسناء فى نظرة ضاحكة سعيدة ) • هذا الرجل • أبوك  
ياسناء • أبو العواطف والخيال • ضيع ثروته وراء النساء وهم  
الاختراعات • ورغم ذلك ، لم يزل جذاب الشكل ، لطيفا ، وبنيانه رغم  
أنه عدى السبعين كالجبل ، لايعرف اليأس أبدا • يحلم بأيام الماضى  
البعيدة ، أيام أن كان له ثروة ، ولايركب غير العربسة الفورد  
العتيقة •

قال له كمال مجاملا : عامل ايه فى اختراعاتك ياعمى ؟

قال الرجل وقد أطلت من عينيه نظرة يمتزج فيها الغضب  
بالحزن :

– عامل حاجات • حاجات مايعملهاش فى البلد غير عمك  
اسماعيل البدرى ( وزفر ) بعدين • بعدين ياكمال • دى عايزد قعده  
طويلة • أنا وأنت وبس • وأحكلك كل اللى حصل بالتفاصيل •

– ماشى ياعمى • بكره والا بعده •

— لجنتين ياكمال • لجنة من وزارة الصناعة • ولجنة من مجلس البحوث ، جم وعاینوا الجهاز وجربوه •• وقالوا ناجح •• ویوفر •• لكن ایه النتيجة؟! ولا حاجة •• ویقولوا دولة العلم والتكنولوجيا ، !

قال یحیی مسرعا ، ومحوला الحديث عن ابيه خوفا من أن یفتتح فی الكلام فلا یسکت أبدا :

— جرى ایه یاست سناء • احنا مش حنشرپ شربات جوزك والا ایه ؟!

قالت مداعبة : جرى ایه یاسی یحیی • احنا مش حنشرپ شربات جوز اختك والا ایه ؟!

وضحك الجميع نهض زهران فجأة وقال بحماس :

اقسم بالله ماحد موزع الشربات غیرى •

یاصدیق العمر •• اقسمت أن تقود العربیة من المستشفسی الى البيت ، وتقسم الآن على توزيع الشربات !! كثيرا ماقدو ورغم التجاعید ، والشعر الذی شاب ، كالأطفال !

كيف ارد لك الجمیل ؟ • الأيام بیننا قادمة یازهران •

وحینما توجه الثلاثة الى المطبخ ( سناء ویحیی وزهران ) نهض الرجل العجوز من جلسته واقترب منه :

— عایز أقول لك حاجة یاكمال ، ماتنساهاش فی أى لحظة •

— اتفضل یاعمی •

— خدها واحدة ، واحدة •

— هی ایه ؟!

- الدنيا • الحياة • ماتجريش ورا حاجة أبدا • كل حاجة  
حتجيك لحدة •
- المهم حافظ على نفسك ياكمال •
- من أى ناحية ياعمى ؟!
- من جميع النواحي • ( ولوح له بأصبعه الضخم ) انت التراب  
فى ايدك ممكن يبقى دهب •
- دهش كمال للمبالغة ، أوشك أن يضحك • الا ان احساسا قويا  
خفيا مال به الى الرغبة فى التصديق • أن يصبح التراب فى يده ذهباً  
•• هكذا ، دون عناء !! كيف ؟! ما الذى حدث لى • لا شىء غير  
القلب الجديد • هل ثمة سحر حدث ؟!
- وتنبه لنفسه • وقال وهو يضحك •
- ازاي ياعمى التراب يبقى فى ايدى دهب •
- أنت بتضحك ؟! • ( وهز رأسه الضخم ) بعدين ياكمال ••  
بعدين •• لنا قعدة طويلة مع بعض •
- كيف يفكر هذا الرجل • وما الذى ينويه معه ؟!
- كانت سناء ويحيى وزهران ، قد خرجوا من المطبخ ، حاملين  
الأكواب والشربات • ناشرين حولهم جوا من السعادة والمرح •
- وفى دقائق ، كان قد بدأ الاحتفال •
- أمسك ، كل واحد بكوبه ، وبادر أحمد زهران قائلاً بصوت عال،  
كانما يخاطب جمعا ضخما من الناس •
- فى صحة كمال أدهم • فى صحة القلب الجديد • فى صحة  
الحياة الجديدة اللى منتظراه •• ومنتظرانا كلنا معاه •



وصاحت حتى علا صوتها على جميع الأصوات ، وبشكل يقترب من  
الهستيريا •

– فى صحة الدكتور. العظيم : • أعظم دكتور فى بلدنا • وفى  
العالم كله •

قال « يحيى » منبها بابتسامة جادة •

– لا يا سناء • حاسبى شويه من فضلك • فيه الدكتور برنارد  
• • أول طبيب فى العالم عمل العملية بنجاح ( وصاح ملوحا بكوبه ) :

– يجب ألا ننسى الرواد • • •

– فى صحة الدكتور برنارد : • • •

صاحوا مرددين فى سعادة •

– فى صحة الدكتور برنارد •

وشرب الجميع النخب ضاحكين مرحين •

كانت سناء قد قررت بينها وبين نفسها ألا تسقط مرة أخرى فى  
هذا الوهم الكريه • يجب أن تعطيه الحق فى الاحساس بالجميل • •  
يجب أن تخجل من نفسها لو استسلمت مرة أخرى لهذا الشعور •

فما القلب !؟

نعم • ليس للقلوب صلة بما يسمى الحب • لو كان الانسان  
لا يحب الا بقلبه ، فكيف • • كيف يحب كمال بقلب رجل آخر ، كلبه  
ركس ، كل هذا الحب من أول لحظة راه فيها ؟ • ان الحب يستيقظ  
فيه أول ما يرى الأشياء القديمة • من أين اذن يستيقظ الحب فيه •  
الحب ينبع فيه من مكان لم يمس • لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل •  
الجب ليس من القلب • من أين ؟ من أين ؟

من أين ينبع الحب فيك •• أيها الانسان !  
وحين نهض الجميع مستأذنين تهدج صوت كمال وهو يقبلهم  
من جديد ، ويشكرهم بانفعال • وأوصلهم الى الباب •  
ونزلوا ••  
قفلت سناء الباب •  
أصبحا وحدهما في الشقة •  
الاثنان • لأول مرة بعد الغياب •  
ليلتنا الأولى ياكمال • ( والتقت النظرات ) • يداك في يدي •  
غير أنها فوجئت بالكلب ركس يهز ذيله ، ثم يشب بين ذراعي  
كمال •  
كان الغريم الصغير الأسود ، يقف لهما بالمرصاد •  
إنها ليلته الأولى - هو الآخر - مع صاحبه الذي عاد الى  
الحياة •

- ٥ -

أثبت ( ركس ) أنه كلب حساس ، وذكى ، ويعرف الأصول .  
نزل من بين ذراعى كمال ، تاركا الفرصة لسناء ، وتوجه الى مكانه  
تحت أحد المقاعد ، وراح ينظر الى الاثنين فى هدوء .

وابتسم كمال لسناء وقال :

- شايقة عنده ذوق أزاي .

وضحكت ، ولم ترد .

كانت تتأمله كله ، من شعره ، الى قدميه ، تقنع نفسها أنه عاد  
فعلا ، وأصبح معها فى بيته . يملأ الفراغ بهيكله ، وبأنفاسه ،  
ويحركاته . كان البيت ، بل والحياة كلها ، بدون خرابا . وقتامة .  
مرة أخرى ، وكأنما هى لحظة اللقاء الأولى بعد الغياب ،  
وبكل ذرة فيها :

- حمدالله على السلامة يا حبيبى .

ولم يجد الكلمات • جرفه الحنين إليها • مد يده بكل ذراعيه إليها • مدت يديها هي الأخرى ، بكل ذراعيها إليه • تقدم كل منهما نحو الآخر خطوة • خطوة واحدة لا غير ، تعانقت بفضلها الأيدي ، وبقيت بينهما مسافة • تعطى لكليهما الفرصة أن يرى الآخر • جيداً ! وكانت سناء بتسريحة الشعر التي يحبها ، والتي تكشف عن أحب ما فيها الى عينيه • رقبتها الطويلة الملفوفة ، بأذنيها ، ثم خديها البارزين الملفوفين أيضاً في تناسق مع لفة رقبتها ، و • وهذا البريق من عينيها ، عينيها العسلية حين تناديه ، نداءها الحى الصامت • كلها ، كلها جميلة ، سناء ببشرتها السمراء ، وحتى بذلك الازهاق الذى يبدو عليها •

وجذبها فجأة اليه • أخذها في حضنه ، ومضى يضمها بحنين ويمرغ وجهه في شعرها ويتشمم بعرق • الرائحة الجميلة ، لاتزال تهب • تملأ الأنف والصدر •

وغمغم وقد امتلاً بالرغبة •

— ريحة شعرك اللى باحبها ••

واكتسحتها هي الأخرى رغبة في أن تلف ذراعيها حوله ، وتضمه بشدة ، تغيب فيه ، تنسى تعب العام • عام الفراق والحرمان واليأس • تروى الأرض التي عطشت طويلاً •

غير أنها كانت واقفة بين ذراعيه بحساب ، حساب أنثوى ذكى ، وحساس •

كانت حريصة أن يظل عقلها مستيقظاً ، ومتنبها تماماً • لا تنسى نفسها • كلمات أبيها الضاحكة الشقية • واحدة • واحدة



ياسناء • وكلمات الطبيب الجادة « أنا دورى . انتهى يامدام •  
دورك أنت ، من النهارده ، بيتدى •

كانت قد قررت بينها وبين نفسها ألا يحدث الليلة بينهما شىء •  
يجب أن تتصرف معه - كرجل - بحساسية وذكاء • ألا تسمح للطبيب  
أن يتصاعد إلى مرحلة لا يمكن معها التراجع • أنها تعرفه • لحظات  
التوهج والانتفاض • لا • قلبه الجديد لا يحتمل • لن يحدث أى  
شىء : لمساتك ، انفاسك التى تتردد ، صوتك الذى يملأ البيت ، هذا  
هو كل ما أريده • كل ما أشتهيه •

ومرت بشعرها على ذقنه ، كطفلة ، وبحركة رشيقة ولطيفة ،  
خرجت من صدره ، وتراجعت إلى الوراء خطوة • وتناولته من يديه •

- عايزه أفضل شايفك قدامى • كده وبس •

وابتسم لها • مدركا حركتها • كان يقرأ أفكارها • واستراح  
لتصرفها • كان هو الآخر قد قرر مع نفسه ألا يغامر الليلة بشىء •  
يجب أن يكون فوق مستوى النزوات • جميل أن يلتقى الرجل والمرأة  
فى الفكر ، دون كلام • وأحس باحترام بالغ نحوها • لم تسبب له فى  
أى يوم من الأيام أية مشكلة جنسية • كانا مثل الصوت والصدى •

وجذبها ، مرة أخرى ، إليه وقال :

- مش عارف من غيرك ، كانت حياتي يبقى شكلها ايه •

وضمها بعنف • وأحست بنهديها ينضغان فى صدره •

الدبيب • الخدر الممتع • تود لو تترك نفسها وتنساب • ذكريات  
للجسد تثير • كم كان لهما زمن ليال فى هذه الصيالة : فى كل مكان

من هذا البيت ، وفى كل حجرة ، لهما نكرى بهجة انتفاضة • أو  
غيبوبة التحام •• و ••

العقل ياسناء •

وانسلت من صدره بلطف •

وجذبتة من كفه •

— تعال بقى نغير هدومنا دى • وحشنى منظرى بالبيجامة •

— وأنت • وحشنى منظرى بقميص النوم • الروز بالذات •

هزت كتفها فى دلال أنثوى •

— يا خسارة ، مش موجود •

— ليه ••

— عند المكوجى ••

تروغين يا •• شقية ••

وضحكا ••

وما ان هما بدخول الحجرة ، حتى أحسا بالكلب ركس ، يأتى  
وراءهما قفزا • استدار كمال • ولوح بأصبعه محذرا •

وخاطبه بشكل آمر جاد •

— ركس •• ارجع مكانك ••

انصاع ركس للأمر • طلا رأسه الى الأرض ، واستدار  
منسحباً الى مكانه فى هدوء •

كانت سناء قد سبقته الى الدولاب ، وفتحته • وأخرجت له

ببجامة • ونظرت اليه • كان يتأمل الحجرة • حجرة النوم • كأنما  
يراهم لأول مرة • يراها بتفاصيلها • وامتنعت عيناه على السرير •  
هذا السرير دعوة الى الراحة بعد المشوار المجهد الطويل • وراح  
يتحسس طراوته • كانت سناء قد جدت الحشيتين •

وقال وهو يجلس على طرف السرير •

— سريري العزيز ده • وحشتني النومة عليه •

وبحركة عفوية ، تمدد عليه •• ببدلته وحذائه • بطول قامته ،  
وأغضض عينيه :

— ياسلام • دانا الليلة حانام نوم ••

— حقتام يا حبيبي •

وراحت تفك له رباط حذائه • وبرغم انه كان يكره ان يتعامل  
أحد مع حذائه ، الا انه استعذب منها هذا التصرف •• وأحس بقدميه  
تتحرران •• ووضعت الحذاء اسفل السرير • وحين رفعت قامتها  
وجدته يمد يده اليها ، وبصوت هادئ خافت :

— تعالى جنبى •

— واحنا كده ؟ ( وأشارت على بدلقه وفستانها )

— معلش • عايزك جنبى ويس •

طمأنها صوته وأحست بسعادة • لأشياء هذه الليلة غير الحب  
نشوة الحب • ورائته يمد ذراعه الأيسر بطوله على السرير ، على  
شكل وسادة •

الحياة تعود من جديد ياسناء • لم ينس نومتنا الحبيبة ••  
المفضلة •

منذ أول ليلة من زواجهما • جعل من ذراعه وسادة لرأسها •  
وفى صمت صعدت الى السرير • تمددت بجواره • وألقت  
برأسها فى هدوء على ذراعه • بجوار صدره • أحست بخدر ينتشر  
فى كل جسدها • وبتعب النهار • بتعب العام • بل تعب الأعوام  
كلها يتحلل •

– نفسى أفضل كده للصباح • من غير أى كلام •

حل صمت عميق • أغمضت عينيها ، وودت لو تنام • تروح  
فى النوم – هكذا فوق ذراعه ، ملتصقة بصدرة كطفلة ، احساس  
عميق بالأمان تشعر به • وأحست بصدرة يعلو ويهبط بانتظام •  
•• ووجدت نفسها توحده أنفاسها مع أنفاسه • كيان واخذ • نفس واحد  
•• واستنامت • فجأة ، سمعت صوتا آخر • سمعت قلبه يدق •  
اعترتها رجفة • وتنبت الى أن رأسها على القلب تماما • مكان  
العملية • وفكرت ، أشفاقا ، أن تنقل رأسها بسرعة • بعيدا • غير  
أن قوة القاهرة أبقته على رأسها بأذنها فى نفس المكان • لأول مرة  
تسمع دقات هذا القلب الجديد • القلب الذى ليس هو بقلبه • كيف  
يدق • ما الفرق بين دقاته ، ودقات القلب القديم الذى فصل عنه ؟

وبحركة خائفة ومختلصة ، راحت تصيح السمع •

أسرعت أنفاسها ••

كانت الدقات تعلو فى سمعها وتعلو ، واستهلكت هذا الذى  
حدث بالفعل • غريبة دقات هذا القلب • ليست دقات قلبه القديم •  
كان القلب القديم يتألم • أحست برغبة عميقة فى البكاء كأنما كان لها  
طفل صغير • ومات ! كم احتوته أيام الآلام • وهددته • لم يضعف  
الا فى السنوات الأخيرة • وكان كلما ازداد ضعفا ، ازداد النشاقا  
بها • وطلب مزيدا من الحنان •

ما الذى تنوى فعله بنا ايها القلب الجديد . قلب الرجل الآخر  
الذى مات . ؟! ولاحث لها فجأة الزوجة الأخرى . يرجعها الأبيض  
الشاحب الرقيق الملامح ، وعينيها الحزینتين الواسعتين ، وثياب  
الحداد السوداء . أيمكن أن يظل هذا القلب ، وفيها لها . يدق  
بحبها .

— ايه ياسناء . شلت راسك ليه . ؟!

— أبدا . مش عايزه أتعبك أكثر من كده ؟!

— تتعبينى من ايه ؟!

— ( وارتبكت ) أبدا — ( وضحكت ضحكة خفيفة بعصبية )  
اصل سمعت دقات قلبك .

قال منتبها بلهفة وقلق :

— سمعت ايه . قوليلى .

— تك . تك . تك . تك . تك .

وضم رأسها من جديد الى صدره .

— اسمعى من ثانى وقوليلى . ايه الفرق بين دقاته ودقات  
القلب القديم .

أحست فى صوته بالحنين ، وبالحزن على شيء عزيز راح .  
مهما كان مصدرا لعذابه ، الا انه كان قلبه ، قطعة من حياته . عاش  
بها كل السنين الماضية .

ارتفعت نبرة الحنين فى صوته . حنين ممتزج بخوف وقلق .

يا الهى . هل يمكن حقا أن نتذكر بالضبط ، ونقارن ؟! شعت  
أمام عينيها ذكريات ساطعة لا تنطفىء أبدا : فى الصيف ، أحيانا فى

هذه الغرفة البحرية ، وفي عز ضوء النهار • وهما عاريان • كانت  
تسند رأسيها بشعرها على صدره العاري وتقمطر بخديها ، ثم تقول  
فجأة منتشية :

— كمال • أنا سامعه قلبك بيدق •

وكان يقول لها بابتسامة هادئة ومنتشية :

— بيدق بيقول ايه •

فتقول :

— باحبك •• باحبك •• باحبك ••

زمان • كان يحدث هذا • هل حدث الآن تغيير ؟ انه يسأل  
عن الفارق بين الدقات • ام ليس هناك فارق ؟ ينتظر منها الجواب ،  
بشغف وقلق • ودت لو تقول : مفيش أى فرق !

ولكن كيف • والذي حدث ؟ يجب أن تعطيه اليقين بما  
حدث • يجب أن يواصل فرحته • يودع عهد الألم !

— فيه فرق طبعا ياكمال • فرق كبير كمان •

وبلهفة أشد ، ودون أن يتململ فى وضعه قيد انملة •

— ايه هو الفرق ، قوليلى • بالطبط •

— قلبك ده دقاته اقوى • ومنتظم اكثر • واوضح •

وارتعش صوته بتأثرا • وفرحا •

— ازاي ؟ بيقول ايه ؟



## - ٢٩ -

و، نفس الليلة ، كان قد أعلن الخبر . فبعد أن اطمأن الطبيب لسرية خروج كمال أدهم من المستشفى ، وعودته الى بيته بقلبه الجديد فى أمان وطمأنينة ، أعلن الخبر على الصحف اليومية ، فكان ذلك بمثابة الاعلان الحاسم والنهائى لنجاح أول عملية زرع قلب فى بلادنا .

وكان خليفنا بهذا الحدث العلمى الضخم ، أن يكون عنواننا رئيسيا كبيرا لجرائدنا الصباحية ، لولا أن صادفه فى نفس اليوم ( ويا له من قدر ) حادث ضخم آخر ، كانت البلاد تتأهب له منذ فترة ، وهو اعلان موعد بدء انتخابات أول مجلس نيابى يأتى بعد التحرير ، فجاءت المانشيتات الحمراء الضخمة كلها تقريبا واحدة :

بدأت أخطر معركة انتخابية .

واحتلت أخبارها ، والاستعدادات الحامية لها عبر محافظات الجمهورية ، صفحات الجرائد كلها .



لهذا • جاء خبر خروج كمال أدهم وعودته الى بيته بقلب جديد • خبرا بسيطا متواضعا • ومع هذا فى الصفحات الأولى • مقترنا بصورة صغيرة له • وهكذا غطت السياسة على العلم فى ذلك اليوم بشكل واضح •

وربما كان هناك عذر لذلك فى نظر المؤرخين والمراقبين والسياسيين القدامى • اذ كانت كل الظواهر تؤكد أنها ستكون معركة انتخابية من نوع جديد لم تشهد لها البلاد من قبل مثيلا طوال تاريخها الطويل • فنحن ( بالخيال ) بعد سنة ١٩٧٠ ووصمة احتلال سيناء زالت من على الجباه • غير أن الجرح كان قد غار فى النفوس • والشعور العام هو التكفير عن الذنب بالعمل ، وبسرعة ، لمحو كل خطايا الماضى ، والا تعود نكسة من جديد ! وكان التنظيم السياسى الكبير الموحد ، الذى انتظم كل المواطنين طوال مرحلة التحرير قد ظل بتناقضاته وعيوبه يقود الجبهة الوطنية • حتى تم الجلاء وخلا البيت على أصحابه ، واذا بالتناقضات والخلافات التى جاهدنا فى اخفائها أو تأجيلها من أجل الهدف الأعظم تبدأ فى الظهور وفى الانفجار : مجسدة على شكل سؤال حاسم ومحدد وخطير : ماذا بعد سيناء ! الى أين نمضى • الى أين نسير ؟! (\*) •

وكان يمكن لهذا السؤال أن يكون غير شئ موضوع لولا أن قيادة التنظيم كانت قد انقسمت الى كتلتين رئيسيتين واضحتين • • صحيح أن كليهما يحمل شعار الاشتراكية وينادى بتطبيق الميثاق الا أن كليهما كان له - فى التطبيق - تفسيره المختلف تماما عن تفسير الآخر ، مما يؤدى الى نتائج خطيرة • وبدأ للكل بتحديد موعد الانتخابات ، أن الألوان قد آن لكى يطرح الخلاف علنا وبصرامة أمام

---

(★) كتبت هذه الرواية قبل تحرير سيناء بخمس سنوات •

الشعب ليقول كلمته ويختار هؤلاء الذين سيحملهم مسئولية قيادة المرحلة الجديدة .

هكذا ، فى ذلك اليوم التاريخى طارت الشرارات الأولى للمعركة ، فأخذت اهتمام كل المواطنين ، وغطت على خبر خودة مريض القلب « كمال أدهم » الى بيته بقلب جديد سليم !

كان جالسا يتناول افطاره بشهية مع سناء ، ويطعم كلبه ، ويضحك مع سناء ، ويتحادثان عن تلك الليلة الرائعة الغريبة التى ناماها معا بملابسهما حتى الصباح . كان وجه كمال يشع بالسعادة . كان سعيدا بأنه لم يتأثر صحيا بما حدث . بل العكس هو الصحيح . كان يحس أنه ازداد صحة وانتعاشا . ورجولة ! . كان يقوم ، ويقعد ، وكل شىء تقع عليه عيناه فى البيت فى ضوء النهار ، يتذكر قصته ، ويذكر بها سناء . وكان الجو يميل الى الحرارة ، فتذكر ايضا فكرة المصيف ، وراح يتخيل نفسه مع سناء ، و « ركس » يجرون على البلاج ، ويستحمون . ويشمون الهواء . الهواء المالح ياسناء . ورائحة السمك الطازج فى الهواء . آه . ما اخف وزن الحياة . أود أن أطير .

كانا سعيدين . وكانا يضحكان ، حين سمعا فجأة ، حفيف الجرائد وهى تنزلق مندفعة من تحت عقب الباب ( وتلك كانت العادة قبل أن يذهب الى المستشفى وأبقت سناء على العادة فى غيبته ) . كانت فى جلستها أقرب الى الباب . فنهضت من على كرسيها بسرعة ، وتلقفتها . أعطته جريدين وأبقت معها واحدة وراحا ينظران .

للهولة الأولى . لم تلتقط عيونهما شيئا . وبدا على وجهيهما نوع من خيبة الأمل . غير أن سناء صاحت فجأة بفرح ، وهى تلوح بالجريدة :

– الحق يا كمال .. لك صورة ..  
اندفع نحوها بلهفة : فين .. ورينى ..  
ومد يده لياخذ منها الجريدة تفهقرت خطوة بجريدتها ، متشبثة  
بها ككفلة .

– استنى لما اقرا التعليق اللى تحتها .  
ومضت تقرا بصوت سارح .. كلمة كلمة ..  
« الرجل الذى عاد الى الحياة » ..  
بقلم مصطفى سيف . انظر اليوميات .  
رن اسم الكاتب فى اذنيه على نحو بهيج .  
– مصطفى سيف ..

واحس بدقات قلبه تسرع ، وانفاسه أيضا . خطف الجريدة  
منها ومضى ينظر فى صورته . ورغم أنها كانت صغيرة ، الا أنه  
سعد جدا بها وود لو يظل ينظر اليها . لكنه كان ملهوقا لأن يقرأ ماذا  
كتب عنه .

كان قد فرح لأن مصطفى سيف بالذات هو الكاتب . وتلقائيا  
برز له وجه أحمد زهران . عن طريقه تعرف أول ما تعرف بـ مصطفى  
سيف . فالاثنتان ( زهران وسيف ) لهما ماض واحد مشترك ، واتجاه  
فكرى واحد ، الا أن مصطفى سيف ، أديب وفنان أكثر منه سياسى ،  
وله قصصه ومسرحياته . ثم تطورت علاقتهما ( كمال وسيف ) حتى  
استقلت تماما عن زهران .

وبلهفة ، قلب على « اليوميات » ومضى يقرأ فى سره بشغف .

كانت سناء ترقب التموجات التى تترى على وجهه وهو يقرأ ،  
وتذكرت فجأة وجه الصحفي محرر مجلة أضواء الليل •

ايمكن أن يكون مصطفى سيف ، قد تناول عملية نقل القلب ،  
بنفس الطريقة السخيفة الشريرة ؟!

أن يضربها بالزوجة الأخرى “

لا •• مصطفى سيف انسان جاد • يوثق فيه • قرأت له من  
قبل بعض المقالات • وشاهدت احدى مسرحياته فى التلفزيون •  
افكاره على مستوى راق • ونظرت له للمرأة فى تلك المسرحية بالذات ،  
كانت راقية ، حتى أنها طلبت ليلتها من كمالو ان تراه • لكن الظروف  
لم تساعد •

ترى •• من أى زاوية تناول الموضوع ؟ •

كان قد انتهى من قراءة الكلمة ، وناولها الجريدة • قال بصوت  
منفعل •

— كلمة غريبة وخطيرة • اقربها ، وبعدين نتكلم فيها ••  
وعقد ذراعيه خلف ظهره وراح يتمشى سارحا ، فى الصالة •  
كان وقع الكلمة على نفسه مزيجا من الفرح والقلق والخوف  
والرهبة •

كانت الكلمة أشبه بحجر القى على سطح بحيرة رقراقة صاغية  
وادعة ، فاضطربت حركتها ، وقفزت الى السطح أشياء وأجسام  
كانت قد استكنت فى القاع ، وبدت وكأنها قد نسيت للأبد !

كان مصطفى سيف قد ربط بين نجاح عملية نقل القلب ، وبين  
عملية انتخاب أول مجلس للشعب يأتى بعد التحرير • قائلا : ان هذه

العملية الأخيرة ، يجب أن تكون بمثابة نقل قلب جديد من نوع آخر ، الى الأمة جمعاء ، لنواجه به مرحلتنا الجديدة الخطيرة : مرحلة ما بعد التحرير • وأنه إذا كنا قد نجحنا في هذا ، في مجال العلم ، فخليق بنا أن ننجح فيه أيضا في مجال السياسة ! • أن نجاح هذه المعجزة ، مجسدة في شخص المواطن والصديق كمال أدهم ، يجب أن يكون فاصلا بين عهدين : عهد غلب عليه طابع الفردية والتراكم والسلبية والتهرب من مواجهة الحقيقة ، وعهد يغلب عليه طابع الفكر العلمي ، والروح الجماعية والقومية ، والصراع الحر المقترح ، مع الثقة بقدرات الانسان الذي أصبح حلمه اليوم سكنى الكواكب والنجوم •

ان تحرير سيناء لم يكن في يوم من الأيام هو الهدف النهائي ، واذن بتحقيقه انتهت كل المشاكل والهموم • بالعكس: ان مشاكل خطيرة ومصيرية تعلن عن نفسها ، وتطالب بمواجهتها بشكل سريع وواضح وصريح •

ان الاستعمار لن يتركنا في حالنا ، الا اذا جمدنا الثورة واكتفيننا بهذا الشوط • فهل نكتفي ؟ أم نمضي في الطريق ؟! هذا هو السؤال الذي يطرح نفسه في الانتخابات القادمة • غير أن المجتمع الذي نجحت فيه عملية نقل القلب وتفتحت عيناه على أعظم الآمال ، لن يرضى بالرجوع ! • ان كل من يعرف قصة مرضى المواطن كمال أدهم ثم شفائه ، يعرف أنها قصة مرحلة مثيرة من مراحل الوطن •• والثورة ••

اتمنى أن أكتبها • في يوم من الأيام •

صديقي كمال •

لقد اختارك القدر لكي تكون رمزا لبدء عصر جديد في حياتنا •  
حافظ لنا على قلبك المقدس • وتهانينا القلبية • ليس لك وحدك أنت  
وزوجتك الطيبة • بل للوطن كله • العالم كله يهنئ نفسه • عالم  
الأخيار وليس عالم الأشرار • انحنى احتراما للطبيب العظيم • هذا  
هو نوع الرجال الذي يجب أن نذكرهم ونحن نختار للمجلس القادم •  
والى اللهاء أيها الصديق العزيز •• امضاء •• « مصطفى سيف » •

كان الوقع العام للكلمة عليه مفرحا بقسوة ، مثيرا للزهو الى  
حد طاغ • وكانت أنفاسه تتلاحق رغما عنه • وتشابكت فى رأسه  
الأفكار والمعانى • وأحس فجأة برأسه يثقل واختلطت الرؤية فى  
عينيه • وتملكه خوف شديد : لا • لا يا مصطفى ياسيف ، وأنت أيضا  
يا أحمد يازهران ، قلت لى مرة أن قلبى هذا هو قلب الشعب • لا •  
أرجوكما • ابعدا السياسة عنى • أنا لست رمزا لشيء ولا يحزنون •  
أنا رجل أريد الهدوء • لم أعد أريد فى العالم غير الصحة • أتنفس  
الهواء براحة •• وعمق •• مجرد الاحساس بانى أعيش ، وأرى  
الدنيا ، هذا يكفى • لا أريد من الدنيا غير صحتى • ومصنعى •• و •

غير أنه وجد عينى مصطفى سيف ، بخضرتها الغامقة البراقة ،  
ككشف يكشف عما فى النفوس وينظر له فى عتاب •

— هل نسيت ياكمال ، ذلك الصباح الأغبر بالذات ؟

وانقذت عن عيني كمال غمامة •

رأى نفسه يندفع اليه فى مكتبه بالجريدة • كانت العاشرة  
والنصف صباحا • عقب ضربة يونيو مباشرة ، وكل شيء يبدو وقد  
تساقط وانهار • حتى الناس فى الشوارع كانوا يترنحون ، ويكلمون  
أنفسهم من هول الصدمة • ودخل عليه مكتبه • كان سيف هو الآخر  
شاحبا زائغ العينين • قال له وهو يلهث :

– البلد تححصل فيها مجاعة يامصطفى •

• وبابتسامة جادة ، لكنها تنضح مرارة •

– بلاش تشايعم للدرجة دى يا كمال !

وأوشك أن يصرخ فيه : على أى أساس ماتشائمش ؟

– عشان مش واقفين لوحدها • فيه لنا أصدقاء كثير ،  
مخلصين ، وبالذات الدول الاشتراكية ، مش ممكن حيسيبونا لوحدها  
فى المحنة • مش ممكن يسيبوا المنطقة كلها ترجع فى غمضة عين  
للاستعمار • وتبقى قواعد عسكرية ضدها • مش ممكن !

فى تلك الأيام • كانت حركة السوق ، والتجارة ، قد كسدت الى  
حد كبير ، ولم يعد ثمة بيع أو شراء • وكان يلوح لكمال – ليل نهار –  
شبح مروع مخيف • قفل المصنع ، وتسريح العمال ، واشهار الافلاس ،  
والعودة الى ابام البؤس والضياع !

وبدأت أزمة قلبه ، تتقلب عليه ، وتزداد !

غير أن مصداق ، سيوف كان دائما يمثل له الأمل • والأمان  
كان الاحساس بالأمل فى تلك الفترة فوق طاقة البشر ! ولهذا ، كان  
يجد نفسه كل ليلة ، مدفوعا لأن يمر بعربته على مصطفى فى جريدته  
ثم ينطلقا وحدهما ، أو مع صديقين آخرين من أصحاب المصانع ،  
ليتكلموا فى النكسة ، وأسبابها ، وكيف ، كيف لابد أن نتلاحم  
ونتخلص ، حتى نقف على اقدامنا دن جديد : كلنا • كانا • انها  
مسألة موت أو حياة للجميع ••

ونخرجنا من أيام النكسة ، صديقين حميمين • كاتب تقدمى  
رصاحب مصنع نسيج !

غير أن كمال أدهم كان قد خرج أيضا من النكسة بأزمة قلبية  
عنيفة ، راحت آلامها تتصاعد وتتصاعد ، حتى لم يعد يتخيل الراحة  
الاقى الموت ، وحين لاحت له فرصة العملية ، قبل فوراً بالمجازفة ،  
وكانت المعجزة ، معجزة الشفاء بقلب جديد سليم • وكان بطلها الأول  
علم الطبيب المتكامل الدقيق !

فى غمرة الفرح بالشفاء والعودة الى الحياة كان قد نسى كل  
هذا •• ها هو مصطفى سيف يفجر الماضي ، ويعطى أزمة قلبه ثم  
شفائه نوعاً من الرمز •• يا له من تفسير ضخم وخطير ١٩ • وأحس  
بميل عميق للاقتناع بهذا التفسير ، وانتابه إحساس عميق بعظمة  
الذات ، وداعبه — على نحو ما — حلم غامض سعيد !

وقال منفعلاً لثناء ، وقد انتهت لتوها من قراءة الكلمة ••

— هيه ايه رأيك ١٩

وردت على الفور :

— كلمة كويسة طبعاً • ( وابتسمت باعتزاز وثقة ) وبهينينى  
أنا كمان •• مصطفى سيف كاتب ممتاز • وأفكاره راقية •

وفكر فى نفسه : لو أن سيف نسى أن يهنئها ، هل كان رأيها  
فى كلمته سيتغير • لكنها تتكلم عن أفكاره الراقية • على كل حال •  
هى لا تفهم كثيراً فى السياسة •

قالت : بس ليه محمل كلمته حاجات كثيرة ؟

— ازاي ١٩ •



- حكاية انك رمز للخروج من النكسة (وابتسمت كأنما تعتذر )  
لا ياسى كمال ، لازم يحاسبوا عليك شوية •

ضحك عاليا بفرح •

- مانت عارفة مصطفى «سيف» راجل بتاع قصص ومسرحيات،  
وخياله واسع • نفسه يكتب قصتي • ( وهذا صوته ) كانت بيننا  
أيام لا تنسى !

وفرحت بفرحته : يا الله كمل فطارك •

- خلاص •• شبعت •

- لا ياسى كمال ، لازم تتغذى كويس • انت فاكرك الدكتور  
موصيني عليك ازاي •

ونظر فى عينيها مداعبا :

- واذا ما كانش الدكتور ، ماكنتيش حتمالى فى •

اندفعت اليه بفيض من حنان وشوق •

- ياخبر •• دانت حياتى ••

وقبلها فى خدما ••

- أنزل بقى أشتريك حاجة طازة تتغدى بها • حا اكلك النهارده  
فراخ ايه رأيك ؟ •

عظيم •• عظيم •• نحن فى الانتظار ••

وكأسعد زوجة فى العالم . مضت بخطوات مرحة الى حجرتها  
لترتدى ثوب الخروج وبقى جالسا وحده فى الصالة • وجد نفسه  
مجنوبا لذفس الجريدة ، وراح ينظر الى صورته • يتأملها على مهل  
وفرح بنفسه • وضحك اذ ضبط نفسه يعقد مقارنة بين صورته .

وصورة لوزير التموين كانت منشورة فى نفس الصفحة : نعم • لست  
أقل منه وجاهة • واحتراما ! كم ألفا رأوا اليوم هذه الصورة • ؟

وصعدت عيناه الى المانشيت الأحمر الكبير • « بدأت معركة  
الانتخابات » ودار رأسه •

ماذا لو دخل الانتخابات • يدخل بهذا الشعار « الرجل الذى  
عاد الى الحياة » عنوان كلمة مصطفى سيف • انتخبوا كمال ادهم ،  
ليناضل معكم ، من أجل حياة أفضل • سيتحمس سيف بالتأكيد لترشيحه  
أيضا سيساعده أحمد زهران • سيكون شعار زهران فى الدعاية له  
« قلب الشعب » • انتخبوا الرجل الذى عاش بفضل قلب رجل من  
أبناء الشعب ، ليحقق آمال الشعب •

واحس بارتعاشة •

لن ينجح فقط ، بل سيكتسح • سيكون لدخوله الانتخابات وقع  
السحر والخيال • وهذا الشعب مفرم بالخيالات والسحر والأوهام •  
و • ولكنى لن أضحك عليه • سأكون مخلصا جدا ! ورأى نفسه  
نائبا فى المجلس • يقف على المنصة ويقول : ماذا ستقول يا كمال •  
ماذا سيقول قلب الشعب ١٩ •

ومضى يقلب فى الجرايد التى لم يكن قد فتحها : كيف تسير  
السياسة فى البلد ، وفى العالم • فجأة ، وجد نفسه مجذوبا لقراءة  
عمود صغير تحت عنوان « رأى » •

ومن أول سطر ، وجد أنفاسه تكاد تنسحب منه ، ودقات قلبه  
تسرع وجبهته تنفصد عرقا : لا • لا • لا •

كيف يحدث هذا • ١٩ ! كيف يسمح بنشر هذا الكلام ١٩ وأريد  
وجهه وانتابته ارتعاشة غضب •

كانت الكلمة صغيرة حقاً ، وليس فيها اسم كمال أدهم بالذات •  
الا أنها بالطبع تقصده : ان عملية زرع القلب ، ليست سوى عملية  
تحد من الانسان للاله • ان لكل أجل كتاباً كما هو معروف • وأفاقون  
كافرون من يدعون لأنفسهم صفة من أهم صفات الله تعالى جل جلاله ،  
فينسبون الى انفسهم القدرة على اطالة عمر الانسان !

ان التحدى الحقيقى لهؤلاء « العلماء » المغرورين ان يطيلوا عمر  
الانسان المريض بقلبه هو نفسه • لا بقلب انسان آخر ضحية ! ان  
الذين يقبلون العيش على حساب الآخرين لا يصح ان يعتبروا انفسهم  
أحياء • ويوما سيكون فى انتظارهم الحساب ، هول الحساب !  
« فهمى عبد الغفار »

هزته الكلمة حتى النخاع ، وانتابه شعور بالرهبة والخوف  
والسوداوية •

ورأى ثمة قاتل خفى ينهال عليه طعنا • ما هذا الذى يحدث ،  
منذ لحظة كان رمزا للخروج من النكسة • اما الآن ••

وأوشك أن يصيح على سناء • لكنه رآها فى نفس اللحظة تدخل  
عليه وهى تمشط شعرها • لمحت التغيير الذى طرأ عليه •

— ايه يا كمال • مالك ١٩ فيه ايه ١٩

مد يده اليها بالجريدة • كانت الجريدة ترتعش فى يده •

— شوفى كاتبين عنى ايه •

هبط قلبها • أيمكن أن يكون الصحفى اياه ، لايزال متربصا  
بها •

وأسرعت تقرأ • هبط قلبها أكثر شئ فظيع حقاً ومخيف •

ولكن ٠ لا ٠ فى لحظة مثل هذه ، يجب أن يكون لها موقف آخر ٠٠  
تحميه ٠٠

ونظرت اليه بابتسامة ٠٠

— أنت بتضحكى ؟

وتولاه الغضب ٠٠

— وما اضحكش ليه ٠٠ ١٩ كلمتين فارغين ومكتوبين ٠٠ ايه  
يعنى ٠ ياما كلام ياسيدى ٠٠

وبعدين كلمة قصاص كلمة ٠٠

— يعنى ايه ١٩

— يعنى زى ما مصطفى سيف كتب عنك بشكل كويس ، جه  
واحد ثانى ماحدش سمع اسمه قبل كده ، كتب بشكل سيء ٠٠  
ثم مين فى الدنيا يقتنع بالكلام اللى بيقوله ده ١٩ ٠٠ الناس زمانهم  
بيضحكوا عليه ٠

وبد أنه يميل الى الاقتناع بهذا المنطق ٠

— اسمع ياكمال يا حبيبى ٠ انت ماتفكرش الوقت الا فى  
الحاجات الحلوة ٠ فكر فى المصيف اللى حنروحه بعد كام يوم ٠ فكر  
فى نفسك ٠ فى صحتك ٠ قوللى ( وضحكت ) عايز الفراخ مشوية ٠  
والا محمرة ١٩ هيه ٠ قول ٠ اضحك بقى يالله ٠٠

واغتصب ابتسامة ٠ وجاءه صوت الطبيب « الانفعال » الانفعال  
هو عدوك الوحيد ياسيد كمال ٠ لحظة الانفعال تذكر آلامك الماضية ،  
واحمد ربك ! »

وزفر ٠٠ الحمد لله ٠٠

وقال لها فى صوت هادىء • وقد مال على كلبه ركس وراح  
يربت عليه : اتفضلى انتى انزلى • وأنا قاعد فى انتظارك •

فجأة ، دق جرس الشقة ، أسرع سناء الى الباب • وفرحت  
جدا حين وجدته أخاها يحيى • وحين سمع كمال صوته اندفع نحوه  
يعانقه كطوق نجاة يتعلق به • وفرح حين لمح فى يده جريدة قال له  
على الفور وبلهجة حاول ألا تكون متوترة •

وبلهجة هادئة : آه • قريته • مش كلام مصطفى سيف ١٩

— آه •• وفيه كلمة ثانية ••

وأشار له على الكلمة ، فأنكب عليها « يحيى » بفضول • وما  
ان انتهى من قراءتها ، حتى قال وهو يقذف بالجريدة على أحد المقاعد  
فى هدوء :

— دى شىء طبيعى ، على كل حال ••

— قال كمال بغضب : ايه هو اللى طبيعى ؟

— الكلام ده ، والكلام ده •

— مش فاهم • انتى رأيك ايه فى المكتوب ده ١٩

— عايز رأيى بصراحة ١٩

— طبعا ••

— رأيى : لا الكلمة دى عاجبانى • ولا دى كمان عاجبانى •

— ( ويدهشة ) كلمة مصطفى سيف مش عاجباك ١٩

وبلهجة جادة ، ومحذرة : اسمع يا كمال يا ادم ، خد بالك

من نفسك ٠٠ افتركت أنت كنت فين من يومين ٠ سييك من أى كلام انكتب،  
أو حينكتب عنك ٠ دول يملوا ورق ، وياكلوا عيش منه ٠ سواء دول  
أو دول ٠٠

— حتى مصطفى سيف ؟!

— أيوه ، حتى مصطفى سيف ، بس مش وقته الكلام ده ٠٠  
ياما ياسيدى حنتكلم بعدين ٠ ( وتحمس ) ياراجل ٠٠ أنت حنت فين ،  
واصبحت فين ٠ عايز ندخل لى فى 'رامة من دلوقت ؟! قوم يا الله اللبس  
وتعال معاى شوف مصنعك ٠ الناس نفسهم يشوفوك ٠

ولاح لكمال فجأة ، قبس من نور ٠ قال بلهجة حاسمة ثابتة :

— أيوه حاقوم اللبس ، وآجى معاك ٠٠

ونهض يحيى منتشيا وقال : هى ده الكلام ٠ ياسلام ٠ دى  
حبقى مفاجأة عظيمة للعمال ٠

وارتجف قلب سناء ، لكنها ٠ لم تعترض !!

## - ٧ -

وركب الاثنان العربية : كمال ادهم ويحيى البدرى .

كان الاثنان قد سيطرت عليهما فجأة حالة نشوة ، وكان كمال قد تخلص من احساسه المؤلم بالمقالة التي هاجمت عمليته ، وتنبيه فجأة ، بمجرد أن دخل العربية وجلس ، تنبه على حقيقة مدهشة رائعة . . انه الآن ذاهب الى مصنعه : لأول مرة بعد غياب عام . حقيقة ما كان يحلم بها . كل حلمه كان أن يعيش - مجرد الحياة بلا ألم . اليوم ، هذا الصباح لا يحيا فقط ويقلب سليم ، بل يغادر بيته ، ويركب عربته . ويرى المصنع . . والعمال . . و . .

كان يبذل جهدا كبيرا ليقاوم انفعاله . وفرحته . .

وكان « يحيى » على نحو آخر من النشوة ، يجلس الى عجلة القيادة ، مفرد الصدر ، مشمر الأكمام ، واثقا من نفسه ، ومن عجلة القيادة بين يديه . كان يحس أن اللحظة لحظته . اليوم يومه .

٣٠٥

( م ٢٠ - امرأة فوق الثلج )

يوم انتصاره أمام الناس • كانت حركاته المنتشية الحية تقول : ما أنت تعود يا كمال يا أدهم بعد غياب عام ، لتجد مصنعك فى انتظارك ، كما كان وأحسن • دحك من المقاعب التى لقيتها طوال العام • تفضل معى أسلمك الأمانة •

وفى اللحظة التى تحركت فيها العربة منطلقه فى اتجاه المصنع ، أحس كمال بطبقة من الدموع تكسو حلقه • ولم ينتظر حتى تصل العربة ، بل سبقها بالخيال • ورأى نفسه وقد اقترب من مصنعه ، ذلك المبنى الرمادى الصغير ، من دورين ، والقائم على طريق الدراسة الواسع الطويل ، ومضى يقرأ اللافتة « مصنع القاهرة للنسيج » لصاحبه كمال أدهم • وقاوم انفعاله المتصاعد ، وهو يتخيل العمال بأشكالهم المختلفة وقد اندفعوا نحوه ، بملابس الشغل ، يأخذونه بالأحضان ، ويقبلونه ، ويقبلهم أيضا • ثم الماكينات ، وهو يمر عليها ، ويتحسسها ، واحدة واحدة • ويمر بيده على خيوط الغزل •• و •• ومكتبه فى الدور الثانى ، حيث التليفون ، والعملاء ، والدوسيهات والأوراق ، وحيث يستطيع — من خلال حاجز زجاجى ، أن يراقب سير العمل فى العنبر ، وهو جالس مكانه ، ويرى الأنوال وهى تعمل ، وصوتها فى أذنيه كأنه موسيقى •

وقاوم انفعاله • كانت العربة قد اقتربت من منطقة النفق ، وميدان العباسية • وعند إشارة المرور توقفت ••

زحام وأصوات ونداءات • أول صباح له فى الشوارع !

فى هذه المنطقة بالذات ، فى الصباح ، توجد دائما خلطة بشرية وطنية ، نادرا ما تكتمل بهذه الصورة فى مكان آخر فى القاهرة ، فهى بجوار ثكنات الجيش ، وجامعة عين شمس ، وموقف اتوبيسات العباسية : عمال وموظفون وموظفات وطلبة وطالبات وجنود وضباط ،



وعربات جيش واتوبيسات مكتظة ، والكل يكافح ويزاحم ويتدافع .  
كان الجو جو كفاح ونشاط وعمل . وأحس في داخله بطاقة تتدفق .

العمل . أن يكون الانسان قادرا على العمل . ويعمل - هذا  
هو معنى الشفاء الحقيقي . أما هذا الكلام الذي كتب عني ، سواء  
لى ، أو على فكلام في الهواء . لن أبالي به . أنا أعيش ، أنا أحيا ،  
أعود الى مصنعى ، هذا هو المهم كما قال يحيى !

وأحس فجأة بحب دافق ليحيى ، لو لم يكن « يحيى » موجودا ،  
ما الذى كان سيحدث للمصنع أثناء عام المحنة ؟ واختلس منه نظرة .  
ولاحظ ، كأنما لأول مرة أن شعرات بيضاء بدأت تخط شعره الأسود  
القاحم الناعم . وود لو يعانقه ، ويحتضنه .

غير أن اشارة المرور الخضراء كانت قد أضاءت ، وفوجيء  
بيحيى بأخذ يمينه ، مندفعاً فى شارع العباسية .  
قال كمال معترضا : ليه كده ، كان من شارع الدراسة أحسن .  
هادى ومختصر .

وقال يحيى وعيناه متحفظتان على الطريق ، وعلى سيل العربات  
المنهمر :

- شارع الدراسة فيه تصليحات من كام يوم ، نروح عن طريق  
شارع بورسعيد والأزهر .

وجم كمال لبرهة . غير أن منظر الشارعين لم يلبثا أن شما  
فجأة فى خياله :

في هذين الشارعين بالذات ، كم له من ذكريات . ذكريات البداية  
المرّة ، ثم الصعود ، صعود الجبل بالأطافر . والدماء التى سالت ،

ثم الوصول الى ما وصل اليه ، خاتمة المطاف : مصنعه القائم فى  
الدراسة • وتوالت أمامه وجوه • وسحن •  
وصاح بلهجة فيها الحنين :

— ياترى سيد عبد القادر ازيه • ورجب • ومحمد حنفى •  
وابراهيم متكيس • وصلاح عبد الهادى • عاملين ايه مع السوق •  
شغلهم ماشى كويس ١٩

— كلهم كويسين •• حنفوت عليهم دلوقت ، بس ياريت تمر  
على صلاح عبد الهادى بالذات الأول ، وتسلم عليه !

واستغرب كمال • ان صلاح عبد الهادى ، لم يصل فى علاقته  
به الى درجة الصداقة • كانت مجرد معاملات تجارية ، وعلى خفيف •  
وصلاح عبد الهادى يعتبر طبقة اخرى غير طبقة كمال • ان صلاح  
يعمل بمئات الألوف بينما كمال يعمل بالعشرات •

— اشمعنى صلاح عبد الهادى عايزنى افوت عليه الأول •

— لأنه أخذ موقف عظيم منا ، او منك أنت بالذات ، وانت فى  
المستشفى !

— ازاي •• عمل ايه ١٩

قالها بلهفة ، وقد فرح لأن تاجرا كبيرا ، مثل صلاح عبد الهادى ،  
يحمل له عواطف طيبة وهو فى المستشفى وارسم أمامه على الفور  
وجه صلاح الأسمر ، بملامحه الهادئة اللطيفة ، وعينييه الواسعتين  
السوداوين اللتين تشعان ذكاء وطيبة • دائما كان يجده جالسا على  
مكتبه فى أقصى محله الكبير • ورغم أنه لم يتجاوز الثلاثين الا بقليل ،  
الا أنه يشع احتراما ونفودا على مئات التجار ، لا فى منطقة الموسيقى  
والأزهر فقط ، بل فى الجمهورية كلها • ان كمال ادهم بالنسبة له ،  
مجرد صاحب مصنع صغير ، يمكن نسيانه ببساطة •

أى موقف عظيم هذا الذى أخذه منه وهو فى عام المحنة ١٩

وراح « يحيى » يحكى له ، باختصار ، ودون أن يشرّد لحظة عن حركة الطريق ..

« كانت فترة سودة ، عمرى ما حانسها • السوق واقف • • مفيش، شغل • الغزل اللى كان فى المصنع كله خلص • لكن فيه بضاعة مش عارفين تصرفها • • إتقفّل المصنع أسبوع • أنت عارف المصنع لما يتقفّل بيعصل ايه • العمال • • والتجار • والمصانع اللى حوالينا • • كانت أسود فترة فى جياتى • بقيت ماشى فى الشوارع زى التايه • أروح لده مفيش وده مفيش • وفى يوم فايت من قدام صلاح عبد الهادى ، نادى لى •

– ايه يا يحيى • انتم قافلين ليه المصنع بقالكم أسبوع ١٩ قلت له الغزل اللى كان عندنا خلص • وانت عارف السوق وحش • • والبضاعة فى المخزن • •

قال لى أد ايه البضاعة الموجودة ، قلت له بحوالى ثلاث أربع آلاف جنيه • •

قال لى : خد القلوس أهى • عشان تروح تشتري غزل وتفتح المصنع للعمال • وابعت البضاعة اللى عندك • وبعد كده أى بضاعة ما تقدرش تبيعها ، ابعثها ، لغاية مايخرج جوز اختك من المستشفى •

هز الموقف كمال من الأعماق ، كان يستمع للقصة ، وأنفاسه تتتابع ، ومع حلقاتها ، كانت مشاعره تعلق وتنخفض ، وتصور المصنع مقفولا • والعمال • والانهيار • ورأى نفسه أيضا خارجا من المستشفى • ليجد مصنعه فى خبر كان لا يمتلك من الدنيا أى شىء ماذا كان يفمل • ولاح له صلاح عبد الهادى من جديد ، كمالك أنقاذ ، قال مهتزا بالجميل : فعلا موقف عظيم • لازم نمر عليه • • واشكره •

وقال يحيى : انسان أكثر منه تاجر • صلاح • ما كنتش أعرف  
انه انسان بالشكل ده • ( وندت عنه ضحكة صغيرة ) زمان كنت  
لا أتصور أن فيه رأسمالى ممكن يبقى عنده شهامة وإنسانية • •  
الشيوعيين بس هم اللى انسانيين • دلوقت أقدر أقول لك ان راجل  
زى ده ، أحسن من بعض شيوعيين عرفتهم •

هل يقصد أحمد زهران ، ومصطفى سيف ؟!

أيمكن أن يكون فى هذا جزء من تفسير عدم اعجابه بمقالة  
مصطفى سيف عنه ؟!

مهما يكن • ان صلاح عبد الهادى الآن هو بطل الموقف • •  
موقفه هذا يعادل عواطف مصطفى سيف وأحمد زهران عشرات بل  
ومئات المرات • ماذا تفيد العواطف فى موقف مثل هذا • كان المصنع  
سينهار • وهو الذى أنقذه • أنقذه وهو فى المحنة • •

قال مغمما ، وعمقا فى قلبه الحب لصلاح : راجل عظيم • •

طول عمرى ، من يوم مادخلت السوق ، أسمع عن تاجر فى  
أزمات ، وصلاح عبد الهادى يحلها لهم ، ويساعدهم على الاستمرار  
( ووصل انفعاله الى القمة ) أرجو ييجى اليوم اللى أقدر فيه أرد  
له الجميل •

كانت العربى قد اقتربت من منطقة الموسيقى والأزهر • وتفتحت  
روح كمال بالفرح • فى هذا المربع الصغير ، يعرف المئات والمئات  
من الناس ، ويعرفونه ، كانت الدنيا زحاما كالعادة • حتى بدت  
الأجسام ، والرؤوس متلاحمة ، منطقة بيع وشراء • لغط شديد •

والناس لاهون • وشب بقامته الى أعلى وهو جالس ، حتى لا يرى وجهه أحد ممن يعرفونه • وكانت حرارة الجو بدأت تزداد •

وقال ليحيى : انا عطشت •

قال يحيى ، وكان يستدير ليدخل شارع الأزهر •

– تشرب منه ساقعة عند صلاح عبدالهادى • دى حتبقى مفاجأة له • حيفرح جدا بك !

ولم تمض دقيقة ، حتى كانت العربية تقف امام محل صلاح •  
وكمال يدخل المحل الكبير الفسيح • يتبعه « يحيى » • كان المحل ، رغم أننا فى النهار ، مضاء بالكهرباء ، ولحه صلاح عبد الهادى • وبدأ للحظة ، ساكتا ، يتفرس فى هذا الداخل ، وخلفه « يحيى البدرى » وما ان اكتشف أنه كمال أدهم ، حتى هب من على كرسيه صائحا وفاردا له كل ذراعيه •

– كمال أدهم • أهلا • أهلا • يادى النور • يادى النور – حمد الله على السلامة •

وتعانق الاثنان ، كصديقين حميمين قديمين ، وليس أبدا كصاحب مصنع نسيج صغير وتاجر جملة كبير • شعور غريب بالأمان داخل كمال أدهم وهو يرى صلاح عبد الهادى يأخذه فى صدره ويربت عليه ، مفاجأة عظيمة من صنع القدر كانت فى انتظاره بعد خروجه من المستشفى ونجاح العملية • وأحس بالسوق ، لأول مرة فى حياته ، أمنا وسلاما عليه • لا خطر من السوق وصلاح عبدالهادى معه •

– انا متشكر جدا يا حاج صلاح – متشكر جدا جدا – على الموقف بتاعك •

– موقف ايه يا راجل • تعال تعال ( واصطحبه من ذراعه

متجها به الى مكتبه ) انت تستاهل أكثر من كده بكثير . إنت عارف رأيى فيك من زمان !

— وأنت كمان يا حاج . عارف رأيى فيك . مش رأيى أنا بس .  
رأى كل الناس . أنت انسان كبير .

وتنبه فجأة على أصوات فى المدخل تصيح به وترحب ..

— أهلا يامحروس . ازيك يا شاكر .. و ..

ووجد نفسه ينهض من على مقعده متجها اليهم ليسلم ، غير  
أن صلاح قال معترضاً وبحسم :

— لأ ياكمال . أقعد مطرحك أرجوك .. مانتعش نفسك  
( وأشار على العمال بحركة هدائة ) تعالوا يا جماعة .. واحد ..  
واحد .. بس حاسس برا عليه . فاهمين !

لولا وجود صلاح عبد الهادى ، لأخذ اللقاء بين كمال أدهم والعمال  
شكلاً آخر بالمره ، ولعبروا عن تلك الدهشة التى تطل من عيونهم ..  
دهشة تختلط بالرهبة والتعجب والفرح ، الى حد عدم التصديق .  
اندفع الكل يعانقونه ، ويهنئونه بالشفاء وسلامة العودة .

كانت هبة هائلة . نظمها صلاح ، وكان كمال يحس بدقات  
قلبه تسرع . وتتواثب .

فرح . الدنيا فرح . يمكن أن يكون ذلك بداية عهد جديد ..

وأحس فجأة بجفاف فى زوره . قال لصلاح :

— عايز أشرب شوية ميه .

وصاح صلاح فوراً على أحد عماله :

— حاجة بيذعة بسرعة يامحروس ..

وقال كمال معتذرا بابتسامة :

— لا ٠٠ عايز أشرب فيه بالذات ٠٠

— وميه ساقعة كمان يامحروس ٠٠

فى تلك اللحظة ، وبالصدفه ، دخل القهوجى :

قال له صلاح بنفسه ، مكرما كمال :

— ميه ساقعه يا ابنى للأستاذ كمال أدهم ٠

كان القهوجى يعرف كمال من قبل ، ويعرف قصة القلب الذى يقولون انه انتقل اليه ٠ وبلا قيود أو حدود ، صاح فجأة وقد جدحت عيناه ، وهو يحملق فيه غير مصدق ٠

— عم كمال أدهم !؟ بصحيح ؟ دى الحكاية بصحيح يا أولاد ٠٠  
( وكالمجاذيب راح يصرخ ) ٠

حى ٠ حى ٠ حى ٠ ( وهجم على كمال يعانقه ٠ وخرجت منه كلمات التهنئة ، أشبه برشاش ساذج وعبيط ومؤثر ٠

ثم مضى الى الشارع وهو يصيح صيحته :

— حى ٠ حى ٠ حى ٠٠

وبدا منظره مثيرا ٠ لم يكن قادرا على أن يتمالك نفسه ٠

ايه يامدبولى ٠٠ الحكاية ٠٠

— حى ٠ حى ٠ حى ٠ يا ناس حى ٠

تجمع حوله الناس ٠٠ عابرو سبيل ٠٠ وتجار ٠٠ وعمال ٠٠ وهشردون ، رسائنة و تاكسى ٠ وفيهم من يعرف كمال أدهم شخصا ومن لا يعرف غير حكايته الشهيرة ٠٠

- ما تنطق يا مدبولى ٠ فيه ايه ؟
- كمال ادهم ٠ اللى اتركب له قلب جديد ٠٠
- فين ١٩ ؟
- عند الحاج صلاح عبد الهادى ٠٠ ( وأشار الى المحل )  
حى ٠٠ حى ٠٠ ( وانتقلت الكلمة من فم الى فم ) ٠
- الراجل اللى اتركب له قلب جديد ٠٠
- فين ١٩ ؟
- هنا ٠٠ جوه ٠٠
- صحيح ١٩ مثن معقول ٠٠
- بلحمه ٠٠ ودمه ٠٠
- يا راجل دى اشاعة ٠٠
- ليه ٠ الجرايد كتبت عنه النهارده ٠ انه خرج سليم لبيته  
ومراته ٠٠
- دى علامة الساعة يا اولاد !
- ده العلم يا مغفل ٠٠
- والنبي بلدنا دى حتبقى عال ٠٠
- القيامة حتقوم ٠٠ خلاص ٠٠
- آه يا شعب جاهل ٠ ده العلم والتكنولوجيا ٠
- ربنا يعطيه طولة العمر ٠ هو فين ؟
- جسره ٠٠



فى لحظة واحدة • فوجيء صلاح عبد الهادى وكمال أدهم ويحيى والعمال ، بكتلة ضخمة من الرؤوس والعيون تسد باب المحل وتطل عليهم • ثم اذا بالكتلة ، بفعل الضغط من الخارج ، تندفع الى داخل المحل • وأحس صلاح بالخطر ، الخطر على كمال وعلى البضاعة فى المحل • صرخ :

— أخرج أنت وهو • عايزين ايه ••

ضاع الصوت فى الهواء • وتجمع الناس حول كمال أدهم •• وراحوا يتدافعون بالمناكب • كل منهم يريد أن يراه جيدا ويتحسسسه ، ويقبله • ارتعب كمال أدهم للمفاجأة ، ولم يدرك كيف يتصرف •• التصقت به الأجساد • وأحس بأنفاسه تكاد تختنق • وصرخ يحيى ، وقد هجم على الناس يضرب فيهم بوحشية وجنون : حاسبوا على الرجل • يارحوش •• ياهمج ! • وأحس بقوة الضغط تدفع به بعيدا عن الحلقة ••

صرخ مرة أخرى :

— اضرب تليفون يا حاج صلاح • هات بوليس النجدة • الرجل حيموت فى أيديهم ••

وأحس كمال أدهم بدوار • انه يشعر بالاختناق •

— عايز أشرب ميه •• عايز أشرب ميه •• ميه •• ميه ••

ومثلما يحدث الجذر فى بحر صاخب ، انحسرت موجة الناس • شيئًا فشيئًا وبالتدريج • وأصبح المحيطون به حلقة دفاع تبعد الزحام عنه • وجاء مدبواى يجرى ويصيح :

— حى •• حى •• الميه المساقعة يا أستاذ كمال ••

وتناول منه صلاح الكوب • وأعطاه لكمال • كان كمال مصفر  
الوجه ، لاهث الأنفاس ، ومع ذلك ، يبتسم •

– حصل خير •• حصل خير •• الحمد لله ••

وراح يشرب • بينما راح عمال المحل يدفعون الناس الى  
الخارج • حتى عاد الهدوء الى المكان ••

كانت المشكلة بعد ذلك ، كيف يخرج ١٩ كان مجهدا • ولكنه  
كان فى نفس الوقت فرحا • فرحا من نوع غامض وغريب • وذهض  
صلاح عبد الهادى ووضع يده فى يده ، مصعبها أن يوصله حتى  
عربته • وزيادة فى الضمان والأمان خرج العمال جميعا وأحاطوا  
به فى شكل دائرة محكمة ، حتى أركبوه العربة • وأغلق يحيى نوافذ  
السيارة جيدا ، وانطلق بالعربة • ومع ذلك رأيا البعض يجرون وراء  
العربة ، ويشيرون عليه بفضول ودهشة وفرح ، وعدم تصديق ••  
وزاد يحيى من سرعة العربة ، حتى خرج من منطقة الخطر تماما ••

حل صمت عميق ، وأخذ نظرة سريعة من كمال ليطمئن عليه •  
وجده سارحا أشبه ما يكون فى غيبوبة • قال ضاحكا ليبدل من  
حالته :

– شاييف الناس بتحبك أد إيه ١٩ ومع ذلك ، كان ممكن يموتوك ،  
من كتر فرحتهم بك ! تعرف انى افتكركت على طول يوم ما طلعت  
اشاعة أن مريم العذراء ظهرت فى كنيسة الزيتون ١٩  
لم يرد كمال بكلمة ••

كانت العربة ترتفع مع شارع الأزهر الصاعد نحو الدراسة •  
ولاحت مآذن جامع الأزهر والحسين وأحس يحيى بالقلق لصمت كمال  
المطبق ••

ـ ايه رأيك يا كمال • بلاش نروح المصنع دلوقت •• نرود  
نقعد فى أى حتة ••

ـ قال كمال مغمغما :

ـ دخلنى سيدنا الحسين شوية ••

ولم يكمل ••

أحس يحيى بقلبه يهبط • امتثل للطلب • اذار العربية • وعند  
باب الجامع توقف • وهبطا • خلعا حذاءيهما ودخلا ••

كان المسجد رحيبا وظليلا • وثمة نسمة معطرة ورطبة تسبح  
فى الجو ، واناس قلائل راقدون متناثرون فى شبه غفوة •

أحس بحاجة للجلوس • لأن يغفو ولو للحظات • ويلغى من  
فكره كل ما حدث • جلس على السجادة الخضراء الوثيرة ، مستندا  
على أحد الأعمدة الرخامية ، وأغفى ••

أغفى للحظات • ثم فتحهما • وجد نفسه يقرأ على لوحة رخامية  
فى الحائط •

« وانك لعلى خلق عظيم » •

وتعمم فى سره بكلمات فى خشوع • ونهض واقفا ، وقال ليحيى  
بصوت خافت :

ـ حاصللى • ركعتين لله ••

ورفع يديه فى خشوع ، للسماء • مبتهلا • لله • ومضى يصلى  
•• بينما « يحيى » ظل جالسا فى مكانه ، مطرقا برأسه فى اكتئاب  
دون صلاة ••

ـ من أنا ؟! أنا المضيع فى هذه الحياة ••

## - ٨ -

هكذا فجأة ، وبسرعة غير متوقعة على الاطلاق ، تبدل حال « يحيى البدرى » من فتى ضاحك واثق وسعيد ، يملك كل الموقف بين يديه ، ويمارس لحظة انتصاره ، الى انسان مكتئب حزين ، يرى الأشياء كلها تتسرب فجأة من بين يديه ، ولا يبقى له غير ثمار الحزن القديمة ، يمضغ فيها ، ويأكل من مرارتها على مهل !

فبينما كان يرى كمال واقفا بجواره يصلى ، بملء نفسه ، رأى نفسه يهوى فجأة الى قرار عميق ، كلما لمست قدماه أرضا ، وجدها تنسحب من تحته ، أرضا بعد أرض ، وهاجمته نوبة حزن لاذعة وثقيلة الوقع ، أحس معها فى الرغبة فى التلاشى ، بل وتاقت نفسه للموت . الموت هو الأرض التى يستند عليها الانسان ويستريح عليها ، راحته الأبدية . . . !

لم تكن هذه النوبة غريبة على « يحيى البدرى » . كانت تعتريه كثيرا من قبل . غير أنها فى هذه المرة كانت أشد وضوحا وثقلا . . .

وبدا وهو جالس مستندا بظهره على عمود الجامع الرخامى البارد ،  
بدا مرحبا بها ، داعيا لأن يتم الاعلان عنها • أن ترفع الراية السوداء ،  
ينتهى كل شيء بهدوء وبساطة •

وأغمض عينيه ، ملقيا بظهر رأسه على العمود الرخامى ، مصمما  
نفسه للغور العميق ••

•• أجل

لماذا تعيش الآن يا يحيى ١٩

عاد كمال الى سناء • ولم تعد سناء اختك بحاجة اليك !

عاد كمال الى المصنع ، ويمكن للمصنع أن يسير بدونك من  
اليوم ••

انتهى الدور • ليس هذا هو أول دور لك • كل الأدوار من قبل  
كانت تنتهى أيضا وبسرعة ، دورا بعد دور •

وفيم هو يناقش قضية تلاشيهِ من الوجود ، كانت حلقات من  
حياته تعاوده : أحداث وصور • حلقات ناقصة ، دائما كانت حياته ،  
ودائما فى النهاية خارج الحلقة ••

الآن • خارج حلقة الحياة كلها ••

ورأى قبة الجامعة ، ومدرج المحاضرات ، كان يوما طالبا مجدا  
فى الجامعة ، وخرج منها دون أن يكمل ويأخذ ليسانس الحقوق ••  
الأولاد الصغار يحملون الآن الليسانسات !

ورأى نفسه فى إحدى زنازين سجن مصر • يضحك للحياة رغم  
سجنه • وينشد أناشيد الرفاق •

كان يوما مناظلا قى احدى المنظمات الشيوعية السرية ، وهو  
الآن مرتبط بعالم التجارة والراسمالية : عالم كان يكافح ضده .

وكان يوما له حب عظيم ، وجاءه نعى هذا الحب وهو فى  
السجن . وحين خرج ، وجد خطيبته تزوجت من انسان آخر .

كل الأدوار كانت تنتهى ، وبسرعة . دائما يجد نفسه خارج  
الحلقة .

قرأت مرة قصة اسمها « بئر الأحزان » ، حزنا بعد حزن .  
كل الأحزان كان من الممكن أن تهون ، لولا حزن واحد ، جاء فأكد  
كل الأحزان . سقط فى القرار . كحجر ثقيل . بجاثم على النفس .  
كيف يمكن رفعه ١٩ . كيف حدث هذا ١٩ للمرة الألف ، من يومها  
اتساءل ، لا أريد أن أصدق . كل الذى كان بيننا يانبيلة ، لم يكن  
حبا ١٩

أم أنك اكتشفت الحقيقة فجأة ، أنى لا أستحق عناء الانتظار .  
وقصص الرفاء التى كنا نتحاكى بها . وقرأت لك عن زوجات  
وحبيبات الأبطال : اكانت تسلية فراغ ، أم كان نوعا من الخداع ،  
نخدع به لحظات لقائنا على انفراد . لكى نعطي لما كان بيننا . شرعية  
الحدوث ، والاستمتاع . كنت أغمر وجهك . خديك . شففتيك .  
جبينك ، أنفك ، بالقبلات . وكان لحم جسدك ملمس خاص . هذا  
الملمس يتذوقه الآن رجل غيرى . كيف تقبلين على نفسك ١٩

ابوك ضغط عليك ١٩ بكى بين يديك ١٩ ، غير مقتنع يانبيلة .  
كان يجب أن تكونى باسم آخر غير نبيلة ، بارادتك تزوجت . فرحت  
بأضواء شاب فى السلك الدبلوماسى يطوف بك من يوفها بلاد العالم .

انتهى الدور ، كل الأدوار انتهت . حتى عام التحدى والانتصار  
سرعان ما انتهى : عاد الى المصنع صاحبه ، عاد ليحتل منطقة

الضوء ، ليس فى المصنع فقط ، بل فى الشارع ، الناس فى الشارع كانوا كالمجانين لرؤيته ، كأنما كانوا يريدون رفعه والهتاف باسمه ، كزعيم من نوع فريد • كيف تسير الأمور فى هذه الدنيا ؟ وفى الجرائد ، بدأت الصحف تجعل منه قضية : أناس مع عملياته ، وآخرون ضدها • عاد الى الحياة ، الى أكثر من الحياة • أما أنا • فأتراجع • رغما عنى أتراجع ، فى هدوء الى منطقة الظل ، حيث كنت • بل ان الظل عتمة • لم يعد فى المستقبل ، كما فى الماضى • شئ يرى ، يستحق النظر • الموت • هو القوة الوحيدة التى تمنع الانسان من أن يفكر ، ويتأسى على حاله •

• • الموت

• • التلاشى

قاع البئر يقترب • •

وفى هدوء شديد ، مال بجسده على سجادة الجامع الخضراء ، وتمدد • النوم أحيانا معادل للموت • •  
أسند رأسه على ذراعه • •  
واحقوق يحيى البدرى غيبوبة • •

\*\*\*

حين انتهى كمال أدهم من صلاة شكره ، وأخذ يلقي سلام الختام ، الى اليمين والى اليسار فوجيء بيحيى ممددا ، ومغمضا عينيه ، وأدرك بسرعة ، وبدهشة ، من انتظام أنفاسه انه راح فى النوم • •  
انتابته رغبة دافقة فى أن يميل عليه ويقبله • ياطفى العزیز المفقود • ولدى الكبير انت • •

وحلا له ان يتأمل وجهه ، ورأى فيه شبها كبيرا بأخته سناء .  
زوجته . السمرة والشعر الأسود الناعم . والشفقتين الغليظتين .  
ولاحظ لأول مرة أن شعرات بيضاء بدأت تتخلل شعره الأسود . ولح  
أيضا ظلا حزينا مع طباقه الشفتين ، بل ورغبة فى البكاء .

واحس بقلبه يتقلص من أجله . وانتابته رغبة دافقة فى أن يميل  
عليه ، ويقبله . . .

شبت مبكرا يا يحيى ، لا تزيد عن الخامسة أو السادسة  
والعشرين ، ومع ذلك . . .

تراءت له صورة شاب حزين . ووحيد . انا أعرف يا يحيى  
سر حزنك .

لو لم تكن نبيلة قد تركتك ، لربما سارت حياتك على نحو آخر  
بالمرة . . .

لو لم تكن سجنحت . لكنتما الآن معا . . .

وناوشه الاحساس بالذنب . . .

ربما لو لم أكن قد عرفتك بأحمد زهران ، لما دخلت عالم  
السياسة ، ولما سجنحت ولانتهيت من كليتك ، ولتزوجت من نبيلة ،  
ولكان مصيرك مغايرا تماما لما أنت عليه الآن ؟!

كانما القدر رسم مصيرك هكذا من أجلى ، من أجل مصنعى  
وأنا فى المحنة ، فلولاك ، لولا تفرغك الكامل فى المصنع ، لانهار  
بالتاكيد . كيف أستطيع أن أكافئك يا يحيى . كيف يمكن أن امسح  
الأحزان عنك . أزيد من مرتبك ؟ لا . ليس هذا بكاف .

أزوجه ! . . .



نعم ياسناء • أخوك يحيى يجب أن يتزوج • يصبح له بيت  
• • و • • وإشركه معى فى ملكية المصنع • هو يستحق هذا وأكثر •  
يجب أن أفعل لك شيئا يا ولدى الكبير • • العزيز • •

تعب العام ، عام مرضى ، بدأ يحل عليك ، فنمت وأنت فى  
الجامع • فضلت النوم على الصلاة • • ( وابتسم له من قبله ) أيها  
الشيوعى العنيد ، رغم أنك لم تعد شيوعيا ولا أى شيء ، ترفض  
الصلاة كبقايا موقف قديم • لسوف أجعلك تصلى يا يحيى من جديد  
– بدأت تقترب من الاقتناع • قلت عن الحاج صلاح عبد الهادى ،  
تاجر الجملة ، انه أحسن فى نظرك من بعض الشيوعيين • •

سنصلى ذات يوم ، ثلاثتنا ، أنا وأنت وصلاح عبد الهادى –  
صلاح أصبح صديقا يا يحيى ، ستزدهر الأحوال ، اننى أتخيلك • •  
أتمنى • أن أفتح لك مصنعا صغيرا • مصنعا لألوان الصبغة • •  
نصبح نسيجا ، وصبغة • ما رأيك ١٩

انى أفكر أيضا أن أشتري لك عربة صغيرة •

ابتسم يا يحيى • لا تحزن هكذا فى نومك •

( وود لو يربت على خديه • ويمسح على شعره • • ) لى أنك  
بقيت هكذا نائما فى الجامع حتى الليل ، فلن أوقظك • سأظل بجانبك •

فى تلك اللحظة ، رأى « يحيى » يفتح عينيه ثم ينتفض جالسا  
وعلى شفثيه ابتسامة خجلة مرتبكة •

– الله • دأنا نمت من غير ما احس ، ( وهز رأسه يفيق )  
والظاهر انى حلمت كمان •

– حلمت بايه •

– هه !؟ مش فاكّر ( وعاولت وجهه سحابة حزن نفضها بسرعة عنه ) وقال وهو ينهض :

– بنا نركب العربية ، وأروحك البيت •

قال له كمال وهو يضع يده فى يده :

– لأ •• نروح المصنع ••

أوشك يحيى أن يعترض لكنه أوما برأسه موافقا ••

وخرجا من الجامع ، ثم ركبا العربية ، وانطلقا نحو المصنع  
فى صمت •

## - ٩ -

### كانت زيارة تاريخية ٠٠

كل ما كان كمال ادهم يحلم به ويتخيله حول هذه الزيارة يتحقق،  
واروع ٠

وكان « يحيى » اعتبارا بما حدث فى محل صلاح عبد الهادى  
بالأزهر ، قد قرر أن يسبق كمال بدقائق ويمهد للزيارة ٠ ودخل على  
العمال ونادى عليهم جميعا ، وأعلنهم بالخبر ٠ وحين رأى حالة من  
الفرح والذهول والرغبة فى الصباح بل وفى الرقص أيضا تستولى  
على عدد منهم ، عاوده الخوف من أن يتكرر ما حدث فى محل  
صلاح ٠ وحكى لهم الحكاية ٠٠

وقال محذرا ٠٠

— يعنى تخليكم فاكرين ٠ قلبه الجديد تحاسبوا عليه ٠ ممنوع  
الأحضان ٠ سامعين ٠ واللى يسلم عليه ، يرجع على نوله على طول  
والشغل يمشى طبيعى ٠ هو ده أحسن احتفال به ٠

فى تلك اللحظة ، رأوا كمال أدهم يدخل عليهم العنبر • بقامته  
المديدة وهيكله الحريض ، وأنفه الضخم ، وخطواته المتتدة ، ثم  
يتوقف ناظرا إليهم ، ويبتسم وعيناه تحتويان كل الأنوال • وكل  
العنبر • وكل شيء • بنظرة واحدة سريعة وسعيدة وممتنة ••

وفى لحظة ، انفجر اللقاء ••

ندت عنهم جميعا صيحة واحدة جماعية علت على أصوات  
الأنوال ، واندفعوا جميعا نحوه: اثنان وعشرون عاملا ، بعدد الأنوال،  
غير الصبية والمساعدين الصغار • والتزما بالاتفاق ، كبخوا الرغبة  
فى أخذه بالأحضان • ثم لم يلبثوا أن اكتشفوا ، هم وهو ، بديلا  
رائعا عن الأحضان : القبلات ، وهز الأكف والاكشاف بحنان ••

ويكى « يحيى » الفتى الشبوعى المتقاعد ، وهو يرى منظرا لم  
يسمع أنه حدث من قبل فى التاريخ : أن يتبادل العمال وصاحب  
العمل مثل هذه القبلات • قبلات تفيض حنانا ومحبة وصفاء ، ورغبة  
فى الاندماج •

هل يتناقض هذا مع النظرية<sup>١٩</sup>

وقال فى نفسه مبتسما فى سخرية حزينة : موقف انسانى ••  
نتيجة ظرف انسانى طارئ وسرعان ما يعود كل باب ليرسو على  
عقبه ، وتلمع النظرات •

كانت الأنوال ماضية فى عملها ، وبدت وكأنها زادت من  
سرعتها ، مشاركة فى الاحتفال •

كان شعور كمال أدهم ، هو الامتنان الممزوج بالخل • أما هم ،  
فكان شعورهم الأول والمباشر ، أنهم محظوظون ، إذ أتاح لهم عملهم  
بهذا المصنع أن يروا الرجل الذى انتقل اليه قلب رجل آخر غير قلبه •

هذه المعجزة سيرونها تتحرك أمامهم كل يوم • ورأوا - جميعا -  
فيه شيئا مضيئا ، لابد وأن يحافظوا عليه ، وكان احساسهم وهم  
يقبلونه ويرتعدون تأثرا وفرحا ، أن عهدا جديدا فى عملهم فى  
المصنع قد بدأ !

ولأن الاستقبال تم فى العنبر ، كان لابد أن يكون عمليا وبسرعة ،  
واحدا بعد واحد ، كان يسلم ويقبل ، ثم يعود الى موقعه أمام نوله ،  
سعيدا ، وعيناه لا يبارحان الرجل المعجزة •

وقال كمال أدهم ، وهو يتحكم فى مشاعره :

- لنا قعدة طويلة مع بعض يا جماعة • قريب • عن انكم أطلع  
المكتب شوية •

وصعد الى مكتبه فى هدوء • يتبعه يحيى ••

كانت أصوات الأنوال تعلق فى رأسه وتعلق • ياما احتواه  
الحنين الى هذه الأصوات • والى هذا المكتب • وهذا التليفون ••  
ومنظر الخزينة الخضراء ، والدوسيهات وأوراق العملاء ••

اليقين •• اليقين بأنه شفى • وعاد • فليهدأ من الآن ، ولا يتشكك  
للحظة ••

وكان « يحيى » يتأمل فرحه بمكتبه • بجلسته التى يستطيع  
منها أن يرقب العمل فى العنبر من خلال ذلك الحاجز الزجاجى ،  
والمغطى بستارة ••

وقال يحيى فجأة : أظن خلاص ياكمال • لغاية كده ياعم ،  
ودورى انتهى • انا سلمتك داوقت مصنعك !

صاح كمال ضاحكا وبخوف : لا ياسى يحيى • انا ماستلمتش

منك حاجة • المرة دى أنا ضيف عليك • انت نسيت انى حاخذ لى  
يومين فى المصيف ؟ • •

قال يحيى بابتسامه واهنة خفيفة :

– يبقى لغاية ما ترجع • •

– وحتى بعد ما أرجع ، مفيش أى تغيير فى المصنع حيحصل •  
تسلمنى ايه واسلمك ايه • ده بقى مصنعك يا يحيى • ماليش فيه أكثر  
مالك أنت فيه • •

كلام ياكمال يا أدهم • • كلام تقوله • • فيض من الانسانية يطغى  
عليك هذه الأيام ، ولكن ، حالما تعود الى غابة السوق والتجارة من  
جديد ، سيتغير كل شىء • سيعود فيك طبع التاجر الاصيل • ولو  
حدث اى خلاف بينى وبينك ، فستلقى بالحقيقة المرة فى وجهى على  
الفور : انه مصنعك أنت • وأنا ، ليس لى ريشة أو ترس واحد فيه •  
ومع هذا ، شكرا على شعورك الطيب • لا تحمل هما • بل ان كانت  
لديك هموم جديدة ، فهاتها ، وضعها على كتفى • سأواصل معك  
الدور حتى النهاية • لماذا شردت فجأة ؟ فيم أنت الآن سارح ؟ •

– قل لى يا يحيى • •

– أيوه يا كمال • •

– أنا لى طلب منك • •

– أأمر • •

– تجيب لى ميعاد من العيلة اللى وهبتنى القلب • • ( ووهن  
صوته وهو يضع يده على صدره) مش معقول أسافر المصيف من غير  
ما اشكرهم • أو أروح لهم فجأة من غير ما يكون عندهم خبر !

أحس يحيى بقلبه يسقط منه ، أوشك أن يصرخ فيه : لا .. لا  
يا كمال يا أدهم . كل الأدوار إلا هذا الدور .. لا أستطيع . أنت  
الذى أخذت القلب ، فاسع أنت للشكر .. أعفى من هذه المهمة .

غير أن كمال كان ينظر اليه ، وهو جالس على مكتبه ، نظرات  
فيها رجاء واستغاثة وتوسل ، حتى أن يحيى أحس بالرتاء لحالته ،  
ثارت فجة شهامته المعهودة .

قال بحماس :

— حاضر يا كمال . حاجيب لك منهم ميعاد . تحب امتى ؟!

قال كمال باضطراب ..

— فى أى وقت أنت تشوفه ، أو هم يشوفوه .

— يوم الأحد الجاى ، احنا قافلين . أروح لهم الصبح ، عين  
شمس ، ، وأجيب لك منهم الميعاد ..

— متشكر . متشكر جدا يا يحيى . ماتتصورش حابقى سعيد  
ومستريح أد ايه ، لما حاقوم بالزيارة دى ، وانتهى منها . حاسافر  
رأس البر وأنا فى منتهى السعادة وزاحة الضمير .

## - ١٠ -

كان الزمن يمضى متجها بسرعة نحو هدفه : السابعة مساء من ذلك الأحد . الموعد المضروب بين كمال أدهم والعائلة الصغيرة التي وهبته القلب الذى أنقذ حياته ، وعاش به .

والواقع أن ذهاب « يحيى » المفاجئ اليهم فى بيتهم بعين شمس وتحديد الموعد مع الزوجة ، كان بمثابة حجر ضخّم ألقي على السطح ، فاضطربت الأعماق واهتاجت ، وطفّت على السطح أشياء كان يظن أنها ركدت وركدت فى القاع ، وبدأ كل شئ يريد أن يبرز ويتفجر ويتجسد على حقيقته !

ولم يكن باقيا على الموعد سوى وقت قليل ، والثلاثة : الزوجة ، والبنت ، والولد ، فى حالة توتر شديد . يتفادون نظرات بعضهم البعض ، والألسن شبه معقودة . كانوا قد اطمأنوا على ترتيب البيت ، ونظافته . وحرصوا بلا أية كلمات ، على أن تكون صورة الأب الذى مات ، معلقة فى صدر الصالة ، فى مكان واضح ، وجلسوا



فى الشرفة الصغيرة صامتتين : الأم والبنت فى ثياب الحداد ٠  
الابن فكان بملابس عادية - بنطالون وقميص - متجهم الوجه ، يدخن  
سيجارة فى عصبية ، وخصلة من شعره الأكثر ملقاه على جبهته ٠٠

كان البيت الذى يعيشون فيه من طابق صغير واحد ، حديث  
البناء ، حوله سور من الطوب الأبيض ، مطلى بالطين ، وبه بوابة  
خشبية قديمة ٠ كان من أحلام الرجل قبل أن يموت ، أن يهدم هذا  
السور وبوابته ، ويقيمهما من جديد على شكل يلائم منظر البيت ،  
ويزيل ذلك التنافر الواضح بين حداثة البيت وجهامة السور وبوابته ،  
وبهذا يكون قد أنجز مشروع حياته ٠ واكن للأسف !

غير أن ما يعوض - بعض الشيء - منظر السور والبوابة ،  
شجرتان زرعهما الرجل من أول يوم رعى فيه أساس البيت ، وكبرتتا  
وأصبحتا تلقيان ظلا واسعا على مدخل البيت ، وعلى الشرفة ٠٠

وجلس الثلاثة فى الشرفة صامتتين ، الأم على كنية ، والبنت  
والابن على كنية أخرى مقابلة ٠ كانت عيونهم شاخصة ٠ متوزعة  
فى صمت على كل الأشياء ٠ كل الأشياء تذكرهم بالميت ٠٠

وهل يعود الميت !؟

كانت عيونهم ، بشكل تلقائى ، تتوجه نحو البوابة ٠ بعد عشر  
دقائق ، سيسمعون عليها دقات ٠ ويكون : هو ٠٠ ويدخل البيت  
ويجلس معهم !

وبدت للفتاة ، وعيناها على البوابة ، رؤية مجسدة ، مفزعة ،  
هيكل الرجل الناجى من الموت ، يدخل عليهم ، وفى قفصه الصدرى ،  
قلب أبيها ٠٠

وأصابتها رعدة ٠٠

لا • لاتريد أن تراه • لن تراه • لن تقوى ، بدء الحقيقة المرة •  
انتفضت واقفة ••

— ماما •• أنا خارجة ••

التفتت لها الأم فى دهشة ••

— خارجة ؟ خارجة فين دلوقت !؟

تحشرج صوتها مقاومة البكاء •

— مش عايزه أشوفه ياماما •• مش قادرة أشوفه • قابلوه  
انتم !

وتحركت بخطواتها فى عزم فى اتجاه البوابة ••

ويدون أن تنهص الأم من جلستها ، صامت فى غضب :

— عزة • بلاش التصرفات بتاعتك دى دلوقت من فضلك !

ازداد احساس البنت بالتمزق : تصرفات ايه ياماما • باقول  
لك مش قادرة • مش قادرة ( وانفجرت فجأة فى البكاء ) • مش  
عايزة أشوف حد داخل علينا من الباب ده غير بابا • بابا توفيق ••  
حبيبي •

اهتز قلب الأم لذكر اسم الحبيب ، انفجر حزن الزوجة المكبوت •  
انفجرت هى الأخرى باكية • واحتوت ابنتها فى صدرها •

— قضا • لازم نستحمله يا بنتى • نعمل ايه !؟

لم تكن فجيرة الزوجة فى زوجها اقل بأية حال من فجيرة البنت  
فى أبيها ، وموقفها من حادثة موته ، ثم موافقتها على نزع قلبه الى  
رجل آخر ، هو فى حد ذاته قصة غريبة ومثيرة ، وتستحق التسجيل  
على الأقل من أجل التاريخ • غير أننا نجد أنفسنا الآن مضطرين ••

لكى نتوقف قليلا عند البنت ، أكثر مما نقف عند الأم أو الولد • لقد  
بدا أن حركة الأحداث فى ذلك اليوم تنطلق منها • الى أين • لا أحد  
يدرى !

كانت عزة ، حتى ذلك اليوم ، لاتزال رافضة أن تصدق أن أباهما  
قد مات •

ففى آخر يوم له فى الحياة • يوم أن جاءهم الخبر المشئوم بأنه  
أصيب فى عمله – وهو فى العنابر – إصابة قاتلة ، صباح ذلك اليوم ،  
كان قد قبلها كالعادة قبل أن يخرج الى عمله • وكانت ترتدى ملابسها  
استعدادا لأن تذهب الى الكلية • كان هاديا جدا • مبتسم الوجه •  
وربما كان أكثر مرحا من أى يوم آخر • ( وتهز رأسها راغضة ) :  
لا •• لم يمت •• لا يمكن أن يكون قد مات • ورحل عنها الى الأبد !  
كثيرا ما كانت تجد نفسها فى حلم يقظة ، وهى تمشى – عائدة من  
الكلية – فى شوارع عين شمس ، وتتخيل • ستدخل البيت فتجده  
يزرع فى المساحة الصغيرة التى تفصل بين السور وبين الشرفة ••  
أو •• ( وهذا ما حدث لها منذ أيام قليلة فقط ) تتخيله هو الآخر  
عائدا من عمله ، فى نفس موعد عودتها من الكلية ، كما كان يحدث  
فى بعض الأحيان ، ويأخذها بالحضن • ويقبلها فى الجبين • وفى  
العينين ، ويحتضنها بحنان شديد ، ويقول لها :

– ازيك ياعزة • عاملة ايه فى الكلية !؟ • مش أنت بتحبينى  
عشان حققت لك رغبتك تدخل كلية الفنون ، قسم الرسم ، وتحببى  
أعظم رسامة فى الجمهورية ، ويحتضن ذراعها ، ويمضيان سويا فى  
فرح الى البيت • غير أنها لا تلبث أن تكتشف فجأة أنها وحيدة • كل  
ما حولها فراغ ورمال • وطائرات منطلقة من مطار القاهرة الدولى  
القريب ، مسافرة الى عالم مجهول • فتبكى بمرارة • مات • سافر  
فى رحلته الأبدية ، ولن يعود ••

وتجهش وحدها بالبكاء ..

الآن . بدخول هذا الرجل الغريب ، سينتهى الأمل نهائيا .  
- قتلوك يا بابا .. قتلوك . وأنا الأخرى اشتركت فى قتلك !  
كانت الفكرة المروعة التى استبدت بها ، أنه مات مقتولا ..  
بيد الطبيب ، وبيد أمها وبيد أخيها اللذين وافقا الطبيب على طلبه .  
غير أن التأييب كانت تصبه كله على نفسها ، بموقفها السلبي المشين ،  
قبعد أن نجح الطبيب فى الحصول على موافقة أمها وأخيها ، جاءها  
بنفس الملامح المتوسلة الراجية ، وبمنطقة الخادع الرهيب ، يناشدها  
الانسانية . يناشدها موقفا لا يقدر عليه الا العظماء . أن تنقذ  
- بكلمة واحدة منها - حياة انسان يتعذب ويوشك أن يلفظ أنفاسه :  
حولى فجيرة الموت الى حياة !

لحظتها اغمضت عينيها مرتاعة ، ثم انفجرت باكية ، وجرت  
تاركة الطبيب وهى تجهش « مش عايضة بابا يموت » .  
لكن اباهما كان قد مات . فاعتبر ذلك منها موافقة ضمنية ..  
لم تعترض صراحة . كان فى امكانها أن تصرخ فى الطبيب وتمزق  
وجهه : لا . لن يمس أحد قلب بابا وجسمه ..

ولكن ..

لم يكن كل ذلك يجدى فى شيء ..  
قتلناه . كلنا قتلناه . والرجل الذى سيزورهم بعد قليل ، هو  
الأخر قاتل .. ساشاركهم - مرة أخرى - فى استقبال القاتل .  
- مستحيل يا ماما أقدر اتشوفه ، مستحيل .

واتجهت بخطواتها فى عزم لتخرج ، غير أن أخاها « شوقى »  
الذى كان يجذب آخر أنفاس سيجارته فى ضيق وعصبية ، خطا

مسرعاً واعترض طريقها ، ورغم أنه كان يصغرها بعامين ، إلا أنه كان أطول منها بعض الشيء ، وأقوى ، وفيه ميل إلى العنف ، لكنه كان يقبض على أعصابه بشدة ، حاسباً حساب الموقف ٠٠

— يا عزة يا أختي مش معقول اللي بتعمليه ده ٠٠ مش كويس أبدا ٠٠

— اعملوا انتم المعقول ٠٠ الكويس اعملوه انتم ٠٠

احتلت وجهه وجسمه رجة عصبية ، قال بتحد لا يخلو من ازدياء :

— يعنى ايه • عايزة تفهمينا انك الوحيدة اللي زعلانة على موت بابا • ما احنا كمان زعلانين يا ست عزة ، وأكثر منك كمان ، انما مش وقته اللي بتعمليه ده ٠٠ لا من الذوق ، ولا من الانسانية •

أحست بالاهانة • استفزها ما فى لهجته من طعن وازدياء ، وأوشكت أن تصرخ فيه وتصفعه بالرد المباشر : أى انسانية هذه التي تتحدث عنها • أنا أعرف ما يدور فى فكرك ٠٠ ترسم الآن على استغلال الرجل • لن تتركه دون أن تستفيد منه • ستأخذ منه ثمن قلب أبيك • حين وافقت على نقل القلب ، كنت تعرف أن الرجل صاحب مصنع وغنى • كل يوم ستطلع عليه بحيلة وتأخذ منه نقوداً تدخن بها الحشيش وتلعب الورق وتسهر كعادتك ٠٠ تنتحر كما تنتحر كل ليلة • هذه هى انسانيتك •

— خليك انتم الانسانيين ياسى شوقى • ما انتم من أول يوم انسانيين معاه •

— قصدك ايه ٠٠ !؟

— ما قصديش حاجة ٠٠ أنا خارجة ٠٠ قابلوه انتم ٠٠

— لا • أنا عارف قصدك • عايزة تفضلنى باستمرار محسسانا  
بالذنب • كأننا احنا اللى موتناه • تقدرى تقوللى ليه وافقت معانا  
يومها • على أننا نعطى له قلب بابا ، وننقذه من الموت ؟!

— أنا مباحسسكوش بالذنب ولا حاجة • أنا المذنبه قبلكم  
( وأجهشت ) • كان لازم قلت لا • لا • كنت متوحشة ، كل ما أتخيل  
الصورة ما أقدرش ••

— صورة ايه ؟!

— فتحوا صدر بابا •• شقوه •• وأخذوا قلبه •• دفنوه ••  
جثة من غير قلب ••

صرخت الأم فيها وقد اقشعر جسدها من الصورة :

— اسمعى بقى •• أنت قصدك ايه •• انت مش حتستريحى  
الا اذا عملت فى نفسى حاجة وخلصت من العيشة كلها ، أو اسيب  
لكم البيت وامشى ( ثم بتحد أكثر ) أنت ماكانش لك فيه ، ربع ما لى  
أنا فيه ، أنا لو على أموت •• أنا مش عايشة الا علشانكم ، وعلشانك  
انت بالذات • لغاية ما تاخدى شهادتك وتخلصى ••

اقترب الأخ من الأخت •• مهدئا :

— يا عزة يا أختى أنا مقدر شعورك كويس • والاحساس بالذنب  
ده لو سبنا نفسنا له • حيخلص علينا •• بابا مات • الخمس  
ديكاترة أجمعوا على أنه مات • ومع ذلك ، فالحمد لله أنه ماماتش  
موته « ستروبية » « بابا مات موته عظيمه • قلبه أنقذ انسان تانى من  
الموت •• يعنى •• يعنى هو ما ماتش كله • فيه جزء منه • لسه  
صاحى •• وحى •• وبيدق •• والجزء ده لازم نحافظ عليه •• و ••

ارتفعت البنت للصورة • وإن يقولها هكذا ، بهذه البساطة ،  
مثل قصة أو مسرحية من مسرحياته الفاشلة التي يكتبها •

— ماما • قوليله مايقولش الكلام ده تانى •

قال مؤكدا •• « هى دى الحقيقة » •

تصدت له الأم بصوت حاسم : لا ياشوقى •• الكلام ده مش  
عايزه اسمعه منك تانى •• بابا مات • مات وانتهى الأمر ، واللى  
راح عمره ما بيرجع • لازم تفهم ده كويس •

وغلبيها التأثير • ارتعشت شفتاها • وسقطت من عينيها دموع •  
أحس الابن بالحرج وبالضيق ، أحيانا كانت تنتابه نوبات تكتم أنفاسه ،  
تهيب به لأن يدمر نفسه ويدمر العالم من حوله •• صرخ :

— عايزين تحسسوني انى ماكنتش باحب بابا زيكم ١٩ •• لا ••  
انا كنت باحبه أكثر منكم • أيوه •• ولو أنه ماخلنيش كلية زيك  
ياست عزة ••

وتحشرج صوته لأول مرة بالبكاء ، وأخرج علبة سجائره  
الصغيرة ، ويحث فى جيبه عن ثقاب ليشعل السيجارة • فلم يجد ••  
ترك الشرفة ودخل ليبحث عن الكبريت • أسرعت الأم نحو  
عزة • أمسكتها من كتفها • نظرت فى عينيها بتوسل ورجاء ، وهى  
تهز كتفها • وهمست :

— ازاي يابنتى تقولى انك حتخرجى • والراجل ، ييجى يقابل  
مين ؟! أنت تايله عن أخوك شوقى • احنا مش ناقصين مشاكل يا عزة  
•• ( ورفعت من صوتها بسرعة ) وكلها خمس دقائق ، وتنتهى  
الزيارة • نستحمل يا بنتى • فى أى لحظة دلوقت ، حنلاقيه بيخبط  
على الباب •

وعاد شوقى على الجملة الأخيرة ، فقال مكملًا :

– وجايز جدا تكون الصحافة جاية معاه ..

قالت البنت مستنكرة ..

– تيجى تعمل ايه ..

– يوصفوا المقابلة • أول مقابلة بيننا وبينه • دى مقابلة تاريخية يا عزة •

وقاطعته صارخة • لو أى حد منهم حييجى هنا حاطرده •  
( وتولتها رعشة ) انا • انا مش قاعدة ياماما • • مش حاستنى •  
انا حاخرج • قابلوه انتم • •

واسرعت بخطواتها وهبطت الدرجات الثلاث للشرفة • غير انها توقفت فجأة على صيحة من أخيها •

– عزة : لو خرجت ، حتحصل نتائج خطيرة •

رنت الكلمة فى رأسها • ومع ذلك لم تسال عن هذه النتائج •  
ستخرج ، وليكن ما يكون •

وسالت الام ابنها فى قلق :

– نتائج ايه يا ابنى ١٩

– طبعا ياماما ، لو الراجل ده حس اننا زعلانين ومقاطعيه  
حيثاثر جدا • حيجيله احساس بالذنب • وده يتعب قلبه الجديد • •  
الى هو قلب بابا يا عزة •

اشاحت البنت بوجهها متأللة ومرتزة • ودون أن تدري ،  
وجدت نفسها تندفع نحو البوابة ، لتخرج هاربة •



غير أنها ما كادت تقترب من الباب لتفتحه حتى سمعت دقات  
خفيضة على الباب • دقات ثلاث • تسمرت في مكانها • وعيناها  
شاخصتان على البوابة ••

لا بد أنه هو ••

ودون وعى ، التفتت نحو الأم والأخ ، والتقت نظراتهم • ثم  
توجهت النظرات نحو البوابة الخشبية القديمة •

– قالت الأم في هدوء وتماسك ••

– افتحى يا عزة ••

وكتمثال فاقد الارادة ، مدت يدها ، ورفعت المزلاج ••

وانفتح الباب ••

كان كمال أدهم ••

الرجل الذى يحمل داخل صدره • قلب أبيها • الذى مات •

## - ١٩ -

للحظة خاطفة ، توهج شئ مثل البرق ، سرعان ما انطفأ ..

تلاقت عينا « عزة » بعيني « كمال أدهم » وجدت على شفثيه  
ابتسامة هادئة ، وبدا أنيقا وسيما لولا أنفه المتكور الضخم ، وكان  
يحمل في يده اليسرى علبة مستطيلة فاخرة أنيقة • انحنى لها انحناءة  
خفيفة وقال يرتجى الود وقد اتسعت ابتسامته :

ـ الأنسة عزة ؟

اشاحت بوجهها عنه بسرعة وغضب • حركتها صريحة  
واضحة : لا أريد منك سلاما أو كلاما • بل لماذا جئت أصلا الى هذا  
البيت ؟ !

ارتبك كمال أدهم • داهمته انقباضة • وأحس بقلبه يهبط ..  
أوشك أن يصيح بها متوسلا : لا .. لا ياعزة • أرجوك .. يجب ألا  
تكون البداية هكذا •

• ورأى الزوجة والابن يهبطان درجات الشرفة لاستقباله • توجه  
اليهما ببصره • قال من كل قلبه ، يرتجى موقفا آخر ••  
– السلام عليكم ••

رد الاثنان ، الزوجة والابن ، فى نفس واحد •  
– عليك السلام ورحمة الله ( وازدافت الزوجة وحدها تكمل  
السلام ) وبركاته •• مسته لهجة الاثنان المرحبة • ومسه اكثر انفراد  
الزوجة بكلمة السلام الأخيرة ( وبركاته ) اشاعت فى نفسه احساسا  
بالامن وبالسلم ••

هذه اذن هى التى وهبته القلب • واختطف نظرة سريعة من  
عينها ليتأكد ••

اجل •• فيهما جن عميق ، ولكن لا ندم ، ولا من • انما تجمل  
عظيم بالصبر ••

وبدا وجهها الأبيض ، وسط الطرحة السوداء التى اتشحت بها ،  
مشعا ومضيئا •

وانحنى يحييها فى خشوع واحترام ••  
قال الابن وهو يقترب منه بخطوات طويلة ، متقدما امه ، باسطا  
له كفه فى حماس وود قلبيين ••

– اهلا اهلا •• استاذ كمال •• اتفضل ••  
اهتز فرجا لسماع اسمه يجرى على لسان الابن •• أحس بقربى  
شديدة منه • قال وهو يسلم عليه بدب وحرارة وامتنان :

– ألف شكر •• ألف شكر •• حضرتك •• الأستاذ شوقى ••  
– مضبوط ••

كانت الزوجة قد اقتربت منه • خطا نحوها بسرعة ، متجاوزا  
البنت والولد • مد لها يده • مدت يدها اليه • احتوى كفها الصغير  
في يده • قال مجاهدا ليتحكم في انفعاله :

... انا •• انا مش عارف أقول لحضرتك ايه ؟ أعبر عن شكرى  
ازاى ؟

كان ينظر فى عينيها الواسعتين ، متوسلا •• باحثا ••  
ارخت عينيها •• طلطات براسها قليلا ، وهى تسحب كفها من  
كفه فى هدوء ••

— الشكر لله يا استاذ ••• ( وبزفرة ) حمد الله على سلامتك !  
ود لو يمسك كفها من جديد ، ويغمره ، بقبلات الشكر والعرفان •  
— الله يسلمك ، ويسلمكم جميعا • ( وتنهّد رغما عنه ) ياريت  
•• ياريت أقدر أوفى ، ولو جزء بسيط من الدين ••

— أحنّا ماعملناش حاجة •• رينا هو اللى عمل ••  
صاح ممسوسا بالعبرة :  
— ونعم بالله •• أحمده طبعاً وأشكر فضله •• انما •• برضه ،  
رينا بيسبب الأسباب وانتم ••

ندت عن « عزة » فى وقفها حركة رفض واضحة • « لا أريدك  
أن تواصل هذا الكلام » • « هل أخطأت فى شىء ياعزة ؟! ربما ••  
ليس من الحكمة ، الدخول بسرعة فى الموضوع • ولكن •• لابد أن  
يقول الانسان أى شىء • أى شىء ياعزة • ماذا يمكن أن أقول ••  
أم استدير وأخرج ، وينتهى الأمر ؟! »

قال له الابن ، مشيراً بيده على مقاعد الشرفة :

— اتفضل حضرتك استريح ..

تشبت بكلماته ولهجته • قال مشيرا اليهم جميعا ليتقدموه —  
!تفضلوا .. ( وحانت منه نظرة للبنت ) واضح أن الأنسة عزة كانت  
خارجة .. آسف اذ كنت عطلتك ..

غمغمت دون أن تنظر اليه بكلمات لم يسمعها •  
ونأوشه الأمل من جديد ، أن ترد عليه ، أو على الأقل ترفع  
عينها اليه ..

— على كل حال حظى سعيد أنى لحقتك وشفتك ( وابتسم  
ابتسامة ، يختلط فيها العتاب بالاستعطاف ) على فكرة ، احنا  
ما سلمناش !

ومد لها يده ..

اضطربت البنت ، ودون أن ترفع اليه عينها ، ومدت له يدها  
بالسلام ، للحظة خاطفة ، ثم سحبت كفها من كفه ، وأشاحت مرة  
أخرى بوجهها عنه ، وقد ازدادت ملامحها جهامة ..

عادته الانقباضة • غير أنه تماسك • يجب أن ينجح فى  
المهمة ..

قال الأخ مسرعا ليزيل الحرج :

— أصلها كانت رائحة تذاكر مع بنت خالتها ، هنا فى عين  
شمس ، الامتحانات قربت زى ما حضرتك عارف •

حاول أن يقنع نفسه بالعذر .. قال بعماس :

— آه عارف طبعا • وان شاء 'الله تنجى ونهنكى — آسف  
إذا كنت أخذت من وقتك شوية •

كانت نظراتها متجهة الى البوابة ..

نظر الى العلبة التى فى يده • جمع شجاعته • وأوشك أن يمد  
لها يده بالهدية .. خائنه ارادته ..

عاود الابن دعوته :

— اتفضل يا استاذ كمال .. نقعد فى الفراندة ..

ندت عنه زفرة : اتفضلوا ..

وخطا بهدوء نحو الشرفة • كان شوقى يتقدمه بخطوتين ،  
مخليا له الطريق ، بحفاوة هادئة • اما الزوجة والبنت ، فكانتا خلفه  
.. تتبعانه .. وأحس بنظراتهما تخترقان ظهره ، وتصلان الى قلبه •  
وأحس أنه يكاد يترنح • شمله اضطراب عظيم ، وجاهد لتكون مشيته  
ثابتة • واستعاد نظرات الزوجة ، الأم ، يستعين بها على نظرات  
البنت • لماذا هذا الاختلاف فى الموقف ؟ لماذا ياعزة ؟ لا تشوهى  
الموقف .. أرجوك .. أنت لم تعرفينى بعد • بعد قليل ستعرفينى ..  
سأنسيك حزنك على أبيك ، فقط لا تغضبى منى • أنا لم أفعل الا أنى  
حافظت لك على قلب أبيك • كان يمكن أن يضيع كل شيء •

وصعد درجات الفراندة الثلاث ، وأشار له الابن على أحد  
المقاعد •

— استريح حضرتك ..

— متشكر جدا •

وجلس • وجلسوا ..

حل صمت ثيل عميق •

رغم الارتباك الكبير ، الا ان احساسا عميقا بالأمن والتفاؤل بدأ يشمله . وأخذ نظرة سريعة من المكان : البوابة الخشبية القديمة ، والصور المعلقة بالطين ، وتكعيب العنب ، وجذع الشجرتين ، وظلها . واستوقفته أحواض الزهور . وعقد مقابلة تلقائية بين ألوان الزهور ، وشباب الحداد السوداء التي ترتديها كل من الأم والبنات ، غريب أن تفتتح في هذا البيت زهور . الحياة مستمرة . وتذكر أحمد زهران « مادام فيه تجدد . يبقى مفيش موت » .

ليت كلامك يتحقق هنا يا زهران ، وإراهما ، الاثنين وقد خلعا ثياب الحداد .

وانت يا عزة ( واختلس نظرة منها ) كنت اتخيلك أصغر من هذا بكثير . ها أنت فتاة ناضجة . صدرك بارز وملء ، وشفتاك رغم الحزن مليئتان ، شهيقان . لسوف يأتيك العريس . قريبا - أنا واثق ، وستفرحين ، وتنسين ، أعدك يا عزة ، ومهما كانت الظروف ، أنا الذي سأقيم لك فرحك . فرحا يتحدث به كل الناس . سأزفك الى عريسك الموعود . ( ولاح له تلقائيا وجه « يحيى البدرى » واختلج قلبه بالفرح ) ماذا لو زوجتك من يحيى . يحيى شاب كفء . وعظيم . وفي حاجة لانسانة مثلك . لولا أمه التي مرضت فجأة لكان معنا الآن ، هو وزوجتي سناء . لكنه سيوزركم قريبا على أية حال . . . لا بد سيراك . . .

وابتسم في نفسه ، وقد نما فيه شعور التفاؤل والأمل . . . آه . . . يجب الا استرسل في الخيال . . .

وجذب من صدره نفسا عميقا . وأحس بحب غامر للمكان . ود لو يظل جالسا في هذه الشرفة . وتذكر اسم الضاحية « عين شمس » تذكره بحب : يقولون أنه كانت هنا مدينة مصرية قديمة . . .

يذكر ، قبل العملية أنه قرأ فى احدى الجرائد عن آثار اكتشافها  
هنا ٠٠ سوف يسأل مصطفى سيف عن تاريخ هذه البلدة ٠ وخيل  
اليه أنه عثر على التفسير ٠ تفسير الموقف العظيم : لماذا هذا المكان  
بالذات ؟! ولماذا هؤلاء الناس بالذات ، هم الذين وهبوه القلب الذى  
أعاد اليه الحياة ؟! غير أن منظر البنت كان له بالمرصاد : كان بين  
الحين والحين ، يختلس منها النظرات ، على أمل أن تغير الموقف ٠  
لابد أن يجتاز الموقف ويبحث عن كلام ، أى كلام يخاطبها به ٠

— انا ٠ حاسس انى معطل حضرتك ٠٠ ممكن حضرتك تـ ٠٠٠  
( ولم يكمل ) ٠

قال شوقى محاولا تليين الموقف ، وتبسيطه ٠

— يعنى مش للدرجة دى ٠ المذاكرة مش واحدة حدما اوى ٠٠

قال ادهم ، محاولا أن يأخذ جانب البنت ٠ ٠

— لا ازاى ٠٠ لازم تاخذ حدما تمام ٠٠ الامتحانات قربت  
جدا ٠٠ وما عايش فيه وقت ٠ حضرتك تفضللى يا آنسة عزة ٠٠  
( وأشار بيده الى البوابة ) بدون اى احراج !

واستلهم من نفسه الشجاعة والارادة ٠ نهض من على مقعده ،  
واقترب من البنت ٠ مد لها ذراعه بالعلبة ٠

— ممكن تقبليها منى ؟ رمز بسيط مش أكثر ٠٠

للوهلة الاولى ، لم تبدر منها أى استجابة ٠ لكنها أحسست  
بالنظرات كلها تتجمع عليها ، تدفعها ألا تترك يد الرجل معلقة هكذا  
فى الهواء ٠٠ وواصل الرجل :

— أرجو مانكسفينييش ٠



دون أن ترفع عينيه من الأرض ، مدت يدها بمسكة آلية ،  
واخذت العلبة ٠٠

كان يراقب أدق خلجات وجهها ، مستجديا شعاع أمل واحد ،  
غير أنها اشاحت عنه بسرعة ٠ وفجأة ، أحست برغبة تخنقها بالبكاء  
فاندفعت جريا ، والعلبة بيدها ، الى داخل الشقة ، وما أن اختفت  
داخلها حتى انفجرت في البكاء ٠٠

اضطرب الرجل ٠٠ نظر الى الزوجة والابن نظرة استغاثة .  
واعتذار : أنا ٠٠ أنا أسف جدا يا جماعة ٠٠ مش عارف أعمل ايه ٠

ورأى الأم تغمض عينيه ، وتزفر ، زفرة هزت أعماقه ٠٠ ثم  
نهضت في صمت ، وشفتاها ترتعشان بشكل واضح ، كانت هي الأخرى  
تقاوم البكاء وانسحبت في هدوء خلف ابنتها ٠٠

وكالغريق المتعلق بحبل النجاة ، التفت الى الابن ٠٠

— قوللى يا أستاذ شوقى ٠٠ أنا غلطت انى جيت ١٩

قال الابن متأثرا بأزمة الرجل ، مبديا سخطه على ما حدث :

— ازاي يا أستاذ كمال تقول كلام زى ده ٠ بالعكس ٠ احنا كنا  
فى انتظارك من الصبح ٠ وكنا كويسين كلنا ٠٠

— أمال ليه « عزة » عملت كده ٠٠ ١٩

زفر شوقى :

— ده شىء طبيعى ٠٠ حضرتك مقدر الظرف طبعا ٠٠

قال متلججا :

— طبعا ٠ شىء طبيعى طبعا ٠٠ انما ٠٠ ( ولم يعرف بماذا  
يكمل ) ٠

ـ واصلها كانت غالية أوى عند بابا ٠٠

قال وقد التقط خيطا قد يوصله لمعرفة الحقيقة ، حقيقة الأرض  
المجهولة التي يقف فيها ٠٠

ـ و أنت ٠٠ ما كنتش غالى عنده كمان ؟! ضرورى طبعا كنت  
غالى ٠٠

وبصوت شارد ، أحس فيه كمال رنة أسى بعيدة ٠

ـ طبعا كنت غالى عنده ٠٠ بس هى الحقيقة كانت شىء تانى  
٠٠ خصوصا بعد ما دخلت الكلية ٠٠ كان نفسه يشوفها واخدة شهادة  
عالية ٠٠

أدرك على الفور انه بدأ يضع يده على طرف جرح ٠

ـ و أنت ما دخلتش الجامعة ٠٠ ؟ !

ـ أنا دبلوم صنايع ٠٠ اتخرجت من سنتين ٠٠

قالها شوقى ثم أرخى عينيه بخجلا ٠

ياصغبرى العزيز ٠٠ هذا هو اذن جرحك ٠ وأوشك أن يصيح  
ضاحكا ومشجعا : ولا يهمك ٠ أنا أيضا دبلوم صنايع ٠٠ مررت  
بأزمته هذه ٠ الحياة بلا مستقبل شىء بشع لكنى غيرت حياتى ٠٠  
غامرت ٠٠ تركت الوظيفة ودخلت بنفسى عالم السوق ، وأصبحت  
أملك مصنعا وعربة ٠ أنت الآخر يا شوقى ٠٠ يمكنك أن تغير حياتك ٠  
يحيى البدرى غير حياته ٠ يمكننى أن أساعدك أيضا ٠ بأى شكل  
تريد ، لو تريد ٠ كلمة واحدة منك أبذل المستحيل ٠ أسدد جزءا من  
الدين ، وتصفو الحياة !

غير أن نحيب البنث تنهاى الى سمعه من داخل البيت ، خافتا  
مكتوما ، وأحيانا بشهقات ٠٠

٥ ، ، لا ياعزة ، أرجوك . انظري الى الموضوع نظرة اخرى ،  
 أنت طالبة فى الجامعة ، ومثقفة ، وقد وافقت معها على أن تهينى  
 القلب . الطبيب قال لى أن الموافقة كانت اجماعية . . أرجوك .  
 لا تننمى . ومع هذا ، أنا آسف . فمن حقه أن تبكى . وحتى لو  
 كنت قد نسيت ، الى حد أن تفتحت الزهور ، فظهورى لابد يحرك  
 الذكرى . أبكى ياعزيتى ، ولكن فقط لا تغضبى على . . سامسح عنك  
 كل حزن . سأبحث عن أفراخ الدنيا وأقدمها لك . . و . .

ورأها مقبلة مع أمها ، مطاطة الرأس ، مجهدة الخطوات ،  
 والعيون حمرة ، عيون الاثنتين . وبدلا من العلبة ، كانت البثت تحمل  
 بعض الكراسات والكتب .

زادت ارتباكته ، وفوجيء بالأم تقوم لها :

– يا الله يا حبيبتي ، روجى أنت لذاكرتك . والساعة عشرة شوقى  
 أخوك حيمر عليك ياخذك من عند « هالة »

اعتدل كمال فى وقفته . تهيأ لأن تسلم عليه وهى خارجة .  
 كانت دقات قلبه تسرع : « ولو بنظرة ياعزة ويتم الصلح » .

غير أنه فوجيء بها تأخذ طريقها مباشرة الى « البوابة » دون  
 اية كلمة – ورأى الموقف يقلت منه . أوشك أن يصيح عليها . لا . لا  
 ياعزة ستتركين الموقف بيننا هكذا معلقا . انتظري . نتكلم سويا  
 قليلا . لا داعى للعذاب .

غير إن الفتاة كانت قد فتحت البوابة ، ثم خرجت وأغلقتها خلفها  
 فى هدوء .

تولاه احساس بالهزيمة . وهبط عليه وجوم ثقيل ، لولا أنه  
 فرجىء بالأم تزفر زفرة حارة ، وتقول معتذرة .

– معلّش يا أستاذ كمال • أنت عارف البنات • وبالأذات عزة  
( ولم تكمل ) •

تعلقت روحه بجرس صوتها وهى تخاطبه باسمه • ( يا أستاذ  
كمال ) ما أجمل اسمه على لسانها تنطقه باخلاص ، ونظر إليها ، الى  
وجهها ، بلامحها الصغيرة الدقيقة البيضاء وسط الطرحة السوداء •  
أحيانا يعطى الحزن والشحوب جمالا للإنسان فوق جماله • ورغم أنها  
كانت من النوع البسيط الحجم • الا انه رآها ، مرتفعة جدا ، وتمنى  
لو يصعد إليها • هذه اذن هى المرأة العظيمة التى أخذت الموقف  
العظيم • نعم • هى بطلة الموقف • وليست البنت • كل ما يهمنى الآن  
هو أنت •

وتوجه إليها بكل روحه ، طالبا منها الخلاص •  
– أنا آسف جدا يامدام ، اذا كنت سببت لكم ازعاج أو ألم •  
أنا مقدر كل شيء • لكن كان لازم آجى وأشكركم • أنا مهما عملت ،  
ومهما سمحتولى أعمل ، لايمكن حاقدر أوفى جزء من الدين الكبير  
الى على •

وينفَس النظرات المطأطأة فى الأرض •  
– لا دين ولا حاجة يا أستاذ • الحمد لله أنها جت بنتيجة •

– لا يامدام • ده دين كبير • كبير جدا ، لأخر يوم من عمرى  
حافضل أسد فيه • أنتم لكم الفضل فى أنى عايش دلوقت ( ونظر  
الى شوقى ) أنا حياتى كانت عذاب وآلام • كنت باطلب الموت عشان  
أخلص من العذاب الللى أنا فيه •

وقال شوقى مخففا عنه توتره وانفعاله ، مشيرا على مقعده •  
– أستاذ كمال • أرجوك ماترهمقش نفسك • اتفضل استريح •

وجلس • توقع من الزوجة أن تجلس • غير أنه فوجيء بها  
تسأله •

— حضرتك تشرب حاجة ساقعة ، والا سخنة ١٩

قال معترضا بشدة على تركها المكان :

— لا • لا متشكر • متشكر جدا • مش عايز حاجة ابدا •  
خليكى مستريحة •

بدا عليها الاصرار ••

— معلش •• لازم تشرب حاجة ••

لماذا ترخين عينيك عن عيني ، هكذا بسسرة • بحر حزنك  
واصطبارك • اريد أن أغرق فيه ، أم أنك أنت أيضا — مثلها —  
تستعجلين قيامي •

— اشرب أى حاجة •• ساقعة •• سخنة •• زى بعضه ••

استدارت فى هدوء لتدخل الشقة • ووجد نفسه يتبعها بنظراته •  
كانت ترتدى فى قدميها البيضاوين خفا صغير أسود • واسترعى  
انتباهه ساقاها ، بطن ساقها ، كانا بيضاوين مليئين ومشدودين ،  
فى تناقض مع الوجه الشاحب والعينين الحزینتين ، وأحس فيهما  
بلحم امرأة •• لحم شهى الملمس • واضطرب فجأة إذ ضبط نفسه  
متلبسا بهذا الخاطر ، وخشى أن يكون شوقى قد فهم فكره ، غير أنه  
تنبه على حركته وهو يشعل سيجار ، ويقول :

— حضرتك مابتشربش سجائر طبعاً •

قال مسرعا وشاكرا :

— بطلتها خلاص ••

- من قبل العملية ، ولا بعدها ٠٠ ١٩
- الحقيقة قبلها بكثير ٠ ولو أن الدكتور سامح لى اشرب ،  
مش كثير ، لو أعوز ٠
- قال الولد معترضا بشدة :
- ازاي الدكتور يسمح لك بشرب سجائر ٠ لا يا أستاذ ٠ مش  
معقول ٠ ما يصحش تشرب سجائر اطلاقا ٠٠ عشان ٠٠
- وتردد فى أن يكمل
- قال كمال مبتسما :
- عشان قلبى ٠ اللي هو قلب باباك ٠٠ ( وانفعل فجأة الى  
حد الرغبة فى البكاء ) ياريت ياشوقى ٠٠ ياريت ٠٠
- نظر اليه الابن مستفسرا :
- ياريت تعتبرنى باباك ٠٠ أو زى باباك ٠٠ أنا فى جزء من  
باباك فعلا ياشوقى ٠ أعظم جزء فيه ٠ قلبه ٠ وعایش به ٠ أبوك  
ما ماتش ياشوقى ٠
- ارتعشت شفتا الولد ٠٠ واختلجت كل ملامح وجهه ٠ سقطت  
فجأة من عينيه دمعتان ٠٠
- أوشك كمال أدهم أن يصرخ ٠ لا ٠ لا ٠ ياشوقى ٠ لم أقصد  
شيئا ٠ غير أنه فوجيء به يقول وهو يتحكم فى دموعه ٠
- شوف يا أستاذ كمال ٠ بصرف النظر لازم أى انسان يفرح  
بنجاح عميلتك ٠ دى قضية تهم البلد كلها ٠ الانسانية كلها ٠ أما  
الاعتبارات الشخصية ، ففى يوم من الأيام حتروخ وحتتنسى ٠

فرح بكلامه • تذكر مقالة مصطفى سيف عنه • أحيانا يبدو  
هذا الولد أكبر من سنه • وأكبر من دبلوم صنايع • الحزن يعلم  
الضغار الفلسفة • تماما مثل يحيى البدرى • قل لى ياشوقى  
ما هى أحزانك •

– أنت انسان ممتاز يا أستاذ شوقى ••

– ولا ممتازولا حاجة ••

– يجد • ويأريت نبقى نشوف بعض باستمرار • تيجى تزورنى  
فى المصنع ، وتتفرج عليه • ونقعد مع بعض ونتكلم •

– باذن الله ••

جلت لحظة صمت ، داعبه احساس بالأمل ، وبالرضا عن  
النفس • سأساعده ، سادفعه لكى يغير حياته • غير معقول ان يظل  
هكذا الى الأبد دبلوم صنايع •

– قوللى يا أستاذ شوقى • أنت بتشتغل فىن دلوقت ؟

– فى وزارة الاسكان •

قال كمال خبديا دهشته :

– وزارة الاسكان ازاي ، وأنت دبلوم صنايع – مش ماشيين  
مع بعض •

– ( وعلق بابتسامة ساخرة ، يشيع فيها السخط والمرارة ثم  
وهو يشوح بيده لا مباليا ) على كل حال مش ده الطريق اللى أنا عايزه  
لحياتى !

– آمال ايه الطريق اللى أنت عايزه ؟

قال باعتزاز وثقة :

ـ أنا بأكتب قصص ومسرحيات ، وانتشر لى قصثين .  
فرح كمال بالمفاجأة ، وتذكر على الفور صديقه مصطفى سيف .  
فساله بشغف :

ـ تعرف مصطفى سيف ؟

ـ طبعا ، قرئت له كثير ..

واوشك أن يسأله اذا كان قد قرأ مقالته الأخيرة التى كتبها عنه  
بمناسبة نجاح العملية وخروجه من المستشفى ، لكنه تذكر فى نفس  
اللحظة ، المقالة الأخرى التى هاجمت العملية واتهمت الطبيب بالكفر  
والاعتداء على حرمة أجساد الموتى ، واقتشعر جسده . أثر البعد  
عن المقاتلين . غير أنه وجد نفسه يربط بين موقف عزة ، وهذه  
المقالة الأخيرة .. أيمكن أن يكون هناك نوع من الربط بين الاثنين ؟  
ونشل نفسه بسرعة من الدوامة التى أوشك أن يغرق فيها . كنا نتكلم  
فى ماذا ؟ أه . انه يكتب . وعادته الابتسامة .

ـ على فكرة . مصطفى سيف صديقى جدا ، ويمكن أعرفك  
به . فى أى وقت تحب .

ارتسمت على شففى شوقى ابتسامة ساخرة .

ـ وافرض حضرتك عرفتنى به . يحصل ايه ؟

ـ يساعدك فى النشر . وقرأ القصص اللى بتكتبها .

قال شوقى بهدوء :

ـ مصطفى سيف ما بيساعدش حد . لا هو ولا كل الجيل  
بتاعه . كلهم ما بيعملوش الا لحساب أنفسهم ويس . انما يعطوا  
فرصة لموهبة جديدة طالعة .. لا . بالعكس . أى موهبة يلاقوها ،  
يموتوها ..



أوشك أن يثبسم • وتذكر عدم أعجاب « يحيى الأبدري » بمقالة  
مصطفى سيف عنه • أهو صراع الأجيال ١٩!

قال مدافعا عن مصطفى سيف ، واصلا الجسر بين الاثنين •

– بس مصطفى سيف بالذات انسان كويس • اعتقد لما حتتعرف  
به شخصيا ، حتغير رأيك فيه •

– جايـز ••

– مش جايـز ، اكيد • أنا واثق انه حيفتح لك الطريق •

قال شوقى وقد لمعت عيناه بأمل غامض :

– حضرتك تعرفه من زمان ١٩ ••

– طبعا • كانت بيننا ايام • وذكريات لا تنسى • بعسدين  
حاحكيها لك •

• وخف فجأة حماسه ، عاوده وجه عزة • الغضب ، والرفض ،  
بل وربما الكراهية ••

« لو تساعدنى يا شوقى » لو توضح لى الموقف • لو تشير على  
على بماذا افعل ١٩!

– قوللى يا استاذ شوقى ، وأرجوك تكلمنى بصراحة •

– اتفضل ••

– ليه عزة واخدة منى الموقف ده ١٩!

– ولا موقف ولا حاجة •• شوية كده وتروق ••

– لا يا استاذ شوقى • دى رافضة تشوفنى ، او تفضل معاى

فى مكان واحد • أرجوك تقوللى • هى بتفكر ازاي فى الموضوع ؟

بدأ التردد واضحا على الابن ، تململ في جلسته ، وأشعل  
سيجارة أخرى .

– ارجوك يا استاذ شوقي . عشان اصفى الموقف اللي بيننا  
قال شوقي وقد نهض فجأة من على مقعده ، متهربا من مواجهة  
الرجل ، وتوسله :

– ولا موقف ولا حاجة . هي اللي انسانة تفكيرها غريب .  
نهض الرجل . واجهه مرة أخرى ، برجاء :

– تفكيرها غريب ازاي . قوللى . هوده اللي عايز اعرفه .  
نظر شوقي في عينيه طويلا . ثم قال :

– عزة يا استاذ كمال بتعتقد ان باباها ما ماتشى موة طبيعية .  
عزة بتعتقد ان بابا مات مقتول ! واللى قتلته العملية . وان لو  
ماكانش الدكتور اخذ قلبه ، كان ممكن عاش ، زى ما انت عشت به .

- ١٢٠ -

ويمكذا بدأ الزلزال . .

فى لحظة واحدة تبدد عن النفس كل الأمان ، كل الأمل — وبدأ  
الرجل مترنحا من هول الصدمة . وكان فمه مفتوحا وعيناه فاغرتين ،  
غير قادر ولا واثق من أن ينطق بكلمة . وقد اتضحت فى تلك اللحظة  
نقطة مأساوية فى شخصية كمال أدهم ، إذ أحس باستجابة كامنة فى  
أعماقه لهذا الاتهام الخطير وميل الى التسليم به . ورأى نفسه فجأة  
كأنما سيسقط برأسه فى ظلام هاوية عميقة ، صاح فى وجه الابن ،  
دافعا عن نفسه الاتهام الرهيب :

— مشن معقول — مشن معقول . أنا واثق أن بابا كان مات ، من  
الصدمة ، أنا متأكد .

قال الابن مؤكدا نفس الدفاع وقد داخله نوع من الغرغرة .

– وأنا كمان ، واثق انه كان مات • وماما ، متأكدة انه مات ،  
مستحيل انها كانت توافق على نقل قلب بابا ، من غير ما يكون  
مات ••

ولاح ضوء بعيد فى بحر مظلم • الوجه الأبيض الجميل المهيب  
الصابر داخل اطار من سواد الحداد •

قال كمال ادهم مواصلا دفاعه باستماتة : طبعا ، مش معقول  
زوجة توافق على نقل قلب زوجها من غير ما يكون مات فعلا ••  
والدكتور •• والدكاترة اللي قرروا انه مات • يبقى ليه عزة تتصور  
كده ١٩

– قلت لها هذا الكلام وأكثر ، ومع ذلك ، رافضة انها تقتنع  
•• مش راضية تصدق اصلا انه مات •

– على اى أساس ١٩ دى مسألة نتائجها خطيرة •• و ••  
حرام عليها لازم اواجهها يا استاذ شوقى • والدكتور كمان ، لازم  
حاخليه يواجهها ، ويقنعها •

قال شوقى رافضا ان يأخذ الموضوع هذا الاتجاه •

– استاذ كمال • عشان كده ما كنتش عايز اقول لك حاجة ،  
حضرتك اللي اصررت ارجوك، مالوش داعى تقليب الموضوع • وعلى  
اى الأحوال ، ومهما كان اللي حصل ، عمر بابا ما حيرجع يصحى  
تانى •• خلاص ، انتهى الأمر !

عاودته الزلزلة • أيمكن ان يكون الابن هو الآخر عنده شك  
فى وفاة أبيه ؟ قال بفزع :

– يعنى ايه ؟! فيه احتمال ان ما يكونش بابا مات فعلا •  
وان الصدمة اللي حصلت له ، مش هي اللي موته ١٩!

– أرجوك يا أستاذ كمال – أنت بالشكل ده حتخلينى أشك من  
تانى – مش ممكن • أنا خلصت من المرحلة دى •

ورأى أمه قادمة بخطوات هادئة خفيفة ، تحمل صينية عليها  
فناجين من القهوة • قال مسرعا بصوت خافت : سبنا من الموضوع  
ده دلوقت • عشان خاطر ماما • أرجوك ••

قال ووجهه يطفح بالآلم ، وخيبة الأمل •

– أسيه ازاي • مش معقول يا أستاذ شوقى دى مسألة مش  
بسيطة • لازم أتأكد ••

لمحت الأم عذابه ، وانفعاله ، نظرت الى الابن مستفسرة وقد  
تولاهما القلق :

– فيه ايه يا شوقى !؟

– ابدأ يا ماما • مفيش حاجة ••

وأسرع اليها يحمل عنها الصينية • رفعت فناجانا فى هدوء ،  
وقدمته الى الرجل وبابتسامة قلقة حزينة :

– اتفضل ••

– ألف شكر •• ألف شكر ••

ورأى فى عينيها جلال الحزن • لكنه حزن شامخ صابر ومهيب  
•• فاندفع يرتجى منها الخلاص وأمن النفس •

– قوليلى يامدام لو سمحت • ايه اللى خللى « عزة » تفكر  
التفكير ده !؟

– تفكر ايه !؟

— أن المرحوم ماكانش مات فعلا قبل العملية ؟

— مين اللي قال لك الكلام ده ؟!

قالتها مروعة ، ونظرت الى الابن نظرة غضب وعتاب مريرين .  
ارتبك الفتى الصغير ، وبان عليه الخجل والضيق الممتزج بالتحدى  
قال كمال ادهم مدافعا عنه ، ماضيا فى تقصى الحقيقة .

— أنا اللي رجيته يقوللى ليه « عزة » واخدة الموقف ده منى .  
قوللى الحقيقة يامدام أرجوك .

ونظر فى عينيها ، واذا بنظرة غضب رهيبية تطل منهما ، قالت  
وقد شدت جسمها بوجهها ، وغرست عينيها فى عينيه ، وبلهجة هادئة  
حاسمة .

— استاذ كمال . ماتخليش كلام عزة يؤثر فيك ، وأنا عاطياها  
العذر على كل حال .

— ازاي يامدام . ده اتهام خطير . مش بسيط أبدا . .

— مش متهمك انت بس . ده متهمانى أنا كمان . عايزانى  
أعيش فى ندم . ليلى ونهارى فى ندم . ومع ذلك ، عاطياها العذر .  
ومستحمالا . كانت متعلقة جدا بأبوها . مسيرها تروق وتهدا ،  
وتفتنح انه مات . ( وارتعشت شفتاها ) لأنه كان مات فعلا . . وآخر  
نفس له كان بين أيدي دول !

وانفجرت فجأة فى البكاء . .

ارتبك الرجل . .

— مش معقول يامدام . أنا . أنا متأسف جدا . ما كانش  
قصدي .

وفوجيء بشوقي يبكي هو الآخر في هدوء ..  
انخرط هو أيضا في البكاء .. « مش معقول . مش معقول »  
وفجأة دق على صدره مكان القلب ، وصاح ودموعه تنهمر من عينيه :  
- على كل حال أنا مستعد انه ينشال مني ثاني ، اذا كانت  
عايزه وأموت وأستريح ..  
قالت الزوجة :

- تبقى بتسلم بالتهمة . ولو ده صحيح ، ابقى أنا اللي قتلته ،  
مش انت ..  
- لا انت ، ولا أنا ، يبقى الدكتور هو المسئول . هو اللي  
خدعنا ..

قال شوقي في شبه صرخة :

- تبقى بالشكل ده انتصرت علينا . نعيش ونموت في الندم .  
وهو ده اللي عايزاه . أنا باكرها الانسانية دي . باكرها .. وأنا  
بأذكرك منها . يا استاذ كمال . لو استسلمنا لأفكارها يبقى بنحول  
الموقف العظيم لجريمة . وأنا أرفض أن حضرك تقبل الوضع ده !

داخله ارتياح عميق . لى انه كانت هناك جريمة بالفعل ،  
فليس هو وحده المطالب بالدفاع : الزوجة والابن . والطبيب ..

لا ، بل الطبيب وحده المسئول . المسئول الاول . كيف يمكن  
تصور حدوث الجريمة ؟! . لم يكن الرجل قد مات ، ولكنه استعجل  
اجراء العملية ليضمن نجاحها ، وليخرج على العالم بمجده العلمى  
العظيم . ما أبشع المجد لو قام على المؤامرة وعلى القتل . ورأى  
مشرط الجراح سكيننا في يد جزار . وأحس بقلبه داخل صدره وتنايحت

انفاسه حتى كادت تتحول الى لهات • أيمن أن يكون هذا القلب ثمرة جريمة ؟! ورأى الطبيب يتهاوى من قمة العظمة الى أرض الخديعة والمؤامرة • خدعنا جميعا ! وتذكر مقالة « فهمى عبد الغفار » الذى هاجم العملية من الناحية الدينية ، وهدد كل من اشترك أو ساهم فيها بيوم الحساب • هول الحساب ؟

لا • لا • يجب ألا تجرفنى الأفكار الخبيثة السوداء • هناك مصطفى سيف ، الذى هنا الانسانية كلها على نجاح العملية • نعم ، لن أتشكك يا شوقي أكثر من هذا • ونظر الى الفتى • كان قد جفت دموعه ، وأحس به سندا قويا يستند اليه • وود لو يضمه بحنان • • لسوف أساعدك يا شوقي ، حتى لو لم أعد الى هذا البيت مرة أخرى ، فسأخذ وعدا من مصطفى سيف ليساعدك على النشر • ونظر الى الزوجة ، كانت دموعها قد كفت عن السقوط • وعادها شموخ الحزن • عيناها بحران من الحزن العميق ، ولكن منهنما أيضا يمكن أن تهب العواصف ، فتغرق السفن والمراكب وتهوى الى ظلمة القيعان •

« من أنت • قولى بربك من أنت • كيف تزوجته • وكيف كانت حياتكما معا ؟! »

و • وكيف فعلا طارحك قلبك على أن توافقى الطبيب على نقل قلب زوجك ؟! الى رجل غريب لا تعرفينه ؟! • لو أن سناء زوجتي كانت قد وضعت فى نفس الموقف ، وطلب منها نفس الطبيب أن توافق على نزع قلبى لتمنحه لرجل آخر • أى رجل • أكانت ستقبل ؟! لا • سناء لا تفعلها ولا أى امرأة أخرى • أمن هنا ينبع الشك ؟! أم فى المسألة سر لا يعرفه غير البنات ؟!

لا • لا • هذا الملك الأبيض لا يمكن أن يفيض عنه غير الحب ، وتملكه حنين جارف اليها ، أن يمسح من على خديها آثار الدموع •



انت • يا انت • يامن لا مثيل لك وسط النساء على الاطلاق ، ولا حتى  
بين الرجال • وتنبه الى فنجان القهوة •

كان قد برد تماما ••

يجب أن يشربه • يجب أن تراه وهو يشرب مشروبها ، قال  
بصوت واهن مرهق :

— متشكر يا ادمام على القهوة ••

وجاهدت لتبتسم له •

وشرب الفنجان البارد دفعة واحدة •

وكرر ••

— الف شكر •• الف شكر ••

وأسرع شوقي وتناول منه الفنجان ، وحل على الثلاثة وعلى  
الشرقة صمت عميق ، ثقيل • أى كلام يمكن أن يقال • وأحس ببوار  
الدوامة • فجأة ، امتلأ الجو بصوت طائرة كانت تمر من فوق المنزل •  
وأصابه اضطراب عظيم • واختلس نظرة من الاثنين • لم يبد على  
وجهيهما أى أثر لصوت الطائرة • وتذكر بسرعة أن مطار القاهرة  
الدولى قريب • وتخيل الطائرة ، مع ابتعاد صوتها ، راحلة بمن فيها  
الى بلاد مجهولة • الرحيل • الفراق • الموت • الدوامة تعود • لا •  
•• لا لم أعد قادرا •

واستجمع كل شجاعته • ومد يده بالسلام • وحين أخذ يدها  
فى يده للحظة ، أحس أنه لابد من عودة الى هذا البيت • هذا البيت  
يجب أن يتبدد عنه الحزن • فهل أستطيع ؟ وعأوده وجه « عزة » •  
فأسرع كالهارب بالخروج ••

## - ١٣ -

وهكذا ، لم تطل مرحلة الطفولة البكر السعيدة فى عمر الرجل الذى عاد الى الحياة بقلب سليم . كانت الشوارع قد شرع يحل عليها الظلام ، حين ركب عربته وانطلق بها مغادرا « عين شمس » .

لم يكن يدري الى أين ينطلق . وخطر له أن يذهب الى زوجته سناء ويحيى البدرى عند أمهما لكنه أحس بنفور من جو البيت . . . فضلا عن أنه لم يحدد بعد ، اذا كان سيقول لسناء ما حدث فى هذه الزيارة أم يؤجل الكلام الى وقت آخر . كان يقود العربى بسرعة ، والمرئيات امامه فى العتمة مهتزة وغير واضحة بالتحديد . وقال فى نفسه : لو كان معى الآن يحيى البدرى ، لقاد هو العربى ، وتفرغت انا للتفكير فيما يجب أن أفعله . ولكن لا . يجب أن اعتمد على نفسي من الآن . ثم اننى لا يصح أن اشغل « يحيى » فى موضوع كهذا . . . يجب أن يتفرغ هو للمصنع . لقد أعطانى فرصة الذهاب الى المصيف . أى اصطيفاف وأنا فى هذا الهم الشديد . لن أترك القاهرة الا بعد .

أن أنتهى من هذه المشكلة . ولكن كيف سأنتهى منها ؟ ليس أمامى  
غير الطبيب . ولكن ، هل أنا حقا قادر على مواجهة الطبيب . أن  
القى فى وجهه بالاتهام الرهيب « لست طبيبا . أنت قاتل » . وهذا  
هو الجزاء . وأحس بالتضاؤل أمام الطبيب . وافترض أنه قال لك  
« نعم . لم يكن الرجل قد مات نهائيا . هل هذا يؤذيك ؟ أرقد اذن  
لأنزع عنك قلبه ، وأعيد لك القلب القديم ! » .

وأحس بدوار . حدثت فى عينيهِ زغلة شديدة ، وفجأة ، وجد  
نفسه - بسرعة غريزية ، ويكل ما أوتى من قوة ، يضغط على القرملة  
حتى أن السيارة انحرفت برد الفعل الى اليمين وكادت تدخل فى  
الرصيف . وعرفت العربة الضخمة . القادمة بسرعة مجنونة . وبدأ  
للحظة كالمذهول . تفادى اصطداما مروعا كان سيطيح بالعريتين .  
وأحس والعربة واقفة بدقات قلبه تعلو كالطبل وبدمائه وقد هربت  
منه . نجا من الموت بأعجوبة ورأى بعض الناس وقد هرعوا جريا فى  
اتجاه عربته ، ليروا هذا الرجل الذى نجا من الموت بأعجوبة .  
وداخله الخوف ، أن يعرفه أحد ، ويتكرر بشكل آخر ما حدث فى  
شارع الأزهر . وانطلق بعربته وقد انقابه شعور جارف بالخطر .  
وتفثل وجه « عزة » أحس بكره شديد لها . كانت هذه البنت ستكون  
سببا فى قتلى . وهذا هو لون العقاب الذى يرضيها ، انتقاما لأبيها ،  
أقتل أنا الآخر ! ؟ لا . . . ( وتنبه جيدا للطريق ولحركة المرور )  
أنا لم أعد للحياة لكى أجد فى انتظاري الآلام والعذاب . لن أذهب  
الى هذا البيت مرة أخرى . قمت بالواجب . شكرتهم وانتهى الأمر .

ولاح الوجه الأبيض وسط طرحة الحداد السوداء . « هكذا  
تهرب بنفسك بسرعة . تتركنى وحدى أحمل عبء الاتهام . ! ؟ »  
وانضم الى وجهها وجه الابن . لقد استقبله شوقى استقبالا لم يكن

يحلم به • اهكذا يتخلى بسرعة عنه • ووعده بمساعدته عند مصطفى سيف ؟! اذهب الى مصطفى سيف • واحكى له ما حدث ، ويعطينى رايه • • ولكن من يضمن أن مصطفى سيف عاد من الاسكندرية طلبته لأشكره على مقالته عنى • فقالوا : انه فى الاسكندرية • ماذا سيقول مصطفى سيف حين يسمع ما حدث • • ؟! لقد اعتبرنى رمزا لاجتياز النكسة • وأحمد زهران – كان يهنئنى باعتبار القلب الذى بداخلى هو قلب الشعب • كل هذا سينهار لو كان قائما على مؤامرة قتل •

أفتيانى يا أساتذة السياسة • قل لى يا أحمد يا زهران • كيف اتصرف فى هذا الموقف ؟! كيف يتصرف قلب الشعب اذا أدرك أنه انتقل من صاحبه على أساس جريمة قتل • هل يظل كما هو ، قلب الشعب ؟! •

وتوهج فى عينيه ضوء كشاف لعربة ضخمة • ركز كل أعصابه على عجلة القيادة وعلى الطريق • ومرقت العربة • كان نهر من العربات رائحة غادية • وكان قد دخل القاهرة • ظل ماضيا • وقال فى نفسه • لو أننا بالنهار ، لكننت قد مررت على صلاح عبد الهادى فى محله • ولكن ، هل علاقتى بالحاج صلاح تسمح بأن أقول له هذا الموضوع ؟! لنفترض أن الرجل فتح لى صدره • ماذا سيكون حكمه ؟! انه مثقف ، والتاجر الوحيد فى الأزهر الذى يحمل ليسانس حقوق ومع ذلك ، فأنا أخشى – بميوله الدينية ، أن يبذر فى نفسه بذور الشك فى المعجزة العلمية !

اذهب الى أحمد زهران ، فى مكتبه • وحتى ان وجدته مشغولا فساجلس فى صمت وهدوء ، حتى يفرغ من عمله •

كان يحس بالحاجة الى انسان يحتمى فيه ،

\*\*\*

بعد قليل ، وجد نفسه يقف بعربته أمام العمارة التى بها مكتب  
أحمد زهران • ورأى حجرة المكتب مضاءة ففرح جدا • وتفاؤل •  
قفل العربة ، وصعد بالأسانسير الى الدور الرابع واستراح الى انه  
وحيد فى الأسانسير ، هذا المصعد ياما ركبه كثيرا • كان يود أن  
تكون أول زيارة لزهران بعد العملية ، مهجة وخفيفة على النفس •  
على كل حال ، لن يلقي عليه بهمة الا فى الوقت المناسب •

وتوقف المصعد • كان الباب مفتوحا • ودخل الى الصالة ••  
نفس الأثاث القديم • خطوتان ثم توقف • هل يدخل مباشرة على زهران  
فى المكتب ام ينتظر حتى يظهر الفراش ويطلب ابلاغه بوجوده ؟ وسمع  
فجأة صوت أحمد زهران • عاليا يتكلم باحتداد وحرارة •

... هى دى القضية النهارده يا مصطفى ياسيف ••

مصطفى سيف •• ؟ وأوشك أن يقفز من الفرع • لكنه تمالك  
نفسه وراح يصغى فى انتظار أن يسمع صوت مصطفى سيف ، لكن  
زهران كان ماضيا فى الكلام بنفس الحماس ، ونفس الانفعال « صحيح  
أنت تعرضت لها فى مقالتك عن عملية نقل القلب ، لكن من بعيد وبشكل  
رمزى : ان الأمة عايزة قلب جديد •• كلام جميل ، لكنه فى النهاية  
تعبير فنان • اسمح لى اكلمك بصراحة يا مصطفى • زمن الكتابة  
بالرمزيات انتهى •• لازم من النهارده النقط تتحط على الحروف  
بشجاعة وصراحة ووضوح • الاشتراكية النهاردة عشان تستقر لا بد  
لها من حزب •• حزب ثورى بأفراد مؤمنين عقائديين ، مناضلين ،  
هو ده التجسيد الحقيقى للقلب الجديد اللى محتاجاه مصر •

دعى العملية الكبيرة الى عايزينها تنجح بصحيح ( اذا فهو لا يهتم  
بعمليتي ٠٠ )

– سيف يسأل بجدية : قصدك حزب شيوعى ؟!

– ليه لا ٠ ومع ذلك مش مهم الاسم ٠٠

– وافرض الاخوان طلخوا وقالوا لك احنا كمان عايزين  
حزب ؟!

– يعملوا حزب ٠٠ احسن للبلد انهم يطلعوا من تحت الأرض  
والناس تعرفهم على حقيقتهم ٠ انا واثق ان التطور تجاوزهم من  
زمان ٠

– انت بتبالغ يا زهران ٠ انا ضد اعطاء الحرية النهاردة لأى  
عناصر يمينية باسم الديمقراطية ٠ ومع ذلك اذا كانت اليمينية  
النهارده خطر ، فاليسارية اخطر واخطر ٠٠ التجمع النهاردة لازم  
يبقى الشعار ، بس تجمع مين ؟؟ كل الاشتراكيين والديمقراطيين  
الثوريين ٠٠

ما الحكاية ؟!

كان ثمة دوار يزحف رويدا رويدا الى رأس كمال ادهم ٠ وهو  
يستمتع الى حوار صديقيه ، ثم بعد قليل لم يعد يسمع غير كلمات  
متناثرة ، لقد كانت ثمة غمامة تغشى فكره وعينه بالتدريج ٠ وقال  
فى نفسه : اى عالم هذا الذى يتحدثون فيه ؟؟ لا ٠ لن ابوح لهم

بمشكلتي • لسوف يصفها أحمد زهران بأنها مشكلة فردية تافهة •  
انهم يتكلمون على نطاق البلد كلها والمستقبل • أما أنا • أنا غريب •  
وحيد • أنا دائخ • أنفاسي تضيق • سأخرج من غير أن يحسوا بي •  
واستدار ليخرج ، لكنه أحس بنفسه يكاد يترنح • أسرع يمسك بأحد  
المقاعد •

وفجأة سقط مغشيا عليه ••

## - ١٤ -

شيء صغير جدا ، لكنه مشع وثاقب وعنيد ، ظل يقظا في  
كمال ادهم .

وبجزء الحياة هذا ، الصغير جدا ، كان كمال يقاوم الاحساس  
بالموت ببسالة ، وكان يقول في نفسه وهو يصارع : لا . لن أموت .  
يجب أن أظل حيا ، كيف فكرت لحظة في طلب الموت . الحياة شيء  
عظيم . أيها القلب الذي أعاد لي الحياة ، أحفظها لي . أم أنك  
ستكون سببا في الموت ، كما كنت سببا في الحياة .

وكانت مناقشات أحمد زهران ومصطفى سيف لاتزال دائرة ،  
يتكلمان بحماس ، وأصواتهما تصل الى سمعه من داخل حجرة مكتب  
زهران . يسمعهما كمن كان في حلم سحيق ، وكان يتشبث بأنه يسمع  
وكان يجعل من قدرته على السمع والتقاط الكلمات مقياسا لاستمراره  
في الحياة . وكانت بعض الكلمات تأتيه أحيانا واضحة ، فيدرك  
أنهما لايزالان يتكلمان في نفس الموضوع . ثم تلوح الغيوم من جديد ،



زاحفة لتحجب الجزء المشع فيه ، وتتحول الكلمات فى سمعه الى  
 همهمات ، فيصرخ عليهما مناديا : أحمد زهران • مصطفى ياسيف •  
 كفا عن النقاش الآن ، بجانبكما انسان يموت ، القلب الجديد ياسيف ،  
 القلب الذى اعتبرته رمزا لاجتياز النكسة ، سينتكس • القلب الجديد  
 سينتهى • سيموت • أسمعانى : ياسيف •• يازهران •

لكن نداءاته كانت خرساء بلا صوت ، مثل الواقع تحت ضغط  
 كابوس ، ويتشبث بمسند المقعد الملقى عليه • يرتفع وينخفض ، لكن  
 الجزء المشع فيه ، كان يواصل المقاومة : يجب ان أعيش • لابد ان  
 أعيش ••

وكان جزء اليقظة الواعى فيه يكبر ويكبر ، ويمضى مشعا على  
 مهل ، وكلام زهران وسيف يأتيه أكثر وضوحا وترابطا : تكلم ياسيف  
 تكلم يازهران • اى كلام • يكفى انى أسمعكما •

مصطفى سيف يتكلم •

— الطريق الوحيد يازهران هو التجمع الثورى • كل الذين  
 ساهموا فى المعركة • الذين شككوا فى اجتياز النكسة ، لا • يجب  
 كشفهم من الآن وبقوة •

أحمد زهران يقول :

— لابد من تقرير حق سحب الثقة من اى مرشح تثبت عدم  
 كفاءته ، حتى لو نجح فى الانتخابات ، هذا هو الضمان •

اى عالم هذا الذى يتحدثون عنه •

من الذى يحلم ؟! أنا • أم انتم ؟! ريقى جاف • قليل من الماء  
 يازهران • لو أستطيع الوقوف • فلأجرب •

وأحس بأنفاسه تهدأ وتنتظم ، والدوار يخف وينقشع . وجرب النهوض . من على المقعد ووجد نفسه يقف ببساطة . راح الدوار . . وأحس بسعادة تغمره . وداخلته ثقة كبيرة فى النفس أنه قاوم وجهه ، وانتصر وحده . وراح يمسح على وجهه بكلتا يديه . « ما هذا الذى حدث لى ؟ أزمة قلبية ؟ لا . . أنا أعرف أزمة القلب . لم يكن ثمة اختناق . كان دوارا . ووضع يده على قلبه . دقائقه عادية . ربما هى مسرعة بعض الشيء . هذا طبيعى نتيجة لما حدث . كان القلب يقاوم معنى . قلبك سليم يا كمال . لم يعد سببا فى الأزمات . بل أصبح عنصر مقاومة . لا يزالا يتناقشان . حمدا لله أنكما لم تريانى مرميا على المقعد . أنا الآن أجلس بارادتى . استريح أم أفر بسرعة قبل أن يرانى أحد ؟

وخاف من الخروج وحده ، ومن البقاء وحده . قلدخل عليهما . . على الأقل أرى مصطفى سيف . لن أخبرهما بما حدث . وسار بثبات الى الحجرة .

ما ان رآه الاثنان ، حتى صاحبا بدهشة وفى نفس واحد . - كمال ادهم . مش معقول .

وقفز نحوه مصطفى سيف . بكلتا ذراعيه أهلا . أهلا . ومضى يحتضنه ويقبله بحب وحنان . ويقول معتذرا عن عدم لقائه حتى الآن . .

- على فكرة أنا كنت مسافرا لسه جأى النهاردة من اسكندرية . وأول ما وصلت كلمتك فى البيت ، مالقيتش حد على الاطلاق . .

لازلت رقيقا . . وانسانا طيبا ياسيف ، زاد الشيب فى شعرك . وقال كمال :

— آه فعلا ٠٠ كنا فى مشوار ٠٠ ازيك يامصطفى ٠٠ انا  
متشكر جدا على المقالة بتاعتك ٠٠ جميلة جدا ٠

-- ولا جميلة ولا حاجة ٠ تصور كنا بنتناقش فيها انا واحمد  
زهران من شوية ٠٠

وغمغم يكمال : آه ٠٠

وقال زهران وهو يشد على يده وقد لاحظ شروده ، وارهاق  
وجهه ٠٠

— ايه ياكمال ٠٠ مالك ؟ ٠٠

— ابدا ٠٠ ولا حاجة ٠٠ كنت فايت لقيت تورك مولع قلت اطلع  
اشوفك ٠ ( ونظر الى سيف ) مفاجأة عظيمة انى لقيتك ٠٠

وقال سيف : وهى يحتضن كفه بحرارة :

— انا اللى سعيد جدا بالمفاجأة دى يا كمال (وجذبه من ذراعه)  
تعال هنا جنبى ٠ واحسننى ما تتصورش اد ايه ٠٠

وجلس بجواره ٠٠

كان بيبف يتأمله جيدا ، فى فرح طفلى ٠ وقال له زهران باسما  
وهو يضع يده على قلبه ٠٠

— ازيك ؟ حديد ؟ ٠

— الحمد لله ٠٠

كان يقاوم لنفجالاته بشدة ٠ وقال لزهران ٠٠

— عايز كوياية ميه لو سمحت ٠٠

— پس كده ٠ پاسيلام ٠٠

ونهبض مسرعا الى الخارج ..

وعاد مصطفى سيف يربت عليه بحزان ..

ـ قوللى • ايه أخبارك ياكمال ؟ ..

أخبارى لا تسر ياسيف • لن تسرك أنت بالذات • قد تجعلك  
تتراجع فى مقالك •

وتنهذ :

ـ الحمد لله •• أخبارى مش بطالة • كنت عايز أقعد معاك  
شوية •• ضرورى ••

ـ وأنا كمان • نفسى أقعد قعدة معاك طويلة •• طويلة ••  
وتحكى لى ••

وأسرع كمال :

ـ بس مش الليلة •• الليلة مش حاقدر أسهر ••

ـ وأنا كمان • عند مقالة عايز أكتبها الليلة • نتقابل بكرة زى  
دلوقت ، عندك فى البيت « وابتسم » مازتكش فى البيت بعد ما خرجت  
من المستشفى ••

ـ اتفقنا ••

ـ وأحمد ييجى معاك ••

كان زهران لاحظتها داخلا بكوب الماء ، بقامته الطويلة ، حذرا  
من أن ينسكب منه الماء ، ومعتذرا عن عدم وجود الفراش ••

وقال مصدفى ضاحكا ، ومبسطا الوضع •

– ياسيدى هو كمال ادهم قريب ٠٠ ايه رايك تيجى معايا بكرة  
زى دلوقت ، نزور كمال فى بيته ٠٠

قال زهران وهو يمد يده بالكوب نكمال ٠٠

– ما انا قايل لك ٠٠ بكرة زى دلوقت حابقى مشغول ٠ عندى  
اجتماع فى النقابة عشان موضوع الترشيح ٠٠ ( ونظر الى كمال  
معتذرا ) كان ياريت ، انا نفسى ابقى مع كمال اليومين دول  
باستمرار ٠٠

وقال كمال متأثرا بكلماته وعواطفه :

– معلش يا أحمد ٠ ما انت قمت بالواجب واكثر ٠٠ اشوفك  
وقت تانى ٠ تيجى انت لوحدهك يا مصطفى ٠ منتظر بكرة زى دلوقت ٠

– ماشى كلامك ٠٠

وشرب كوب الماء دفعة واحدة ٠ احس بالانتعاش والارتواء ٠  
يستطيع الآن أن يجلس على راحته ٠ أو ينصرف ٠ اجمل مكان الآن  
فى العالم ، هو سريرى ، اخلع ملابسى ٠ واتمدد وانام ٠ دون اى  
كلام ٠

وقال مصطفى سيف وهو يرتب على ظهره :

– والله لك وحشة يا كمال يا ادهم ٠٠

قال زهران متحمسا : على فكرة كويس انك جيت دلوقت ياكمال  
٠٠ فيه شوية ناس جايبين دلوقت عشان الانتخابات ٠ فرصة تشوف  
الجوده وتتفرج عليه ٠٠

بسط كمال يده معترضا على الفور « لا يا أحمد ٠٠ أرجوك  
مش عايز أقابل حد الليلة ٠ انا لسه مافقتش ٠٠ و ٠٠

- وأعفاء مصطفى سيف من أن يكمل ••
- صحيح يازهران • الراجل لسه مافتحش عينيه على الدنيا  
( وضحك ) رفقا •• رفقا بالقلب الجديد !!
- قال زهران موافقا وضاحكا :
- رفقا بالقوارير ••
- استأذن بقى ••
- قالها كمال فجأة وبشكل حاسم ، ومد يده للاثنتين ••
- قال زهران مسترسلا فى ضحكته ، ومداعبته :
- الله •• ومالك-خايف كده-ليه من الناس •• ييجوا وقت ما  
ييجوا •• وتنزل وقت ما تحب تنزل •• مالكش شأن بهم ••
- قال كمال ولم يستطع أن يشارك فى المداعبة :
- لا معلش •• وأصلى كمان عايز أنام بدرى •• عشان استريح •
- خلاص يازهران •• سييه ينزل •• ايه رأيك يا كمال ، آجى  
أوصلك لغاية البيت ؟ أوشك أن يقول له نعم « يا ريت » •
- لكنه تذكر هم المقالة التى تنتظره ، ولا بد أن يكتبها •• فضلا عن  
أنه يريد أن يخلو لنفسه ••
- متشكر أوى يا مصطفى •• ( مد يده يسلم ) المشوار بسيط  
مش مستاهل •• بكرة زى دلوقت فى انتظارك •• وأنت يا أحمد ••  
أشوفك قريب باذن الله ••
- وخرج الى الشوارع •

كانت مغامرة ، منه أن يقود العربية وجده من جديد • لكنه وجد نفسه بعد قليل يقترب من بيته • وحين توقف بالعربة أمام البيت • وجد أن نوافذ شقته لاتزال مغلقة لا يصدر عنها أى ضوء • فأدرك أن سناء لم تعد بعد من بيت أمها • وأحس بارتياح شديد • الوحدة هى أمنيته الوحيدة الآن • أن يستلقى على سريره ، ولو بملابسه • ويأخذه النوم ••

وحين فتح الباب ، وجد ركس يندفع نحوه فرحاً • أخذه بالحضن ، وقبله فى فتور • ثم تركه ومضى بخطوات واهنة نحو حجرة النوم •

الكلب يتبعه ويشب عليه • يريد أن يلعب معه لعبة اللقاء المعهودة ••

وتوقف ، وراح يربت عليه •• معذراً ••

— لا يا ركس •• ليس الليلة •• أنا متعب •• أنا مهموم •• أريد أن أنسى همى ، وأنام • تريد أن تعرف همى •• لو أنك تفهم الكلام ، لكنت أنت الوحيد الذى بحث له • هل تذكر ياركس ليلة لقائنا الأولى ، بعد الخروج من المستشفى • كنا فرحين بمعجزة العودة الى الحياة كنا كطفلين صغيرين • لم أكن أعرف ليلتها ما يعده لى القدر ، هكذا بسرعة ؟! هل تتصور ياركس ، أن الرجل لم يكن قد مات • وأن شفائى بهذا القلب ، جاء نتيجة جريمة قتل ؟! عزة تقول هذا يا ركس •• كيف أقنعها • وبأى شيء أقنعها • أنا لست واثقاً من أى شيء •• أنا متعب ياركس •• متعب وأريد أن أنام • قبل أن تاتى سناء • وتسألنى ، •

وكأنما الكلب قد أحس بنغمة الحزن فى صوته ، فراح يزيم هو الآخر بصوت جزين • لأن يريحنى ياركس غير الطبيب • ولكن ياركس

افترض أنه يعرف أن الرجل لم يكن قد مات ، هل سيقول لى الحقيقة •  
وافترض أنه قال الحقيقة : نعم • مات مقتولا • ما الذى تدرى عمله ••  
ماذا سيكون الموقف ياركس ؟!

وهز رأسه بشدة • أحس بفشاوة قوشك أن تحتل عقله •• لا •  
•• لن أفكر فى أى شىء الليلة • أنا متعب •• متعب •• قلبى  
تسرع دقاته • وتنبه الى أنه •• كأنما يلهث • أهى بداية نوبة ؟  
وأسرعت أنفاسه ••

وخلع حذاءه وبدايته • وصعد الى سريره وتمدد • أحس  
باجهاد اليوم يحل فى جسده وأطرافه • لو يسرقنى النوم من نفسى  
فى لحظة ••

سمع فجأة صوت المفتاح يدور فى باب الشقة ، جاءت سناء ••  
— أنا نائم •• مستغرق فى النوم ••  
وأغمض عينيه ••

وسمع دقات كعب حذائها تقترب ، وتعلو • وتخيّلها تجرى نحو  
الحجرة ملهوفة عليه ••  
— مساء الخير ياكمال ••

ولم يرد •• جاهد ألا تصدر عن جسده أى حركة ••  
وعاودت النداء بصوت أقل خفوتا ، وقد فوجئت بالوضع •  
— كمال •• كمال ••

أنا غارق فى النوم ياسناء •• غارق •• من حقى أنا أنام ليلة  
دون أن أجلس أو أتحدث معك •• أرحمىنى •• أرجوك ••



## وبان على وجهها خيبة أمل ..

ورجبت نفسها وحيدة ، برغم وجوده معها • هل ستقضى بقية الليلة هكذا وحدها • كانت واقفة متسمة في مكانها ، وراحت ترقب وجهه ، وأنفاسه • وراعها فجأة ، صفرة وجهه ، وثمة هالة داكنة حول العينين • وأسرعت أنفاسها • ترى ، ماذا حدث في الزيارة ١٩ كان لابد أن ينتظرني • أو على الأقل يتصل بي عند أمي • يسأل عنها ، ويحكى لى ما حدث • أو • يقول لى أنه عاد ؟

وصدرت عنه حركة لا إرادية ، فأسرعت تنادى بصوت خافت ،  
على أمل ..

— كمال .. كمال ..

— وغمغم : هه ؟

— اصبح يا كمال .. انا جيت ..

— وصدرت عنه مهممات •••

أصرت •• قالت بصوت عال ومتوتر :

— قوم اقعد معاي شوية •• احذا لسه بدرى ••

— مش قادر •• عايز انام •• تعبنا •• تعبنا ••

قالها بصوت مجهود يائس ، مس قلبها فعلا ، غير أنها تأكدت أنه لم يكن قد ذهب في النوم • انه يتهرب منها • ومصر على الهروب ما الذى حدث •• لابد أن شيئا ما حدث في الزيارة • وفجأة ، لاح أمامها وجه الزوجة • الوجه الأبيض الغامض الحزين • ما الذى فعلته بزوجي أيتها المرأة !؟

وعادت تنظر اليه • ترقب أنفاسه • صبره الذى يعلو ويهبط  
هل حركت القلب الذى وهبته له ؟ أم أن القلب هو الذى تحرك من  
تلقاء نفسه حين رآك ؟! عاد القلب الى صاحبه ؟ وقفز أمامها فجأة  
وجه الصحفي الشقى • محرر مجلة أضواء الليل • شامتاً وساخراً  
ومقهقها « ألم أقل لك ياست سناء • جئت يومها أحذرك ، فلممت  
على الناس • كانوا سيقتلوننى • ها هو القلب يعود الى صاحبه • •  
عبثاً تحاولين » • •

وأحسست برغبة فى البكاء تكاد تخنقها • وودت لو تهجم عليه ،  
وتشده من ثيابه ، وتوقظه • « قل لى • ما الذى حدث • حرام عليك  
أن تتركنى هكذا • لن أرى النوم الليلة ، اصح ياكمال » • •

لكن أنفاسه كانت قد ازدادت انتظاماً وثباتاً •

استغرقه النوم بالفعل • •

وبقيت وحدها • ليس معها غير « ركس » •

— تعال معى ياركس ، نجلس فى الفراندة •

وأطفاأت عليه نور الحجرة ، واتجهت وركس يتبعها فى هدوء  
الى الشرفة • استندت الى السياج ، وراحت تنظر فى الظلام • كانت  
أنوار « مصر الجديدة » تبرى من بعيد وتخللت ضاحية « عين شمس »  
والبيت كما وصفه لها « يحيى » بعد أن عاد بالموعود : بيت صغير وله  
سور وفراندة ، وأمام الفراندة تكعيبة عنب وشجرتان • وعاودها وجه  
المرأة الأبيض : أنا سمراء ، ثياب الدداد تعطيتها نفوذاً أكثر عليه •  
وبالطبع بكى أمامه ، فاهتز كمال • اهتز القلب • ورائته ، دون أن  
يملك نفسه ، يمسح على أحزانها • وجه الصحفي يقهقه سباحاً فى  
الظلام • •

لا لا لا

واستحضرت وجه الطبيب ، وكلماته « مسئوليتك كبيرة يا مدام .  
انت اكبر من كده بكثير . . انا كلى ثقة فيك » .

أى ثقة يا-دكتور » تخال وانظر حاله من أول زيارة . .

وتركت الفراندة . هاربة من أشباح الظلام . وراحت تدور حول  
نفسها فى الصالة . هل تخلع ملابسها وتنام . هل تجلس وتفكر فى  
هدوء . هل تمسك كتابا وتهرب بالقراءة فيه ؟ ووقعت عينها على  
حوض السمك . والأسماك السابحة فى الضوء . .

– رنت فى أذنيها كلماته الملهوفة يوم الخروج من المستشفى . .

– والسمك ياسناء . . ما ولدش !؟

وزفرت فى مرارة ، مع نفسها . .

– قريبا ياكمال سيلد . أعداد كبيرة منها بطنها منتفخ . كل  
الناس . كل الكائنات تلد . الا انا « وامسكت بطنها بيديها » أيتها  
الأرض المجدية . متى تنبتين . متى يخرج منك الزرع !؟

وسقطت من عينيها الدموع . ورأت « ركس » يقترب منها  
ويتمسح فيها « لو كان لدينا أولاد . ولد واحد . بنت واحدة . لتغير  
كل شئ . الى متى سيستطيع الحياة بلا أولاد !؟

وراحت تربت على ركس فى مرارة وحنان . فجأة لاحت لها  
المرأة الأخرى ، ومن حولها الأولاد . وكمال أدهم جالس معهم . .  
يشبع حرمانه الطويل ، ويتسامر . . ويضحك . .

اب جديد ، لم لا ؟!

وانتفضت من جلستها فى تعاسة . .

وفى تعاسة أيضا ، خلعت ملايسها ، وارثدت قميص النوم ، وفى  
هدوء شديد صعدت الى السرير ، وتمددت بجوازه • وتسمعت أنفاسه ،  
كان غارقا فى نوم عميق • لا يحس بها •

ولأول مرة ، منذ أن خرج من المستشفى ، وجدت رأسها تستند  
على الوسادة ، وليس على ذراعه كما عودها • كيانان منفصلان :  
لم يحدث هذا ياسناء الا بعد أن ذهب اليها • أمن أول لقاء ؟!

وعبثا حاولت أن تقاوم الهواجس • كانت أشواك الشك تنمو  
وتترعرع فى ظلام الليل وصمته • ولم يوقف نموها سوى أضواء  
الفجر الأولى ، وديك يؤذن •

وسقطت فجأة ، من التعب ، فى جب النوم !!

## - ١٥ -

رأى كمال أدهم فيما يرى النائم حلما غريبا .

رأى نفسه فى المصيف . يمشى على شاطئ البحر ويضرب  
الماء سعيدا بقدميه ، وفيما هو يضحك فرحا برشاش الماء المتناثر  
سمع فجأة صرخات تنبعث من قلب البحر . ونظر فإذا بالرجل الذى  
مات وأخذ قلبه هو الذى يصرخ مستغيثا ..

— الحقونى .. نجده .. انقاذ ..

وروعه منظر وجهه . كان يشخب دما . وكان الرجل يغمس  
فى الماء لحظة ثم يبرز من جديد ، ويعاود صرخات الاستغاثة ووجهه  
لا يزال ينزف دما . يا الهى : كل مياه البحر ولا تغسل وجهه من  
الدم ..

— الحقونى .. الحقونى .. النجدة النجدة .

وكان كمال أدهم يقول فى نفسه أمام منظر الغريق الذى يستنجد

به : ولكنى لا أعرف العوم جيدا ، لو نزلت لأنقذه سأغرق • الرجل  
لا يزال يصرخ مستغيثا •

— الحقينى يا عزة •• الحقينى يا عزة ••

والتفت كمال الى يمينه ، فوجد عزة واقفة هى الأخرى على  
الشاطئء تصرخ :

— بابا •• بابا •• بابا توفيق بابا توفيق الشريف ( وتتوجه  
بنظرات ضارعة الى كمال ) انزل وأنقذه يا أستاذ كمال انزل ••  
انزل بسرعة • وقفز كمال • ألقى بنفسه فى البحر وراح يسبح والرجل  
يصرخ عليه : بسرعة •• بسرعة ••

وكلما كان يقترب منه ، كان يجد ملامح الوجه • برغم الدماء  
النازفة تتغير ، وتأخذ أحيانا شكل الطبيب وتعود صرخات الاستغاثة :  
النجدة النجدة ••

لا •• انه الرجل ••

— بابا توفيق •• بابا توفيق ••

وحين اقترب منه لم يجده • لم يجد غير بقعة من الدماء ••  
ثابتة برغم اندفاع الأمواج أين أنت •• أين أنت ••

ولا صوت غير صوت الرياح وصوت الموج • ونظر الى الشاطئء  
الى عزة •• فرأها نقطة صغيرة على الشاطئء البعيد ••

كيف سأعود • لن أستطيع العودة • أنا لا أعرف السباحة ••

ورأى بقعة الدم وقد تحولت فجأة الى صخرة ثابتة بارزة فى  
قلب البحر ، وهو واقف عليها ••

الحمد لله • الحمد لله ، لن أغرق • لن أغرق • ولكن • (ونظر  
الى الماء المحيط به من كل جانب • والشاطئ البعيد ) كيف ساعد  
كيف ساقط كل هذه المسافة • الأمواج تعلو وترتفع ( ورأى الليل  
يقرب • والوحدة والظلام والرعب • ووحوش البحر ) ••

— النجدة •• النجدة •• أنقذني يا عزة يا حيي — النجدة  
ياسيف •• يازهران •• يا صلاح يا عبد الهادي • يا كل الناس ••  
الظلام •• الظلام •• واستيقظ على حالة شديدة من الروع • وحين  
وجد نفسه على سريريه وسناء بجواره أدرك أنه كان يحلم ، قالتقط  
أنفاسه ورأى نور النهار يدخل من خصاص النافذة فنهض على أطراف  
أصابه ، ودار دورة في الشقة ، قرر بعدها أن يرتدى ملابسه ،  
ويخرج وبعد دقائق كان في الشارع ، يمشي على قدميه • كان الحلم  
الدموي قد زاد من إيمانه بضرورة حسم الموضوع وبسرعة : لا بد فعلا  
من مقابلة الطبيب • اليوم • بأي شكل من الأشكال !! وكان منظر  
الوجه النازف دما يعاوده ، وتذكر أن وجه الرجل الميت كان يمتزج  
بوجه الطبيب وكلاهما يشخب دما • مامعنى هذا ؟! من القاتل ومن  
المقتول ؟! ما الذى ساقوله للطبيب ؟ لا •• لا تتردد • الق فى وجهه  
بالاتهام • واتركه يدافع عن نفسه • عن معجزته •• آه لو تصفو  
المعزة ، وتكون قد خرجت الى العالم غير مشوبة بالدم !

ونظر فى ساعته :

السابعة والنصف صباحا ، قبل التاسعة أو العاشرة لا يمكن  
الاتصال به • أين أذهب هذه الفترة ! يحيى البدرى ؟! الآن فى بيته  
البيوت الآن لا • أذهب الى المصنع ؟! لا أريد للعمال أن يرونى بهذا  
الهم الكبير ••

ومر به تاكسى ، فنادى عليه ركبه ••





ونزل من التاكسي ، ودخل أحد المقاهى الهادئة ذات التراس ،  
وجلس ينظر الى الشارع من ركن بعيد ، وقال فى نفسه : اشرب  
فنجانا من القهوة • واقرأ الجرائد • ثم اذهب الى يحيى فى المصنع •  
اريد أن اتكلم مع أحد •

وطلب فنجانا من القهوة • ورأى الجرائد الثلاث ، وتذكر فجأة  
أن مصطفى سيف له مقالة ، وتذكر أيضا بنوع من الحماس أن  
مصطفى سيزوره فى الليل : سأبوح له بكل شيء حتى بالحلم ، وأطلب  
رأيه • سينزعج بالتأكيد من الاتهام الخطير • لو صح هذا الاتهام  
فمعناه هدم لمقالته التى كتبها يمجّد فيها العملية •

وداخله نوع من الارتياح : هناك اناس غيره ، من مصلحتهم  
دفع الاتهام ، وتبرئته •

وأحس بمصطفى سيف سندا قويا له فى المحنة • ترى ماذا  
كتب فى مقالة اليوم ؟

وقلب الجريدة على الصفحة الأخيرة • ورأى المقالة على الفور •

كان عنوانا غريبا : « الثوار •• والغربان » ماذا يقصد  
بالغريان ؟

ومضى يقرأ - وتذكر مع السطور الأولى • تلك المناقشة  
التي سمع بعضها فى مكتب أحمد زهران، قبل أن يغشى عليه، والبعض  
الأخر وهو يعود الى ادراكه ووعيه :

« •• أجل اينها الأصدقاء • والتجمع الثورى يجب أن يكون هو  
شعار المرحلة • كل العناصر التى نؤمن أن لها مصلحة فى استمرار  
الثورة واندفاعها بعد أن تم التحرير يجب أن تتجمع وبسرعة ، ضمن

أطار مجسد ومشروع ، وببرنامج واضح ومحدد تدخل به معركة الانتخابات . قبل التحرير أيها الأصدقاء والصديقات ، كانت الوحدة الوطنية الشاملة . أما الآن ، وبعد أن تم التحرير بكل هذه التضحيات ، وأصبحنا - بإجراء هذه الانتخابات - على أعتاب مرحلة سياسية جديدة ، الحكم فيها والقيادة للشعب ، يجب أن ننادى بوحدة من نوع جديد - جبهة من كل العناصر الثورية - حتى مع اختلاف نسب ثورتهم . جبهة ترفض بشدة أن تحتوى داخلها على عناصر الثورة المضادة ، هؤلاء الذين ترعبهم مسيرتنا نحو الاشتراكية . انه لمشيء يدعو للأسف وللحذر فى نفس الوقت ، أن يكون بيننا ولايزال أناس وصل بهم التحجر الى الحد الذى يهاجمون معه عملية نقل القلب ، متستترين خلف الدين . هذا الاتجاه المريب للتشكيك فى المعجزة العلمية التى أصبحت وجها رائعا من وجوهنا الحضارية .

هذه الغريبان يجب أن تظل خارج الجبهة . يجب الحذر منها .

لقد قلنا فيما مضى أيها الأصدقاء والصديقات ان تحرير الأرض ليس هو المشكلة الكبرى . وليس هو الأساس . الأساس هو تحرير أنفسنا وحياتنا من كل ..

ولم يكمل كمال المقالة . مر على بقيتها بسرعة . كان الاستشهاد بعمليته قد انتهى .

وهامى دقات قلبه تعلو وتسرع . داهمه خوف شديد . لقد أصبح القلب الجديد محل معركة على صفحات الجرائد . « لا يامصطفى ياسيف .. لا .. أرجوك أن تتوقف - خفف كثيرا من حماسك هذا - هناك اتهام خطير لا يخطر على بالك . هذا الاتهام لو تلقفه خصومك ، لو سمع به « فهمى عبد الغفار » لاستعمله اشنع استعمال . لاداعى لأن تفتح الموضوع أكثر من هذا » .

• ورأى « عزة » تنضم الى جبهة فهمى عبد الغفار ورأى نفسه واقفاً مع مصطفى سيف والمحاكمة العلنية دائرة ، وهما يدفعان الاتهام •

وهز رأسه بفزع « ما هذا الذى أفكر فيه ؟ • لقد أصبحت أفكر وأتصرف على أساس أن الرجل لم يكن قد مات بالفعل • يجب أن أتوقف عن التفكير على هذا النحو حتى أقابل الطبيب وأتأكد • وأحسن بضيق يأخذ بخناقه فنهض فجأة •

— أمر على يحيى البدرى فى المصنع وأجلس معه • أريد أن أتحدث مع أحد • مع انسان أمين • يحبى • يسمع كلامى ولا يثرثر به ••

وترك المقهى ونادى على تاكسى ••

— شارع الدراسة ياريس •• مصنع القاهرة للنسيج •

\*\*\*

على غير ما تصور كمال أدهم كان يحيى البدرى فى المصنع من ساعة مبكرة وكان على حالة شديدة من الاضطراب والقلق ، فقد فوجئ بأن المصنع يواجه موقفاً خطيراً • كان موعد سداد احدى الكمبيالات الكبيرة للقطاع العام قد حل : لابد إذن من دفع المبلغ على الفور • ولم يكن يحيى يحمل هم سداد هذه الكمبيالة ان له فى السوق عند أحد العملاء مبلغ يقارب هذا الدين ، وحل موعد الوفاء ايضاً • غير انه فوجئ بهذا العميل يخبره بعدم قدرته على الدفع ، ويطلب ارجاع البضاعة • وكان ذلك لا يعنى فقط عدم قدرته على السداد بل يعنى ايضاً عدم القدرة على شراء خامات جديدة يعمل بها المصنع ، فضلاً عن تراكم البضاعة المخزونة بلا تصريف !

كان يحىي يفكر بشكل قلق وحاد فى الخروج سريعا من هذا المأزق دون أن يزعج به كمال . وفكر أن يذهب الى صلاح عبد الهادى بالأزهر ويطلب منه أن يشتري الكمية المرتجعة ليسد الدين فى الميعاد . غير أنه تذكر أن الحاج صلاح أخذ كميته المعتادة ، وقد يعتذر ، فالسوق راکدة ورديئة هذه الأيام وصلاح تاجر واع يشم نوع الربح فى السوق من بعيد ، وقد يعتذر ، لاداعى للاحراج ، خصوصا وأن الرجل قد قام بالواجب وأكثر أيام أن كان كمال فى المستشفى ! الآن خرج كمال ، سليما معافى ، والمقروض أن يتقدم لحمل مسئوليات مصنعه . لاداعى لحكاية المصيف هذه . وخطر له أن يكلمه فى البيت ، ويخبره بالمأزق ، لكنه عاد فاستكبر على نفسه الموقف : لا ، لن أخبره بأى شىء ، ان خبرا مثل هذا قد يكون صدمة عليه ، فلأحاول . وعدته أن أوصل حمل المسئولية حتى يأخذ راحته بالتمام وبالكمال ويعود من المصيف . سألذهب الى المؤسسة وأطلب منهم تأجيل تقديم الكمبيالة اسبوعا واحدا ، قد تتعدل فيه الأحوال ، ولو رفضوا ، فسأذهب الى صلاح عبد الهادى ، وأعرض عليه المشكلة ، والظروف ، سيقدر صلاح الموقف بالتأكيد ، وسيدفع لى ثمن البضاعة حتى قبل أن يستلمها هو ، وأسرع بسداد الكمبيالة ، واشترى الخامات للمصنع ٠٠ !

كان يجلس الى مكتب كمال فى الحجرة العليا ينظر للأنوال الدائرة ، والعمال ، وتخيل لو فشلت محاولاته . لو اعتذر صلاح عبد الهادى ، وتوقفت الأنوال عن الحركة ، والعمال عن العمل ، وقفل المصنع أبوابه حتى يتم الفرج ، ستكون الضربة كبيرة لكمال أدهم بعد الشفاء وقد ينتكس ٠٠ لا ٠٠ لن يرفض صلاح عبد الهادى . يجب ألا يرفض . أنه يعمل فى مئات الألوف ولو تبسرع بقيمة هذه الكمبيالة لن يفتل تل نقوده . صلاح عبد الهادى أصبح قوة .

فعلية مسيطرة فى السوق • أصبح فوق المفاجآت والازمات • وتذكر فجأة وبشيء من الحماس وقد انفتحت له طاقة من الأمل ، انه سمع من البعض أن الحاج صلاح سيرشح نفسه فى الانتخابات وإذا كان يقدم خدماته قبل الترشيح ، فإن خدماته ستتضاعف لو نزل المعركة • سيحل لى المشكلة بالتأكيد • ونفاهل ••

غير أن شعورا بالكآبة سرعان ما انتابه : ماذا لو طلب صلاح عبد الهادى أن يساعد فى الانتخابات : وابتسم لنفسه ابتسامة ساخرة مرة : شيوعى قديم يساعد رأسماليا كبيرا شهيرا • سيكون هذا هو موقفى فى المعركة - الاعلان الصريح بأن كل شيء بالنسبة لك يا يحيى قد انتهى ، وصوت زهران وسيف يلعلع بشعارات الشعب ، والتحذير من اليمين ومن الرجعية • والدعوة الى تجميع الثوريين • وأنا ؟ وأحس بالاختناق ••

ضرب المكتب بيده بشدة وبلا وعى : لا • لن أطلب من صلاح عبد الهادى أى شيء • فليطلب كمال ، وليحل له الاشكال قبل السفر • ولا حتى السفر ، يجب أن يأتى ويستلم مصنعه ، وليتركنى • أمضى • أريد أن أخرج من هنا • أسافر • أهاجر الى أى بلد • ليس لى شيء هنا أرتبط به ، أو أبكى عليه ••

ودق التليفون فجأة ••

وكانت المفاجأة ••

الحاج صلاح يسأل عن كمال ويريد أن يراه •

أحس بنوع من الراحة • داخله شعور بأن كمال سينهى الاشكال بمعونة صلاح وأشعل سيجارة ، ما هذا الاهتمام الشديد من صلاح عبد الهادى بكمال آدم ؟ الانتخابات ؟ وخطر له خاطر :

ماذا لو طلب صلاح من كمال أن يدعو له في معركة الانتخابات؟ يستغل حكاية القاب الجديد • المعجزة العلمية • ووجد نفسه يضمك إذ تذكر كلمات أحمد زهران عن « قلب الشعب » • هاهاها • أين أنت الآن يا زهران • يا رجل الشعارات • قلب الشعب سيتجه بالضرورة الى الرأسمالية الكبيرة • وأنت يا مصطفى سيف ، ها هو رمز الانطلاقة واجتياز النكسة في ظرف لن ينقذه منه غير قوة الرأسمالية • أين التجمع الثوري الذي تتكلم عنه ينقذ مصنع كمال من ورطته التي لا يدري عنها شيئاً ؟

وأفاق على التليفون يدق مرة أخرى • وكانت سناء أخته ، تسأل عن كمال بصوت يخنقه الدموع ، وتذكر أن صلاح عبد الهادي قال انه سأل عنه في البيت ، ولم يجده فأراد أن يتأكد من اهتمام صلاح •

— أيوه الحاج صلاح عبد الهادي سأل عليه من شوية • لكن كان خرج من بدرى • كمال يا يحيى فيه حاجة ، من ساعة ما رجع من الزيارة وهو مش طبيعي أبداً • يبقى راح فين دلوقت ؟ مش جايز يكون راح يزورهم تاني ؟

ورفض أن يوافقها على هذا الاحتمال ، بل وسخف منه ، وراح يطمئننها ، ثم وعدها بالاتصال بها « بمجرد أن يحضر أو يسمع صوته • ووضع السماعة •

وقبل أن يبدأ في التفكير أين يمكن أن يكون كمال قد ذهب في هذا الوقت المبكر ، فوجيء به داخل عليه • قفز من على الكرسي مردباً ومخلياً له مكتبه ، وسلم عليه بحرارة •

— ايه يا دم أنت فين • الدنيا كلها بتسأل عليك •

وقال كمال فى هدوء وفقرور :

— مين اللى سال ؟!

— سناء لسه دلوقت كاذت بتسال عليك • وقبلها بشوية صغيرين  
صلاح عبد الهادى • تيقظ على اسم صلاح عبد الهادى ••

— كان عايز حاجة صلاح ؟!

— ابدا كان عايز يطمئن على صحتك • ( وفكر ان يلقى له فورا  
بالمشكلة التى تواجه المصنع غير أنه لم يستطع • ازعجه تعبير عينيه •  
وثمة هم يكسو وجهه ) وسال عليك فى البيت برضه مالمكش •

وندت عنه زفرة :

— حاكلمه دلوقت •• واشكره ••

— وسناء لازم تكلمها فورا •• احسن قلقانة عليك جدا ••

ولم يعلق بشيء • اتجه الى مكتبه بخطوات بطيئة مرهقة • ثم  
جلس الى مكتبه • وكان يحيى البدرى يراقب انفعالات وجهه ، وحركة  
أصابع يديه العصبية وهى تعبت بالأشياء الموضوعة على المكتب بلا  
أى معنى • واقسم فى نفسه أن شيئا ما ، غير سار ، لابد قد حدث  
فى الزيارة ، أو شك أن يحدث فيه : لا ياعم كمال • أفق لنفسك  
ولمصنعك • مصنعك تواجه مشكلة خطيرة ، تتضاءل بجوارها أى  
مشكلة أخرى •

غير أن حزنا عميقا كان يطل من عيني كمال • ورأى ثمة  
غضونا فى الوجه • لم تكن موجودة بالأمس ، وخفق قلبه بالعطف  
عليه. ••

— ايه يا كمال •• مالك مش طبيعي ••

- وبزفرة حادة لسعت قلب يحيى ..
- انا تعبان يا يحيى . تعبان جدا . مش عارف اعمل ايه ..
- فى ايه .. ؟!
- ووجده يتفرس فيه ، مرة تفيم نظراته ، ومرة تلمع وتبرق ..
- قوللى يا يحيى .. ايه معلوماتك عن العملية ؟!
- بوغت يحيى بالسؤال . قال بدهشة واستغراب :
- عملية ايه ؟!
- عملية نقل القلب :
- نظر اليه يحيى بحذر يخاطله الاشفاق والقلق ماذا حدث للرجل !
- مالها العملية ؟!
- أنت متأكد من أن الراجل كان مات .. قبل ما ياخذوا قلبه ، ويعطهولى ؟
- تلجلج يحيى فى الرد . كان آخر شئ فى العالم يتصوره ..
- أى منطقة رهيبة ومخيفة يدخل كمال نفسه فيها .. ووجد يحيى نفسه يتوه هو الآخر ..
- ما بتزدش ليه يا يحيى ؟
- اُرد على ايه ياكمال . وده سؤال تسأله .. طبعا كان مات .
- شفته بعينك . وهو ميت .. نهائيا ؟!
- لا .. ما شفتوش .. ودى مش شغلتي .. شغلة الدكاترة
- اللى حاربوا ينقذوه فى القصر العيني بعد ما القطر صدمه .. لكن



مفيش فايده • الصدمة كانت عنيفة • فى المخ • تصور قطر لما  
يضر انسان • والضربة تيجى فى المخ • وصل القصر وكان ميت !

جذب كمال نفس ارتياح عميق وناوشه الأمل • عاوده وجه  
« عزة » • وقال يحيى بفضول حاد :

— لكن ليه بتسال السؤال الغريب ده ١٩

— لأن عزة مش راضية تقتنع بأنه مات ، قبل العملية •

— عزة مين ؟ ••

— عزة •• بنته •• بتعتقد ان عملية نقل القلب هى السبب  
فى موته •• وان لو ما كانش العملية ، كان ممكن عاش • يعنى مات  
مقتول •

صاح يحيى محتجا بل ومتضايقا من هذا الاستسلام المروع من  
كمال أدهم للاتهام •

— ده كلام فارغ ياكمال • اسمح لى • شغل بنات صغيرين  
احنا مش ناقصين دوامات ندخل فيها •• المصنع محتاجك ياكمال  
•• لازم ••

ولم يتركه كمال يكمل ••

— اسمع يا يحيى •• انا ممكن ما اسالsh فى الاتهام ده ••  
ولا فى البنات ، ممكن اعتبرها بتخرف وأعيش حياتى • لكن ( وبدا  
عليه أنه يتمزق ) لكن انا نفسى عايز أعرف • عايز أطمئن ••

— تطمئن على ايه ••

— انى ماعشتش على حساب حياة انسان تانى •• ايوه يا يحيى

٠٠ انا ما رجعتش للحياة عشان اعيش بضمير معذب ، واشوف انصانة  
يتعذب ٠ بسببى ٠ عايز اتأكد ٠٠

قال يحيى وقد تذكر بقية العائلة :

— والأم ٠٠ والابن ؟! ايه رأيهم فى الموضوع ؟!

— رايهم انه مات ٠ الست قالت لى وهى بتعيط انه مات بين  
ايديها !

— يبقى خلاص ٠٠

— لا يا يحيى ٠ مش خلاص ٠ عايز اشوف البراءة فى عينين  
البنت ٠ انا النهاردة ما قابل الدكتور عشان أسأله ٠٠

وبغضب واستنكار شديدين :

— تسأله فى ايه ؟!

— هل الرجل كان مات ، والا ما ماتش ؟

، ويصوت يختلط فيه التحذير بالغضب :

— كمال ٠٠ انا باحذرك تتصرف التصرف ده ٠٠ أنت تعرف  
ان الدكتور بيستعد لعملية نقل قلب تانية الأيام دى ؟!

صاح كمال جزعا :

— عملية ثانيا ؟ مش معقول ٠٠ مش معقول ٠٠

— ومش معقول ليه ؟ فاكرا انه حيقعد على عمليتك دى بس ٠٠  
عمليتك كانت بداية ٠٠ مجرد بداية ، لازم نجاح العملية يعم  
البشرية كلها ٠

ونظر في عينيه • كان كمال يمانى من حيرة وثمرق شديدين  
ولا يعرف بماذا يرد ••

قال يحيى :

— اسمع يا كمال • أنا باحذرك أرجوك ، ماتصلش الأيام دى  
بالدكنوز ، اى اتصال • ومن ناحية عزة ، أنا حاقنعا ••

— تقنعا بايه ••

— بأتك برىء • بأن تفكيرها غلط • ولأزم تغير تفكيرها ده •

— ازاي ؟

— زى الناس •• ده شغلى أنا •• ( ثم لوح بيد موعشة تعتصر  
نفسها ) ، بس مش ده المهم دلوقت • المهم مصنعك اللى أنت بتعيش  
منه •• المصنع عايزك اليومين دول أنت شخصيا يا كمال •• المصنع  
فى ورطة ولأزم يخرج منها. بسرعة •• أنا ( وتردد ) أنا •• أنا تعب  
يا كمال ••

وكان صوته مخننقا بما يشبه البكاء ••

## - ١٦ -

كمن يفيق فجأة ، وعلى آخر لحظة ، انه على وشك السقوط  
 فى هوة واسعة مظلمة ، وبلا قرار ، تنبه كمال ادهم ، كالمصدوم الى  
 الوضع . وكانت عيناه وهو يسمع تفاصيل الأزمة من يحيى البدرى ،  
 مفتوحتين ومرتعبتين . حقا انه ليس جديدا على هذه الازمات ،  
 ولكن احساسه بها كان تقريبا قد انعدم . كان احساسه بأن الخلاص  
 من أزمة القلب ، معناه الخلاص من ازمات الدنيا . أى أزمة سواها  
 لا قيمة لها . غير انه حين فوجئ باحتمال قفل المصنع ما لم تسد  
 هذه الكمبالة بسرعة ، وجد نفسه ، وبغريزة الاحساس بالخطر ،  
 يتحفز فى جلسته أمام يحيى ويسمع منه فى صمت ، وأنفاسه شبه  
 لاهثة .

ورأى الصورة البشعة : المصنع ينهار . والضياح ٠٠ لا ٠٠ لا  
 انتهر ولا يقولون مصنع كمال ادهم اغلق ، والتشرد والفقر ٠٠  
 مستحيل . فليذهب كل شئ الى الجحيم ، ماعدا المصنع : عزة ،

والاثهام ، والبراءة • فيم تفييد البراءة لو وجدتنى هائما في  
الشوارع • بلا مصنع • بلا عمل ••

لابد من حل وبسرعة •

وقفز له على الفور وجه صلاح عبد الهادى •• أنقذ صلاح  
المصنع وهو فى المستشفى • قلينقذه الآن مرة أخرى •• اننى ازال  
اعانى من آثار العملية • لن يخذلنى ••

– والحل يا يحيى ١٩

– نفكر مع بعض يا كمال •• أنا فكرت أروح المؤسسة وأطلب  
تأجيل الدفع أسبوع ••

صاح كمال معترضاً وبشدة :

– لا يا يحيى • أوع تعملها • دى سمعة سيئة جدا ، ولا يمكن  
القطاع العام حيتق فينا ، أو يعطينا غزل بعد كده ، لازم نسد وفى  
الميعاد ••

قال يحيى بهدوء :

– ده أحسن طبعاً ، مفيش شك • بس مين جيعطينا النهارده  
العشرة الألف جنيه ، مقابل بضاعة مرتجعة ؟

قال كمال أدهم بشكل حاسم وواثق :

– مفيش غير صلاح عبد الهادى • أعتقد أنه مش حيرد لى  
طلب • وبضاعتنا كويسة على أى حال ••

تنهد يحيى :

– الحقيقة أنا كنت حاقول لك عليه • لكن قلت أسيبها لك أنت •

— وتسيبها لى آليه ٠٠ مش تقدر أنت كمان تطلب منه ٠٠  
بالنيابة عنى ؟

قال يحيى بأبتسامة مجعدة :

— اذا حضر الماء ، بطل التيمم ٠ مادمت أنت موجود تقابله  
أنت ٠٠ باعتبارك صاحب المصنع ٠٠

وأوشك أن يقول له : « وأنا متأكد أنه حيعطيك المبلغ » ٠ لكنه  
خشى أن يطلب كمال منه التفسير ٠ هل يحدثه عن الانتخابات التى  
سيدخلها صلاح عبد الهادى ، وأنه سينتظر منه المساعدة ؟!

ورفض يحيى الخاطر ٠ لن يشوه موقف صلاح عبد الهادى  
المنتظر مع كمال ، وليس هذا وقته على أى حال ، فالمصنع لابد أن  
يجتاز الأزمة ، وبسرعة ، على الأقل ٠ من أجل عدم تسريح هؤلاء  
العمال ٠ ثم من هو كمال أدهم الذى تضخم من موقفه ودوره فى  
الانتخابات ٠٠ و ٠٠

وفرغىء بكمال أدهم ينهض من على كرسى مكتبه ، ويقول :

— أنا حاروح لصلاح ٠٠ يمكن يكون فيه أمل ٠٠

\*\*\*

من اللحظة الأولى التى رأى فيها صلاح ينهض من على مكتبه  
ويتقدم اليه مرحبا وبحماس تأكد فى نفسه أن صلاح لن يرد طلبه ٠

— أهلا ياكمال ٠ ايه ياراجل أنت فين ٠ سألت عليك فى البيت  
قالوا خرجت ٠

تأثر بلهجته وحرارة سلامه ٠٠

— اهلاً يا حاج ٠٠ أنا متشكر جداً على شعورك ده ٠٠

قال صلاح معاتبا فى شكل ضحكة صغيرة هادئة :

— متشكر !؟ متشكر ده ايه !؟ احنا بيننا تشكرات ٠ أنا كنت  
عايز أطمئن عليك ٠٠

— ألف شكر ٠٠ ألف شكر ٠٠

— تعال ٠٠ اتفضل ٠٠

وأشار له على كرسي أمام مكتبه ٠ فجلس كمال ، بينما عاد  
صلاح الى الجلوس الى مكتبه ٠ وتذكر فجأة أنه لم يحيى عمال المحل،  
انتابه شعور بالخجل ٠ رفع يده بسرعة الى الجميع محييا ٠ وأجابوه  
البحية عليه بصوت واحد ٠٠ مرحبين ، فرحين ٠

وقال صلاح : تشرب ايه ياكمال !؟

— أشرب حاجة ساقعة ٠٠

صاح صلاح على أحد عماله :

— حاجة ساقعة ياسيد ( ثم قال له منبها ومحذرا ) تجيبها  
أنت بنفسك بلاش الواد القهوجى ( وضاحكا لكمال ) أجسن يعمل  
معاك زى المرة اللى فاتت : جى !

— ضحك كمال عاليا وقال :

— ربنا يستر ٠٠

وتلاشت ضحكته فجأة ٠ كان يفكر بسرعة ٠ كيف سيبدأ  
الموضوع ٠ هل يبدأ مباشرة ، ام ينتظر قليلا : قد تأتى لحظة  
مناسبة ٠٠ على الأقل بعد أن أشرب المشروب وأبلل ريقى ٠ أحسن أن  
ريقى جاف ٠

قال صلاح مبتسما وهو يلوح بجريدة امامه على المكتب ،  
واضح انه كان يقرأ فيها :

- مصطفى سيف يعنى مهتم بك جدا اليومين دول • هى  
العملية مش انتهت على خير • عايز يعمل منك معركة واللا ايه ؟  
قال كمال معبرا عن حزنه وضيقه :

- والله يا حاج انا متضايق من الحكاية دى جدا • انا ما عدتش  
عايز حد يجيب سيرة العملية دى لا بالخير ولا بالشر • تصور يا حاج  
( وتذكر ميول صلاح عبد الهادى الدينية ) فيه ناس بيعتبروا عملية  
اقل القلب كفر والحاد ؟

وارتسمت على وجه صلاح ابتسامة طمأنته • ورأى بريقا فى  
عينيه ، وحماسا :

- انا قرئت المقالة دى •• كاتبها واحد اسمه فهمى عبد الغفار  
•• مش كده ؟

سأله كمال بلهفة :

- تعرفه ؟

- لا ما اعرفوش •• بس اول ما قرئت كلامه اتضايقت جدا ،  
ويمكن دى كانت من الأسباب اللى خلقتنى أسال عليك ، عشان اطمئن  
انها ما ضايقتكش ••

قال كمال متألما :

- ما تضايقتش ازاي يا حاج • المسائل ما توصلش للدرجة دى  
•• وبعدين مش عارف • جايز تكون فعلا حرام • قوللى أنت يا حاج  
صلاح رأيك ايه ؟



## قال صلاح بقوة وجدية :

– رأى أن دول أكثر ناس بيسيئوا للدين • الدين مش ضد العلم ولا ضد العبقرية • العلم والعبقرية دول ياكمال موهبة • فيض من عند الله جل جلاله • الانسان ما بيجيش حاجة من عنده • كله من عند الخالق الأعظم • المصدر الأوحد للمعرفة • رب الأسرار الكثيرة اللي فى الكون ده ، مالهاش نهاية • بيعطينا سر من أسرارده ، ومش بيعطينا كلنا ، بيختار ناس منا ويعطيهم ، ( وتحمس أكثر ) وزى ما بيعطى فى المال • بيعطى المعرفة • واللا ايه • تبقى كفر ازاي !؟ أنا باتضايق جدا من الناس اللي بيصوروا الدين على أنه عدو للعلم •

احس كمال بارتياح كبير يتسلل الى نفسه واخذ نفسا طويلا هادئا ، جميل فعلا أن يكون التاجر مثقفا ، وواسع المعرفة •• ان صلاح يحمل ليسانس الحقوق ، وكان يمكن أن يكون محاميا ناجحا ( وخطر له خاطر ) اه •• هل أخذ رأيه فى موضوع عزة ( وطالعتة عيناها ) •• الاتهام المرير المروع •• لا •• سسنتكلم فى القتل ، والجريمة • وعاولده طشاش من الحلم : الغريق والصخرة والدم •• وأبعد الفكرة عن رأسه بشدة وحزم • الآن أنا فى مشكلة المصنع •• يجب أن استمر •• أنا مهدد بكارثة • يجب أن ادخل فى الموضوع •

وتنبه على الحاج صلاح يلوح بالجريدة مرة أخرى ، ويواصل الحديث !

– ومع ذلك ، أنا باعتبر مقالة مصطفى سيف دى ، اخطر ألف مرة عليك من مقالة فهمى عبد الغفار ••

قال كمال بانزعاج :

— ازای ۱۹

— طبعاً ۰۰ ایه الی جاب عملیة نقل القلب للانتخابات ،  
والتجمع الثوری ، والاشتراکیة والشعارات بتاعتهم دی الی عایزین  
یخربوا بها البلد ۰ مش کفایة الی حصل ۱۹

شیوعی عنید ورأسمالی کبیر یتصارعان ۰۰

هل بدأ الصراع الحقیقی كما قال مصطفى سیف فی مقالته  
الأولی ۰ ازیلت آثار العدوان وبدأ الصراع الحقیقی ۰ انه یهد له  
مع أحمد زهران بالتجمع الثوری !

وانا ۰ این أنا من هذا الصراع ۱۹

— والله ما أنا عارف یاحاج ۰ أنت عارف دول ناس طول عمرهم  
بیشغلوا بالسیاسة ۰ ( ضحك ) ۰ وأنا راجل لسه راجع للدنیا من  
کام یوم ( وأراد أن یقل الحديث ) ۰ مصطفى صدیق ۰ وکانسان  
باحبه ۰ دی کل الحکایة ۰

نظر صلاح فی عینیه کأنما یتأكد بالضبط من حقیقة مشاعره ،  
ثم قال وقد اتسعت یتبیامتہ :

— أنت عارف الناس هنا فی السوق بدأوا یقولوا علیک ایه ۱۹

ویفضول وانزعاج :

— بیقولوا أنك بقیت شیوعی !

— أنا ۰ ۱۹ هاهاماها ۰۰

انطلقت منه ضحكة مقهقهة عالیة ، رنت فی فضاء المحل ،  
حتى ان العمال نظروا جمیعا الیه فی فضول ۰ وبدأ علی وجوههم  
السعادة بأنه یضحک ۰۰ العملية اذن تسیر سیرا جسننا ۰

وفى فضول راح البعض القريبون منه يجهدون آذانهم ليسمعوا  
الحوار الدائر أو رشاشاً منه ..

– قال كمال أدهم ، بعد أن انتهت ضحكته :

– أنا ؟ شيوعى ؟!

– يقولوا كده !

– يقولوا ياسيدى • حاسل لهم ايه • لكن ازاي ، وبأي  
مناسبة ؟ ( وضحك ) يكونش الرجل اللي أخذت قلبه كان شيوعى •  
فبقيت شيوعى ..

وابتسم صلاح للصورة • وبدأ عليه انه اطمأن للانكار الصادق  
من كمال أدهم لهذا الاتهام • ورأى سحفته وقد انقبضت فجأة • •  
وأطلت من عينيه نظرات مجعدة حزينة • •

– اوع تكون اتضايقت ياكمال من كلامى ، انت عارف الناس  
كلامهم كثير واليومين دول بالذات ، انتخابات ، الناس قلقانة ، عايضة  
تعرف البلد رايحة على فين ؟!

قال وقد تحكّم فى رغبتة فى الصراخ :

– وأنا • رايح على فين • مش من حقى أعرف أنا كمان رايح  
على فين !

قال صلاح بتشجيع وحماس :

– طبعا من حقك • ومش من حقك بس • ده من واجبك •

– يبقى خلاص • • يسيبوا الواحد فى حاله • يشوف المشاكل  
اللى مواجهاه دى •

وئدت عنه تنهيدة ، لمست قلب صلاح ، وأدرك منها أنه يعاني من مشكلة . أى مشكلة ياترى تواجه هذا الرجل الذى اعطاه الله قلبا غير قلبه ، وأنقذ حياته به ؟ انت لو تعرف ثروة كبرى . . ياكمال يا أدهم . . ليت مشكلتك تكون خاصة بالمصنع وبالسوق فسأحلها لك على الفور ، كما حللتها لك وانت فى المستشفى .

— ايه يا كمال المشاكل اللى مواجهاك دى ؟

أطرق برأسه . . آن أو ان الدخول فى الموضوع . بان عليه الخجل والضيق . شىء صعب على النفس ، ولكن لا مفر . .

مع صمته وتردده ، ثار فضول صلاح :

— قول ياكمال بسرعة أرجوك . . ( واستدرك ) الا اذا كانت مشكلة شخصية ، بتعتبرها سر . .

— لا . . ولا سر ولا حاجة . هى الحقيقة مشكلة خاصة بالمصنع وريتنا يسهل .

— بالمصنع ؟ تبقى لازم تقولها لى ، وبسرعة أنت بتعتبرنى غريب عنك ياكمال يا أدهم !

تذكر على الفور موقفه منه أثناء العملية .

— بالعكس . . أنت راجل أفضالك سابقة . . أنا لا يمكن أنسى . .

وقاطعه صلاح مستنكرا بشدة . . :

— أفضال ايه ياراجل أنت . ان ماكنتش أنا أقف معاك ، وانت تقف معاى ، وبالذات الأيام دى ، مين حيقف معانا !

رنت فى أنذيه « وبالذات الأيام دى » ماذا يقصد . هل هي

حركة الانتخابات ١٩! ما علاقة صلاح بالانتخابات هذه المرة • مهما  
يكن الأمر فانا لا أعرف شيئاً • الشيء الوحيد الذى أعرفه • لابد أن  
انقذ مصنعى ••

— قول ياكمال ايه المشكلة !

وانتهى عند كمال كل تردد ••

— كنا بايعين بضاعة لتاجر فى المحلة • اصناف ذهب فى منتهى  
الجمال • وكنت معتمد على فلوسها فى تسديد كمبيالة استحقاقها  
بكره • وبعدين فوجئت به بيرجها لى • ومش عارف أعمل ايه !

قال صلاح على الفور ، بلهجة جادة وعملية :

— ايه البضاعة دى ١٩

— حرير جورجيت وقماش ليبريك أبيض ، وعشرين بالة دمور •

ببساطة شديدة • وبابتسامة صغير ملأت قلبه طمأنينة وفرحا •

— ابعت لى البضاعة دى ياكمال ، وأعمل بها فاتورة ، يلزمك

فلوس أد ايه دلوقت ؟

— عشرة الاف • قيمة الكمبيالة بس •

واستدار صلاح الى عامل الخزينة :

— شوف لى الفلوس اللى عندك كلها كام ياعم محمد •

— ٣٠٠٠ جنيه يا حاج ••

— طيب هاتهم ••

ثم أخرج من مكتبه دفتر شيكات ••

• - وادی شیک بـ ۷۰۰۰ جشیہ ( وابتسم وهو يقدمه له ) ولا  
تحمل هم ۰۰ تقدر دلوقت تروح تسدد ۰ والبضاعة ابق ابعثها على  
مهلك ۰

• هز کمال الموقف ۰ کان کفريق وانتشل ، احس برغبة فى ان  
يحتضنه ويقبله ۰ تحكم فى مشاعره ۰ العمال واقفون ، يرون كل  
كل شيء ۰ يجب ان يتماسك ۰۰

• - انا متشكر جدا يا حاج صلاح ۰ جمنايلك دى لايمکن الواحد  
ينساها ، بس ربنا ۰۰

• وقاطعه صلاح ۰ يا راجل بطل حكاية متشكر دى معايا ۰ احنا  
بيننا ذفرق ؟ احنا لبعضنا ياكمال لازم نقف مع بعض ، وبصرف النظر  
دى مواقف انسانية ۰ كل انسان منا عرضة للمشاكل والأزمات ،  
انا النهارده لك ، أنت بكره لى ۰۰

• - ياريت يا حاج ، أقدر ۰ انا متشكر ۰۰

• - المهم تشد حيلك ۰ أنت طول عمرک انسان نشيط وذكى ۰  
وفيك امكانيات كبيرة كويسة ۰

• وقال کمال بخجل :

• - ولا امكانيات ولا حاجة ۰ الحكاية على الله خالص ۰

• - كلنا على الله ياكمال ۰ القلب الجديد دهنمة عليك من الله ۰  
وعلشان كده عايزك تصلى ۰ ما تقطعش الصلاة أبدا يا کمال ۰۰

• - ان شاء الله ربنا يقدرنى ۰۰

• - اذا نويت حيقدرک ۰۰

• ابتسم کمال ابتسامة مرتبكة ، ولم يعرف بماذا يرد ۰۰

— بس انت شد حيله •

ومد كل من الاثنين يده للآخر بالسلام • سلام قوى حار • كانما  
هو عهد وميثاق •

وخرج كمال ادهم بالمبلغ والشيك •

\*\*\*

خرج كمال يملأه الاحساس بالنصر • ونادى على اول تاكسى  
قابله ،

— على الدراسة يا أسطى • مصنع القاهرة للنسيج •

كان يحس بوجوده خفيفا ومرحا • ورأى مصنعه يكبر ويكبر ،  
مادام صلاح عبد الهادى معه سوف يكبر ، المهم يلتفت الى المصنع  
•• نعم •• لا يصح أن يترك كل شئ ليحيى البدرى أكثر من ذلك •  
فمن يكون يحيى هذا •• ؟! شاب قليل الخبرة مهما يكن الأمر ••  
كان يريد الذهاب الى القطاع العام ويطلب التأجيل • لم يعرف حتى  
الآن معنى التأجيل بالنسبة لمصنع كمصنعى • كانت ستكون نهايته  
السمعة السيئة هي البداية • يقول انه تعب ويريد ترك المصنع ••  
الى أين يا يحيى ستذهب • لو لم يكن المصنع بعد خروجك من السجن  
لكان حالك حالا • تركت الجامعة وأصبحت غير قلدر على أن تواصل  
الذاكرة • كبرت على الذاكرة •

اين تذهب لو تركتني • لا • انا اعرف • لن تترك المصنع ،  
ولن تتركني • ومع ذلك ، لو مشيت فلن أقزع • حين أخبرتنى برغبتك  
فى المشى ، ملأنى الرعب •

لم أتصور أن المصنع يمكن أن يدور بدونك • ها أنا في أقل  
من ساعة واحدة حللت المشكلة • اعقل يا يحيى • كن واقعيا • وعلى  
أية حال • أنت شخص طيب • و • • • لقد وعدتني ( وأحس بقلبه  
يهبط فجأة • وقطرات عرق تتفصد من جبينه ) لقد وعدتني بأن تذهب  
إلى « عزة » لتقنعها بخطأ تفكيرها • • لا • • • لن تذهب • وأنا أيضا  
لن أذهب لهؤلاء الناس بعد اليوم • لن أفكر إلا في مصنعي • لن  
أسمح لأى كائن من كان أن يعيدنى إلى الدوامة • أبدا • أبدا •

وحين دخل مصنعه • وجد يحيى البدرى ينتظر فى لهفة وقلق •  
وأخبره فى زهو هادئ أن المشكلة قد حلت • وأخرج له المبلغ والشيك  
وأعطاهما له •

– تقدر دلوقت تاخذ تاكسى وتروح تسدد الكمبيالة ، أو تستنى  
لبكره اذا كنت تعبان • على كيفك •

أبتسم يحيى من أعماقه • صحت النبوءة وتلقفه صلاح •

– نسدد على طول • مادام فيه فلوس ، مفيش داعى للتأجيل •  
وايدك قاعد هنا لغاية ما أرجع •

قال كمال ، وقد تصور أن العملية يمكن أن تطول • وأحس  
فجأة بالارهاق • وتذكر أنه لم يتناول الفطور • •

– واللا أقول لك • بلاش النهارده • تصحى بكرة تروح على  
طول تسدد • أنا حاروح البيت دلوقت أحس تعبان •

وندت عنه زفرة لا ارادية • وبقي لحظة صامتا ثم قال :

– بالحق يا يحيى • مفيش داعى تقابل عزة أو تكلمها !

قال يحيى مستغربا :



— ليه ١٩

قال بشكل مقتضب وباتر :

— كده • مش عايز ادخل فى وجع دماغ أكثر من كده • خلىنا  
فى مصنعنا وبس •

قال يحيى ممثلاً لرغبته • وقد بدأت ملامح كمال تأخذ فى عينيه  
شكلاً غامضاً •

— وهو كذلك • مش حاقابلها • بس عايز أقول لك حاجة ••  
قبل ما أنسى ، شوقى الشريف • اتصل بك من شوية •

قال بنوع من الفزع :

— شوقى الشريف مين ١٩ ( واستدرك بسرعة ) أخو عزة ؟  
ابن الراجل اللى •• ( ولم يكمل ) ••  
— آه ••

— وكان عايز ايه ؟

— أبدا • كان عايز يطمئن عليك • بيقول أنك خرجت من عندهم  
امبارح تعبأن شوية •• وحب يطمئن عليك !

يا الهى •• الدوامة تعود ••

هل هى دوامة ••؟

أم حصار ••؟

أغمض عينيه ، وضغط على رأسه بشدة ، خوفاً من انفجار ،  
أو نوار •

## - ١٧ -

وهكذا انطلقا سريعا احساس كمال أدهم بالانتصار • بل وابتدأت  
أزمة المصنع - وقد انحلت بسرعة وسهولة - وكأنها ما كانت أزمة  
على الإطلاق • إنما كانت فرصة للهروب • الهروب من تلك الحقيقة  
التي أصبحت جاثمة وثابتة • هاهو الوضع يعود كما كان : دقائق  
القلب تسرع • وعيون البذت لاتزال بالمرصاد • ولعب به الوهم فرأى  
أخاها شوقى فى صورة المتآمر • وأنه بسؤاله فى التليفون عن صحته  
إنما ليستدرجه ليعود به مرة أخرى الى قلب الجحيم • وأوشك أن  
يصرخ فى وجه يحيى •

- لا •• ولا حتى شوقى أريد أن أراه ، فليقتعد غنى •

غير أنه رأى شوقى ، بوجهه الأسمر الغاضب المتمرد ، ينظر  
له فى عتاب ممزوج بالازدراء •

أهذا هو الجزاء ياسيد كمال ؟! على كل حال ، أنا لم أطلب  
منك شيئا ، أنت الذى أبديت الرغبة فى أن تزكى كتاباتى عند مصطفى

سيف • ومع ذلك لا تنسى قولى لك انى لا اؤمن بسيف هذا ، ولا بجيله • وانت واحد منهم • لا خير فيك • هربت بجلك بسرعة •

وشملته رعدة :

اتهام جديد يمكن ان يصوب اليه :

•• الجحود

لا • لا • ليس معك ياشوقى • كنت سندا لى فى الموقف العصيب •• ويجب ان تظل لى سندا • وبصرف النظر ، لىتنى أستطيع ان اقدم لك شيئا • ارد جزءا من الجميل • ساساعدك فى نشر قصصك • وانتعشت روحه اذ تذكر ان مصطفى سيف سيزوره الليلة فى بيته • اجل سيكلمه عنه ، وياخذ موعدا قريبا • ولكن ، كيف يتصل به • كيف سيبلغه باليعاد ؟

ورأى يحيى البدرى امامه •

— يحيى سيقوم بالمهمة ••

وهذات نفسه قليلا • وحانت منه نظرة ليحيى ، كان مطرقا ينفث دخان سيجارته فى شرود ، ويدا على وجهه الاكتئاب والتأمل •• أقلقته ملامحه • وتذكر فجأة ما قال من انه يريد ترك المصنع •• لا • لا يا يحيى • لا يصح لا تتعجل • انا لم اقف بعد على قدمى •

واحس فى نفسه بالندم • والخجل • « كيف فكرت وانا خارج من عند صلاح عبد الهادى اثنى يمكننى استغناء عنك ؟ لا يا يحيى • انت عصابى التى اتوكأ عليها فى الأزمات • مازلت فى حاجة اليك •

وبصوت رقيق مخنوق ومجهد •

— قوللى يا يحيى •• انت زعلان منى فى حاجة ؟

قال يحيى وقد فوجيء بالسؤال وباللهجة •

ـ أنا ؟ زعلان منك ؟ ليه ياكمال لا سمح الله •• انت عمرك  
ما أسأت الى فى حاجة • بالعكس أنت أفضالك على كتيرة ياكمال ••  
لكن ليه السؤال ده دلوقت ؟

وبصوت عاتب •• :

ـ لأنك بتقول انك عايز تسبب المصنع وتمشى •

أثرت فى يحيى لهجة كمال ••

ـ صحيح أنا قلت كده •• و •• وحامشى فعلا بس مش دلوقت  
•• بعد ما ترجع من المصيف ، واتفقنا على كده •

شوح كمال أدهم بيده رافضا ومتمزقا :

ـ مصيف ايه واتفاق ايه يا يحيى • أسافر المصيف ازاي  
ومشكلة زى دى ورايا ؟

ـ مشكلة ايه ؟

ـ البننت ••

ـ ما للبننت والتصيف !؟

ازاي يا يحيى • أسافر ازاي أو أفرح وأصيف والبننت بالحزن  
ده ، والتفكير ده ، والاتهام اللي مايبسبنيش لا ليل ولا نهار ؟ أنت  
ما تعرفش ايه اللي خرجنى النهارده من بدرى قبل ما أختك سناء  
تصحى • حلم يا يحيى • حلم فظيع شفته وحوادثه كانت فى المصيف  
والبحر • أنا • أنا أخاف أنزل دلوقت البحر !

قال يحيى وقد داخله الخوف والقلق على كمال :

— حلم ايه ١٩

— ما اقدرش احكيه لك دلوقت • انا ما صدقت اننى نسيته :  
بقى فى الحلم يا يحيى والراجل مقتول ، والدم نازل من على وشه  
مغطى الميه ، وأنا رايع انقذه ، ولما وصلت عنده ، مالفيتوش ، اعمل  
ايه ١٩

قال يحيى على الفور ، وقد التقط تفسيراً للحلم •

— حلم واضح جدا • مش عايز تفسير •

وبلهفة :

— واضح ازاي • قوللى ••

— اناك بتخلق لنفسك مأساة مالهش وجود ، وبتحاول تبحث  
لها عن حل • بتفكر ان فيه جريمة • وبعدين مفيش جريمة •

— ازاي يا يحيى ، مين يؤكد لى ان الراجل كان مات فعلا ١٩  
حتى الدكتور لا يمكن حيزيل الشك من نفسى • لأن الدكتور نفسه  
متهم !

— تبقى بتجربى ورا قضية مالهش جسم •

— أبدا يا يحيى • لها جسم • والجسم جويا • هنا ( ولامس  
صدره بأطراف أصابعه ) قلبى ده ، هو جسم الجريمة لو صح الاتهام  
( وارتعش ) ابقى عايش وجوايا جريمة بتنقبض •• بتدق •

صاح يحيى رافضاً منه هذا التصور المرعب •

— انا معترض على تفكيرك كله ياكمال فى الموضوع ده • مش  
معقول • المعجزة العلمية • الخارقة • اللى أول مرة تحصل فى  
تاريخ البلد • تكون سبب فى شقائك ، بدل ما تكون سبب فى سعادتك

وأفتخارك • أنت ناسى الناس فى شارع الأزهر كانوا عاملين حواليك  
ازاى • كان ناقص يشيلوك ويهتفوا بحياتك !

أطرق كمال فى حزن ، وقال فى أسى وهو يستعيد الصورة ••

– كان نفسى العملية دى تكون نقية وخالصة لوجه الله والعلم ،  
كنت حافرح بنفسى – ويفرح الناس بى • ( وعاود ملامحه التآلم )  
أنا أصبحت باهرب من الناس • باخاف منهم • باحس انى باخدعهم  
بحاجة فى مش صحيحة • أنا • أنا بافكر أشتري نضارة تكون كبيرة  
تخفى جزء من ملامحى عن الناس ، وأنا فى الشارع ، عشان  
مايعرفونيش !

هنا توقف يحيى عن الكلام • أدرك أن أزمة الرجل قد ملأت  
عليه نفسه ، حتى أصبحت فوق أى كلام أو مناقشات أو اقناع •  
ورأى أن كمال أدهم يصبح – لحظة بعد لحظة – خطرا على نفسه ،  
ولابد من موقف سريع ، يوقف الموضوع عند حده وبشكل حاسم •  
ولكن كيف ؟ يجب أن أخلصه من هذا المأزق • ان لم أخلصه أنا ،  
فمن ذا الذى سيخلصه ؟ ولكن كيف ؟ من الذى رمى ببذرة الشك  
الخيثة هذه فى نفسه ؟!

إنها هى • وليس غيرها • البنت • عزة • وليس غيرها أيضا  
يستطيع أن يعيد الأمان الى نفسه • يجب أن نفعل هذا • يجب ،  
والا فهى متوحشة •• ( ولعلت فى ذهنه فكرة ) •

اندفع قائلا :

– تسمح لى أقابلها ؟

– تقابل مين ؟!

– عزة ••

– إليه ؟

– واضح أن البنت دى من بسيطة ياكمال • لازم حد يراجبها  
وأنا اللي حاواجبها •

– ازاي ••

بسط يحيى كفيه رافضا الجواب ، وبثقة •

– سيبللى الموضوع ده •• أنا حاتصرف •

قال كمال ، وقد تفتح وجهه بالأمل ، واحس بجزء من العبء  
ينزاح عنه ••

– ياريت يا يحيى •• ياريت فعلا تقابلها وتتكلم معاها ••  
( أوشك أن يقول له : لقد تخيلتكما مرة معا • وتحبها وتحبك ) لكنه  
تذكر وجهها النافر • المشكلة صعبة عليك يا يحيى • انت لا تعرف  
نوع البنت ، ولا أنا أعرفها • ولكن فلتحاول أيها المكافح القديم ••  
لا تتركنى وحدى فى الموضوع ••

وازداد صوته تهدجا بالأمل وبالتمنى :

– وياريت يا يحيى تتعرف كمان على أخوها شوقى •• شباب  
لسه صغير ، وطيب ، عنده طموح • لكن مسكين حاسس انه ضايع ،  
وممكن جدا تفيده •• إيه رأيك يا يحيى •

هز يحيى رأسه موافقا وزارعا الثقة فى نفس كمال •

– خلاص •• اتفقنا ••

والتقت عينا يحيى البدرى بعينى كمال أدهم كأنما يلتقيان على  
العهد من جديد وكانت دفعة حياة قد اندفعت فى عروق الاثنين ،  
جددت حماسهما للحياة من جديد :

يحيى البدرى وجه لنفسه معركة بعد طول الركود •  
وكمال أدهم ، خف عن صدره العبء الثقيل ومن حقه الآن ،  
ولو قليلا ، أن يهدأ ويستريح •



## - ١٨ -

كان القدر يضحك ضحكة ساخرة صغيرة ، وهو يرقب كمال  
أدهم يقترب من بيته • لقد تغيرت ملامح الرجل فجأة ، وعأوده  
الاكتئاب • ماذا حدث ؟

كان قد تذكر فجأة • اذ لاح له البيت ، أن هناك موقفا صعبا  
فى انتظاره • كيف سيتصرف مع سناء ؟ لقد تصنع النوم بالأمس  
متهربا منها ، وفى الصباح ، بعد الحلم غادر البيت قبل أن تصحو ،  
ولم يترك لها خبرا بمكانه • ولم يخبرها بما حدث فى الزيارة •

هل يحكى لها الآن ••

وما أن بدأ يستعيد الموقف ليحكى لها ، حتى أصابته ارتعاشة ،  
وأحس برأسه يدور • لا • مستحيل أفتح هذا الموضوع من جديد •  
أنا أسعى للتخلص منه ، لا للدخول فيه • وهى ، بماذا ستفيدنى  
فيه ؟ بالعكس • ستهوى عليهم بالشتائم ، وتشكك فى نواياهم • من  
أول يوم لا تستريح الى سيرتهم • عيبك الغيرة الفظيعة ياسناء •

( وتذكر فترة كادت الغيرة فيها تحرق البيت والمصنع • كان لك الحق أيامها ياسناء • من أيامها لم أذهب الى الاسكندرية ، ولم أرها ، القطة الاسكندرانية ، وندمت بما فيه الكفاية • أما الآن ، أنا فى اشكال من نوع آخر • اشكال فظيع ( غير أنه تذكر اتفائه مع يحيى ) لا •• ولا اشكال ولا يحزنون ( ورأى وجه يحيى الأسمر الضاحك بسنته المكسورة ، يمتزج بوجه عزة تبتسم له وترضى عينها فى حياء ودلال ) ليت هذا يتحقق • أجل •• لم يحدث شئ فى الزيارة ياسناء • كانت زيارة عادية لم يحدث فيها ما يستحق أن يقال •• ثم •• ثم منذ متى تحاسبيننى على تصرفاتى • وعلى خروجى ودخولى ؟ يجب أن أتصرف بها بدم من الآن • يجب أن تتدبكنى فى حالى ••

وقد كان



على كازينو صغير مطل على النيل - قرب كوبرى الجامعة -  
جلس الاثنان : كمال أدهم ومصطفى سيف •

كان كمال قد سبقه فى الوصول بدقائق ، واختار مكانا متطلوفا ملاصقا لكورنيش النيل ، وجلس فى الانتظار • كانت ليلة صيفية رائعة والهواء راقص وطرى وجاف • وأضواء الكازينو الخافتة المتناثرة ، ومجرى النهر ، ونومة عميقة ومريحة نامها كمال •• وانتعشت روحه • شد أنفاسا عميقة • انه يتنفس من أجل التنفس • كان يحس بالهواء يجلو صدره ورئتيه • وأحس بقلبه داخل صدره قويا • هذا هواء العافية ، وأغمض عينيه وراح يستنشق بهدوء وعمق واستمتاع • وعاد ينظر الى النهر : الذكريات • الأيام تعود ياسيف • جلسائنا التى كانت فى أحلك الأيام • أيام النكسة • كان

البحر يسمونك ساخرين : ملك التفاوض • وجهك المحدد الملامح •  
الناتئ الحظام ، بشعرك الأشيب ، وجهتك المحددة الجميلة • كل  
ما فيك كان دائما ينطق بالتفاوض • وحب الحياة ( وزفر ) مهما كان  
التمن الذي دفعناه ياسيف ، فقد صح تفاؤلك : الأرض تحررت كما  
كنت تبشر وأزمة القلب انتهت ( ووضع كفه على كفه ) ولكن هل هذا  
يكفى يامصطفى ؟! أنت تبشر بالقلب الجديد ولا تدري أن أزمة جديدة  
تهده ••

وانقطعت فجأة خواطره على مصطفى سيف نفسه يميل عليه  
ويهمس في أذنه بنغمة ودودة •

— مساء الخير ، على القلب الجديد ••

انتفض فرحا في جلسته • مزته اللهجة مثلما مزته الكلمات •

— أهلا أهلا •• يامصطفى ••

ومد له ذراعيه يعانقه ••

— تعال •• ياريت القلب الجديد يقدر ياخذك جواه ••

وفرد مصطفى ذراعيه :

— أنا واثق أنني جواد ، من غير ما أكون جواه ••

وتعانق الصديقان •• ثم جلسا •

وبث كل ما تذكر كمال جلسته في الصباح مع صلاح عبد الهادي .  
وتعليق صلاح على مقالة سيف ، وعاوده تحذيره غير المباشر « أنت  
عارف الناس بتقول عنك ايه يا كمال • بتقول انك بقيت شيوعي » •  
وادتسم في نفسه • هل يحكيها لسيف على أنها نكتة ؟!

لا لاداعي • فقد توغر الكلمة صدر مصطفى على صلاح عبد الهادي ،

والاثنان صديقاى ٠٠ و ٠٠ وصلاح خدمنى ٠ كان ييغى مصلحتى ،  
من وجهة نظره ٠٠

وتنبه لحقيقة بدت مفرحة ومثيرة : اليوم جلس مع قطبين  
كبيرين ، متناقضين ، دون أن يعرفا بعضيهما شخصا ، وآه لو كان  
هنا أيضا أحمد زهران ٠

غريب عالم السياسة ٠ كل يدافع عن منطقته بصدق وحماس  
وايمان ، حتى ليحتار الانسان مع من يقف ، ويصدق كلامه ٠

وفوجيء بمصطفى سيف يقول : انت عارف اننى حاكتب تانى  
عن القلب الجديد ؟

— اصابته رجفة : بمناسبة ايه ؟

الراجل اللى هاجم عملية نقل القلب بتاعك فى الجرايد ، وقال  
عنها انها كفر والحاد ٠

— ماله ؟

قال مصطفى بلهجة جادة وخطيرة :

— ده مش راجل ياكمال ٠ مش مجرد فرد ٠٠

— امال ايه ٠٠ ؟

— ده تيار !!

اسرعت دقات قلب كمال ادهم رغما عنه ، وداخله خوف  
غامض ٠٠

— تيار ؟! تيار ايه ؟!

— تيار فكرى خطير ياكمال ٠ موجود فى البلد ٠ تيار رجعى

عايز يوقف اى تقدم يحصل فى البلد • وعلشان كده لازم ينكشفوا •  
انا قررت اعملها معركة ••

— معركة ١٩! ( وعاوده صوت صلاح عبد الهادى : الاثنين  
عايزين يعملوا من قلبك معركة • ويكسبوا من وراها ) •• و ••  
وتذكر الاتهام • هاجمته نظرات عزة •

صاح فجأة ، معترضا بكفه بقوة ، ورجاء :

— لا يامصطفى •• أرجوك •• بلاش ••

قال مصطفى بدهشة وقد فوجيء بموقفه :

— بلاش ايه ؟

— بلاش تكتب اى حاجة تانى عن العملية ••

— ليه ؟

وتردد كمال لبرهة ، ثم أطلقها واضحة صريحة من أعماقه •  
وهو يضع يده على قلبه •

— عشان مش عايز قلبى ده يبقى ميدان لمعركة • كل الضرب  
بيجى فيه • مش فيكم أنتم • القلب الجديد مش حيسحمل يامصطفى  
أرجوكم تسيبوه فى حاله ، لو كنتم بتحبوه ••

وراح على الفور يحكى له اتهام « عزة » الرهيب • غير أن  
مصطفى انتصب واقفا كالمطعون فى أمل حياته العظيم • صاح بغضب  
وعنف : مستحيل • ده جحود • جحود منك ياكمال فى حق الدكتور  
العظيم اللى أنقذك من الموت ، ورجعك للحياة !

قال كمال بسخرية اليمة ••

– رجعتى للحياة ١٠٠ اى حياة رجعت لها ، حياة مليئة بالشكوك  
والاتهامات . وقاطعه مصطفى . وقد تفلس وجهه .

– لا ياكمال . . أرجوك بلاش تفكر بالطريقة دى . . مابقتش  
عمليتك لوحده . دى عملية البلد كلها . انا باعتبارها كده . ومؤمن  
بكده . .

قال كمال مؤكدا :

– ده ادعى لأننا لازم نعرف حقيقة العملية . الانتصار العلمى  
. . القلب الجديد . . الى أنت بتدافع عنه ، وتعتبره رمز لبعث جديد  
جه ازاي ؟ . وعلى اى أساس . لازم تدافع عن حاجة أنت متأكد  
منها يامصطفى . .

احس مصطفى سيف ( الكاتب ) بكل كيانه يتزلزل . هل يمكنه  
بعد ذلك مواصلة الدفاع عن العملية علنا ، فى جريدته ، ويدخل من  
أجلها معركة ، كما كان يقول منذ لحظات ، مع عبد الغفار أو غيره ؟  
هاهو صاحب القلب الجديد نفسه يلقي ببذور الشك حول عمليته ،  
ويدا كمال ادهم بجلسته أمامه فى أضواء الكازينو الخافتة ، اما  
شيطاننا مريدا ، يقوده معه الى هاوية الشك واليأس ويشوه للوطن  
كله الرمز العظيم ، واما « نبيا » بوحى من قلبه الجديد عاد الى  
الحياة ليبشر الناس ويصيح فيهم : أيها الموتى ، لا تفرحوا بعودة  
الحياة اليكم . الا اذا كانت قائمة فعلا على البراءة . وعلى النقاء .  
وعلى الأمان .

ولكن ، بهذا المنطق ، ماذا ستكون النتيجة ؟ ماذا لو صرح  
الاتهام ! ( وبرقت عيناه ) . .

ستتلقف الرجعية الاتهام وستؤكده ، وستضرب به . ونحن فى  
انتخابات . كل الأمل فيها . لولا موعدك هذا ، لكنت الآن هناك .

التجمع الثورى ( وتذكر أحمد زهران • والأصدقاء ) انهم الآن يحاولون الوصول الى أحسن العناصر التى سترشح نفسها فى الانتخابات والبرنامج الذى سيدخلون به ، أول بند فيه « اقامة دولة اشتراكية ، ينهض بناؤها على أساس العلم الحديث » لا • ليس هذا بكاف • يجب أن تضاف فقرة أخرى : وعلى أساس من القيم الأخلاقية والروح الانسانية •

ورأى زهران صديقه السياسى . ينظر اليه فى عصبية ونفاق  
•• صبر

هذا هو عيب الفنانين حين يدخلون السياسة • لا تتلأأ للنظر فى موضوع قدميك • أسرع فى السير يامصطفى • ليس هناك وقت للشك !

الرجعية تتحرك لتضرب •• هذه فترة حاسمة فى تاريخ البلد

لا يا زهران •

كثيرا ما اندفعنا بشكل متشنج اعمى ، ثم لم نلبث أن وجدنا  
انفسنا فى نفس المكان ، وربما على أسوأ مما كان ••

ان يكون كل شىء على أساس يازهران • اليقين • أن أوصل  
الدفاع عن هذه العملية أو لا أوصل • لقد قلت عنها انها البعث ••  
فهل كنت مخطئا • هل كنت أضلل ؟

مسئولية الكلمات يازهران ••

واحس بنصل السزن يطعنه • الرمز يتهاوى • السحن  
الصفراوية الكئيبة تكشر عن انيابها • وتضحك . قال متمزقا ، وكأنما  
يكلم نفسه :

– لكن ازاي دى تيجى ٠٠ لا ٠٠ لا ياكمال ٠ مش ممكن اصدق ،  
ومش عاير اصدق ٠٠

واكتسى وجهه الشاحب بأسى بالغ ، وتقلصت أصابع قبضته ،  
كانما يرثى حياته كلها ٠

– كل ما افرح بحاجة جديدة ، وأقول هى دى الأمل تطلع  
سراب ٠ حتى القلب الجديد ٠ مش معقول ٠٠ حرام ٠٠

\*\*\*

بعد قليل ، كانا يغادران الكازينو ، برغبة من الكاتب ٠ قال  
بإكتئاب انه يريد تغيير المكان ٠ فأنطلقا فى عربة كمال ٠ وتلقائيا ،  
أخذ طريق كوبرى الجامعة ٠ ثم الجيزة ثم شارع الهرم ٠

كان الصمت ثقيلًا بينهما ، وبدا كمال وهو يقود العربة ، راغبا  
فى سره ، أن يخلق جوا من المرح ٠ أن يجلو صدره بضحكة ٠٠  
انزاح العبء عنه ٠ وفكر أن يقول مواسيا ومعتذرا لمصطفى ٠٠  
« ولا يهمك ٠ فلنكن فى الهوا سوا ٠٠ لنواجه الاتهام معا ٠ ولتكن  
النتيجة ما تكون ٠٠ لاداعى للتفكير الآن فلنتحدث ٠ شىء آخر ٠  
ما أخبار قصصك ومسرحياتك ٠٠

ورأى عربة مكدسة بالشباب ، تمرق بجواره وتجتازه تاركة  
خلفها أصواتا ضاحكة ومهرجة ٠ وفكر أن يعلق بكلمة على المنظر ،  
ويتغير الموضوع ، واختلس نظرة من مصطفى ، ووجد عينيه شاردين  
٠٠ فيم تفكر الآن أيها الكاتب وكيف ٠٠ ( وتذكر ) ألم تكتب فى  
مقالتك الأولى وأنت تهنئنى على الشفاء ٠٠ ؟ « أود أن أكتب قصة  
القلب الجديد ، ٠٠ هاهى يامصطفى ٠ قصة لم تحدث من قبل فى



تاريخ بلدنا ٠٠ اكتبها يا مصطفى ٠ لو مت فاكتبها واشهد على انى  
الذى ذهبت بقدمى الى الاعداء !

وروعته الصورة ٠ لا ٠٠ لا ٠ يمكن أن تكون هذه هى النهاية ؟!  
على أى أساس ؟ لا ٠٠ انا لم ارتكب جرما ٠٠ وان كانت جريمة ٠  
فلست انا ٠ ابدأ لست انا ٠

الآخرون ٠٠

وقجىء بمصطفى سيف يقطع خواتره ويسأل باهتمام :  
قوللى ياكمال ٠٠ ايه معلوماتك عن العلاقة اللى كانت بين  
المرحوم ومراته ، قبل ما يموت ؟

— هه ؟ مش عارف ٠٠ ما عنديش أى فكرة ٠٠ ليه السؤال  
ده ؟

— لا ابدأ ٠٠ بأسأل بس ٠٠

ومضى الكاتب فى سرحته ٠٠

وفكر كمال أدهم بسرعة ، وقد انزعج للسؤال ٠ هل يشك  
مصطفى فى الزوجة ٠٠ يقف مع عزه ؟ هل يحتمل أن ٠٠

ورفض الفكرة بشدة ٠٠

— لا يا مصطفى ٠ لا ٠ مستحيل تشك فى الست دى انسانة  
لا يمكن تتخيل طبيعتها ٠٠ وعظمتها ونقاءها ٠٠ لو تشوفها وتشوف  
الحزن اللى فى عينيها ٠٠ دى ٠٠ دى عاملة زى مريم العذراء  
مستحيل توجه الشك لها ٠

نظر له مصطفى نظرة جادة ، لا تخلو من سخرية ٠٠

– وليه مستحيل الشك فيها ؟ أنت مش لسه بتقول إن كل حاجة لازم تكون على أساس ، وعلى يقين ، هل انت تعرف الست دى قبل كده . تعرف حاجة عن حياتها الماضية ؟

– لا طبعا .

– يبقى خلاص . وعلى كل حال . ده مجرد افتراض يحتمل التفكير .

هل بدأ الكاتب بحثه ؟

هل بدأ فى تقصى الحقيقة على طريقته . وهو الروائى ؟

والواقع أن صاحبنا الكاتب كان قد حدث له شىء غريب .

شىء يسمونه فى عالم المسرح بالتراجيكميديا ، فبينما هو فى عز أزمته واحتمال فجيعته فى الرمز الوطنى العظيم . وإذا بكائن راقد فى أعماقه يستيقظ فجأة بعد رقاد طويل : الفنان .

ورأى الأحداث والرؤى تلتفع فى عينيه على نحو غريب ، حتى انه هتف مبهورا وفرحا – فى سره طبعا – : هذه قصة . هذا موضوع يصلح لرواية جديدة وخطيرة . دراما عن القلب الجديد ، وهذا هو بطلها يجلس بجانبى . وبقية الشخصيات . والأحداث . ووج نفسه يفكر على ضوء ما حكى له كمال عن لقائه العجيب بأفراد العائلة ، وموقف البنات . والأم . والأخ ، ورأى الثالث الاغريقى فورا أمامه : اليكترا وأورست ، وكليتمنسترا : الأم ، والرجل الميت الذى نزعوا قلبه ، هو أجاممنون . اليكترا تريد الانتقام ، وأوشك أن يصبح : اليكترا المصرية . مثل اليكترا سارتر ، وأونيل . وجان أنوى ، وأسخيلوس ، ورأى نفسه يقدم عملا ضخما . وعالميا . غير أن حماسه لم يلبث أن انطفأ . وماذا فى هذا شىء قديم . قديم . دراما القلب الجديد . تتحول فى يدي الى موضوع قديم . لا .

وأحس بالخجل من نفسه ، وخشى أن يكون كمال قد قرأ أفكاره : لا • أن أسقط أزمى الفنية على مأساة الرجل • أنها مأساقتنا جميعا • أن يخرج القلب الجديد محملا بهذا الاتهام الرهيب • ماذا أو شاع هذا الاتهام • ماذا لو علم به فهمى عبد الغفار • سيهلل به فى الجرائد • • ستبدأ الانتخابات بضربة من الرجعية فى الصميم • لا يا كمال ، يجب أن يموت هذا الاتهام فى مهده • من أجل الوطن • من أجل البلد •

ومرت العربية فى تلك اللحظة بأحد الملامى الليلية • ورأى أنوارا ملونة ، تزغل العين وصفين طويلين من العربات والتاكسيات ونساء ورجالا فى ثياب السهرة وضحكات وتذكر بقلق ، زهران ، والأصدقاء ، والتجمع الثورى !

وغدا لديه مواعيد ، وحركة لا تكف • هل يلقى بالشعار ، ويتفرغ لقضية كمال أدهم • لا ياكمال • لا • نحن نبحث عن البراءة المستحيلة • نعم مستحيلة • ولو أن هناك جريمة فعلا ، فالجميع متهمون • الكل متهم • أجامنون ، مثل كليتمسترا ، على السواء • فلننس منظر الدماء الآن •

نعم ياكمال • ليس هذا وقته • أول مجلس منتخب بعد اجتياز النكسة يجب أن يأتى على مستوى التضحيات التى قدمتها الأمة • • لا يصح الآن أن ننشغل فى قضية خاصة ، برغم أنها ليست خاصة ، قلت عنها أنها الرمز • ربطت عملية نقل القلب ، وعملية الانتخابات • • ويجب أن يظل الربط • يجب أن يستمر الرمز يا كمال • يجب • •

وبقوة وحسم :

— اسمع ياكمال • احنا لازم نفكر فى الموضوع بطريقة جديدة •

— ازای ۰

— ممکن نسیب کل حاجة ، ونفضل ندور على شىء مستحيل !

— ايه هو اللى مستحيل !

البراءة ياكمال ۰ ده اذا كان فعلا فيه جريمة ( واستدار ) واذا  
فرضنا حتى أن فيه جريمة ده ما يعيبش القلب الجديد ۰ صحيح ثقل  
عليه ۰ لكن هو ده العالم اللى خرج اليه القلب الجديد ۰ ولازم نكون  
على مستوى المواجهة لازم نكون واقعيين ۰

يعنى ايه ؟

ازداد اندفاع مصطفى ۰

— البلد ياكمال ۰۰ مصر ۰۰ فى مرحلة خطيرة وحساسة ۰۰  
المرحلة اللى كنا بنحلم بها من زمان ۰ مش معقول يبقى موقوف  
كده ، انت بالذات ۰ أنا عاقد عليك آمال كبيرة ۰ ( وبدا كمال  
مشدوها بكلماته ۰ وانفعالاته ) انت ممكن تعمل حاجات كبيرة ياكمال  
ممكن بقلبك الجديد تعمل انقلاب فى حياتنا ۰ أيوه ۰ أنا مش بابالغ ۰  
أنا عارف معنى كلامى ايه ۰ المهم انك تؤمن بقلبك الجديد ده ۰

— وأؤمن به ازای ۰۰

— بالعملية ، كعلم ۰ وكتقدم ۰ وكأخلاق كمان ۰۰

ونظر كمال أدهم فى عينيه :

— كأخلاق ازای ۰۰ !

قال مصطفى بثقة ، مبعدا عنه كل أشباح اليأس والفجيعة  
المحتملة فى الرمن العظيم ۰۰

– أيوه كاخلاق • فرضنا ان كان فيه جريمة فعلا • ييقى هو  
ده العالم اللى طلع فيه القلب الجديد • ومفيش مفر • ييقى ايه موقف  
القلب الجديد من العالم ده ١٩

قال كمال : ايه موقفه !

– انه يغير منه ياكمال • وساعتها ييقى قلب جديد بصحيح !

– ويغير ازاي من العالم ••

– دى بقى قضيتك انت ياكمال • ومع ذلك ممكن نتكلم فيها  
بعدين ••

وغمغم كمال فى نفسه : أنا ١٩ اغير العالم بالقلب الجديد ١٩!

وأوشك ان يضحك • لكنه كتم الرغبة فى نفسه • وتنهد ••

– أنا لا أريد غير راحة الضمير ••

وسرح فى تفكير عميق ••

– أريد أن استريح •• استريح •• استريح ••

## - ١٩ -

وهكذا تمت صدمة الميلاد • واغتسل الطفل الالهى بماء الالم  
المقدس • ولم يعد يفزع ذلك الوجود المفاجىء فى عالمنا الغريب  
والمعقد هذا •• تلاشت الصرخات ، وحل فى العينين سلام عميق ، ثم  
لم يلبث أن استسلم لنوم منغم هادىء وطويل ومريح ••

وحينما استيقظ ، كان قد حدث الشئ الغريب •• لم يعد  
الطفل طفلا • كان « العقل » قد دخل مرحلة التكوين •



ولقد بدا كمال ادهم فى الأيام التالية لانفجار الأزمة ، غريب  
اللامح ، غريب التصرفات على نحو اثار تساؤل كل المعارف  
والأصدقاء ، وأزعج بشكل خاص زوجته سناء : فلا هو بالضاحك  
ولا هو بالباكى • انما هو عينان واسعتان تحدقان - فى صمت -  
فى كل الاشياء • أجل كل الاشياء ، كأنما يراها لأول مرة فى حياته

ويريد أن يعرف سرها : كيف ؟ ولماذا ؟ ومن أين ، وإلى أين  
المصير ؟

ولم تعد تواتيه فرصة لأن ينعزل وحده فى حجرة مقفلة ، أو  
فى احدى الضواحي ، الا ويفعلها على الفور ، ويطلق العنان للتفكير !

ولم يكن معنى هذا ان كمال أدهم تحول فجأة الى زاهد أو الى  
فيلسوف • أبدا • لقد كان أول قرار اتخذه مع نفسه ، أنه استبعد  
فكرة المصيف • واهتم بتطوير عمله فى المصنع ، وبدأ يعود الى  
السوق وإلى الحياة وإلى العملاء وإلى الأسعار يرصد حركة الصعود  
وحركة الهبوط •

وكانت قضية الاتهام قد هدأت فى نفسه الى حد كبير ، مغلبا  
عنصر العقل على عنصر الانفعال • وبدت رغبته فى الدفاع عن  
نفسه وكأنها انتهت أو استنفدت •

ولم يعد يعبا إلى أى مدى يمكن أن يتطور اليه الاتهام • فلتكن  
النتيجة ما تكون • أو لم يحدث التكفير !

وهكذا هذا البركان وran الصمت العميق • وبدأ سير الأحداث  
وكأنه توقف تماما • بل وكان يخيل اليه أحيانا أن « عزة » وأخاها  
« شوقى » وأمهما ، انما هم شخصيات من الأعلام ••

الى ان كان أحد الأيام ••

كان عائدا بعربته من المصنع بعد الظهر ، فى موعد خروج  
الموظفين ، وتوقف عند اشارة مرور نفق العباسية • وراح يرقب سيل  
العربات والأتوبيسات المكسدة بالناس ، وفجأة ، احس كما لو أن  
قلبه ينخطف ، وأسرع أنفاسه ، وأوشك أن يصيح بلا وعى ••

– شوقى ٠٠ شوقى الشريف ٠٠ شوقى الشريف ٠

رأى الابن يجلس فى أحد الأتوبيسات ، بجوار النافذة ، ساهم  
النظرات ، لكن ما حدث كان فى لحظة ، فقد مضى الأتوبيس فى انطلاقه  
بحمله البشرى الرهيب ٠ وبقيت صورة شوقى كما رآها من نافذة  
الأتوبيس : أحس كمال أدهم بالحنين وبالعطف ٠

هل انتهت تماما علاقتهما !؟

وتذكر – خجلاً – وعده له : أن يكلم له مصطفى سيف ليساعده  
على النشر ٠٠ لقد نسى الحكاية تماما ٠٠ نسيها حتى برغم أنه  
التقى بمصطفى سيف ٠٠ « لا يا شوقى أعدك ٠ انى لازلت عند وعدى  
٠٠ أنت ولد تستحق المساعدة ٠ أجل ٠ وبصرف النظر عن أى شىء  
( وتذكر قلبه ، فأسرعت أنفاسه ، لكنه لم يلبث أن تماسك ٠ وتجهمت  
ملامحه وأخذت طابع التحدى ) ٠ لن أكلّم لك أحدا ٠ ستقولون عنه  
انه الثمن ٠ لن أدفع لك رشوة ٠ أنا لم أرتكب جرماً !

وعاوده وجه الابن كما رآه فى نافذة الأتوبيس ، شاحبا ٠٠  
« وهل أنا اتهمتك بشىء !؟ من أول لحظة كنت معك » ٠

( وأضعفه الحنين ) نعم يا شوقى ٠ ( وزفر ) سأكلّمه لك ٠٠  
يجب أن ننظر الى الموضوع نظرة أوسع وأشمل ٠ المسألة أكبر من  
أن تحسب على أنها رشوة أو ثمن ٠ أكبر من هذا بكثير ٠ لقد تغير  
تفكيرى فى الموضوع ٠ ولنفترض أنك انسان غريب وأستطيع مساعدتك  
٠٠ لابد أن أفعلها ٠

يجب – انسانيا على الأقل – مساعدتك ٠٠

وأخذ نظرة من الناس وهو يمر عليهم بالعربة « ليتنى أستطيع  
مساعدة الناس جميعا » ٠ وتذكر الفاظا لمصطفى سيف ، كلمات



أصبحت تعاوده كثيرا : « أنت بالقلب الجديد ده تقدر تغير من العالم  
ياكمال » • ( وابتسم ) أنا لا أريد أن أغير من هذا العالم ياعم مصطفى  
أريد فقط أن أغير من هذا الولد • فهل نستطيع • هل تساعدنى فى  
ذلك ؟!

ورأى مصطفى سيف ، يعطيه - برغم انشغاله - كل وجهه  
ويبتسم : وهل أستطيع أن أرفض طلبا لكمال أدهم يا أستاذ كمال  
أدهم ؟!

وشع وجهه بحالة رضى • ومضى بعربته يواصل الطريق الى  
البيت ••

وفى نفس اليوم ، كانت الفكرة تتحول الى موقف ، اتصل  
تليفونيا بمصطفى سيف ، وأخذ منه موعدا للابن •

ولكن •• من سيبلغ شوقى بالميعاد ؟!

أه : يحيى •• وسوف يقوم بالمهمة بحماس •

\*\*\*

هكذا كان كمال أدهم يفكر فى الموضوع • أما يحيى البدرى  
فقد تلقى طلبه بطريقة مختلفة تماما •

وقد أوشك من الوهلة الأولى ، أن يقول له رافضا بقوة : لا ••  
لن أقوم بهذه المهمة ، واتركنى فى حالى أرجوك ، الى هذا الحد  
وكفى ••

غير أن عيني الرجل وهما تنظران اليه فى عشم ، كبنت فى نفسه  
كل الكلام ، وتذكر يحيى صورة كمال منذ أيام ، وهو يكاد يتميزق من

فرط الاحساس بهول الاتهام ، ثم تطوعه بمواجهة البنت لابطاء هذا الاتهام ، من يدري ، أجل ، ربما هذا الهدوء الغريب الذى حل عليه انما هو نذير بهبوب عاصفة جديدة ، وأن هذا الموعد لشوقى مع مصطفى سيف ، انما هو فى الحقيقة ليس الا تمرغا وتهافتا على اعتاب البنت يلتمس منها الغفران .

لا يزال الرجل يتعذب فى صمت ، فلاقف بجانبه . ساظل عند وعدى ياكمال . ساذهب ، وساواجهها . ولكن ..

فليكن هذا هو الدور الأخير لى معك ياكمال . لنكن صرحاء . لم يعد لى هنا مكان على الاطلاق . ألغيت فكرة سفرك الى المصيف .. أصبحت تاتى بانتظام الى مصنعك ، وتشرف بدقة على كل صغيرة وكبيرة . وجودى فى المصنع معك أمام العمال أصبح مضحكا .. لا كلمة لى ولا رأى ولا حل لمشكلة ..

صلاح عبد الهادى ، خلال المشاكل ، أصبح معك كل يوم . فليكن هذا هو دورى الأخير معك . ثم بعد هذا ، يكون الوداع .

## - ٢٠ -

وهكذا انطلق يحيى البدرى ، الى مهمته الغريبة بحماس شديد  
٠٠ كان الوقت قبل الغروب بقليل ٠ وقد ارتدى أحسن ثيابه الصيفية ،  
واختار أيضا تاكسيا جديدا ومريحا ، فبدأ أنيقا ووسيعا وعلى  
مستوى ٠ واشعل سيجارة ٠ وزاح يجذب منها أنفاسا بعمق ، ثم  
يخرجها من صدره بهدوء وثقة ٠

ومع كل لحظة كان ينطلقها التاكسى ٠ كان يدرك أنه يقترب من  
البيت ٠ وبدأ يتوتر ٠

استيقظ فيه الشعور بالمغامرة ، وتحفز فى جلسته ٠٠

سأل نفسه :

ما الذى سأقوله للبنت ؟ ( نسى تماما حكاية تبليغ الموعد  
لشوقى ) كيف يجب أن تبدأ المواجهة ؟

وبرغم أن يحيى ، منذ أن قرر مواجهة البنت ، كان يقضى  
الساعات حتى وهو فى المصنع فى عز ضجيج المكن ، يتخيل نفسه ،

معها ، فى مواجهة يحدثها ويناقشها بعنف ، بل ويهاجمها بقوة ،  
الا أنه أحس الآن • فجأة ، بأن كل الكلمات وكل المناقشات التى  
أجراها معها فى الخيال قد طارت من رأسه ، ولم يبق منها أى شىء •  
لم يبق سوى الواقع المجهول الذى سيجد نفسه فى مواجهته بعد قليل •  
وداخله الخوف من الفشل • وتحفز أكثر فى جلسته : لقد وضغ  
نفسه فى امتحان ، ولا بد أن ينجح فيه • سيجعل منه – لو اقتضى  
الأمر – معركة ، وينتصر فيها !! ••

غير أنه لم يلبث أن ابتسم وقال ساخرا من نفسه ، ومن البنت ،  
وتراخى فى جلسته :

– اى معركة ؟ المعارك كانت زمان يا عم يحيى • زمن المطاردات  
وتحدى السلطة والصراعات ، وعذاب الزنازين ، ومجابهة الموت فى  
كل لحظة • المعارك الحقيقية هى التى يحتمل أن يفقد فيها الانسان  
حياته • ( وندت عنه زفرة حارة ) مات منا البعض يا عزة •

استشهدوا • قليل من الناس هم الذين يعلمون •• آه لو أحكى  
لك قصة فترة عظيمة من فترات الكفاح فى تاريخ بلدنا • ( واكتسى  
وجهه بوجوم مفاجئ ، وارتعشت شفته الغليظة السفلى بالغضب )  
مازلت أعيش ، وسأظل أعيش • هل تسمعين ياست نبيلة ؟

هكذا تذكر خطيبته التى تخلت عنه وهو فى السجن ، وأراها  
تبكى على الحب الذى ضاع • وما فائدة البكاء الآن يا أهدام ؟  
الانسان الحقيقى لا يترك للغير تقرير مصيره حتى ولو كان هذا الغير  
هو أبوه • اسعدى برحلاتك الدبلوماسية فى بلاد العالم • أما أنا  
فلا زلت كما أنا ، وعلى أحسن ، وسأتزوج • وسترين زوجتى • يوما  
ستريها معى • ورأى نفسه يسير فى أحد الشوارع وذراعه فى ذراع  
زوجته ، ونبيلة تقابلها صدفة • ويحييها بهزة كبرياء صغير من

رأسه ، ويرى الحزن فى عينيها والندم • ثم يلتفت الى زوجته ليحكى  
لها القصة القديمة •• و••

فجأة تنبه فى جلسته ، وهز رأسه ليفيق من حلمه الغريب ••  
كان قد فوجئ بأن زوجته التى اصطحبها فى الخيال هى « عزة »  
ورآها صورة مصغرة من أمها حين رآها فى الزيارة الأولى ••  
واختلط الحنين فى قلبه بالخوف ، وأسرع أنفاسه : هل يمكن ؟

واستنكر مع نفسه الخاطر بشدة ، كأنما يعتذر • كيف سمحت  
لنفسى أن أفكر بهذا الشكل ( وعأوده التحفز فى جلسته ) أنا ذاهب  
لمهمة محددة • وقد أواجه بفتاة خطيرة • تلك التى زعزعت حياة  
رجل مثل كمال أدهم ، من مجرد لقاء • يجب أن أدخل على الموضوع  
بشكل حاد • أن أساعد الرجل • أن أذكرها على الأقل بإنسانيتها •  
أن تتصرف معه بنبل • أن يعيش الإنسان بروح العطاء • أن تعرف  
المعنى الضخم لنجاح عملية نقل القلب • أن •• وأن •• وأن ••

وان لم تقتنع فهى متوحشة ، وليست انسانية • واذن يجب أن  
تتعري ، وتبدأ المعركة •

وجذب نفسا عميقا من سيجارته •• ولكن • لاداعى لاستباق  
الأمر •• المهم أن أجدها هناك • ان لم أرها هذه المرة ، فلن أعود  
الى هذا البيت أبدا ، وسيكون الرحيل ، الرحيل من البلد كلها •

كان التاكسى يمضى ••

وفجأة ••

لاحت بيوت عين شمس من بعيد ••

\*\*\*

فى تلك اللحظة ، كانت « عزة » جالسة وحدها فوق السطح  
تستذكر دروسها • وبين الحين والحين ترفع عينيها عن الكتاب ،  
وتنظر الى أول الشارع من بعيد ••

وكان يبدو على وجهها الصغير الدقيق القسومات ، الشحوب  
والاجهاد « وبدا من نظرات عينيها وهى تمد بصرها الى نهاية الشارع  
الطويل ، أنها تنتظر مجيء انسان •

انسان ما !

وبرغم أنها كانت تتوقع ظهور « هالة » صديقتها وزميلتها ،  
فى أى وقت لكى تستذكر معها ، وتشجعان بعضهما فى هذه الأيام  
العصبية التى تسبق الامتحان ، الا أنها كانت تبحث عند نهاية الشارع  
عن انسان آخر يظهر •• انسان ما !!

وكانت عزة قد قد انتهت من فترة تخيل احتمال ظهور أبيها  
فجأة ويعود اليها والى الحياة • فقد جاءت زيارة « كمال أدهم »  
لهم فى هذا البيت حيا يسعى على قدميه ، وبقلب أبيها ، بمثابة  
القضاء النهائى على ذلك الحلم الجميل ، والى الأبد :

أن يعود الميت ••

وقد ساعدها أيضا على التخلص من هذه الرؤية الأليمة ،  
اقتراب شيخ الامتحان ، ولابد أن تنجح • فبدأت تفرق نفسها فى  
الاستنكار • وكان الموقف الذى انفجر منها يوم الزيارة قد وسع هوة  
الصمت بينها وبين أمها وأخيها شوقى ، ونادرا ما أصبحت عيناها  
تلتقى بعيونهما • وأصبحت تتصرف فى البيت كإنسانة وحيدة . تلتمس  
القوة من وحدتها ، بل وتضرع عليها غير أن عمرها الغض ، واحساسها  
الغامر بالحياة ، كان يتحول أحيانا ، خصوصا مع ساعات الغروب

واقتراب الليل ، الى صرخات عذاب تجار بها اعماقها وتهفو الى انسان  
 ٠٠ انسان ما ، تلقى اليه بهذه الصرخات ويحتويها ، ويهددها ،  
 وتصب في كفيه كل الدموع ٠

ولكن أين هذا الانسان ؟

الشارع لا يزال خاليا ٠ مصفرا من أثر الرمال ٠٠

فجأة ٠ ظهر تاكسى ٠٠

وتنهدت : ماذا لو يقف هذا التاكسى امام البيت ٠٠ بيتنا ؟

ومضت عيناها مع التاكسى وهو يقترب من البيت ، وفي الوقت  
 الذى توقعت فيه أن يواصل ويمضى ، توقف ٠ ولدهشتها توقف أمام  
 بيتها ٠ من يكون ؟

وذهبت واقفة ، وراحت تطل من على السور ، وراى شابا  
 أسمر أنيقا يخرج من التاكسى ٠٠

وأول ما فعل ، حتى قبل أن يدفع للسائق أجرته ، رآته ينظر  
 اليها مبتسما ٠ كأنما يعرفها من زمن طويل ٠ وراى على شفقيه وفى  
 عينيه كلاما ٠ وارتبكت ٠ اندفعت الى وجهها دماء الخجل ، وأوسكت  
 باللاوعى أن تتراجع وتخفى ، لكن الكلام كان على شفقيه ٠ ما اشفقيه  
 غليظتين هكذا ؟ ٠ وتضايقت من نفسها ، مالى وغلظة شفقيه ٠ غريب  
 أخطأ العنوان "

وقالت له بعينها : من تريد ؟

وجاءها صوته مهنبا وواضحا :

-- بيت الأستاذ شوقى الشريف ؟

وردت من فرق البسطح ، بحماس :

– أيوه بيته • ( وتحكمت بسرعة فى حماسها وهذا صوتها ) :  
• اتفضل

– موجود ؟

ويهدوء :

– أيوه موجود ••

ظل واقفا • ناظرا اليها بابتسامة : كيف اتفضل والباب  
مقفول !؟

وجدت نفسها تهبط السلالم قفزا وفى يدها الكتاب ، ثم  
تجتاز ممر الحديقة •• لتفتح له الباب ••



## - ٢١ -

وفى اللحظات التى اختفت فيها « عزة » من على السطح وهبطت  
السلالم فى لهفة لتفتح الباب لهذا القادم المجهول • كان « يحيى »  
واقفا أمام السور • دفع للسائق أجره ، وعاد ينظر الى سطح البيت ،  
حيث كانت تقف عزة ، أول منظر رآها فيه • وقد بدت فى عينيه ،  
بشعرها النازل على الجانبين ، كالطيف الباسم الحالم فى ضوء  
الغروب • سن العذارى والخيالات والحنين • وتحرك حنينه • وأكد  
ابتسامتها فى نفسه كأنما يسجلها أو يحفرها فى ذاكرته •

وتفاءل ، وفكر بسرعة : أهذه هى عزة : لابد هى عزة • نعم  
هى عزة : انها أكبر قليلا مما تخيلتها • وأكثر وداعة ورقة ، وفيها  
حياء • وتذكر « كمال أدهم وأزمته • اكان يبالغ • ؟ ربما ليست  
هذه هى عزة • • !

وفتحت البوابة • ورآها لأول مرة بأكملها • كانت بسيطة  
جدا • لاشئ فيها نشان : فستان واسع تركواز من القيل الخفيف

وفى قدميها صندل بسيط ورقيق يكشف عن معظم قدميها ، وشعرها  
أسود قاحم ، ينسدل على كتفيها فى هدوء ، وفى يدها كتاب •

استراح لمنظرها ، بل وفرح به وأحبه •

والتقت عيناه بعينيها فى ابتسامة خاطفة ، قالت مرحبة بهدوء :

— أهلا وسهلا •• أتفضل ••

— متشكر ••

تهيب الدخول للحظة • لا يريد أن يبدو مقتحما للمكان • كانت  
واقفة فى انتظار أن يدخل • دخل خطوتين ثم توقف •

وهمت عزة بأن تقفل البوابة ، أسرع هو يعفيها من المهمة ••  
وقفلها • التقيا فى ضحكة عفوية خفيفة وشكرته •

— مرسى ••

— العفو • على إيه ••

وعاودها الحياء •• قالت وهى تشير على الفراندة :

— أتفضل استريح • وأنا حادخل أناذى له ••

واتجهت الى الداخل • غير أنها قبل أن تصعد سلالم الفراندة ،  
توقفت فجأة ، واستدارت اليه ، بابتسامة معتذرة :

— أقول له مين ١٩

قال بثقة وهدوء ، وعيناه فى عينيها :

— يحيى البدرى ••

ورأى امتزازة خاطفة تحدث فى العينين العسليتين ، وبدا

عليها أنها تريد أن تتذكر شيئاً • هذا الاسم سمعته مرة من قبل :  
متى • متى •

وفكر أن يقول لها بسرعة : أنا جيت هنا مرة قبل كده •  
وماكنتيش موجودة للأسف ، يوم ما أخذت الميعاد للأستاذ كمال  
أدهم ، عشان يزوركم • • و •

لكنه تردد • أشفق على اللحظة الجميلة اللطيفة من أن تنكسر •  
وتنبهت عزة الى أن وقفتها وحدهما هكذا فى الحديقة ربما تكون قد  
طالت • فاستدارت بسرعة تصعد سلالم الفراندة • وقبل أن تنتهى  
منها ، رأت شوقى أخاها يخرج الى الفراندة • على وجهه سأم •  
وما ان رأى شخصا غريباً فى الحديقة ، وأخته معه ، أو كانت لأبد  
معه ، هى التى فتحت له الباب ، حتى أربد وجهه ، ونظر الى يحيى  
نظرة تحفز وريبة • ونظر الى أخته يستفسر بعينيه • قالت بسرعة :

– الأستاذ يحيى البدرى • جايلك • •

ما ان سمع شوقى الاسم ، حتى صاح على الفور بحماس :

– أهلا أهلا • • أستاذ • • اتفضل • •

واندفع يهبط السلالم اليه • وشد على يده بحرارة •

تسمرت عزة فى مكانها بالفراندة : ما هذا ؟ انه بالتأكيد  
يعرفه • •

وقال شوقى مواصلاً ترحيبه :

– حضرتك اللى رديت على فى التليفون فى المصنع • مش  
كده ؟!

– أه فعلاً • • وبلغت سلامك للأستاذ كمال أدهم •

— ألف شكر ٠٠ وازى صحته ٠٠ وحاله عموما ؟!

— بخير والحمد لله ٠٠ أصبح بيروح مصنعه بانتظام ٠٠

— كده عال عال ٠٠ الحمد لله ٠٠

كانا قد صعدا الى الفراندة ٠ وكانت عزة لاتزال واقفة ، شبه  
مسمرة ٠ انما استدارت بوجهها الى الداخل ، كى تخفى الصدمة  
التي حدثت لها بسماع اسم كمال أدهم ٠ ما الحكاية ؟

وقال شوقى وهو يمسك بأحد المقاعد ويقربه من يحيى :

— اتفضل استريح ٠٠

قال يحيى ليبرر مجيئه وجلوسه :

— الحقيقة انا جاى علشان أبلغك ميعاد مع الأستاذ مصطفى  
سيف ٠٠ الكاتب ، اخذ هولاك منه الأستاذ كمال أدهم ، عشان  
موضوع قصصك ومسرحياتك والميعاد بكرة الساعة تسعة ٠

قال يحيى هذا ، ورأى فرحة كبرى ، أشبه بفرحة الأطفال تنفجر  
فى كل كيان شوقى ٠٠

— أنا متشكر جدا جدا ٠٠ ليه بس التعب ده ٠٠

— ولا تعب ولا حاجة ٠٠

وجلس ٠٠

سرته فرحة شوقى ٠ واختلس وهو يجلس نظرة من عزة :  
فوجيء بانقلاب يحدث فى ملامحها ، حتى خيل اليه أنها استبدلت  
بانسانة أخرى ٠ وأحس بالخطر ٠ هذه اذا هى عزة كمال أدهم ٠٠  
أكان من الواجب عدم ذكر اسمه أمامها ؟ كيف ؟! وابتسم ساخرا  
من نفسه ٠ ذلك صلب المهمة التى جئت من أجلها ، وليس الميعاد ٠

من الخير أن تبدأ الحقيقة في الظهور ، وبسرعة • ولتبدأ - إذا  
شاءت - المعركة •

وقال لشوقي بلهجة مهذبة وهو ينظر إليها :

- مش حضرتها الآنسة عزة ••

- أه •• أختي عزة • ما تقعدى ياعزة •• الأستاذ يحيى مش  
غريب ••

وجلست فى هدوء • مشيخة بوجهها بعيدا • لكن أنذيتها كانتا  
تنصتان بحدّة • وكانت تفكر بسرعة ، وثمة بريق غريب يطل من  
عينها : ما هذا الذى يحدث ؟ سلامات وتحيات وتليفونات فى  
المصنع ومواعيد • بدأ الرجل يدفع لك الثمن ياسى شوقى • ثمن قلب  
أبيك • تعالى يا أمى واسمعى • تحقق كلامى • المتوحشون • يتكثرون  
ضدى • وهذا الذى اسمه يحيى البدرى • مخادع هو الآخر • خدعنى  
بمنظره ، وطريقة دخوله • لم أكن أتصور •

وانتابتها رغبة فى أن تنهض معلنة رفضها لكل هذا • وتعاود  
جلستها فوق السطح ، حتى تأتى « هالة » وتستذكران • غير أنها  
وجدت نفسها مربوطة بالمكان ، وقد استيقظ فيها الفضول ، والتحفز •

وقال يحيى البدرى •• مواصلا تبليغ الميعاد ، وتأكيد :

- والمقابلة حتكون أولا فى المصنع مع الأستاذ كمال • ويعدين  
تروحوا مع بعض لمصطفى سيف ••  
- وهو كذلك ••

انتهى تبليغ الميعاد • حلت لحظة صمت قطعها يحيى بسرعة  
بأن أخرج عليه سجائره • وأوشك أن يعزم بسيجارتة على شوقى •

الا ان هذا انتفض واقفا وقال معترضا بلهجة لطيفة ولكن حاسمة .  
معبرا عن شكره وامتنانه :

– ولا يمكن .. السيدةارة دى لازم تبقى منى ..

– منى أو منك .. مفيس غرق ..

– معلش .. أرجوك .. لحظة واحدة لو سمحت .. أجيب  
علية السجاير ..

ولم يعبا شوقى باعتراضه الضاحك ، واندفع داخل البيت ..

وهكذا رجد « يحيى » نفسه مرة أخرى ، وحيدا مع عزة ..  
ونظر اليها على أمل • لو تعود الى وجهها بسمة اللقاء الأول ..  
غير أنها كانت قد أشاحت عنه بوجهها أكثر • وبدأ جانب وجهها  
بخصلات شعرها غريبا بل ومخيفا •

وتعجب فى نفسه كيف تم هذا الانقلاب فى لحظة • شخصيتان  
هى عزة •

وود لو يقول لها : لماذا تفسدين جمالك بهذه الطريقة •  
كنت رائعة الجمال منذ لحظة • انسى ياعزة • وابدئى الحياة • آن  
الأوان • كلنا • كلنا يجب أن نبدأ الحياة من جديد • بشكل ما يجب  
أن نبدأ •

وأحس برغبة شديدة فى أن يقول لها أى شىء يخرجها من  
صمتها ، ورأى الكتاب فى يدها • قال مجازفا بأى كلام •

– واضح أن الامتحانات قريت ..

– آه ..

فالتها مغمغمة • وبلهجة من لا تريد منه أى كلام أكثر من هذا

احس بالاهانة • واستيقظ فيه الشعور بالتحدى • « هل  
تصورين أنك ستعذبيننى مثلما عذبت كمال ادهم ؟!

لا ياست عزة • أنا غير كمال • كمال اصبح رجل سلام •  
ولهذا ، فقد اطاحت به صدمة الاتهام من اول لحظة • أما أنا ،  
فمستعد للدخول معك فى معركة • وسأبدأ أنا الطلقة الأولى •

ورأى شوقى يعود مسرعا بعلبة سجائره ، كانت الفرحة لاتزال  
على وجهه • وقدم ليحيى سيجارة • اسرع يحيى باشعال سيجارته  
له • وفوجيء الاثنان بعزة تنهض من جلستها دون استئذان •

صاح شوقى على الفور :

— ايه ياعزة •• رايحه فين ؟!

توقفت • جاءت عيناها فى عينى اخيها « هكذا ياعزة » ؟  
الدنيا تنفتح امامى • هل تكرهين الخير لى • ام تريدين عاصفة  
جديدة ؟!

ترددت قليلا ثم غمغمت وقد رسمت على شفتيها ابتسامة باهتة •

— حاسل لكم شأى ••

فرح شوقى بالرد • نعم هكذا ياعزة يجب ان نبدا • كاد الحزن  
والضياح يقتلنا •

قال والشكر يطل لها من عينيه :

— يعنى حنشرب شأى من ايدك •• يبقى هایل ••

والتفت الى يحيى البدرى وقال يقدمها :

— اختى فى كلية الفنون •• السنة النهائية ••

صاح يحيى فى دهشة ممزوجة بالفرح الصادق :

— فى السنة النهائية ١٩ ده يبقى شىء عظيم جدا جدا ٠٠  
( وأبتسم لها ) ويبقى كمان لازم نعيك من عمائل الشأى ، عشآن  
مانعلكيش ٠٠

لم تعلق على كلمته بشىء ٠ ظل وجهها جامدا كما كان ٠٠  
واستدارت ودخلت فى هدوء ٠٠

حلت على الشابين لحظة صمت ٠ احس يحيى البدرى فجأة ،  
بكأبة ثقيلة تغزو روحه ٠ وبشئ يشبه الظلام يظهر ويتوقف أمام  
عينيه ٠ « ضربات الماضى تلاحقك يا يحيى » :

البنت « شهادة عالية » وأنت ؟ ساقط ثانية تجارة ٠ لم تجرب  
على الاعتراف ٠ هل تستطيع أن تقدم نفسك ٠ ماذا تقول ؟ ٠ ورأى  
البنت شامخة عليه ٠ سيكون هذا أول سلاح ضدك فى المعركة ٠٠  
واحس بكيانه يهتز ٠٠ الهزيمة ٠٠ وانتفضت أعماقه: لا ٠٠ هذه العقدة  
الملعينة انتهت منها من زمن ٠ عقدة « الشهادة العالية » خرافة ٠  
كذبة كبيرة ٠ زملائى الذين كانوا معى حصلوا على البكالوريوس ،  
معظمهم بؤساء تعساء بعضهم حتى الآن يقترض منى النقود بانتظام ٠  
قبرهم البكالوريوس ٠ وأنت ياست عزة ٠ فيم ستفيدك شهادة الفنون  
العالية ٠ أى فنون هذه التى تأخذها ٠ الفن الحقيقى هو فن الحياة ٠  
أستطيع أن أعلمك فن الحياة ٠٠

وعاودته الثقة بنفسه ، وصفت ملامحه ٠٠

ونظر الى شوقى من جانب وجهه ٠ كان الفتى يجذب أنفاسا  
من ستيجارتته ، ناظرا فى اتجاه السور ويحلم ٠ وبدت عظام وجهه  
ناتئة ٠ ملامحه جميلة ، لولا صفرة خفيفة فى البشرة ٠ لابد أنك



تتعذب كثيرا من حكاية دبلوم صنايع هذه • لا يهكم •• قال مشجعا  
وقد لبسته روح الأستاذ •• :

- ارجو انها تكون بداية طيبة لك ككاتب ان شاء الله •

قال شوقى مبتسما فى هدوء :

- وانا كمان ارجو هذا ••

( وبدأت عليه انفعالة خفيفة ) أنا مش عايز حاجة ، أكثر من  
ان أنتاجى يأخذ فرصته فى النشر •

قال يحيى مشجعا ، بإذرا فى نفسه بذور الأمل :

- لازم حيتنشر ان ساء الله • مادام عمل جيد تأكد أنه حيتنشر ،  
وحاتكلم أنا كمان مع مصطفى سيف •

- حضرتك تعرفه ١٩٠٠

- أعرفه كويس جدا طبعا • كنا زملاء مع بعض فى السجن  
فترة ••

بدأت الدهشة على شوقى ••

- سجن ١٩٠٠

ضحك يحيى بثقة ، مغلفا ثقته بنوع من المداعبة •• :

- سجن سياسى طبعا •• مش حاجة تانية والله ••

( ضحك شوقى للنكتة • وواصل يحيى ) كنا مع بعض فى  
زنازة واحدة ست شهور • كان يكتب وأنا أقرأ •• كانت أحسن فترة  
له فى الكتابة • كنت تحس فى كتابته بالحرارة ، والمشاعر الانسانية  
الصادقة ••

رسكت ٠٠

قال شوقى بلهفة :

— ودلوقت ٠٠ ايه رأيك فى كتابته ؟!

فوجيء يحى بالسؤال ٠ وجد نفسه دون أن يقصد ينزلق الى  
مطب الهجوم على مصطفى سيف ٠ هل هذا وقته ، والفنى ذاهب  
اليه ليجرب حظه ، ويطلب منه المساعدة ؟! وتردد ٠٠

غير أن عينى شوقى كانتا تحملقان فيه بثبات ، ينتظر الجواب ٠  
هل يبدو مترددا جباناً أمام شوقى ؟! ٠ لا ٠ فلنحطم الآلهة ٠ ما الذى  
تفعله هذه الآلهة الآن ٠ يعيشون فى العسل ٠ يلبسون الموهير  
ويركبون العربات ، ويكتبون من المصايف ، ويتشدقون بالاشتراكية ٠

— أنا رأيى انه فقد حرارته القديمة ٠ صنايعى كويس وبس ٠  
لكن روح ، وثورة ٠ ماعدش ٠

— وليه ماعدش ؟!

— عشان استريح ٠ مش هو بس ٠ كل الجيل بتاعه ٠ مفيش  
شك أنهم لعبوا دور ، وتعبوا جدا فترة ، وبعد ما تعبوا ، جم  
يستريحوا ، أخذوا على الراحة ، ما قدروش يقوموا تانى ٠٠

أعجبت الصورة شوقى ٠ وضحك لها ٠٠

وقال يحى :

— البركة فيكم أنتم بقى ٠ جيل الكتاب الجدد ٠٠

قال شوقى بحماس ، وقد أشعل كلام يحى أحلامه وآماله :

— المهم بس ناخذ الفرصة ٠٠

– بالكفاح يا شوقي لازم كل شيء يتحقق • وما دام عندك الموهبة  
والايمان • الايمان بقضية كبيرة تهم الناس • وده اللي ناقص جيل  
مصطفى سيف • قضية يؤمن بها من قلبه !

قال شوقي وقد تذكر شيئا ، اراد ان ينصف به مصطفى سيف  
فى غيابيه ••

– أنا شايف أن مصطفى سيف بيكتب اليومين دول عن قضية  
« التجمع الثورى » بمناسبة الانتخابات الجديدة ••

قال يحيى ساخرا ، ولكن بشكل مهذب :

– أى تجمع ؟! أنا باعتبره تجميع ، مش تجمع •

– ازاي •• ؟!

– المطلوب دلوقت حزب •• حزب ثورى •• مش تجمع ثورى •  
لازم بيتدى يحصل الاستقطاب ، وفورا •• كده بكل صراحة  
ووضوح •

سرح شوقي • لم يكن الفتى اهتمام كبيرة ومباشر بالسياسة •  
قال معتذرا بابتسامة : دى قضايا الحقيقة الواحد منا ما درسهاش •  
انما هى فعلا تستحق الدراسة •

فرح يحيى بالجملة الأخيرة • هاهو قد بدأ يلعب دورا فى  
تكوين فكر شوقي • مضى يؤكد دوره ولكن بلطف •

– أنا فى رأى أن الكاتب الكبير أو الفنان الكبير لازم يبقى  
عنده وعى سياسى عريض •

قال شوقي مبديا اقتناعه واحترامه للكلام :

– ده حقيقى • بس المهم يعطونا الفرصة • النشر حيقلى

الواحد يحس بالمسئولية قدام القراء ، ويهتّم أكثر بثقافته .. و ..  
( وعاد يعبر عن حلمه وهو يضحك ) المهم يعطونا الفرصة .

قال يحيى مؤكداً .. ومشجعاً ..

— حتاخذها .. وحتفتكر القعدة دى .. أول قعدة لنا . وتبقى  
كاتب كبير مشهور ( وابتسم ) واجيك مكتبك واسأل عليك . تقوم  
تقول : يحيى البدرى ؟ مين يحيى البدرى ؟ آه افكرت .

— لا .. مش معقول .

قالها شوقى وهو يضحك سعيداً بالمداعبة ، وضحك يحيى هو  
الآخر سعيداً بضحكته وامتزجت الضحكتان . ضحكة سعيدة ..  
صافية .. فيها الرغبة فى التخفف من متاعب الحياة والطيران على  
أجنحة الأحلام .

وهما يضحكان . ظهرت الأم فجأة . فى وسط الصالة ، قادمة  
فى اتجاه الفراندة . وحين رآها يحيى ، كف عن الضحك . ونهض  
واقفاً فى احترام ..

واذ رأتها الأم يضحكان ، سمعت رنيناً فضسيا يزغرد فى  
صدرها . وفكرت لو تعود وتتركها يضحكان . منذ متى لم تر هذه  
الفراندة ، وهذه الحديقة ، الضحكات والجلسات . اضحك يا حبيبى .  
واضحك معه يا يحيى البدرى ( وكانت قد عرفت من عزة موضوع  
المقابلة مع الكاتب مصطفى سيف ) وربما يكون الأوان قد آن ويزدهر  
حظك المائل يا ولدى . اضحك وافرح . كاد الحزن يقتلنا .

وتقدمت الى الفراندة فى هدوء . لم ينتظر يحيى . تقدم نحوها  
مسليماً باحترام وخشوع . ولسه ترحيها الصادق . وأخذ نظرة  
خاطفة من عينيها . خف منها حزن المرة السابقة . وثمة ابتسامة

بعيدة على شفقتها تستحى من الظهور • الزمن ملك النسيان كما  
يقولون • فلماذا لم تنسى أنت أيضا يا عزة !؟

وقال شوقي لأمه :

– حضرتك شفت الأستاذ يحيى قبل كده طبعا • ما كنتش أنا  
يومها موجود للأسف ••

– آه طبعا •• أهلا وسهلا • خطوة عزيزة يا أستاذ يحيى ••  
اتفضل ••

وأشارت له بالجلوس • وجلست ، فجلس يحيى ••

– وازاي الأستاذ كمال •

– بخير • كويس جدا •• بيسلم عليكم جميعا ••

– الله يسلمه ••

قالتها ، وخرجت منها – رغما عنها – تنهدة ، هبط لها قلب  
يحيى • يبدو أنها لم تنس بعد •• وكيف • وفكر أن يقول لها أنت  
أعظم إنسانة فى الوجود • أنت خدمت البشرية كلها ، وليس كمال  
أدهم فقط •• لكنه أحجم عن الدخول فى الموضوع •

أصبحت حكاية القلب الجديد فى هذا البيت شيئا رهيبا مرهوبا  
•• لم يستقر للقلب الجديد بعد معنى محدد يجتمع حوله أهل هذا  
البيت ويعيشون • والسبب : هذه البيت • يجب أن تفيق •

ورآها تظهر فجأة فى الصالة ، تحمل صينية عليها أكواب  
صغيرة من الشاي • أربعة أكواب • اذن فستجلس معنا ، وتشاركنا  
الشرب • ربما كانت صدمة وانتهت • وأوحشته ابتسامتها وهى  
واقفة على السطح ••

واقتربت منه بوجه جامد •

— انفضل ••

نهض واقفا يأخذ منها الكوب ••

— متشكر جدا ••

وغمغمت

— العفو ••

واستدارت لأمها وأخيها ، تعطى لكل منهما كوبه •

فجأة ، سمعوا دقات على البوابة • اتجه الجميع بنظراتهم  
الى الباب ••

قالت عزة بصوت خافت :

— يمكن تكون هالة ••

ونهض شوقي وقال :

— أشوف مين ••

وقفز بحيوبته فوق سلالم الفراندة ، واتجه بخطوات سريعة  
وطويلة الى البوابة • وفتحها • وقبل أن يظهر أحد للجالسين سمعوه  
مرحبا بفرح شديد •

— عزة قالت ان الخبطة دى خبطة هالة •• اهلا يا هالة ••

تعالى ••

قالت هالة مازحة ، وهى تدخل : وأنت ، ما عرفتشن أنها  
خبطتى ؟! طيب !

فجأة ، حبست الكلام فى حلقها • وتضرج وجهها بالخجل •  
رات شابا غريبا يجلس على الفراندة مع عزة وخالتها ••

وضحك شوقى على الموقف • وقال يشجعها على الدخول :

- معلش • عليك واحد •• الأستاذ يحيى مش غريب •

وأشار لها بالدخول • وتقدمته ••

فى لحظة واحدة ، كانت قد تغلبت على خجلها ، وعاندها  
مرحها الطبيعى ، ومضت نحو الفراندة تمسنى بخفة وثبات ، وفى يدها  
كتاب وكراसे • وكان يحيى يرقبها بابتسامة ، لا يدري لماذا رحب  
بمجيئها من أول لحظة • اسمها « هالة » ووجودها فعلا يشع حولها  
هالة من الحيوية والمرح • طويلة • سمراء تميل الى الامتلاء ،  
وشعرها مقصوص • وعيناها السوداوان ضاحكتان • هذا النوع  
من الناس يحتاجه فعلا هذا البيت • يبدو - بل وبالتأكيد - هناك شئ  
بينها وبين شوقى • ولكنه شئ درى • مرحها يبدو من القلب وبسيط •  
وانت يا عزة ؟ اليس لك فتى ؟ ألم نعتري بعد على فارس الأحلام ؟

وقال شوقى يقدم له « هالة » :

- الآنسة هالة • خليبتى • وطالبة بكلية الآداب ••

تغلب يحيى بسرعة على دهشته • اعتبرها مفاجأة سعيدة ••  
وفرح من أعماقه أن فتاة بكل هذه الحيوية والثقة فى نفسها ، وفى  
الجامعة أيضا ، خطيبة لدبلوم صنایع هو شوقى • ودخلته روح  
من التفاؤل •

- اهلا وسهلا •• تشرفنا ••

وشدت على يده بترحيب ودية •

واحس بها انسانة كريمة فى عواطفها • لماذا لا تتعلمين منها  
يا عزة • ورأى هالة تخاطب عزة مازحة ، فى الوقت الذى تسلم على  
الأم وتقبلها من خديها ••

– جرى ايه ياست عزة •• أنت حضرتك قاعدة هنا تشربى  
شاي وسايبة المذاكرة قومى يا الله نشوف شغلنا •• ماعدش فيه  
وقت ••

قال شوقى ضاحكا : طيب سيببها تشرب الشاي أولا • وأنت  
كمان • اقعدى اشربى الشاي •

قالت هالة وهى تجلس : الشاي بقى يابنتى نشربه فى المعسكر  
على المالح فى اسكندرية ••

قال شوقى بخشونة ، ولكن دون أن يفقد لحظة مرحة •

– كده ببساطة • من غير اذن ولا حاجة ••

رفعت هالة كفها الى جانب وجهها بصورة التعظيم ••

– عايزين الانن يا أفندم •• ممكن !؟

وضحكوا • ورأى يحيى عزة تبتسم • وتفتح قلبه ••

قال شوقى :

ممكن آه •• بس بشرط • يا كلنا هناك فى النعيم • يا أفضل  
كلنا مع بعض هنا فى الجحيم • جحيم القاهرة • والا ايه يا أستاذ  
يحيى ••

ووافق يحيى ضاحكا : أنا أفضل النعيم على الجحيم طبعاً ••

وضحكوا ••



وخيل ليحيى أن وجه عزة بدا يصفو .. ورأى نفسه يجرى  
 معها على بلاج الاسكندرية ، على الرمال ، ويسبح معها فى الماء  
 ويضحكان . وأحس بدماء السعادة تجرى فى عروقه . دماء جديدة  
 لم يحس بها من زمن طويل . مثل انسان كان يحيا سنوات طويلة فى  
 صحراء حارة جافة ، ثم انتقل فجأة الى منطقة هواء رخية . هذا  
 العالم الجديد . عالم الشباب . لماذا يحيا الناس كالعواجيز . هذا هو  
 العالم الذى أستطيع أن أحيا فيه . من هذه اللحظة يمكن أن نبدا  
 جميعا . أيها الأصدقاء . كلكم فى أول الطريق . فلنبدا جميعا ..  
 وأنا معكم . أمامكم .. يمكننا أن نصنع من هنا جزءا من المستقبل  
 .. وستنضمين لنا يا عزة . ويكون الانتصار .. الانتصار ياكمال  
 يا أدهم . ويومها يستريح القلب الجديد بين ضلوعك . ليتك تأتى  
 الآن ، وتقف فى مكان خفى ، وترى المنظر .

وفوجئ بنور الفرائدة يضاء . كانت عتمة الليل قد بدأت تهبط  
 على المكان دون أن يحسوا ، فنهضت الأم وأضاءت النور . ثم دخلت  
 الى الصالة فى هدوء .

كانت الصالة مظلمة . بل وبدت أشد اظلاما فى مقابل نور  
 الفرائدة .

وفى أحد الأركان . وقفت الأم فى الظلام ، ومضت تنظر الى  
 المجموعة . كانوا دائما ثلاثة . أو أربعة فى وجود هالة الآن أصبحوا  
 خمسة ..

ومضت تبكى .. فى هدوء .

الميت .. لم يموت .

وتعالت الضحكات .

## - ٢٢ -

أحدثت الاضائة المفاجئة ، اثرا حلوا على نفسية المجموعة ، ونظروا الى بعضهم البعض . لأول مرة فى النور . وبلا أى ارادة اختلس يحيى البدرى ، نظرة من « عزة » فوجيء بها هى الأخرى تحطف منه نظرة كأنما تريد هى الأخرى أن تراه فى النور ، أرخت نظرتها بسرعة ، وقد أحست بالحرج أنه ضبطها تختلس منه نظرة ، وابتسم فى نفسه : ربما . . ربما يحل عهد الرضا .

قال شوقى مواصلا لحظة حماسه وقد تذكر فجأة أنه لم يقل لـ « هالة » شيئا عن مواعده مع مصطفى سيف . .

ـ بالحق يا هالة . مش أنا عندى ميعاد مع الأستاذ مصطفى سيف الكاتب . . يوم الخميس الجاى . . الأستاذ يحيى جابهولى .

صاحت هالة ، وقد أضاء وجهها بالفرح : ـ صحيح ؟ هائل ونظرت الى يحيى البدرى وقد رأت جانبا جديدا من شخصيته ( هو الأستاذ يحيى يعرف الأستاذ مصطفى سيف ؟

قال شوقى مسرعا ، ومكرما من يحيى : — أmaal • دول أصدقاء  
من زمان ..

— كده .. عظيم .. عظيم ..

فرح يحيى بتعبير وجه هالة • لكنه كان يفتظر من شوقى أن  
يكمل بقية الخبر • أن يقول لها أن « كمال أدهم » هو الذى اتفق له  
على الميعاد ، لكن شوقى لزم الصمت ، ولم يزد ..

هل يقصد تفادى اسم « كمال أدهم » أمام « عزة » حتى  
لا تشوب الجلسة التى بدأت تتفتح ، أى شائبة ؟

ربما ..

لكنه أحس بالضيق • تلك بداية المعركة • يجب أن تكون  
الحقائق واضحة ، لا أحب أن أخذ لنفسي دور غيرى ..

قال مندفعاً مخاطباً هالة ، الحقيقة مش أنا اللي اتفقت على  
الميعاد • الأستاذ كمال أدهم هو اللي اتفق عليه ..

فاجأه وقع اسم كمال أدهم على البنيتين • حتى انه أحس على  
الفور بلسعة ندم • رأى وجه عزة يضطرب ويصيبه نوع من التقلص  
الخفى • لكنها كانت تجاهد • بينما كانت هالة تقول بدهشة مرددة  
الاسم على مقاطع ، كأنما تريد أن تتذكر ..

— الأستاذ .. كمال .. أدهم .. ( وتذكرت ) آه .. اللي ..  
( وأوشكت أن تقول لشوقى ) اللي انتقل له قلب باباكم .. لكنها  
أمسكت • أحست بقشعريرة • هدأت العاصفة ، أو أصبحت فى  
طريقها للهدوء ، لاداعى للدخول مرة أخرى فى الموضوع • وحانت  
منها نظرة الى « عزة » نظرة الصديقة التى لها عشم فيها ، لا  
تفسدى اللحظة • نعم ياعزة • وما يحدث الآن شىء طيب .. موقف

كريم من الرجل . وقد تكون بداية لشوقى . يخرج من تآزماته ويأسه  
وتنتهى مشاكلنا معا ياعزة ..

والواقع ان « هالة » كانت قد عاصرت ، بل وشاركت فى الأزمة  
التي ثارت فى هذا البيت ، بين عزة ، وأمها وأخيها ، بعد نقل القلب .  
وبعد زيارة الرجل الذى أخذ القلب ، كانت قد أصبحت الملائد الوحيد  
لعزة تلقى اليها باحزانها وثوراتها . تحاول أن تكون وصلة سلام  
بين الجانبين . وساعد هذا على أن تعود المياه الى مجاريها بين  
« هالة » و « شوقى » . كانت علاقتهما أصبح شعارها التآزمات  
والحساسية المريرة ، خصوصا من جانب شوقى ، فقد انطلقت الى  
الجامعة . وبدأت الأزمات تحول حب الطفولة البسيط الجميل ، الى  
حساسيات مريرة ، لا يمكن تجنبها الا بالابتعاد عن بعضهما . ثم  
جاءت عملية نقل القلب ، فوجدت نفسها ترتبط بهم من جديد . فليكن  
كل شيء من جديد ياعزة . ربما المستقبل يفتتح لأخيك ياعزة . منذ  
متى لم أر شوقى مبتهجا هكذا . يبدو وكأنه يمتلك العالم بين يديه .  
ومن أجل حبنى أيضا ياعزة ..

قالت بانفعال ورجاء :

— ياريت فعلا يا أستاذ يحيى يساعده فى نشر إنتاجه اللئى  
مرمى جوه فى الدرج ، خسارة .

قال يحيى مؤكداً وقد لمسه تعاطف هالة مع شوقى :

— أنا واثق أنه سيساعده . تختار كم حاجة تكون أنت راضى  
عنها ، وتعطيهم له .

قالت هالة بحماس : خذ له قصة « ضل الشمس » قصة جميلة  
جدا جدا . ( وضحكت ) فى رأيى أنا على الأقل . ( ونظر الى عزة )  
وفى رأى عزة كمان أنا فاكرة . مش كده ياعزة ؟

قالت عزة ، شبه منتفضة ، كأنما تخرج نفسها من بئر عميقة .  
وغمغت :

— آه . فعلا . قصة حلوة .

قال شوقى وقد بدأت عيناه تشردان .

— أنا باقول آخذ معايا المسرحية الأخيرة .

قالت هالة :

— الجحيم فى الأرض ؟

— آه . ومش طويلة . من فصل واحد .

— مفيش مانع . حلوة برضه المسرحية دى .

الجحيم فى الأرض !؟

رن الاسم فى رأس « يحيى البدرى » عنوان مثير وجريء .

ماذا يقصد هذا الفتى بالجحيم فى الأرض !؟ ماثورع ايمان هذا  
الجيل الذى لم يدخل بعد فى تنظيمات ، ولم يتعذب فى سجون ، ولم  
يرتبط بأحزاب ولا بمعارك .

وسأل مداريا فضوله بابتسامة :

— ايه الجحيم فى الأرض ؟

قال شوقى :

— اسم مسرحية أنا كاتبها ، من حوالى سنة ونص .

— عنوانها غريب وجريء . ايه موضوعها ياترى ؟

ابتهج شوقى بالتعليق وبالسؤال ، ومع هذا بدا عليه التردد .

– الحقيقة موضوعها من الصعب أنه يتحكى • هو حوالين الحساب ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار •

قال يحيى بهلجة جادة ، وقد أخفى دهشته :

– ياه •• لكن ده موضوع خطير جدا ، وحساس •• ايه وجهة نظرك فيه ياترى ؟

قال شوقى : الحقيقة أنا أفضل أقراها لك بعدين • فى أى وقت تكون فاضى فيه ••

قالت هالة : ياريت تكون فاضى الليلة يا أستاذ يحيى ، وتسمعها وتقول لنا رأيك ••

قال يحيى ضاحكا – أنا : رأيى قيمته ايه ؟! أنا راجل مذل خبير فى الفن ••

– لا • مهما كان •• رأيك ممكن يبقى مفيد جدا • خصوصا وإننى أنا وعزة حنسيبكم دلوقت ونطلع ،ذاكر • تقضوا الوقت مع بعض فى القراية ••

ونظرت الى عينيه تنتظر الجواب • فى عينيها رجاء بالبقاء •• وارتبك • لو عليه يريد أن يبقى • فما الذى ينتظره الليلة ؟ المصنع الآن مغلق • وسيهيم على وجهه فى المدينة ، بحثا عن سهرة • نفس الوجوه التى سئمها • سواء من التجار أو من زملائه القدامى •• وقد يجد نفسه فى جلسة خمر أو حشيش • والحديث عن الانتخابات يأخذ دورته • وهو لا مودع له فيها • الاحساس بالاختناق ، والغربة ، أينما جلس • يود أن يبقى هنا ، يبقى حتى يطلع الصباح • ولكن :

« بالرضا ياعزة » •

قالت هالة مشجعة : واضح أن حضرتك تقدر تقعد كمان شوية •

قال يحيى مستجيبا ، لطلبها ، وفي نفس الوقت لرغبته العميقة .  
– ممكن آه .. الليلة بالذات ما عنديش حاجة مهمة . مجرد  
مقابلات عادية مع اصدقاء .. ( وضحك ) نضيع الليلة .  
قالت هالة بحماس :

– تبقوا اذن تقروها . قوم يا شوقي هات المسرحية . وأنا  
وعزة حنطع على السطح نذاكر واول ما تخلصوا ، تنادوا علينا  
فورا ( ونبهت بأصبعها ضاحكة محذرة ) اوعروا تتناقشوا فيها من  
غير ما نكون موجودين معاكم .  
– وهو كذلك ..

ونفضت هالة .. وأخذت عزة من ذراعها . وصعدت الفتاتان  
الى السطح . وبعد قليل كان شوقي – بتشجيع من يحيى – ينهض  
هو الآخر ليحضر المسرحية .

## - ٢٣ -

بقى يحبى وحده فى الفرائدة ، امامه الحديقة والتكسية ،  
والشجرتان ، وفوقه مساحة كبيرة من السماء مكشوفة • وفوجىء  
بقرص القمر كبيرا مستديرا صاعدا من الشرق • البيوت معظمها هنا  
منخفضة • وتخيل سطح البيت ، وعزة وهالة ، تستذكران فوقه ،  
منهما للقمر وللسماء • يالالى الصيف ( وتنهد ) فجأة أحس بغصة  
فى حلقه • الذكريات • كانت لنا ليال يانبيلة •• صيف أيضا ،  
وأيضا كانت مقمرة ذقنا فيها طعم الهناء • ارتعاشات الهناء • وكنا  
باسم الحب نستحل لنفسينا هذه الارتعاشات • نختلسها من الآخرين  
• • أكان خداعا ؟ • ورأى وجه عزة ، كما تخيله فى ضوء القمر •  
مهيبا وجليلا وحزينا • من النوع الذى لا يمسه الانسان الا برقة  
بالغة ، وبأطراف الأصابع • ملامحك أحيانا مثل القديسات ••

وتنبه على الأم قادمة من الصلاة فى اتجاهه • انتفض واقفا  
لها مرة أخرى منحنيا باحترام ، وأسهرت هى تطلب منه أن يجلس  
ويستريح ••



وجلسنا ..

– أهلا وسهلا ..

– أهلا بك يا مدام ..

ولاح وهى تنظر اليه ، شعاعا خفيفا من الفرحه يتفرق فى عينيها • خامره احساس بالرضا ، أن يكون وجوده فى هذا البيت مقرونا بنوع من السعادة أو على الأقل : الارتياح • وفكر أن يقول لها أى شىء • أن يملأ الجلسة معها بأى كلام • غير أنه لم يعرف ماذا يقول • بل ودخله الاحساس بالغربة • بقى جالسا مطرقا فى صمت ..

أحست الأم بشروده ..

– ياريت الأستاذ يحيى يبقى يشرفنا هنا باستمرار ..

– ان شاء الله .. ( وندت عنه زفرة لا ارادية ) ولو ابنى مسافر قريب ..

قالت بدهشة : ( مسافر فىن ؟! )

– بره • حاشتغل بره .. ( وابتسم ) مفيش حاجة هنا ورايا أقعد لها •

سرحت عيناها لبرهة • ورأى فيهما نوعا من الأسف ، كأنما تريد أن تقول :

« يا خسارة » وأسعده هذا الشعور • كيف فكر أن يخبرها بحكاية السفر ؟! •

ليرى منها هذا الشعور الجميل ؟!

قالت مبتسمة فى هدوء :

— على كل حال لغاية ما حضرناك تسافر • نبقى نشوفك مع شوقي ••

شكرها مهتزا ، وأراد أن يكافئها على عواطفها ••

— وأنا متفائل جدا للأستاذ شوقي ، فى موضوع الكتابة ••

قالت بتنهد عميقة :

— ياريت •• ياريت يا أستاذ يحيى ••

وأقبل شوقي — بجسمه الطويل — وهيكله العريض ، يكاد يهرول متحمسا بشكل جاد وخطير ، وكأنما هو داخل على معركة • سلاحه فيها هذه المسرحية التى يمسكها فى يده •

— أهلا يا ماما ••

— أهلا بك يا ابنى ••

وقالت الأم وهى تنفل نظراتها بينه وبين يحيى البدرى :

— ياريت الأستاذ يحيى يبقى يشرفنا باستمرار يا شوقي ••

قال شوقي بحماس ، وقد أفرحه تعليق الأم :

— أمال يا ماما • طبعاً • احنا خلاص بقينا أصدقاء • بصرف النظر عن أى شىء تانى • الأستاذ يحيى انسان ممتاز • ؛

— شكرا يا جماعة • شكرا ••

والتفت شوقي الى أمه بنظرات راجية ••

— شوفى بقى ياست ماما • احنا حنقنا المسرحية دى •• من فصل واحد •• مش طويلة • وعزة وهالة طلوعوا على المسطح يذاكروا

•• تسمى تعملى لنا فنجانين قهوة من ايدىك الحلوة دى ياست الكل  
انت ••

— حاضر يا حبايى ••

احس يحيى بكيانه كله يهتز فرحا ••

حبايى •• !؟

قالتها بأمومة بالغة وحنان دافق ، ومضت ••

التقت عينا يحيى بعيني شوقى ، بلا أى كلام : أجل يا يحيى •  
انت مثل ابنها • لم لا • مثلى • مثل أخ لى •

وتنهد يحيى : والدتك دى انسانة عظيمة •• عظيمة •

ونظر اليه شاكرا • وحلت لحظة صمت • تذكر كمال ادهم ،  
والقلب الجديد • والعملية ، فأجفل ، لاداعى للخروج عن الموضوع •  
قال مشجعا شوقى يحثه على القراءة ••

— اتفضل اقرأ • ( وضحك وقال ) نولع سيجارة أولا •

وأشعلا سيجارتين ••

وبدا شوقى يقرأ فى المسرحية : الجحيم فى الأرض !

من أول لحظة ، وصف شوقى فيها «الديكور» وجد يحيى البدرى  
نفسه ( بنوع من الابتسامة ) مشدودا لمتابعة المسرحية •• فالفتى  
جرىء فعلا : الأحداث تجرى فى العالم الآخر ••

والشخصيات : مجموعة من الملائكة مع اختلاف فى الدرجات ،  
هم هيئة المحكمة •

ومجموعة من البشر • مع اختلاف الفئات وفى الطبقات  
( عامل ، ومتقف ، وشحاذ ، ومومس • وطفل • ومجموعات أخرى ) •

اليوم يوم الحساب • والجو مرعب • بعض الناس ينهارون •  
يسلمون من أول كلمة بالجريمة والعقاب • ثم ينادى على « المثقف  
الشباب » ليدافع عن نفسه • وإذا بالشباب يقذف فجأة بالقنبلة ••

— أنا معترض ••

وتذهل هيئة المحكمة •

— معترض ، معترض على ماذا ؟

— على المحاكمة !!

— ماذا •• ١٩

وتدق طبول الرعب التي تنخلع لها قلوب البشر ، لكن الشباب  
يظل واقفا بثبات ، لا تهتز منه خلجة ••

— نعم أيها السادة •• البشر لا يحاكمهم ملائكة •• البشر  
يحاكمهم بشر •• هنا تتوفر العدالة ، ان كنتم حقا حريصين على  
العدل كما تقولون ••

وتزجر الملائكة ••

— ولكننا ملائكة • وهذه مهمتنا • انت تعلم انها أوامر •

— انتم تأمرون • ولكن ما فائدة الأوامر ، ان لم يكن هناك  
احساس بالاعتناق ؟!

— ماذا تقصد ؟ ١٩

— لكي أقتنع بحكمكم ، وأنفذه وأنا في منتهى السعادة ، مهما  
كانت قسوة الحكم ، لى رجاء واحد • طلب واحد ••

— رجاء من فضلك وليس طلبا ••

– سمعا وطاعة ، رجاء ، أن تتفضلوا وتتركوا مقاعدكم ..  
قليلاً .. لو سمحتم ..

– نترك مقاعدنا ؟! الى أين نذهب ؟!

– تهبطون الى الأرض التى جئنا منها • تعيشون الحياة التى  
كنا نحياها ثم بعد هذا ، عودوا الى اماكنكم هذه ، وحاكمونا •  
سنقبل الحكم حينئذ بمنتهى الحب والاجلال والتعظيم •

وبالطبع ، تستنكر الملائكة هذا الطلب الأحمق • ويتوعدون  
الشباب بالويل والثبور وعظائم الأمور ، الا ان أحد الملائكة يميل على  
أذن زميله بهمسة ، وتتقارب رعوس هيئة المحكمة ، ويتناقشون فى  
الطلب ، أو فى الرجاء : فترة مداولة •

ثم يقرر الرئيس فجأة : قبلنا الطلب • أجل • فنحن يهمنى  
أحساس المتهم بالعدالة • وبالأمان ، وعلى هذا ، سننقمص  
شخصياتكم وسنهبط الى أرضكم أيها البشر ، لنبطل حجبتكم ..

• ثم اظالم للمسرح

حين وصل شوقى الى هذه النقطة ، استأذن فى لحظة يشعل  
فيها سيجارته • أشعل يحيى هو الآخر سيجارة ، ومضى ينظر الى  
شوقى وهو يجذب أنفاسا عميقة من سيجارته ، كأنما هو فى غيبوبة ،  
مع أشخاص مسرحيته • ووجد « يحيى » نفسه يعقد مقابلة بين  
وجه شوقى ، ووجه مصطفى سيف • بين التلميذ وأستاذه لا يامصطفى  
يا سيف • لم تعودوا أستاذة • هذا هو الجيل الجديد الذى سيطلع  
لكم ويهزكم من على عروشكم التقليدية القديمة • هنا بذور حياة كامنة  
وحرارة ، وثورة تريد أن تتفجر • لا بد أن تسمو على نفسك وعلى  
غيرتك يامصطفى وتبناه • ويومها سيقول الناس : كاتب جديد ،  
اكتشفه مصطفى سيف ( ومر أمامه وجه كمال أدهم هادئاً مبتسماً ،

لا يريد أى ضجيج • « لا ليس اكتشاف سيف • بل اكتشاف كمال أدهم  
فى الحقيقة • أجل ، صاحب القلب الجديد ، يكتشف كاتباً جديداً •  
سيهن الوسط الأدبى وربما المجتمع كله • ولعلعت الصورة فى خياله •  
وجرفه الحماس لمواصلة سماع بقية المسرحية • ماذا سيحدث للقضاة  
الملائكة ، بعد أن يهبطوا الى أرض البشر ويعيشوا حياة البشر ؟!

— كمل يا أستاذ شوقى • الحقيقة مسرحية مشوقة جداً •  
وواصل شوقى القراءة ••

ان المسرح يضىء على نفس المنظر • قاعة محكمة الآخرة ••  
والملائكة عائدون من الأرض ، منظرهم غريب حقاً • لقد تغيروا  
كثيراً : كانوا قبل النزول ، بيضاً ، مودى الوجنات ، مسبسى  
الشعور باسمى الوجوه • الآن ، شعورهم وملابسهم مشعثة • يبدو  
عليهم الحجز والرهن • ووجناتهم كستها الصفرة ، والتجاعيد •  
ويجلس الرئيس فى مكانه ، ويصدر حكمه من أول لحظة ، يقول  
معلناً :

— براءة • براءة أيها الناس ، أيها البشر : براءة !  
ويهلل المتهمون البشر ، ويصيحون فرحاً ونشوة • العامل  
والفلاح والمنتقف والمومس والشحاذا والطفل • الجميع يهتف بعدالة  
المحكمة •

— تحيا الملائكة •• تحيا الملائكة ••  
لكن رئيس المحكمة يعترض فجأة على الهتاف ، بهتاف آخر •  
— بل قولوا يحيا البشر ••  
— تحيا الملائكة ••

— بل يحيا البشر • يحيا البشر •

الجميع :

— يحيا البشر •• يحيا ••

« ستار »

\*\*\*

قال شوقي كلمة : « ستار » من هنا ، وهتف يحيى البدرى عليه  
من هنا ، بكل الانفعال ••

— رائع •• رائع •• أكثر من رائع كمان •

وغمغم شوقي فى خجل سعيد •

— ولا رائع ، ولا حاجة ••

بالعكس يا أستاذ شوقي • حقيقى عمل جميل جدا • فيه نغمة  
جديدة وجريئة • ولو أن لى ملحوظة واحدة لو سمحت ، يبقى العمل  
مقيش بعد كده •

قال شوقي بقلق :

— اتفضل ••

— عنوان المسرحية • يبقى « يحيا البشر » • مايبقاش « الجحيم  
فى الأرض » • انقشع القلق من عينى شوقي ، وتذكر أن « هالة »  
هى التى ألهمته الجملة الأخيرة ، غير أن التردد بان عليه فجأة ••

— انا أقصد جحيم الأرض هو الذى خلا الملائكة تحس باحساس  
البشر ، وتحكم بالعدل ••

قال يحيى مصرا على رأيه : وماله ماهو ده واضمح فى  
المسرحية ، انما العنوان • لازم يبقى جذاب • ومتفائل ، وله رنة :  
« يحيا البشر » مش « الجحيم فى الأرض » !

قال جملته الأخيرة بصوت مخيف اضحك شوقى ، وواصل  
ضاحكا أيضا :

— وما تخافش على الجحيم ياسيدى • الجحيم لسه فى الأرض  
ما راحش • اطمئن عليه •

ضحك الاثنان ضحكة سعيدة بلغت « هالة » و « عزة » على  
السطح • اطلت هالة من على السور •

— لازم خلصتوا المسرحية ••

— آه خلصناها ••

— صحيح • هایل • هایل • ياترى رأى الأستاذ يحيى فيها

ايه ؟

قال شوقى ضاحكا ومداعبا :

— لا مايبقاش كدد • أنتم فوق واحنا تحت • يالله انزلوا  
تعالوا ••

قالت هالة مداعبة :

— وننزل احنا ليه • أنتم اللى تطلعوا ، الرجالة تطلع • على  
فكرة ياشوقى الجو هنا فى منتهى الجمال •• والقمر طالع ••

استحسن شوقى الفكرة •• صحيح • لم لا •• يحيى لم يعد  
غريبا • وعزة ؟ اللحظة لحظة سعادة •• فلنفرح يا عزة ••



## •• والتفت الى يحيى ••

– ايه رأيك نطلع • أظن مفيش مانع • وتشوف منظر عين  
شمس من على السطوح ، فى القمر ! لم يعرف يحيى بماذا يرد • لكنه  
فى أعماقه كان يريد • يتمنى • وجذبه شوقى برفق من ذراعه مشجعا  
وهو يصيح على أمه فى الداخل ••

– احنا كلنا فوق ياماما ، على السطح • ياريت تبقى  
تحصلينا ••

وصعد الاثنان فى خطوات سعيدة مرحة ••

لم يكن أحد على الاطلاق يتوقع هذا الذى حدث • فقد وقف  
الأربعة على السطح ، فى ضوء القمر ، يتحدثون فى المسرحية ••  
ومضى يحيى يشيد بها ، وبجراة الفكر فيها ، وبتمجيدها العظيم  
للإنسان ، وجرفه الحماس فقال مؤكدا رايه بحكم عام ••

– شوقى الشريف سيكون كاتب كبير • وخليكوا فاكيرين وقفنا  
دى ( وضحك ) والقمر طالع ، واحنا الأربعة •

وبلا ارادة ، توجهت النظرات الى عزة • كانت شاردة ••

وقالت هالة مداعبة صديقتها :

– ايه يا عزة ، سرحانة فى ايه !؟

– أبدا • ( وارتسمت على شفيتها شبه ابتسامة • وغمغمت )  
بالعكس ، أنا فرحانة علشان شوقى •

اننفذ شوقى فى وقفته • اندفع يشكرها • ويربت على  
ظهرها ••

– متشكر أوى يا عزة ، طبل عمرك بتشجعينى •

وغمغمت عزة بكلمات غير مسموعة • وأحس يحيى أن الموقف ربما يتعقد فجأة • فلنعد الى الموضوع ، قال مواصلا رأيه فى المسرحية ، وبإبتسامة اعتذار لشوقى :

— بس أنا لى ملحوظة ، تسمحولى بها ؟

وتنبهت البنتان ، ونظرتا اليه فى فضول وترقب ، وتحفز أيضا •

— انه يغير الاسم • بدل « الجحيم فى الأرض » يبقى « يحيا البشر » • آخر كلمة فى المسرحية « ايه رأيكم » • هتفت هالة على الفور : اسم هایل • مدهش • فعلا أجمل من الجحيم فى الأرض •• ( ومضت وهى تنظر الى شوقى ، وتردد الاسم بموسيقية « يحيا البشر » •• « يحيا البشر » حتى له إيقاع جميل ••

فرح يحيى البدرى برأى هالة • بقى رأى عزة • ترى : ما رأيها ، أم أنها سارحة عن الموضوع ؟!

غير أنه فوجئ بها تقول ، وقد شدت من قامتها ، ونظرت الى الجميع فى ثبات :

— أنا باعترض ••

— بتعترضى ؟ ليه ؟

— لأن الجحيم فى الأرض فعلا ، زى ما هو فى المسرحية ،  
ليه عايزين تهربوا من الحقيقة ، حتى على الورق ؟

أحس يحيى البدرى بكيانه يهتز ، ولم يعسرف على الفور  
بماذا يرد ••

كان يظن أن المعركة انتهت • فإذا بها هي التي تبدوها • الطلقة الأولى هي التي أطلقتها :

« يحيا البشر » ••

أم « الجحيم في الأرض » ؟!

كان الاعلان ببء المعركة •

## - ٢٤ -

غير أن النفس الانسانية ، كما يقول المراكبية القدامى ، سكك  
ومسالك خفية تجرى متداخلة ومتشعبة تحت السطح الهادىء  
اللامع ..

أو ، هى أربعون حجرة وحجرة ، كما تقول ألف ليلة وليلة ،  
ومهما انكشف سر الأربعين حجرة ، فإن الحجرة الواحدة والأربعين  
تظل مجهولة ا

لم يكن اعتراض عزة على التغيير ، مفاجأة ليحيى البدرى  
وحده كما كان يفكر ، ضربة هو وحده المقصود بها ، كان الاعراض  
مفاجأة أيضا لهالة • لأول مرة ، تعلن « عزة » اختلافها معها فى  
الرأى ، وإمام شاب غريب ، هو يحيى البدرى •

ويفعل المفاجأة ، أوشكت هالة أن تسألها : لماذا ؟ لماذا تفضلين  
عنوان « الجحيم فى الأرض » على « يحيا البشر » ؟

فأجابته :

غير أنها أحست أنها مكبله • لو دخلنا فى المناقشة ، فسوف  
يتفجر الموقف ، ويشتع الحريق من جديد : أبى لم يموت • أبى مات  
مقتولا • كانت عملية الموت • وهذا هو « الجحيم فى الأرض » ياست  
هالة • أما أنت بأحلامك وهمساتك وإرتعاشات نظراتك مع شوقى •  
فهذا ما يدعوك لأن تقولى : يحيا البشر •

كانت « هالة » تحس أحيانا أن « عزة » تحسدها على لحظات  
سعادتها مع شوقى • تلك اللحظات التى أصبحت نادرة ، وحينذاك  
تحس « هالة » نحوها بالنفور والضيق والرغبة فى الابتعاد • وقد  
حدث ذلك كثيرا قبل « العملية » ، ثم عادت المياه الى مجاريها ، أو  
بدأت تعود ، فى جو المراساة • وهى أول مرة تتفتح لهما الحياة  
بجلسة مثل هذه فى ضوء القمر ، وبحلم جميل فى المستقبل ، تأتى  
عزة وتفسدها ، برغم أنها تعلم أن كلمة « يحيا البشر » من وحيها  
هى - هالة - لشوقى أيام أن كان يكتب المسرحية • لا بد أنها تذكر •

ومع هذا اقتصمت لها ابتسامة الغفران : لتأخذ المسألة ببساطة ،  
مجرد اختلاف فى رأى حول « عنوان مسرحية » ••

لا بد أن تخرج من هذه العزلة التى تضربها حول نفسها ،  
بسرعة ••

- على كل حال العنوانين الاثنى كويسين ( وضحكت ليحيى  
وشوقى وقد خطر لها خاطر ) نسيب الأستاذ مصطفى سيف هو اللى  
يقرر • أى العنوانين أحسن • ايه رأيك يا شوقى ! تعرض عليه  
العنوانين ، وتأخذ رأيه ••

هزت عزة كتفها هزة خفية ، ويتحد ..

– ولو . حتى لو اختار مصطفى سيف « يحيا البشر » أنا رأى  
العنوان الأول هو الأحسن ..

كانت عزة قد تبدلت ملامحها فجأة . لم تعد غاضبة ولا عصبية  
.. انما كانت تتكلم بهدوء وثبات . وفى وقفته تحد واستعداد  
للنقاش . وبدت من نظراتها المتحفزة وكأنها على استعداد للحرب  
فى جبهتين : جبهة هالة ، وجبهة يحيى البدرى . أما شوقى فقد كانت  
حريصة على إبقائه على الحياد ..

.. بالنسبة لهالة .. كانت قد قررت أن « تسحب السجادة من تحت  
قدميها » هى التى استحوذت على الجلسة من أول لحظة دخلت فيها  
من الباب حتى الآن . ثرثرة . ثرثرة . ثرثرين كثيرا يا هالة ..  
تموتين فى حب الاستعراض ، تريدين اقناعنا بأنك الملهمه لشوقى  
أحسن كتاباته . تعالى اذن ناقشيني أمامهما . وانت يا استاذ يحيى  
البدرى . ما الذى تريده ؟ تخدر الجرح ؟ جعل منك « كمال أدهم »  
لعبة فى يده . فشل معى ويريد الآن أن يدخل عن طريق شوقى ،  
ويستخدمك فى هذا . كن موضوعيا أيها الشاب ، ولا تعمل هنا  
حسابا لكمال أدهم ..

أما انت يا شوقى ( وخاطبته بنظرة ثابتة كأنما تمتحنه ) .

– أنا رأى التغيير لازم يكون عن اقتناع شخصى . شوقى  
هو مؤلف المسرحية ، وهو وحده الذى يقرر ، يغير العنوان أولا .

استفز موقفها « هالة » . قالت بعصبية :

– بس أنت بالشكل ده يا عزة بتلغى رأى الآخرين ، بتلغى حقهم  
فى المناقشة ..

قالت عزة على الفور ، وبثقة :

– مين قال • بالعكس •• أنا مستعدة للمناقشة •

حلت لحظة صمت • التقت عيون الجميع فى توتر •

من يبدأ النقاش ؟

وأحس « يحيى البدرى » أن المفروض أن يبدأ هو • انه صاحب  
الرأى فى تغيير العنوان • ولكن كيف • كيف يبدأ ؟

كان قد أربكه التغيير المفاجئ الذى حدث فى عزة ، فيها كلها ،  
فى لهجتها وشكلها • تبددت من أمام عينيه صورة الفتاة الهائمة  
الحاملة على السطح لحظة الغروب • كما تبددت أيضا صورة البنت  
الغاضبة النافرة الصموت • وحل محلها انसानة تتحدى ، وترفع  
راية الهجوم ••

لم يعرف بماذا يبدأ • انه يحس بحرج اللحظة • وحساسية  
الموضوع ••

قالت عزة منهية الصمت وقد رأت الكل يتراجع :

– يعنى ايه « يحيى البشر » ؟! أنا أهتف صحيح للبشر ، يوم  
ما البشر يخطوا. نفسهم قدام بعض ، ويتحاسبوا على أخطائهم ،  
وعلى جرايمهم • مفيش حاجة اسمها البراءة للجميع • وأنا مع  
شوقى فعلا ، أن الملائكة مش هم اللى يحاكمونا ، لكن فى نفس الوقت ،  
لازم البشر يحاكموا بعض على اللى بيعملوه بشجاعة • •

ذهل الجميع لمنطقها ••

قال شوقى بانفعال وهو يكاد يرتجف :

– وأنا معاك يا عزة فى الراى ده • انما ده موضوع تانى ،  
ممكن ينكتب مسرحية تانية ••

قال يحيى مسرعا :

– ومسرحية تانية ليه ؟ فى نفس المسرحية دى ممكن جدا ،  
تجيب البشر ، فى مواجهة ، بيحاكموا بعض ••

ورأى شوقى يشيح بوجهه بعيدا ، مستنكرا ورافضا حتى  
مناقشة الفكرة •

أى محاكمة ؟ ما الذى تقوله يا يحيى البدرى ؟ انت تتكلم وفى  
ذهنك المسرحية • أما هى فتتكلم وفى ذهنها الواقع ، العملية ،  
الموت ، وكمال ادهم ، والطبيب والذين سرقوا قلب أبيها ••

كف عن مناقشة هذا الموضوع • أرجوك • أنت لم تعرف بعد  
هذه البنت • سيدخل بنا النقاش الى المنطقة الخطرة ••

ورأى يحيى البدرى نفس المشاعر على وجه هالة ••

أجل أيها الخطيبان الحبيبان • لا يصح افساد اللحظة ••  
سيندفع بنا النقاش الى منطقة الخطر • بل ان ما يحدث الآن ، ماهو  
الا جزء من المحاكمة تعقدها عزة لنا ، وتريد أن تفتتح الجلسة •

وأوشك أن يقول لها محذرا بل ومتحديا : ولكن ، هل أنت واثقة  
من براءتك لو حوكت أنت الأخرى ، ووضعت فى قفص الاتهام ؟

غير أنه أمسك نفسه بقوة • سوف يأتى الوقت للنقاش • بل  
الأفضل ألا يتم النقاش • أن يبقى بينهما شىء معلق • يبرر لقاءه  
بها من جديد •

لقد أعلنت استعدادك للدخول فى المعركة •



هذا هو كل ما كنت أريد ..

كانت « عزة » لازالت واقفة فى شموخ وثقة . ورأها فجأة جميلة جدا ، فتاة رائعة ، بل ومقاتلة . كنت تصلحين ياعزة مناضلة سياسية خطيرة .. وتلقائيا .. رأها مكان « نبيلة » . لو كنت أنت خطيبتى ، ما كنت تركنتى أبدا أيام المحنة . هذا الاصرار منك على الوفاء لقضية أبيك . كنت ستقاتلين من أجلى ، كما تقاتلين الآن من أجل انسان لم يعد موجودا . آه ياعزة . أنا علىء بالجراح لو تعلمين ..

فجأة ، انتبه على صوت طائرة . كان صوتها قريبا وضخما . وبدأ غريبا فى صمت الليل . وشع وجهه بفرح طفلى ، وجرى بعينه يبحث عن الطائرة فى الفضاء . ونظر له شوقى باسم . كان منظر الطائرات هنا ، فى هذه المنطقة ، شيئا طبيعيا بالنسبة لهم . أما يحى فقد أخذه منظر الطائرة فى الليل وفى ضوء القمر ، وراح يتبعها بعينه ..

قال بلهجة سارحة :

ـ واضح أنها مسافرة ..

قال شوقى :

ـ لسه قايمة من المطار دلوقت . ( وأشار بذراعه ناحية الشرق )

ـ واضح ان المطار قريب جدا من هنا .

ـ آه مطار القاهرة الدولى . حوالى كيلو ونص من هنا .

ونظر يحى الى حيث أشار شوقى ..

## مطار القاهرة الدولي ..

كم تخيل نفسه فيه بحقيقته ، مسافرا • مسافرا الى أين ، لم يكن قد حدد بعد • كلها بلاد الله •

الآن ينظر الى الطائرة ، وقد تلاشت من نفسه رغبة السفر •  
بدا منظر الطائرة من هنا وعزة بجواره تنظر اليها ، أجمل من ركوبها • يأخذ الواقع أحيانا طعم الأحلام • ورأى شوقى وهالة يتقاربان ، كأنما بلا وعى ، وينظران الى الطائرة فى ضوء القمر ، ويتهاوسان • استيقظ حلم الاثنين بالمستقبل • وأنت يا عزة • وقوجى بمنظرها وهى تقف وحيدة ، تراقب الطائرة • كان وجهها قد شحب وبدا عليها أنها تقاوم بشفتيها رعشة بكاء يريد أن ينبثق • ما الذى جرى يا عزة • ما الذى غريك هكذا بسرعة • فى لحظة واحدة تتغيرين ؟

وتبع الطائرة معها بعينه •

هل تذكرك الطائرات المسافرة بالحبیب الذى رحل ولم يعد ؟

هونى عليك يا عزة • كفاك حزنا • فالطائرات المسافرة من هنا لا نهاية لها • وحزنك هذا لابد ان يكون له نهاية • وكما أخذت منك الحياة ، لابد ستعطيك • فقط نثقى بالحياة • لنثق بالحياة • أجل يا عزة ليس « الجحيم فى الأرض » بل « يحيا البشر » وسأقنعك • نعم ، لابد سأقنعك ••

قريبا جدا ، سيكون اللقاء •• والنقاش ••

وعاد ينظر مع الجميع ، الى الطائرة التى لم يعد لها دليل سوى ضوء أحمر يبرق من بعيد فى ضوء القمر •

## - ٢٥ -

فى صباح اليوم التالى ، مبكرا جدا ، كان يحيى البدرى يستيقظ من نومه نشطا وسعيدا غاية السعادة • كأنما يرى الدنيا بإحساس جديد • وأحس برغبة جارفة فى الذهاب الى المصنع • من زمن طويل لم يشعر بهذا الاحساس والحب للعمل • بل ورأى المصنع أرضا ثابتة يقف عليها • وقال فى نفسه وهو يرتدى ملابسه : كيف فكرت فى ترك المصنع ؟ كيف وصل الأمر بى الى انى قلت لكمال أدهم : رتب نفسك على انى سأترك المصنع • وأحس بالخجل ، وبالندم : الى أين كنت سأذهب ؟ يجب الا أتهور بمثل هذا التفكير مرة أخرى •

وكانت أطيايف الليلة الماضية تعاوده ، بأحداثها الغريبة ، ووجه عزة ، والمناقشة التى ستكون بينهما : متى ؟ متى اناقشها : « الجحيم فى الأرض » أم « يحيا البشر » ؟

وضحك • كل شىء فى ذلك الصباح كان يريد أن يأخذه

بضحكة ، وهو يروح ويجيء فى البيت ويرتدى ملابسه ، ثم وهو ينطلق ، وعلى شفقيه أغنية مرحة جميلة الى المصنع • غير أنه حين وصل ، وجد أمامه مفاجأة : عرف من أحد العمال أن الأستاذ كمال أدهم ، فى المصنع من وقت مبكر • وصل قبل أن تبدأ وردية الثامنة صباحا ، واستغرب ما الذى حدث ؟ أم ( وتذكر فجأة ، وقد هبط قلبه ) أم أنه بدأ يرتب نفسه على أنى سآغادر المصنع كما طلبت منه ؟

وأحس بدآور سرعان ما نشل نفسه منه ؟ لا • مستحيل كمال أدهم يفكر على هذا النحو ••

وصعد اليه فى حجرته • وجده جالسا الى مكتبه منكبا على حسابات المصنع يقرأ فيها ويؤشر ••

هل يستعد لاستلام الأمانة ؟

وأحس به كمال أدهم ، فرفع اليه عينيه بابتسامة شاردة :

— صباح الخير يا يحيى ••

— صباح النور •

— اتفضل اقعد ( ونظر اليه نظرة شاردة ) أجب لك قهوة ؟

— آه •• أشرب قهوة ••

وعاود انكبا به على الورق ••

هبط قلب يحيى • يعامله كضيف • بجمود • لم يسأله اذا كان كان قد أبلغ الميعاد لشوقى أم لا • هو ذاك • بدأ الرجل يتصرف على أساس أنى سأتارك المصنع • ولاحظ على وجه الرجل ثقة غريبة •• وثمة بريق غامض يشع ويخبو فى عينيه ثم يشع ويخبو • يريد أن

يثبت لك يا يحيى أن رحيلك من هنا لا يهمه • حقق الرجل طلبك • •  
ماذا تنتظر؟ وعزت عليه نفسه • أنا الذى بدأت • أنا الذى طلبت •

هل يتراجع؟! وأحس بدماء ساخنة تفور فى أعصابه ، وتندفع  
فى شرايينه • لا • لن أترجع يا أستاذ كمال أدهم • فعلا سأمشى •  
وسأجدد الآن طلبى • وسأخرج من هنا • لم يعد لى هنا بالفعل أى  
معنى • • سأخرج من هنا حتى لو تشردت • لست جديدا على  
التشرد • لست جديدا على الجحيم الذى فى الأرض يا عزة • من قال  
« يحيا البشر » • كنت مخطئا يا شوقى حين طلبت تغيير العنوان !

\*\*\*

وانتفض من سرحته الكثيبة على جرس التليفون • ورأى كمال  
أدهم يرفع السماعة ، وسرعان ما انبسط وجهه ، وصاح بقرح :

– أهلا • أهلا حاج صلاح • يا صباح الخير • طبعاً شباب  
أمال •

• عاودتك القوة يا كمال يا أدهم • لم يعد لى هنا فعلاً أى داع •  
أكبر تاجر فى الأزهر أصبح صديقك • يرسل اليك تحية الصباح •

– لا إزاي يا أبو صلاح • والله لسه كنت بأفكر فيك دلوقت • •  
آه • • لأن فيه قماش جأى لى بكره من المصبغة ، وعايين اعرضه  
عليك • • لا إزاي • طبعاً يا أخى • • وبصرف النظر • لازم أشوفك  
• • أجيلك النهاردة المحل • • ثمانية مساء • • أوى أوى • • مع  
السلامة • ألف سلامة • •

• ألف سلامة لك وله يا كمال يا أدهم • • هنيئاً لكما ببعضكما •

• ووضع كمال السماعة فى هدوء • •

— قوللى يا يحيى ٠٠ مش القماش جاى بكره برضه ؟

— آه ٠٠

— طيب كويس ٠٠

وعاود انكبابه مرة اخرى على الورق ٠٠

ما هذا الاهتمام الواضع من صلاح عبد الهادى بكمال ادهم ؟  
آه ( واسرعت دقات قلبه ) الانتخابات ٠٠ الانتخابات يا كمال ،  
والقلب الجديد ٠ احذر يا كمال ٠ احذر ٠٠ ام أنك تعرف اللعبة وتريد  
أنت الآخر أن تستغلها ؟ لو حدث هذا ، فسيكون شيئاً فظيعاً ٠٠ لا  
٠٠ لا يصح أن يحدث ٠ يجب ألا يحدث ٠ القلب الجديد لا يصح  
منه ٠٠ يجب أن أمنعك ٠ يجب أن نمنعه بإعزة ٠ لن أترك المصنع ٠  
تلك مسئولية ٠٠

ومع هذا ، يجب أن يتم ذلك بكرامة ٠٠

ونهض واقفا فجأة ٠٠

— طيب يا أستاذ كمال ٠٠ أستاذن أنا بقى ٠٠

— تستأذن ؟ ليه ٠٠ فيه مشوار وراك ؟

قال يحيى بلهجة جامدة :

— لا ماعنديش مشاوير ٠٠ الميعاد بتاع شوقى الشريف مع  
مصطفى سيف بلغتهوله ٠ وحججيك هنا يوم الخميس الساعة ثمانية  
مساء ٠٠

ولمح لمعة فرح فى عينى كمال ٠٠

— أنا متشكر أوى يا يحيى ٠٠ انما عايز تخرج تروح قين ؟!

– حامشى بقى ، زى ما اتفقنا • ( وارتعشت شفتاه رغما عنه ) انا ماباقليش وجود فى المصنع خلاص •

تراجع كمال ادهم قليلا فى جلسته ، وقد فوجئ بهذه الكلمات الأخيرة :

– ماعادلكش وجود فى المصنع ؟! ازاي •• مش فاهم ؟!

قال يحيى دون أن ينظر فى عينيه :

– البركة فيك أنت بقى ••

أنفجر فجأة غضب كمال وقال :

– يعنى ايه البركة فى انا ؟ عايزنى أدخل المستشفى عشان يبقى لك وجود فى المصنع ؟!

جرحت كلماته يحيى البدرى • قال معترضا ••

– ازاي با استاذ كمال تقول كلام زى ده ؟

– وما أقولهاوش ليه يا استاذ يحيى • يعنى ايه البركة فى انا ؟ حضرتك فاهم انى خفيت خلاص ، وبقيت راجل شمشون ؟ ياسيد يحيى • انا اللي قى ماحدش يعرفه • انا كان مكانى الطبيعى اليومين دول مش هنا ، وأنت عارف • مكانى هناك • بعيد • فى المصيف • وأستريح • وأفرح • وأحس انى فعلا رجعت للحياة • انما ( وندت عنه زفرة حارة ، باسطا ذراعيه فى حركة مأساوية متأللة صابرة ، كأنما هو بطل احدى تراجيديات الأقدار ) انما الحياة ما بترحمش • لازم من أول يوم أرجع للعمل •• حياتى ما اصبح لهاش وجود ، ولا استمرار ، الا فى العمل • تقوم أنت تيجى تقوللى : عايز امشى • عايز اسيب المصنع • تسييه تروح فين وليه ؟! فهمنى !

وارتعشت كفاه :

مش معقول يا يحيى • كفاية بقى اللى ضاع من عمرك • وأنت  
بنيت هنا ، فى المصنع ده • تسيب اللى بنيت له ؟ لا يا يحيى • ده  
هروب • أيوه هروب من المسئولية •

كان يحيى ينظر اليه مأخوذا • ورغم الفرحة العميقة التى اهتزت  
بها روحه لتصميم الرجل على بقاءه ، إلا أن منظر كمال أدهم ، وهو  
واقف بقامته الضخمة ، وثمة مسافة بين ساقيه فى هيئة هجومية  
متحدية ، ويداه تتحركان مع كلماته ، وانفعالاته ، جعل يحيى يتنبه  
فى جلسته : لم تعد المسألة مجرد جس نبض واعتزاز بالكرامة : الرجل  
فعلا يناقش موضوع تركه للمصنع مناقشة جادة :

الرجل يلوح بيده بقوة :

— وإذا كنت واخذ الحكاية على أن دورك انتهى بخروجى ،  
تبقى غلطان يا يحيى • دورك ما انتهاش • بالعكس ، دورك الحقيقى  
بيبدأ من النهارده ••

اطلت من عيني يحيى البدرى نظرة فضول وتساؤل •

طبعا يا يحيى ، وده اللى زعلنى منك • فى الوقت اللى أنا جاي  
فيه المصنع بدرى ، ومتحمس ، وعندى أفكار جديدة عايز أقولها لك ،  
تقوللى عايز أمشى ؟!

— أفكار جديدة ؟ أفكار ايه ؟

قالها يحيى بلهفة لا واعية ، أسعدت كمال

— أفكار كنت عايز أعرضها عليك ، وأتناقش معاك فيها ••

غمغم يحيى ، وهو يقاوم فرحة يرقص بها قلبه ، بل وأحس برغبة



لطيفة فى البكاء فرحا ، أن يقفز ويقبله : وأنا مستعد أتناقش معاك فيها ..

التقت نظراتهما للحظة . أطرق يحيى حياء . اقترب منه كمال أدهم . نظر اليه نظرة طويلة وودودة ومحبة ، وأمسكه فجأة من ذراعه ، وبلا وعى ، وجد نفسه يحتضنه ، ويربت عليه .

— هو أنا لى غيرك يا يحيى ؟

وارتعشت شفتا يحيى ، يقاوم دموعا فى حلقه .

— وأنا ماليش غيرك يا كمال .

فى رفق شديد ، جذبته كمال أدهم من ذراعه ..

— تعال . تعال . تعال . نقعد شوية ( وتنهّد ) الحقيقة أنا كنت عايز القعدة دى معاك من يوم ما خرجت ..

جلس الاثنان . حلت لحظة صمت . أشعل يحيى الدرى سيجارة يدارى بها فرحته وانفعالاته . ومر به طيف عزة ، والعائلة ، وسهرة الأمس ، والواقع الذى يشبه الأحلام . وأحس بالأرض تثبت ، تحت قدميه . ترى : أى أفكار جديدة يريد أن يناقشها معه كمال أدهم ..

— أنت مش فاكّر يا يحيى ، قبل الأزمة ، كنت بالكلمك عن توسعات كنت عايز أعملها فى المصنع ؟

تحمس :

— توسعات ايه ؟ عايز تجيب أنوال جديدة ؟

— أنوال ايه يا جدد . مش فاكّر أجهزة الدوبى اللى كنا عايزين نجيبها عشان ننتج أقمشة نوفوتيه ( أقمشة عنقوشة ) .

– طبعا فاكرك • وعلى فكرة ، انا عثرت على واحد هائل ،  
يعمل لنا الأجهزة دى •

– يعملها لنا ازاي ؟ قصدك يستورها ؟

قال يحيى وقد اندمج فى الموضوع :

– لا يستورها ايه • ده حيعملها عمال ٠٠ من الألف للياء  
• • ومصرى كمان • عامل نفس الأجهزة • بس سيلندر واحد •

برقت عينا كمال ، كأنما عثر على شىء كان يبحث عنه :

– ازاي ، احكيلى ده مهم جدا • أنت ماتعرفش من يوم أزمة  
الكمبيالة وأنا مشغول بالحكاية دى قد ايه • هو ده الحل الوحيد  
يايحيى ، تطوير العمل فى المصنع • ده اللي حيغطينا ، وفى نفس  
الوقت حيقيد البلد • • حنصدر • •

واعتدل يحيى فى جلسته :

– شوف ياسيدى • أنت فاكرك محمود سامى الخراط ، اللي  
كان بيعمل لنا قطع الغيار فى الوايلي • •

– آه فاكرك • • ماله • • ده ولد كويس • •

– من حوالى شهرين قابلته ، وكنت عايز شوية حاجات  
للمصنع • والحقيقة كانت دقيقة جدا ، وأنت عارف مفيش قطع غيار  
مستوردة • عرضت عليه الموضوع • وفعلنا عملها لى • وأنا  
باستلمها منه ، لقيته بيصلح فى جهاز « دوى » سألته :

– تعرفلناش كام جهاز من دول • لقيته قال لى ببساطة :  
طيب ما أعملهم لك أنا • الحقيقة أنا فوجئت ياكمال ، خصوصا لما  
ورانى جهاز عامله بس واحد سيلندر • قلت له لا : احنا عايزين

اثنين • قال لى • بسيط أعملهولك ، والحقيقة لماشفت الدوبى اللى  
هو عامله ، ماصدقتش ان دى صناعة محلية •

قال كمال مقorra وبشكل حاسم :

– خلاص • نزوح نقابله ، ونشوف الموضوع ده معاه • ايه  
رايك ؟

– وهو كذلك ••

قالها يحيى بحماس بالغ • غير ان حماسه لم يلبث ان فتر  
بعض الشىء • وقال مستدركا بابتسامة :

– بس الفلوس يا استاذ كمال ، احنا داخليين على مشروع  
كبير •• حنحتاج واحد وعشرين جهازا • الجهاز بيكلف حوالى  
٢٥٠ جنيه • يعنى مش اقل من سبعة الاف جنيه ، ويمكن أكثر ••  
حنجيبهم منين دلوقت ؟!

شوح كمال بيده لا مباليا ••

– ولا يهملك • المهم اولاً نلاقى الأجهزة • وبعدين ساعتها  
الفلوس تتدبر • انا واثق اننا حنلاقى اللى حيعطينا • احنا يا يحيى  
سمعنا فى السوق كويسة • ماتنساش دى •

قالها كمال أدهم بنوع من الثقة ، وارتفع – رغما عنه – صدره  
بعض الشىء • باحساس عميق من الاعتزاز بالنفس • واستقرت  
عيننا يحيى على صدره ، على الجانب الأيسر من صدره ، مكان القلب ،  
القلب الجديد • وأحس برعدة •

هل بدأ القلب الجديد يشعر بقيمته فى قلب السوق ! وتذكر  
مكالمة صلاح عبد الهادى معه منذ قليل • كبير التجار يتقرب منه

ويتودد اليه • هل حدد صلاح عبد الهادى مع نفسه كيف سيستفيد من القلب الجديد • هل يحس القلب الجديد بهذا ويفهم اللعبة ؟ سوف يتقابلان الليلة • فيم سيكون الحديث • وتذكر الانتخابات • الا ساعات تتزايد أن صلاح عبد الهادى سيرشح نفسه عن حى الموسيقى • لن يجد صلاح خيرا من القلب الجديد يقف معه فى المعركة ، ويدعو لفوزه •

القلب الجديد داعية للراسمالية الكبيرة ، وسأكون أنا الآخر معه بالتبعية • أياكون هذا آخر المطاف ؟ لا • لا يا كمال • وتذكر عزة ، لحظتها يكون الجحيم فعلا فى الأرض ياعزة • لا • لن أمكن صلاح عبد الهادى من أن يشتري القلب الجديد • نستطيع ان نتطور بدونه • أجل • وشعت رأسه بفكرة • قال بثقة تقابل ثقة كمال ادهم •

– وليه نستلف من تجار ياكمال ، ونبقى تحت رحمتهم ، وانتاجنا يبقى محتكر لهم ؟ أنت مش بتقول عايزين نصدر ؟ أنا عندي فكرة • البنك دلوقت عامل قروض لتشجيع وتدعيم المصانع الصغيرة • نقدم على قرض • اعتقد أنهم مش حيرفضوا طلبك •

شب كمال ادهم فجأة على أطراف أصابعه ، فبدأ أطول بكثير من يحيى البدري ، وابتسم له ثم خبطه على كتفه بود :

– بعدين • كل ده حنبحته فى وقته يا يحيى • ودى فكرة كويسة برضه • المهم أولا ندرس الموضوع مع محمود سامى ونشوف ميزانيته • ونحاول نقابله الليلة • أو بلاش الليلة ، عشان ميعادى مع صلاح عبد الهادى • نقابله بكره •• ايه رأيك ؟!

– وهو كذلك ••

– اتفقنا ؟

## ـ اتفقنا ٠٠

التقت نظرات الاثنين في ابتسامة ودودة ٠ وبلا وعى ، مد كل  
مهما يده للآخر وتضافها بحرارة ٠ أى عهد هذا ؟ عهد بدء العمل ٠  
راح عهد الضياع والتمزق والبلبلة ٠

واتسعت ابتسامتهما ٠ ورأى يحيى فجأة طيف حزن يرفرف  
على ابتسامة كمال ، وظل أسى عميق فى عينيه ٠ ولمح أيضا هالة  
خفيفة سمراء بدأت تظهر أسفل الجفنين ٠ وهبط قلبه من أجله ٠٠  
ثمة نغمة حزن رقيقة سحرية أخذت تصبح جزءا من شخصية كمال  
أدهم ٠

## لماذا ٠٠ ؟

وفكر أن يحتضنه فجأة ٠ يحميه ٠ يفديه ٠

هذا الرجل يجب أن يبقى ٠ يجب أن يعيش ، وأنا معه ٠٠

وأحس بفيض دافق من الحب والتقدير ، والاحترام ٠ فى كل  
مرة يأتى هذا الرجل وينقذنى من نفسى ، ومن الضياع ٠ وهذه المرة  
يقدم لى شيئا جديدا ٠ لم يكن فى الحسبان ٠ ( وبلغ انفعاله قمته )  
هل يمكن ( وتذكر ليلة الأمس الرائعة ) ٠ وهبتنى العمل ، فهل تهبنى  
الحب أيضا ؟

ودون أن يدرك ٠ وجد نفسه يضمه الى صدره ، ويقبله ، ويبكى  
بصوت كالنشيح ٠

ودون أن يدرك كمال أيضا ، وجد نفسه يحتضنه ويعانقه ويقبله  
ويبكى هو الآخر ٠

كان الاثنين يبكيان وهما فى حضن بعضهما ٠ غير أنهما اتفقا

يسرعة من الموقف ، ربما يدخل عليهما واحد من العمال ويراها على  
هذا المنظر الغريب .

مسح كل منهما دموعه بسرعة . وهما يبتسمان . والتقت مرة  
أخرى النظرات :

— معا يا يحيى ؟

— معا يا كمال . .



حلت لحظة صمت عجيقة على الاثنين . وندت عن كمال أدهم  
— فجأة — زفرة لا ارادية ، داراها بأن استدار بخطوات هادئة في  
اتجاه النافذة المطلة على العنبر والأنوال والعمال ، ومضى يرقب  
جى العمل . وأدرك يحيى من خطواته ونظراته أنه لا ينظر الى الأنوال،  
انما ينظر الى شيء آخر مجهول ، يشغل باله : ترى ما هو . وما هو  
سر هذا الحزن الذى أصبح كثيرا ما يطل من عينيه ، حتى وهو  
في لحظة الفرح والحماس للعمل . .

ومر به طيف عزة . أسرع دقات قلبه . أيمن أن يكون  
الاتهام لا يزال يلاحقه ، وأصبح الرجل يفضل المعاناة فى صمت ؟  
ورأى يحيى المفارقة الكبيرة ، مفارقة أحس منها بالخجل من نفسه ،  
أن تكون السعادة التى يحس بها من ليلة الأمس ، نابعة من مأساة  
الرجل . من عذاباته وآلامه . واكتسحته رغبة هائلة فى أن يسعده .  
أن يرفع عنه كل ظل من الأحزان . من القلق . من أعباء العمل .  
أن يعطيه نغمة فرح . وأن يأتى الفرح من موطن الحزن . من هناك  
من عين شمس ، ومن عزة بالذات « لم أحك لك بعد شيئا عن سهرة  
الأمس » . .

— على فكرة ياكمال • كان نفسى تبقى معايا فى سهرة  
• امبارح

— سهرة ؟

آه • وكانت سهرة فى منتهى الجمال • كانت عايزاك حقيقى ،  
اختطلت الدهشة على وجهه بالفرح •

— هى حصلت سهرة ؟ ازاي احكى لى •

وجلس الاثنان على مقعدين متقابلين • كان يحيى قد فرح جدا  
بشغور الانبساط الذى تبع به وجه كمال ، وصمم على أن يقدم له  
المزيد •

— يا أخى قابلونى مقابلة عظيمة عظيمة • تصور الأم ، كانت  
عايزة تشيلنى من على الأرض شيل • والا شوقى ، والسعادة اللى  
كانت حتنط من عينيه ، ومن كل جزء فيه ، لما قلت له على الميعاد اللى  
انت جيتهم له من مصطفى ، سيف • والاهالة لخطيئته •

قال كمال بشغف وقلق :

— المهم عزة •• شفتها ؟

— طبعاً شفتها • وقعت معايا • واتكلنا • واتناقشنا كمان ؟  
( وابتسم ) كنا كلنا فوق السطح • والقمر طالع ••

تموجات غريبة ومتناقضة كانت تتعاقب على وجه كمال أدهم  
وهو يسمع يحيى البدرى • استوقفته كلمة « وتناقشنا » ••

قال بقلق :

— واتناقشت فى ايه ؟

– اتناقشنا • اتناقشنا ياسيدى ( وتلعثم فجأة وضحك )  
 اتناقشنا فى حاجات كثيرة مختلفة • وكنا كلنا سوا • عموما كانت  
 الروح لطيفة • وعزة فى منتهى الوداعة والرقّة • أنا فى اعتقادى  
 يا كمال أنها كانت أزمة ومرة ، والحمد لله •

شردت عيناه ••

– يعنى ماتكلمتوش فى الموضوع اياه ؟

– اطلاقا •• اطلاقا •• مالوش داعى ياكمال •• مادام مفيش  
 احساس به •• بيقى مفيش داعى لتقليبه •• البنت عموما شعورها  
 نحوك كويس •

كان يحبى قد فطن الى ضرورة عدم الاشارة الى مسرحية  
 شوقى ، والمناقشة التى جرت حول عنوانها •• ومطالبة عزة بعقد  
 محاكمة للبشر فى المسرحية •• لا يصح الاشارة لهذا من قريب أو  
 من بعيد •• سيثور الاتهام من جديد ، وسيظن أنه المقصود بالمحاكمة •  
 ( ونفر يحبى من الصورة ) لن أنقل له الا الجانب المفرح • اما الجانب  
 الآخر ، فى عزة • فسأتكفل به أنا • لم تعد المعركة بينها وبينه ••  
 أصبحت بينى وبينها « الجحيم فى الأرض » أم « يحيا البشر » •

وما أجملها من معركة ••

وانتابته رغبة مفاجئة فى الضحك ، وفى أن يضحك كمال أيضا •

– على فكرة ياكمال • أنت ليه ماقلتليش قبل كده ان عزة حلوة  
 بالشكل ده ؟!

وفعلا ضحك كمال • قال له بعينه « آه ياشقى » • ( وزفر )  
 ايمكن أن يكون هذا هو العلاج • الشباب للشباب ؟ يا ما تخيل •



وواصل يحيى قائلاً بروح متخففة مرحة — حقيقى بنت لطيفة  
ومهذبة وعقلها كويس • أنا شايف انك ضرورى تزورهم كمان مرة  
واثنين وثلاثة •

قال أدهم • معترضاً بكفه بحركة لا ارادية ، وقد مرت على  
وجهه نوع من الرعدة •

— ازورهم • لا لا •• ( واستدرك نفسه ) على الأقل مش  
اليومين دول يا يحيى • يمكن بعد الانتخابات ما تخلص • يمكن أبقي  
أروح لهم • بعدين • بعدين • ( وزفر زفرة طويلة ) خرينا دلوقت  
فى المشروع الجديد اللى حندخل فيه ••

وعاودت عيناه الشرود ، وأيقن يحيى أن موضوع الاتهام  
لا يزال له صدى فى نفسه • يجب أن يتبدد هذا الصدى • وسيتبدد  
شيئاً فشيئاً • تلك مهمتى • وعادته روح التفاؤل ••

— على كل حال ياكمال • موقفك من شوقى موقف جميل ••  
ما تتصورشى كلهم معلقين آمال كبيرة على مصطفى سيف • ياريت  
ينشر له ويشجعه • أنا حاسس أنه موهوب • تبقى عملت لهم عمل  
كبير ياكمال •

ارتسمت ابتسامة ساخرة مريرة على شفتى كمال أدهم وقال :

— أبقي دفعت له التمن •• ثمن قلب أبوه •• مش حيقولوا

كده ١٩

فزع يحيى من تصور كمال للموضوع •

— مين هم اللى حيقولوا كده ١٩؟

— كتير ( وهز رأسه ) وأولهم عزة •

— مش ممكن ياكمال • مش ممكن • مفيش مخلوق يقدر يفكر  
التفكير ده •• أنت ••

وقاطعه كمال بهدوء :

— اسمع يا يحيى • عايزك تعرف حاجة • أنا الموضوع ده قررت  
أنى ما أفكرش فيه • أنا فكرت فيه بما فيه الكفاية • اللى بأفكر فيه  
دلوقت بس ، هو المصنع ده • هو ده البداية ، وهو النهاية ، وهو ده  
اللى من غيره مانساويش حاجة • تمام ولا لا ؟!

وأوشك يحيى أن يقول له : لا •• ليس المصنع هو كل شىء فى  
الحياة • الحياة فيها أشياء أخرى ، هامة أيضا وجميلة ، ومصدر  
للسعادة • ولكن • مع الأسف • أن يكون مصدر السعادة ، هو هو  
نفسه مصدر التعاسة والأسى •

عزة • غيرى موقفك بسرعة • لابد أن تغيريه • وستغيريه ••  
كمال أدهم انسان طيب وعظيم • جميل منه أن يغرق نفسه فى المصنع  
بكل هذا الحماس • ولكن ، فلنرفع هذا الحزن عنه •

مفيش شك يا كمال ان العمل هو أعظم سعادة فى الوجود ••  
وأنا متفائل بالمشروع الجديد بتاعك ده • أنا عندي آمال كبيرة فيه •  
شيوخ كمال أدهم بأصبعه محذرا ، ومبتسما فى الوقت نفسه •

— المشروع « بتاعنا » من فضلك — مش « بتاعى » أنا • ده  
بقى مشروعنا احنا الاثنين يا يحيى • ومش احنا الاثنين بس ••  
والعمال كمان معانا •• ده حياثر تأثير شامل على كل شىء فى  
المصنع • ده أملى فيه ان شاء الله ••

.. ان شاء الله • ومن الليلة حاتفق مع محمود سامى على  
ميعاد بكره •• و ••

• قطع كلامه جرس التليفون ، رفع كمال ادهم السماعه •

.. آلو •• مين ؟

.....

.. احمد زهران ؟ مش معقول • فينك يا احمد من زمان •

• تنبه يحيى لسماع اسم احمد زهران • شرع اذنيه •

.. الانتخابات ؟ آه •• طيب ياعم ، قلبى عندك •

.....

.. ( اضطررب وجه كمال فجأة • ولكنه انفرج مرة أخرى  
بالسرور ) قلب الشعب ؟ آه ( وضحك ضحكة قصيرة وارتسمت  
امامه صورة ، اضطربت لها أعماقه ، وبلهجة متوترة ) انت لسه  
فاكر ؟

لا •• طبعا •• مقدر ظروفك يا احمد • أجيك فى النقابة ؟  
( وضحك ) ياراجل ، انت عارف أنا بتاع الحاجات دى ، ولا حتى  
متفرج • ممكن •• ممكن آه • فى مكتبك • بس مش الليلة برضه •  
الليلة عندى ميعاد • آه ميعاد شغل •• اشوفك الليلة الجاية ••  
ومر كذلك • الله يسلمك يا احمد • محافظين ياسسيدي على قلب  
الشعب •

كان يحيى البدرى يسمع بانتباه • وأدرك فوراً أن احمد زهران  
لا بد سيتحدث معه هو الآخر فى الانتخابات • وتراءت له صورة :  
الشيوعى القديم ، والتاجر الكبير ، يتنازعان على كمال ادهم • على  
القلب الجديد • وشملته ارتجافة •

ومع أنه أحس بميل - فى المقارنة - نحو زهران ، الا انه تذكر  
الخلافاً القديمة ، تلك التى وصلت بينهما ذات يوم الى حد الكراهية  
والنفور . أمى أو هام ؟ أم تلك هى لعبة السياسة التى اکتوى بنارها  
فترة ؟!

أيا كان الأمر ، ذلك يؤكد موقفى . لن أترك الرجل . لن أترك  
القلب الجديد . لن نتركه ياعزة .

لا بد أن تغيرى موقفك منه بسرعة . بسرعة . القلب الجديد  
مهما كان فهو قلب أبك . فلتحافظى عليه فى هذا الجسد . أجل  
ياعزة . هذه هى المعركة الحقيقية . قلبى يحس بهذا . هذه هى  
المعركة القادمة . انها تقترب ياعزة .

فلنستعد .

- ٢٦ -

اكان يحيى البدرى « دون كيشوت » جديدا يبحث لنفسه  
- بالوهم - عن معارك ومزيد من المعارك ، يفجر بها كل المخزون ،  
ويملاً العالم بصوته المختنق منذ زمن طويل ؟ يعيد عهد الفروسية  
الذى ما كاد يزدهر ويشع بأضواء المجد والبطولة حتى وجد نفسه  
خارج الحلقة ، جالسا فى صفوف المتفرجين ، بل وفى آخر  
الصفوف ؟

وسمع اسمه فجأة على لسان « كمال أدهم » وهو يكلم زهران  
فى التليفون ناظرا اليه بابتسامة •

- يحيى البدرى ؟ كويس •• قاعد جنبى أهه •• عايز تشوفه ؟  
( واتسعت ابتسامته ) وهو كمان عايز يشوفك • احمد زهران بيسلم  
عليك يا يحيى •

بشعور من الاعتزاز ، والثقة بالنفس ، تناول يحيى السماعة  
من كمال ••

— أهلا يا أحمد • ازيك ••

— ايه ياعم يحيى • خلاص ؟ ولا حتى صوتك ماعدش حد  
بيسمعه ••

— الشغل بقى ياعم أحمد ( وضحك فى سخرية ) ذلك خير  
وأبقى •

— أبقى من ايه ؟

— هو عاد لنا غيره ياعم أحمد •• البركة فيكم انتم بقى •

— ايد لوحدها ماتسقفش يا يحيى • وبالذات اليومين دول •

ماذا يقصد ؟ اكشف عن أوراقك بوضوح يا أحمد •• التجمع  
الثورى هو ما تقصد • أليس كذلك ؟ وضربتك ذات يوم لوحدتنا  
حتى أصبحنا شتاتنا متناثرين ؟ انه التجمع الثورى ما تنادى به اليوم  
أنت ومصطفى سيف • تكفير عن الجريمة •• ؟ لا • بل استمرار  
لها !

أمسك نفسه ••

— على كل حال يا أحمد أحب أشوفك • أنت مش جاي بكرة  
تشوف كمال • حاكون موجود أن شاء الله • الى اللقاء •

وضع السماعه • التقت عيناه بعيني كمال أدهم • كان الرجل  
شاردا ومبتسما فى الوقت نفسه •

— عجيب يا أخى أحمد زهران ده •

— عجيب فى ايه ؟

وضحك كمال أدهم فجأة ضحكة صغيرة لطيفة :

كل ما أشوفه أو أسمع صوته ، أفكر كلمة قالها عنه مرة  
مصطفى سيف : أحمد زهران ده حيوان سياسى ، بياكل سياسة .  
بيشرب سياسة ، بيتفصح سياسة ، بينام سياسة • ( وضحك )  
بيتهياى أنه بيمارس الجنس كمان مع مراته سياسة •

وضحك يحيى البدرى عاليا للنتكة ، وقال ماضيا فى خلق جو  
سعيد •

– عايز أعرف الجنس يبقى ازاي ، لما الراجل يمارسه بشكل  
سياسى ••

قال أدهم ضاحكا :

– تكتيك بقى واستراتيجية •

– يعنى على مراحل • وجايز على ما يوصل للهدف النهائى ،  
يكون قلبه انقطع •

ضحك الاثنان ، من القلب فى سعادة • غير أن كمال أدهم لم  
يلبث أن قال مستدركا ، كأنما ليمسح أى اهانة ربما تكون قد لحقت  
بصديقه الغائب •

– انما على فكرة ، زهران ده لسه جامد • ولو أن الفترات  
اللى قضاها فى السجن تعبت صحته تمام ( وهز رأسه ) أجمل ما فيه  
اخلاصه لعقيدته ، وعشان كده الواحد بيعس نحوه بالاحترام •

\*\*\*

أحس يحيى البدرى ، كما لو أن كمال أدهم يطعنه • يقول له  
بشكل غير مباشر : أما أنت فغير مخلص لعقيدتك • كانت نزوة منك  
وانتهت • لست رجل الكفاح • وامتلات نفسه بالرغبة فى الهجوم  
على زهران • يقول له الجريمة التى ارتكبها هذا المخلص لعقيدته ،  
والتى يريد أن يدارى عليها اليوم باسم التجمع الثورى : ألم يكن من

أول المنادين بحل الحزب ؟ نعم جريمة وتستحق المحاكمة • المحاكمة  
التي تطالبين بها يا عزة • هذا متهم جديد لحكمتك التي تدعين إليها !

غير أنه قاوم انفعاله بشدة • وطبيت نكرى « عزة » من  
خوابه ، ليس هذا هو وقت الهجوم ، فالرجل غير موجود • سوف  
يأتى الوقت • فضلا عن أن اللحظة سعيدة وجميلة • ويجب أن تبقى  
جميلة وسعيدة •

— اسمع يا أبو كمال • احنا نسيينا من السياسة دلوقت • خلينا  
هنا ( وإشار على النافذة المطلة على العنبر ) فى الشغل •  
وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة لكمال ، وهب من جلسته  
واقفا وبحماس :

— حانزل شوية مع العمال • أمر • مش عايز إى حاجة •  
— لا • شكرا • ( وامتدت يداه من جديد الى الأوراق )  
— ويمكن أوصل لغاية المصبغة • أطمئن أن القماش جاى لنا  
بكثرة فى ميعاده •

— يبقى جميل جدا يا يحيى • عشان نسلمه لصلاح عبد الهادى  
فى نفس اليوم ، ان أمكن •

— ضرورى ان شاء الله ••

ومرة أخرى ، التقيا فى نظرة •• وابتسامة •  
لم يعد ، بعدما حدث ، ثمة كلام يقال ••  
بدأت مرحلة العمل •

\* \* \*



فى ذلك اليوم ، بدأ المصنع كأنما أخذ كل شىء فىه شحنة  
جديدة من الحياة •

كانت هذه أول مرة — بعد عام المحنة — يجتمع الاثنان معا فى  
المصنع ، كمال أدهم ويحيى البدرى ، فى مثل تلك الساعة المبكرة  
من الصباح •

وكان وصول كمال أدهم بالذات ، مبكرا هكذا ، قد أحدث بين  
العمال جوا من الحماس والاستبشار ، وأخذ كل منهم موقعه ، على  
الفور ، أمام نوله ، يقظا لعمله ، آملا أن يراه كمال أدهم ، ويعرف  
كم هو مخلص فى العمل •

وكان هناك ، بالنسبة للعمال أيضا ، شىء آخر يستحق الانتباه،  
كان لهم بعض مطالب قديمة ، غير أنهم أجلوها طوال عام المحنة ،  
وحتى بعد أن نجحت العملية ، قدروا أن الانسانية ، فضلا عن الواقع  
العملى ، تتطلب منهم ألا يتقدموا للرجل بأى مطالب ، حتى يخرج  
من جو المحنة ، ويلم شتات نفسه ، ويتعرف على السوق كيف يجرى  
ويبدأ فى ترتيب المصنع من جديد •

لم يأن بعد أوان المطالبة !

أما يحيى البدرى ، فكان يجوب فى ممرات العنبر ، بين الأنوال،  
يوزع البسمات لكل العمال ، عازفا عن أى كلام • كان يتخيل المصنع  
على الصورة الجديدة : الأنوال وقد ركب عليها جميعا أجهزة الدوبى،  
والأقمشة السادة ، أصبحت منقوشة ، ومع النقوش ، رأى وجه  
عزة ، وتخيلها وقد ارتدت من أول « توب » منقوش ينتجه المصنع  
فى عهده الجديد ، وصفق قلبه بالفرح • وتذكر فستانها التيركواز  
الذى رآها به ليلة الأمس • أى نقشة تناسب اللون التيركواز ،  
وتناسبها هى بالذات • واسترجع وجهها الأبيض لحظة الغروب ،

وهى تفتتح البوابة ، وفى ضوء الكهرباء حين أضاءت الأم النور ،  
وفى ضوء القمر على السطح ، لحظة النقاش حول المسرحية •

أى نقشة تناسب غزة ؟ واصطدم بعامل من العمال كان يمر ،  
فضحك له وقال مثنبها لنفسه ، وهو يهز رأسه :

« ما الذى جرى لك يا يحيى • هل أنت داخل على مشروع حب »  
أم مشروع « دوى » ؟؟ عيب يا يحيى • أعقل • لا تترك الخيال يجرى  
بك ، كفاك ما جرى لك ، انتهى عهد العواطف ، وبدأ عهد العمل •  
وتذكر أن أمامه مشوارا فى السوق بعد قليل •

وأحس بالرغبة فى أن يكون فى هذه اللحظة خارج المصنع ،  
أحس بحنين لأن يكون فى قلب الشوارع ، ( وحانت منه نظرة الى  
حجرة كمال أدهم • وتخيله جالسا الى المكتب يعمل ، وأحس بالطمأنينة  
•• من قال ان عودة الرجل الى المصنع تلغى وجودى •• بالعكس ••  
أستطيع الآن أن أتنفس • أحيا • أرى وجه الحياة • وعادته أطياف  
من سهرة الأمس ، فاختلج فرحا وأملا ••

صعد بخطوات مسرعة الى كمال أدهم ، وأبلغه أنه خارج •

وخرج ••

\* \* \*

بعد نصف ساعة على الأكثر كان يحيى البدرى قد انتهى من  
مشواره • اطمأن على أن القماش المصبوغ سيذهب الى المصنع غدا  
فى الموعد المحدد • وفكر أن يعود الى المصنع ويطمئن كمال أدهم ،  
لكنه هز كتفيه وقال ، وعلام الاستعجال ؟ أتمشى بعض الوقت فى

الشوارع • أوحشنى المشى فى الشوارع • وبدأ يمشى ( تنهد ) منذ متى لم أحس بهذه الحرية والطمأنينة • عامان تقريبا ، وأنا فى سجن المصنع خوفا عليه من الانهيار • حتى أيام الاجازات ، كان المصنع فى رأسى وأنا ماشى وأنا نائم • الآن ، أستحق أن أستريح • امشى فى الشوارع وأقزقز لبا ، وأغنى •• و •• وأتفرج على هؤلاء البنات •• والنساء الجميلات • ( وندت عنه زفرة ) الى متى يا يحيى ستظل هكذا وحيدا ، شريدا ، بلا زواج ؟ وارتسم له وجه « عزة » • وفى هذه المرة استسلم للحطيف •• ليس هناك رقباء •

ما حكايتك يا يحيى مع هذه البنت • ايمكن أن تكون حقا قد طببت فى الحب • من ليلة ؟ بل من سهرة ؟ ( وعاودته بهجة الأمس ) كانت ليلة ولا كل الليالى • لم أحكها بالكامل لكمال أدهم • كذبت عليه • كان لابد أن أكذب • يسمونه كذبا أبيض • والا هل كان بإمكانى أن أحكى له عما دار من مناقشات حول المسرحية ؟!

وتذكر الصدمة التى رآها يحيى على وجهها ، لحظة نطقه باسم كمال أدهم أمامها • وبريق الثورة والتحدى فى عينيها ، حين اعترضت بشدة على تغيير العنوان ، ومطالبتها بعقد محاكمة بين البشر •

ورأها يحيى البدرى لاتزال تسير نحو كمال أدهم خفية فى خط الانتقام : اذن ما الذى فعلته فى مهمتك معك يا يحيى البدرى من أجل الرجل ، لم تزد على أن فجرت المعركة • واشعلت النار التى كادت توشك على الخمود ، لتأكل فى النفوس من جديد •

وعاوده صوتها ، فى مواجهة « هالة » ، حاسما متحديا « أنا باعترض على تغيير العنوان • أنا مستعدة للنقاش » •

وخاطبها فى سره متحديا ، وهو يمشى بلا شعور : وأنا أيضا  
يا عزة ، مستعد للنقاش !

وتدفقت فى عروقه الدماء • وأحس فى كيانه بطاقة تريد أن  
تتفجر ••

أين يمكن أن يجدها الإنسان فى وقت كهذا ؟ ( ونظر فى ساعة  
يده ) الواحدة والنصف •

فى البيت ؟

وسطعت أمامه فجأة صورة • رأى عزة خارجة من الكلية ،  
وتمشى لتركب الأتوبيس ، ورأى نفسه يقابلها فى الطريق •

وسخنت الفكرة فى رأسه •

« نعم • لم لا • جائز • كل شيء فى هذا العالم جائز حدوثه •  
لن أخسر شيئا • أجرب حظى • ربما •

وليسه شيطان الحماس ، انبثقت فيه روح المغامر القديم ••  
ركب تاكسيا ••

— كوبرى أبو العلا ياريس ، أول الزمالك •

وانطلق الى الكلية ••

\*\*\*

على اقرب محطة أتوبيس ، وقف يحيى البدرى يرقب الطريق  
الجانبى الموصل الى الكلية • ومن حسن الحظ أن المحطة كانت دائبة  
الحركة باستمرار • موعد من مواعيد الزحام حول الأتوبيسات ••  
لا أحد يشعر بأحد • الكل همهم أن يخوضوا معركة الصعود ومعركة

النزول • هذا وقت طيب للقاء • لو يضرب القدر ضربته وتأتى •  
أو ربما أصبحت تلزم البيت تستذكر الأيام الباقية على الامتحان •  
على كل حال ، لن أنتظر أكثر من ساعة ، ان لم تظهر خلالها ، أعود  
فورا الى المصنع « و لامن شاف ولا من درى » •

غير أنه أحس فجأة بقلبه يدق بسرعة ، وكأنما ذهب أنفاسه •  
القدر يضرب ضربته الجميلة • لا • ليست ضربة ، إنما هى  
هدية ••

وغالب انفعاله •

كانت عزة واقفة على الرصيف الآخر ، تنتظر مرور سيل من  
السيارات ، لتعبر الطريق ••

تحرك يا يحيى بسرعة • اقفز الى الرصيف الأوسط • وامرق  
من بين العربات •

لاتزال واقفة • لايزال سيل العربات • انها وحدها ، ليس معها  
غير حقيبتها ، ومسطرة رسم كبيرة • يالللحظ السعيد • يالللحظة  
الدقيقة المثقنة يا يحيى البدرى •

لا • بل قل هو الهام وأحاساس لا غير • يبدو أن لى قدرا مع  
هذه البنت ••

وما ان توقف سيل العربات ، حتى أسرع فى اتجاهها ، كانت  
عزة ، بالكاد تهبط بقدميها من على الرصيف لتعبر الشارع ، حين  
فوجئت بيحيى البدرى أمامها ، ومن وقع المفاجأة ، وجدت نفسها  
تتراجع نفس الخطوة ، لتقف ثابتة على الرصيف • هل هذا هو فعلا  
« يحيى البدرى » ذلك الفتى الذى لم تره فى حياتها غير مرة واحدة ،  
ليلة الأمس ، فى البيت •• !؟

- وابتسم لها ، منحنيا برأسه •
- يحيى البدرى • اذا كنت حضرتك لسه فاكرة ••
- وغمغمت فى حياء • وارتسم على وجهها ظلال فرحة بعيدة ،  
• تختلط بنظرة قلق الى حركة الشارع ، والناس ، والضجيج •
- آه طبعا •• طبعا •• فاكرة • أهلا وسهلا •
- قال مفسرا لها اللقاء ، راجيا منها – بعينيه – القبول •
- الحقيقة أنا كنت واقف على المحطة اللى هناك دى ، وبعدين  
• فجأة شفتك • ماصدقتش عينى للحظة • وبعدين قلت فرصة •
- أهلا وسهلا ••
- ممكن نسلم ؟
- وضحك ، طالبا منها بعينيه المغفرة •
- مدت له يدها باضطراب •• وسلمت ، ثم سحبت يدها بسرعة ،  
• وحانت منها نظرة الى محطة الأتوبيس •
- مامعنى هذا • أيمكن ان ينتهى اللقاء عند هذا الحد • مستحيل •
- ماذا يقول اذن ؟
- كيف يبدأ ؟
- وازاى ماما ••
- كويسة الحمد لله ••
- والأستاذ شوقى ، والأنسة هالة ••
- كويسين بخير ••

وثنتهدت . فتنهد هو الآخر ، رغمًا عنه . وضحك لمنسود  
التنهيدتين فى وقت واحد . تشجع وبحركة مساعدة من كفيه :

— الحقيقة يا آنسة عزة ، انا عايز اعترف لك بحاجة .

نظرت اليه بعينيها الواسعتين العسليتين فى فضول :

— المقاتلة دى فى الحقيقة شش صدفة « انا اللى متعمدها .  
حسيت انى عايز لشوفك . . . قلت أجرب جظى . .

تضاربت على وجهها المشاعر والمعانى . قناع الجمود يكشف  
— للحظات خاطفة — عن حنين فى القلب عميق . القناع يعود . .  
عيناها تتساءلان : ولماذا تريد أن تزانى .

وبابتسامة راجية :

— عايز اتكلم معاك فى مومخوخ مهم . . اذا سمحت .

يموج فى عينيها شعاع . . .

شئ ما اضطرب فى أعماقها . مهما يكن الأمر فهى لاتزال  
فى سن العذارى . والقلب المثقل بالحزن يهفو للمحظة فرح ، وأوحى  
لها حماسه ، ولهفة ورجاء نظراته ، بمنظر الفتى المحب الولهان الذى  
ما كاد أن يراها مرة واحدة ، حتى سقط صريع الحب . حبها . .  
كثيرا ما حلمت بهذا المنظر . فارس الأحلام الذى يقابلها فى الطريق  
ذات مرة ويقول لها : « هى أنت . هى أنت يا عزة .

وكان يحيى لطيف الشكل . ومن أعماقه مرح بالطبع . وبدأ  
واثقا أنها لن ترد له طلبه . لن يحدث شئ اذا سارت معه قليلا  
واستمعت اليه . . ما هو هذا الموضوع الهام ؟

ونغمغت : اتفضل .

وقال مبتسما ، وهو يشير الى جنون الصخب الذى يملأ  
الشارع ..

— واحنا وافقين كده على الرصيف ؟ نمشى شوية اذا أمكن ،  
مش حاطلك كتير ..

هزت رأسها موافقة • واتجهت بعينيهما ناحية نهر النيل • على  
الكورنيش • الضفة الغربية القريبة • ضفة بطبيعتها هادئة الحركة •  
وتحركات خطواتها ، فتحرك بجوارها ، كانت دماؤه ترقص • •  
يا أضواء العالم • يا صيف الأفراح • يا دنيا بهيجة •

كانت تسير بجواره ، مطرقة الرأس حاملة ادواتها فى يدها ،  
ورآها رقيقة وادعة كالحمامة • وفكر أن يمد يده ويحمل عنها  
الحقيبة • يخفف الحمل عنها • • لكنه أحجم • كل شيء فى هذه  
اللحظة يجب أن يكون بحساب يا يحيى • انها البداية • • كيف ستدخل  
على الموضوع ؟ لو كان هذا اللقاء بلا مشاكل ولا قضايا • وتذكر  
كمال أدهم • والقلب الجديد • نقطة الانطلاق • قلب أبيها • تذكر  
الصراع • وانتابته رعدة • لا • ليس موضوع اللحظة • على الأقل  
ليس البداية • ما البداية • لابد من كلام وبسرعة يا يحيى ، قبل أن  
تصلا الى الكورنيش • •

كان عبور الكورنيش فى تلك الساعة مشكلة • سيل العربات  
المجنون من الاتجاهين ينهمر • واختيار لحظة العبور تحتاج يقظة •  
والا فحوادث المرور فى المدينة كثيرة • واللحظة جميلة ، هناك هدف  
أمام الاثنين ، أن يعبرا الضفة الأخرى ، ويصلا الى الطريق المديد  
الهادئ •

— هوب ، بسرعة يا آنسة عزة ، دى لحظة مناسبة • وبلا  
شعور ، أمسك بيدها ، خوفا عليها ، وقفز بها جريا وفى لحظة كانا



فى الجانب الآخر • وقفنا لحظة فى ضمت • كان قلبها يدق : واحسث  
بيدها فى يده • كيف حدث هذا • وسرت فى جسدها رجفة رقيقة •

انفكت يداهما فى هدوء ، وقد بدت عليها الدهشة ، وحانت  
منها اليه نظرة ، كان وجهه يضحك سعيدا وقال :

– كان لازم كده ، والا كنا فضلنا واقفين فى الجنون ده  
ساعة •

وابتسمت له ابتسامة شكر : فعلا •

وانحرفت الى اليسار فى هدوء ، وبدأ السير على الكورنيش •

عاد الصمت • وبدت خطواتها بطيئة • واحس يحيى البدرى  
لابد من كلام • الموضوع الهام • جاءت معك يا يحيى على هذا  
الأساس ، كن عمليا مع البنت • ولكن ، ماهو الموضوع الهام ، فليترك  
نفسه يتكلم • لابد أن يتكلم ، فليبدأ • من بعيد ، وندت – رغما عنه –  
زفرة باسمه :

– الحقيقة ليلة امبارح كانت فى غاية الجمال • انا متشكر  
جدا على المشاعر الطيبة اللى حسيت بها فى وسطكم •

واضطربت فى حياء ، وبهزة من رأسها •

– لا • أبدا • يعنى •

– حقيقى يا آنسة عزة • صحيح دى كانت أول مرة أقعد فيها  
معاكم • انما كنت حاسس أنى قعدت معاكم قبل كده كثير •

شع وجهها بابتسامة ود ••

وواصل متشجعا : تركت فى نفسى أثر كبير • خصوصا المفاجأة  
الكبيرة •

— مفاجأة .. مفاجأة إليه ؟

وابتسم : انت .

— انا ؟

طبعاً . الحقيقة كنت فاكرك مجرد انسانة عادية . زى أى بنت  
من البنات . انما لقيتك بتاخدى المسائل بعق .

نظرت فى عينيه : اية مسائل ؟

وارتبك لحظة أمام نظراتها . وبدأ انه غير قادر على الرد .  
لا يا يحيى ، حذار أن تهتز أمام البنت . أن يقلت، منك المخطط كما أفلت  
من كمال أدهم . ادخل فوراً فى الموضوع ، وابتسم :

— الجحيم فى الأرض . أم « يجيا للبشر » ؟ هو ده الموضوع  
اللى مايز اتناقش معاك فيه .

وفوجيء بلامح وجهها تريد ، وتشيح بوجهها عنه .

## - ٢٧ -

وبرغم أن يحيى البدرى كان متوقعا لرد الفعل هذا ، الا انه  
احس بقلبه يهبط ، اذ رأى الوجه الأبيض المتفتح الحالم ، والذي  
كان منذ لحظة يضحك حين كانت اليد فى اليد ، ويعبر ان جريا ،  
ينقلب هكذا بسرعة ، وتتصلب تعبيراته .

ويرق فى ذهنه على الفور ، منظرها فى الشرفة ليلة الأمس ،  
لحظة سماعها لاسم كمال أدهم ، وهو يبلغ شوقى بموعده مع مصطفى  
سيف . فهل يعنى هذا أن كلمة « الجحيم فى الأرض » أصبحت تعنى  
فى نفسها كفال أدهم ؟

شىء رهيب. حقا . . يالها من بداية شائكة ومعقدة . فلنعد كما  
كننا ، لو أمكن . .

انضج - قاتلا بكل روحه - ليمحو الأثر :

- أنا آسف جدا يا آنسة عزة آسف اذا كنت سببت لك اى  
ازعاج • انما ( وبدا مرتبكا ، وابقسم ) أنا • مش عارف ايتدى  
ازاى ••

هدا تعبير وجهها قليلا ، ومضت ناظرة خلف ذلك الشئ  
المجهول عبر النيل •

•• وواصل

- أنا فى الحقيقة لما جيت عشان اشوفك ، واتكلم معاك ، كان  
فى ذهنى عزة بتاعة امبارح • اللى فاتحة قلبها لكل شئ ، وبينناقش  
الأمور ، بموضوعية وشجاعة •

استدأرت اليه فى هدوء ، ونظرت فى عينيه فى ثبات وشموخ ،  
كأنما تؤكد له انها - رغما عنه - شجاعة ، ومتحدية • تتحداه هو  
نفسه ••

قال مبتسما ، معلنا انسحابه بشكل لطيف - انما الظاهر انى  
اخترت ميعاد مش مناسب • ( وأشار الى قرص الشمس المتوهج فى  
صدر السماء ، ولامس الهواء بكفه كأنما يتحسس سخونته ) وقال  
ضاحكا من نفسه : مش معقول صحيح ، فى الجو ده ، والحر ده ،  
آجى اكلمك عن الجحيم فى الأرض •

ونظر اليها ، ممينا النفس أن ترد بشئ • ولو كلمة •

حل الصمت • كانت ضجة حركة المرور فى الخلف ، دائرة  
كالطين • ظلت ماضية فى سيرها على مهل • فى اتجاه الحدائق •  
وبدا على خطواتها الرضا بأنها تسير ، وقال يحيى فى نفسه « يكفى  
هذا ، فلنظل سائرين • المهم أن يظل الرضا • وأن تكون بجانبى ••  
واحس بنشوة لوجوده • واخذ نظرة من الدنيا حوله : مجرى النهر  
والمراكب والنخيل والكبارى والناس والمبانى • وهج الظهيرة • منذ

متى ياقلب لم تتفتح لهذا الوجود • منذ متى لم تر هذا الضياء •  
كل ما فى الدنيا يدعرك للعناق ••

أى جحيم فى الأرض هذا الذى جئت أتكلم معها فيه ؟ حقا أنا  
سخيف • أنا رجل قفل • ( وتنهى ) لو كان الأمر متروكا لى لحملتها  
حملا ، بحملها الخفيف ، وقبلتها بعنف : هذا الوجه • هذا الأنف •  
وهذا الشعر الأسود المتهدل على الكتفين ، أو ، لانطلقنا جريا الى  
الحديقة ، حديقة النهر،والقينا بجسدنا على العشب،نتمرغ ونتناغى،  
ونضحك ونضحك • نغسل الحزن ، نفجر المخزون •• و ••

وانتبه من حلمه • لاحظ فجأة ، أن خطواتها بدأت تضيق ،  
وتتباطأ • اعلان بقرب النهاية • اللحظة المتوهجة الجميلة توشك  
على الانطفاء •• تكلم يايحى وبسرعة •• أى كلام •• قم بأى  
تصرف ••

وبحركة لارادية ، امتدت يده الى حقيبتها ومسطرتها الطويلة :  
- تسمحيلى أشيل عنك شوية ••

تشبثت بأشياءها بطريقة حاسمة ، لكنها مهذبة •  
- مرسى ( ونظرت فى ساعة يدها ) أروح بقى •

- تروحي ؟!

قالها كمن أصيب بصدمة كبرى ، مستنكرا :

- بسرعة كده • مش معقول • أنا لسه ما تكلمتش معاك • فى  
الموضوع اللى أنا جايك علشان ••

- موضوع إيه ؟!

قال مندفعاً قاطعاً دأبر أى تردد، فى نفسه :

— كمال أدهم .

توقفت عن السير . عيناها فى عينيه . كانت تجاهد لكى تبقى  
شامخة قوية . .

واسرع يحيى : الحقيقة أنا عايز أسالك سؤال . وأرجوك  
تجاوبينى عليه، بصراحة . . ليه أخذت الموقف ده من كمال أدهم ، يوم  
ما زاركم فى البيت ؟

— موقف إيه ؟

— الاتهام . .

ويهدوء شديد . : أى اتهام ؟ أنا ما اتكلمتش معاه ولا كلمة . .

— وهو ده أقطع شكل من أشكال الاتهام يا آنسة عزة انك  
ترفضى انسان . وهو ده اللى شاعر به كمال أدهم . كمال أدهم  
ما بينامش الليل ، من يوم ما كان عندكم . بيعانى معاناة فظيعة ،  
الاحساس بالذنب ماله . لدرجة انه يمسك قلبه ويقول : لو كنت  
أقدر أخرج القلب ده وأعطيه لعزة ، كنت عطيقولها ، فى سبيل أنها  
تكون راضية . وأموت أنا مستريح . .

ورأى وجهها يشحب ، ونظرات عينها تهتز وبدت كأنها تقاوم  
لكى تثبت قدميها فى الأرض ، كأنها أخذها دوار ، وتوشك على  
السقوط .

وفزع . لكنها خطت الى الخلف خطوة ، راسستدت على  
الكورنيش . ثم جلست . اغمضت عينها للحظة وحين فتحتها ،  
كانت تبكى . بلا صوت . .

امتز لمنظرها . غير انه قاوم . فليمض فى الخطر .

– شوفي يا آنسة عزة • أنا مقدر شعورك جدا • وباحترم جدا  
فيك هذا الوفاء • ومش باحترمه بس ، باحبه كـمـسان ، وباطالبك  
بالاستمرار فيه • لكن عشان تفضلى مستمرة فى الوفاء لباباك ،  
لازم تفضلى وفية لقلبه • قلبه اللى بينبض – جوزه جسم انسان تانى •  
اعتبرى كمال ادهم مجرد جسم • هيكل • كل وظيفته أنه يحافظ لك  
على قلب أبوك • ومع ذلك ، صدقيني ، كمال ادهم مش مجرد هيكل •  
!الاستاذ كمال انسان طيب • وجنون • ونفسيته كبيرة • وعنده أمل  
كبير أنك تقبليه • أرجوك يا آنسة عزة !

قالت بما يشبه الصراخ ، أرجوك انت • كفاية • مش عايزة  
كلام فى الموضوع ده ( وازدادت نوبة بكائها ) أنا باتعذب • باتعذب •  
قال بكل ذرات نفسه :

– وأنا واثق من الحقيقة دى • وعشان كده. باكلملك • لازم.  
تنظري للموضوع نظرة ثانية خالصن • اللى حصل ده معجزة يا آنسة  
عزة •• يكفى ان العلم. انقذ اعظم حاجة فى أبوك ، انقذها من الموت ،  
وفى نفس الوقت خلاها سبب فى حياة انسان تانى ••

دى معجزة فعلا يا عزة • ولانم تستمر المعجزة وانت اول  
انسان مسئولة عنها • قلب أبوك فى خطر يا عزة ••  
– خطر ؟ •• خطر ايه ؟

– لو استمر كمال ادهم على الحالة اللى هو فيها دى ، على  
العذاب اللى بيتعذبه من جواه ، حيجراله حاجة • ممكن يموت ••  
ويموت معاه القلب الجديد •

وارتعش وجهها ، مستكرة الصورة • وبدا أنها تتمزق ودموعها  
لا تكف • أما يحيى البدرى ، فكان يمارس سعادة وجشية • أنه ماض  
فى الانتصار ••

ـ ومش بس كده يا عزة • فيه وحوش عايزين ياكلوه ••

ونظرت اليه ، باستغراب • منزعة •

ـ فيه قوى سياسية فى البلد عايزة تستولى عليه • تاخذ المعجزة وتستغلها لمصلحتها الشخصية • دول فعلا بدعوا يتعاركوا عليه • ولازم نقف جنبه • نحميه • نحميه حتى من نفسه !

وبدا فى عينها انه يتكلم الغازا • انها لا تفهم • وتريد ان تفهم •

ـ أنت عارفة طبعا ان فيه انتخابات اليومين دول ، وفيه قوى سياسية بتتصارح • كل قوة منها عايزة تاخذ كمال ادهم لنفسها • أيوه يا عزة • ماتستغربيش •• لازم تعرفى القلب ده بيمثل ايه دلوقت • ده القلب الجديد • اللى بيمثل انتصارنا بعد النكسة •• ده الانتصار الحقيقى لبلدنا • الانتصار فى العلم • مش الانتصار فى الحرب •• المعجزة دى عايزة حماية يا عزة عشان تستمر • مش ممكن نسيبها تموت من الحزن او تأكلها الوحوش •

ورآها تضع كفها على جبهتها ، وتغمض عينها ، وبدت من حركة جسمها انها تشعر بدوار ، وانها على وشك السقوط ، وفزع يحيى • استعد بذراعيه لكى يلقاها لو حدث • لكنها كانت تقاوم وفجأة أجهشت مرة أخرى بالبكاء • وكل جسدها يهتز ، وبدت مسكينة وضعيفة ، وانها لا تدري من أمرها أى شىء • وكان احساس يحيى ، برغم الامتزازة التى حدثت له من بكائها ، انه اكد انتصاره ، وانه نجح خير نجاح فى الدفاع عن قضيته •

الى هذا الحد وكفى يا يحيى • بعد هذا تصبح وحشاً من الوحوش •



كانت لاتزال تبكى فى هدوء :

ورأى دموعها تنزل قطرات على خديها ، وتسيل •

آه يا عزة ، لو تفسليننى بهذه الدموع ( وارتجف قلبه )  
لا تظنينى بالقوة التى اكلمك بها ، انما أنا فى الحقيقة مسكين • مليء  
بالحزن مثلك ، لو احكى لك احزائى • لو تتركينى أبكى لك مثلما  
تبيكين لى ، وبدموعى الحبيسة من زمن طويل اغسل حزنك •

وتنبه الى أنه على وشك البكاء فعلا • لا • نحن فى الشارع •  
( وزفر ) •

- كفاية بقى يا آنسة عزة ، أرجوك : لازم تكون دى آخر  
دموع ، ونبتدى من جديد • كلنا نبتدى من جديد • ننسى الحزن  
شوية ، ( وتقلص وجهه حزنا ) العالم مش ناقص حزن أبدا ، العالم  
عايز يخف منه الحزن شوية • احنا حزنا كثير ( وابتم لها فى  
مرارة ) أنا لو احكيك عن الصدمات اللى أخذتها فى حياتى ،  
حتقوليلى أنت ازاي لسه عايش لغاية دلوقت ، صدمات لا تعد ولا  
تحصى •

( ورأى فى عينيها تساؤل )

يعنى لو سالتينى أنا ايه دلوقت ، حاقول لك : أنا ولا حاجة ،  
( وزفر ) جامعة وسبتها وماكملتش • كفاح سياسى وانسجنت وخرجت  
ولا حاجة • خطيبتى ، وأنا فى السجن ، سابتنى واتجوزت غيرى •

كانت ابتسامته الساخرة المرة قد تلاشت • واكتسى وجهه بحزن  
عميق ، وبدأ فجأة من وقفته أنه أصبح يخجل من نفسه أمامها ، بعد  
أن عرى نفسه ، ولم يبق شىء !

أجل • من أنا ؟ حتى تحبيننى • (ونظر الى حقيبتها ومسطرتها)  
ويكون لى حق الأمل ؟

أطرق برأسه فى اكتئاب ، وحين رفع عينيه اليها ، وجدها تنظر اليه ، تتأمله ، وخيل له أنها تبتسم له فى تعاطف ، انما عيناها كانتا مغطأتين بطبقة من الدموع . هاهى تنظر اليه وتبكي من جديد ، بكاؤها هذه المرة من نوع آخر . هل يمكن أن تكون قد مسستها أحزاني ؟

وعاودته الثقة بالنفس ، قال مواضلا كلامه :

— ومع هذا ، قاومت ياعزة ، وعايشت ، وعندى أمل .

والثقت نظرتهما ، تجمعت فى عينيها دمعتان كبيرتان سقطتا على خديها ، اندفع ماداً يديه ، كأنما ليتلقى فى كفه الدمعتين . ويرتوى بهما ، هذه الدموع لا يصح أن تمسح . ليس هناك كنز فى الدنيا أجمل من قطرات الدموع ، لو أشرب هذه الدموع .

ولكننا فى الطريق العام ياعزة . الناس يمرون بين الحين والحين ، وينظرون . يجب فعلاً أن تكفى عن البكاء . البكاء من أجلنى ومن أجلك ، اغتسل القلب بما فيه الكفاية . هات دموعك فى منديلنى .

وأخرج منديل من جيبه ، وقدمه لها فى هدوء .

كانت يده ترتعش بالمدى ، وتناولته فى هدوء ، ونظرت اليه ، من وراء الدموع . وفوجئت فى عينيها بدموع بعيدة . ولم تصدق : هل يبكى ؟

وفجأة ، وجدته يبكى فعلاً ، وأصبحا ينظران الى بعضهما من خلال الدموع .

ولم تقو على الانفعال ، لم تفعل الا انها واضلعت المسير ، وقد ازداد بكاءهما .

وسار بجوارها ، دموعه تسقط هو الآخر فى هدوء •

الحزن يفصل « هذا النوع من الحزن جميل » ••

الجسد يخف ، والعالم يشف • لو أقفز • لو أضحك • لو  
أصرخ ، لو أبكى بكل ما أملك من صوت ، اشهد يا نهر النيل على  
هذا اليوم ، قد يكون الميلاد الجديد • قد نكون ولدنا معك يا كمال  
يا أدهم من جديد • ستكون هذه هى آخر الدموع •

واستدار لها بابتسامة هادئة ، ماذا لها يده بالمنديل ، كانت  
يده ترتجف • تناوله منه ، وراحت وهى تسير ، تجفف دموعها فى  
هدوء • ثم فى هدوء أيضا • مدت له يدها تعيد اليه المنديل • ونظرت  
اليه • كأنما تقول : ولماذا لم تمسح أنت أيضا دموعك •• ( وابتسم  
•• مسح وجهه بأصابعه ) •

وابتسمت ••

كانت يدها لاتزال معدودة بالمنديل • ومد يده ، لم يأخذ المنديل ،  
بل أمسك بكنها ، وعيناها بطلبان ، الغفران •

عيناك تقولان لك : معك غفرانى •

وتشابكت اليدان فى صمت وواصبلا السير فى هدوء على  
الكورنيش •

## - ٢٨ -

كانت أنوار المدينة بدأت تضيء ، حين ركب كمال أدهم عربته ،  
متجها بها الى حى الأزهر ليقابل صلاح عبد الهادى فى محله ، كما  
اتفقا فى الصباح •

كانت تغمره حالة من الرضا عن النفس ، مخلوطة بسعادة ،  
بل ورغبة فى المرح • وكان يضحك مع نفسه أحيانا بصوت عال وهو  
يقود العربى ، ويقول لنفسه بدهشة واستغراب : كيف حدث كل هذا  
من « يحيى » ؟ ياله من ولد شقى وبارع بل وساحر • يقابلها فى  
الظهر ، ثم فى المساء يكون عندهم فى البيت • الآن هو هناك يقضى  
سهرة أخرى فى ضوء القمر •

هل تتحقق الرؤيا التى رأيتها ذات مرة : يحيى وعزة معا ؟  
يصبح الحب بديلا للاتهام ، تنزاح الأثقال عن النفس ؟ أرى عينى  
« عزة » تضحكان • أرى فيهما البراءة : تنسى وتبدأ الحياة ؟

اشكرك يا يحيى • اشكر شبابك وحيويتك وعبقريتك • كنت تريد

أن تتركنى ايها الرغد اللطيف • أمض يا يحيى فى مهمتك العظيمة •  
لا تهتم بغيرها • عليك أنت الحب ، وعلى أنا العمل • صدقنى  
( ويضحك مع نفسه وعيناه يقططان للطريق ) ومرتبك محفوظ ، بل  
و « المهر » أيضا موجود • اليوم اذا كنت تريد • ولكن تذكر يا ولد  
أنتك سوف تخطبها منى • منى أنا • آه • فانا أبوها • تأتيني  
وتقول وأنت تفرك كفيك فى رجاء وخجل :

— والله ياعمى ، أنا طالب القرب منك فى عزة •  
فأقول لك :

— مفيش مانع يا يحيى • بس بشرط • أنك تخليها أسعد انسانة  
فى الوجود • أنت عارف أنا ماليش أولاد غيرها • طول عمرى من  
غير أولاد ( وتنهد فى اكتئاب ) • لكنه تمادى فى الخيال والعربة  
منطلقة به • ورأى بيت الحزن ينقلب الى بيت للأفراح ، وعزة ويحيى  
فى الكوشة • والزغاريد والأضواء الملونة تملأ الفرائدة والصالاة  
والحديقة ، والأم ، فى ركن بعيد ، تبكى فرحا ، وهو يضمها الى  
صدره • فى حنان : ماتعطيش • مش قلت لك من أول يوم • اعتبريه  
ما ماتش • اعتبريه لسه عايش • والأم رأسها على كتفه ، ماضية  
فى البكاء • غير أن زوجته سناء تطب عليه فجأة ، فى ركنهما البعيد ،  
وترى المنظر فتجرى هاربة وقد روعها ما رأت • تخنق رغبتها فى  
الصراخ • أن تحول الفرح الى ماتم • فيجرى عليها : أفهمينى  
ياسناء •

— عايزنى أفهم ايه • عملت أب • عايز تعمل كمان زوج •  
( وتجري منه لتغيب فى الزحام ) •

وتنبه كمال أدهم الى الصورة وارتعد للحظة • غير انه ضحك  
فجأة عاليا ومقهقها : كيف وصل به الخيال الى هذا الحد • تنتهى

من أزمته مع البنت ، لتدخل فى أزمة أخرى حول الأم • لا يا كمال يا آدم ، حرمان المزاة من رجلها ليس مسئوليتك • أم.هى، رغبتك الدفينة ولا قدرى ؟ لا • لا • والمزاة لا توحى بغير القداسة والاحترام • وكل سعادتها فى الدنيا سعادة أولادها • هذا هو كل شيء • • ( وعأوده التفتح ) 'نذكر أن شوقى سياثيه غدا فى المصنع ، ليذهب به الى مصطفى سيف : بالأمر يا مصطفى • الولد موهوب • واسأل يحيى البدرى الذى كان يقرأ لك قصصك وأنت فى السجن ، أسأله رأييه فيه • لابد أن تنشر له ويسرعة • لا تحتج بأنك مشغول فى الانتخابات ، وفى التجمع الثورى كما تكتب هذه الأيام •

هذا هو العمل الانسانى ، والثورى أيضا فى نفس الوقت • • أن تقدم للمجتمع كاتبا جديدا • • ( وتعاوده صورة الأم ، تبكى من فرط السعادة بولدها الكاتب ) ذلك أعظم رد منا للجميل • أجمل ختام للأزمة • وأبدا صفحة جديدة فى حياتى : الضمير المستريح • النوم الهادئ العميق • مواجهة نظرات الناس بثقة وشجاعة • • لاستبعاد فكرة أن يشترى نظارة غامقة يخفى بها جزءا من وجهه ، القلب الجديد يطمئن الى مكانه • شرعية الحياة والعمل • والضحك والفرح •

والواقع أن كل شيء فى ذلك اليوم • من صباحه حتى مساءه ، كان يشير الى أن جو الاتهام بدأ يخف ويتلاشى بالتدريج ، وأنه بانتهاء الاتهام سوف يبدأ عهد السعادة • انتهت مرحلة التكفير عن الميلاد الجديد ، حتى ولم يكن هناك ، من الأصل ، داع لهذا • ولتبدأ الحياة بلا مشاكل ولا هموم • سحقا للهموم •

ووقف بعربته أمام المحل • ودخل • •

كان صلاح عبد الهادى جالسا على مكتبه ، فى نهاية المحل

بجوار الخزينة ، شاخصا بعينه الواسعتين وحاجبيه الكثيفين يرقب  
حركة المرور فى الشارع من خلال فتحة الباب .

وحين دخل كمال ادهم ، بقامته الضخمة ، مبتسم الوجه ،  
خطواته بنشطة ، خشى من أول لحظة انه ربما تأخر على الرجل . .  
فقد كان وحيدا ، ليس معه غير « أمين المحل » . أما العمال جميعا  
فقد انصرفوا .

— مساء الخير يا حاج . أنا اتاخرت عليك والا ايه ؟

— لا ، ولا تاخير ولا حاجة . لسه العمال ماشيين دلوقت .

ونفض صلاح ، وسلم عليه بحرارة . ثم اشار له بالجلوس .

ورأى كمال فى عينيه نوعا من الشرود ، والصوت فيه رنة حزن  
عميقة . أى مشاكل ياترى تواجهه هذا الرجل الذى يملك عشرات  
بل مئات الألوف . تراه يحمل هما شخصيا فى بيته . فى أولاده .  
أو ربما فى صحته . من يدري . نحن اسنا اصحاب مصانع وتجارا  
فقط . نحن أيضا بشر .

— ايه يا حاج . باين عليك سرحان . سرحان فى ايه ؟

ابتسم صلاح وقال :

— سرحان فيك !

ضحك كمال :

— سرحان فى أنا ؟ مش معقول . فى ايه تسرح فيه ؟

وتنكر كمال ادهم فجأة قلبه الجديد . ايمكن أن يكون هذا هو  
ما يفكر فيه صلاح ؟

غلى أى نحر يمكن أن يفكر فيه ؟

– أقعد ياكمال ٠٠ نشرب فنجان قهوة ، وبعدين نخرج نقعد فى أى حنة ٠٠ .

جلس كمال ٠ أما صلاح ، فقد ترك نهائيا مكتبه وجلس على المقعد المقابل لكمال ٠ جلسة ألفة وصداقة ٠ وطلب من أمين المحل أن يوصى لهما بفنجان من القهوة ٠ وخرجت منه تنهيدة ٠

– والله ياكمال أنا بافكر ، البلد دى رايحه على فين ؟ هل الوضع حيتجمد على كده ، والا فيه تأميمات ثانية لسه جاية ٠ الواحد عايز يستقر على حال ٠ ما هو كده ياكده ٠

اعتدل كمال أدهم فى جلسته ٠ معطيا كل انتباهه ٠ الرجل يفتح موضوعا مهما وخطيرا ٠ وتذكر على الفور مشروعه الجديد الذى كان يتكلم فيه مع « يحيى » فى الصباح ٠ مشروع أجهزة الدوبى الذى استقر على البدء فيه ٠ حقا : ما مصير هذا المشروع ؟

هل يقلع عن التفكير فيه ؟ هل أصبح الطريق مسدودا أمام أحلامه ، كواحد من القطاع الخاص ؟

– لكن بمناسبة ايه الكلام ده يا حاج ؟

قال وقد ارتفع أحجابه الكثيفان بدهشة مستنكرا سؤاله :

بمناسبة ايه ؟ بمناسبة الانتخابات اللى البلد داخلة عليها ياكمال ٠٠ أنت مش هنا ولا ايه ٠ دى فترة تقرير مصير ٠ ولو مادورناش على نفسنا من دلوقت ، اليساريين حيخطفوا كل حاجة ، واحنا نضيع فى الرجلين ٠ لازم ناخذ احنا كمان موقف وبسرعة ٠



على الفور تذكر كمال انهماك صديقيه زهران ومصطفى سيف  
فى تكوين « التجمع الثورى » •

هل بدأ الصراع فعلا ؟!

وتذكر أيضا أن زهران ، قادم اليه فى الغد ، فى مصنعه ،  
وبالتأكيد سيكلمه فى الانتخابات ، على أى نحو سيتكلم معه ؟ لا  
يدرى •• وأحس بنفور تلقائى من أن يكون مرتبطا بشكل ما بهذا  
الصراع • أن يكون على الحياد بقدر الامكان • انه لا ينسى تحية  
مصطفى سيف له فى الجريدة بمناسبة نجاح العملية ، ثم ربطه بين  
نجاح العملية ، ومولد جديد للبلاد • أى ميلاد جديد يامصطفى لو  
كان الأمر سينتهى بتأميمات تقضى على أى حلم لنا فى مشاريع جديدة •  
لنبعد لى حلم فى الحياة غير العمل • أن يكون لى مشروعى الخاص  
العظيم • ذلك نفس تفكير « يحيى البدرى » زميلك القديم •

— موقف ايه اللى ممكن ناخذه ياصلاح ؟

— هو ده اللى أنا كنت سارح فيه وأنت داخل • أنت ممكن  
تقوم بدور كبير وعظيم ياكمال ••

— أنا ؟! دور ايه ؟!

— ترشح نفسك فى الانتخابات ••

من وقع المفاجأة ، أوشك كمال أن يضحك ، لولا لهجة صلاح  
الجادة •

— أنا ؟ أترشح نفسى ؟

— ليه لا • ماتنساش أن اسمك دلوقت معروف • حتاخذ تأييد  
وعطف • وأنت نفسك انسان كويس • وممكن وجودك أنت بالذات

فى قلب المجلس يوضح حاجات كثيرة للمسئولين • ويفهم المسئولين  
القضية على اصولها •

داخل كمال - لا اراديا - نوع من الشعور بالزهر •

- بس انت عارف ياصلاح • انا ما بافهمش اوى فى السياسة •

شوح صلاح بيده :

- يعنى ايه ما بتقهمش فى السياسة • ما انتش فاهم مصالحك  
فين ؟ مستقبل مصنعك ومصانع زمالك فين ؟ هى دى السياسة • • •  
فاهم السياسة ايه يعنى • شوف ياكمال • نتكلم بصراحة أكثر • •  
واحد زى حالاتك • هل حتفضل على ما أنت عليه ، محدود بمصنعك  
ده ومتجمد عليه ؟ مش معقول • لازم بتفكر أنك تكبر مصنعك وتنمية  
بمشاريع جديدة • الطاقة الللى عندك دى حتروح فين ، الا اذا كان  
عندك آمال كبيرة عايز تحققها ؟

اسرع كمال متحمسا وقد تذكر على الفور مشروعه •

- ده حقيقى فعلا • انا النهارده الصبح بس كنت باتكلم مع  
يحيى البدرى على مشروع جديد عايزين ندخل فيه • • •

لمعت عينا صلاح وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة  
ومريرة •

- ازاي بقى ياسيدى تدخل فى مشروع جديد وأنت مش مطمئن  
• • • وأن المسألة على كف عفريت ؟ عشان كده لازم يكون لنا موقف  
يا كمال • مش ممكن نسيبها للشيوخ • • • وأديك بتقرا مقالات  
صاحبك مصطفى سيف عن التجمع الثورى • والناس بتروح ورا  
الصوت العالى • لازم احنا كمان يكون لنا صوتنا • والا حننتهى •  
مش كمستقبل بس ، وحاضر كمان ؟

أحس كمال بأنفاسه تلتاحق ، وبانقباضه تغشى روحه •

– افرض ان المسألة انتهت بتأميم كل المصانع والمحلات ، يكون مصير واحد زى حالاتك ايه • مصنعك اللى أنت ضيعت حياتك عشان تبنيه من العدم • واللى ما جاتلكش أزمة القلب الا من خوفك عليه أيام أزمة العديان •

نسيت لما قفلتم حوالى أسبوعين ••

واسرعت دقات قلب كمال بشكل ملحوظ ، حتى انه خاف على نفسه من ان تتجدد الأزمة • وأوشك أن يقول له : أرجوك • كف عن هذا الموضوع • هذه الأيام السوداء • لا أحب أن يذكرنى بها أحد • لكنه كان يجالد • يجب أن يبقى رجل السوق المتعامل مع هذا القطب الكبير • ثم انه عالم لم يدخل فيه منذ أن خرج من المستشفى واستغرقه الاتهام اياه • وبدا اتهام عزة ، فى تلك اللحظة صغيرا ، بجوار هذا البحر الذى يبدو متلاطما ولا بد أن يسبح فيه بمهارة ، ويصارح ••

وهز رأسه دلالة انه منصت للحديث باهتمام •

وواصل صلاح ، يشحن الجندي الجديد فى المعركة القادمة •

– تعمل ايه يا كمال ، لو صبحت فى يوم ، ولقيتهم لهفوا منك المصنع ؟ مش جايز ؟ تشتغل موظف بعشرين جنيه • ياخدوك ريس على عمال ، ويعطوك ثلاثين جنيه • وياريت على كده وبس • مصنعك ده ، اللى كل طوبة • وكل صامولة فيه معجونة بعرقك ودمك شهر أو شهرين حتلاقيه ياولداه ، راح وانتهى • أنت عارف شوية المكن اللى عندك دول ، لو كانوا مع القطاع العام كان رماهم خردة • حرام ولا مش حرام يا كمال •

وهز كمال رأسه مؤمنا بشدة •

– ده حقيقى فعلا • لأن اللى ماسكين القطاع العام ، مش  
مؤمنين بالعملية •

قال صلاح ، قد بدا على وجهه الامتعاض :

– مش حكاية مؤمنين أو مش مؤمنين • الحكاية أن ما عندهم مش  
خبرة • واللى فيه هم اللى واكليته • وده اللى تاغب اقتصاد البلد •  
مش وجودنا احنا اللى تاغبه • والا ايه ؟ • ما انت فى السوق  
وعارف •

وهز كمال ادهم رأسه هزات متتابعة دون أن ينطق بكلمة • كان  
يفكر بشكل جاد وحاد • ماذا يحدث فعلا لو أن ما يقوله صلاح  
عبد الهادى تحقق • هل يستطيع الآن أن يحيا بدون مصنعه • بدون  
عربيته • بدون شقته الجميلة • يعود مرة أخرى الى زحام الأتوبيسات  
• • • يأتى « عيل » صغير بشهادة ، ويكون رئيسه فى العمل • •

الحقيقة أنا ضد التأميم ، بشكل قاطع • أنا باشوفه عملية  
غير انسانية • .

– لكن فيه غيرك بيشفه قمة الانسانية • وهو ده الصراع  
الحقيقى اللى لازم ندخله دلوقت ياكمال • بمواقف فى قلب المجلس •  
لازم نكون موضوعيين • وماتجرفناش العواطف الشخصية • مصطفى  
سيف • وأحمد زهران أصدقاءك صديق ، لكن أرجوك خليك حذر  
منهم • بالذات اليومين دول •

صديقك النهارده ، بتلاقيه عدوك بكره ، ويبضرب فيك ا

أزعجه الكلام الأخير • ورأى الصورة واضحة بشكل مخيف •  
أحمد زهران ومصطفى سيف ينقلبان عليه ، ويطعنانه ثم يسلبانه  
المصنع ويسلمانه للقطاع العام •

## هل هذا معقول ؟

وأغمض عينيه يبعد الصورة • وواصل صلاح :

— أوع تجرى ورا كلامهم • الناس دول أنا عارفهم كويس •  
شعارات ويس • انما قول لهم طبقوا شعاراتكم دى على نفسكم ••  
حيقولوك أنت ساذج • صحيح ياكمال •

مصطفى اللى أخذ مجده من الكتابة عن العمال وعن الفلاحين  
يقدر يعيش أسبوع واحد زى ما عامل أو فلاح عايش ؟ أقل من ١٥٠  
جنيه فى الشهر مصطفى سيف مايبصرفش • لو يقولوله حنقص  
من ماهيتك ٥٠ جنيه ، ويقضل لك ١٠٠ شوفه حيعمل ايه • حيحارب  
بجنون • وأحمد زهران ، اللى طول عمره فى السجون والمعتقلات ،  
وواخذ على البؤس • شوفه النهارده ساكن بكام ويبصرف كام ••  
ومع ذلك يقول لك التأميم • والاشتراكية • كلام حافظينه • شغلة  
بيعيشوا منها • هى دى الحقيقة •

قال كمال مسرعا ولكن بهدوء ، وبرغبة فى تخفيف الهجوم  
على صديقيه :

— عشان كده ياصلاح ، أنا شايف أن مفيش منهم الخطورة  
اللى أنت متصورها •• دول بقوا مجرد أفراد •• حلوا حزبهم ••  
وأصبحوا ناس عاديين فى وسط الناس •

— هى دى خطورتهم ياكمال • أنهم فى وسط الناس • أفكارهم  
حتى ولو مش مؤمنين بها ، دايرين بها على الناس • والناس  
بيستهويها النوع ده من الأفكار • ومع هذا ، بيحاولوا النهارده يلموا  
نفسهم تحت شعار « التجمع الثورى » • يا استاذ ده فى حقيقته  
حزب • حزب شيوعى • بس عايزين يقولوها بصراحة • وبعدين  
ياخدوا البلد • لو سكتنا فعلا يا كمال حياخدوها • حتصبح نى يوم

تلاقى مصنعك مش بتاعك • وحنا لاقى نفسنا مشردين فى الشوارع •  
لا مستقبل ولا حاضر • دول ما يعرفوش أبوهم •

انقبض كمال للصورة : ومر بخاطره صور لثورات كان يسمع  
عنها أنها لا تبقى أمامها ولا تذر • هل يمكن أن يحدث هذا فى بلدنا  
الآن ؟ أنه مستعد لأن يحارب من أجل مصنعه حتى آخر قطرة فى  
دمه • وأحسن صلاح بانفعاله فواصل •

— عشان كده لازم احنا كمان ناخذ موقف وبسرعة • أنا  
بصراحة بافكر فيك من زمان ياكمال • أنا باعتبرك أمل كبير لنا •  
مش لنا احنا بس • للبلد كمان • أنت ممكن تبقى الصوت الحقيقى  
والصادق والشريف فى المجلس واللى ممكن يتلف حواليه عدد كبير  
من الأعضاء •

ورأى كمال الجدية على وجه صلاح • هذا الرجل ليس من  
النوع الثرثار • انه يضعه فى الموقف ، ويريد رايه • وتذكر أنه هو  
بنفسه ، عقب قراءته لقالة مصطفى سيف عن العملية ، قد تخيل وقد  
رشح نفسه • قال مبتسما بنوع من الخجل :

— والله يا حاج أنا فكرت فعلا • لكن لقيته موضوع كبير •  
وبعدين ، هل حكاية قلبى دى حتساعدنى • دى معركة كبيرة وعايضة  
مجهود •

قال صلاح مندفعاً بدماس :

— أوكد لك أنك مش حتبذل أى مجهود • ما عليك الا أنك تعلن  
ترشيح نفسك :

كمال أدهم عرش نفسه :

انتابه نوع من الزهو ، جاهد أن يخفيه ..

– مش للدرجة دى ياصلاح ..

– واكثر يا كمال • وحكاية القلب دى حتكون عنصر مساعد •  
القلب الجديد لازم يعمل حاجة ياكمال • حاجة كبيرة • دى نعمة  
وربنا وهبها لك •• يجب تستفيد بها ، ونستفيد بها إحنا كمان •  
والبلد كلها تستفيد • وماتحملش هم اى حاجة على الاطلاق ، كلنا  
حنكون معاك • بكل قوتنا ••

ورأى نفسه وقد التف حوله كل التجار • وأصحاب المصانع  
ورعوس الأموال • قوة رهينة مع حكاية القلب الجديد • يمكن فعلا  
أن يكتسح فى الانتخابات • ويدخل المجلس ، ويقف ويقول • ماذا  
يقول ١٩

وخايله فجأة ، وجه عزة ويحيى البدرى ، وشوقى ، والثلاثة  
يتهامسون : ماذا سيقول ؟ ورأى عزة تنظر اليه بثبات : قلب أبى •  
ماذا سيقول ؟ ••

وقاوم اضطرابه •

– طيب افرض ياصلاح انى رشحت نفسى فعلا ووقفت فى وسط  
الناس اتكلم حاقول لهم ايه ؟ أنا المدافع عن العمال والفلاحين ،  
واكذب عشان أنجح وفى الحقيقة أنا مش داخل عشان كده !

بدا الضيق على وجه صلاح • ومع هذا حاول ألا يكون عصبيا •

– اسمع يا كمال • حكاية العمل والفلاحين دى خرافة • ناس  
معينين بيروجوها عشان يفضلوا عايشين عليها • اضرب بنفسى  
المثل : هل أنا ضد العمال اللى بيشتغلوا عندى ؟ أنا عندى موظفين  
بياخدوا اربعين وخمسين جنيه • لو تقول لأى واحد منهم دلوقت :

روحوا القطاع العام ، حيرفضوا • مش عشان الماهية بس ، وعشان مؤمن لهم حياتهم كمان • وانت ياكمال • لما بتنتج ، وبتدخل مع القطاع العام فى منافسة شريفة • مش ده بيطور الانتاج • مش فى مصلحة البلد • فى مصلحة المستهلكين : العمال والفلاحين •

فين التناقض • بالعكس • ده التحالف الطبيعى • احنا اصدق منهم • بنقول تحالف الطبقات فى اطار علاقة انسانية • تدفع البلد اقدام • لكن هم بيقولوا ايه ؟! « التجمع الثورى » فاهم يعنى ايه التجمع الثورى • يعنى اللى مش معاهم خائن وانتهازى ورجعى • ينطرد بره ، خارج الحلقة ويحاربوه • فمين بقى الانسانية اللى عندهم ؟! • دول خطر على البلد • مش خطر علينا احنا بس • لو وقفنا سلبيين حنضيع • وانت اذا كان ربنا كتب لك عمر جديد • • فعلىشان تعمل حاجة • انا باعتبر ده واجب ياكمال ، انت من نفسك لازم تقوم به •

كان كمال ادهم ، يدير كلمات الرجل فى ذهنه • وقد بدت له نظرية تحالف الطبقات معقولة الى حد كبير • ممكن أن يدخل بها فعلا فى الانتخابات • اليس هذا التحالف موجودا بالفعل فى مصنعه ، هو ويحيى • والعمال • ما معنى اذن هذا التجمع الثورى ؟ وتذكر انه غدا سيلتقى بالاثنتين : زهران فى الصباح ، كما اتفقا بالتليفون • ومصطفى سيف فى الليل ليقدم له شوقى الشريف • ليساعده فى النشر •

سيناقشهما فى الموضوع • بل أن احمد زهران قادم هذه المرة ليناقشه فى معركة الانتخابات • لقد شم الرائحة فى التليفون •

وفكر أن يقول لصلاح أنه سيقابل الكتلة الأخرى غدا • • وسيدقنها بهذا المنطق • ولكنه أدرك أن هذا سيزعج صلاح • وصلاح



سند لا يصح أن يضيع • لقد أصبح يمثل جزءا كبيرا من احساسه  
بالأمان فى عالم السوق • ولو أراد تنفيذ مشروع « أجهزة الدوى »  
غدا • فلن يلجأ الا له • وحينذاك سيقول له : ولماذا المشاريع الجديدة  
ياكمال • وكل شيء على كف عفريت • أجل • لادعى لذكر شيء  
عن مقابلات الغد ، وهى قادمة بشكل طبيعى على أية حال • يجب  
أن يبقى الرجل صديقا •

– شوف يا حاج • أنا شايف أن كلامك اللى بتقوله ده معقول  
جدا •• ( وابتسم ) بس لازم الواحد ياخذ فرصة ويفكر • ده موضوع  
مش بسيط •

بدا على وجه صلاح الانشراح ، وأنه انتصر • قال مؤكدا !

– طبعا ياكمال • لازم تفكر • انما المفروض التفكير ده  
مايطولش • المسألة واضحة جدا زى ما أنت شايف • والمركة زاحفة  
والأسماء بدأت تنزل • يعنى ( وتردد لحظة ) يعنى مش عايز أقول  
لك أن فيه واحد امبارح جانى وعرض على أنه حيرشح نفسه عشان  
أقف جنبه قلت له مايستعجلش • ننتظر أما نشوف الجو • والحقيقة  
كنت أنت ساعتها فى بالى • وكنت حاقوله ان كمال ادهم حيرشح  
نفسه • قلت بلاش نعلن الخبر دلوقت •

– دى ثقة جميلة طبعا ، الواحد يعتز بها •

– عشان كده عايزك فى يومين تكون حزمت رأيك ياكمال ،  
وتتوكل على الله • وزى ما قلت لك • ماتحملش هم أى حاجة على  
الاطلاق •

– ان شاء الله ••

ونهبز فجأة صلاح ، وقال وهو يجذبه من كفه ، وقد ارتسمت  
على شفتيه ابتسامة سعادة ورضا •

— قوم بقی نخرج ، نشم بشوية هو !

والتفت إلى أمين المحل : اقف ، أنت بقی المحل يا عبده ، واحنا  
خارجين .

واخذ كمال من يده . وخرج الاثنان إلى الشارع ، يدا في يد ،  
كصديقين حميمين . كان وجه صلاح يبدو عليه البهجة ، بينما رأس  
كمال ، كان قد بدأ يدور . . . ويدور .

## - ٢٩ -

كان صلاح يقود عربته البلايموث الكبيرة، على مهل ، يشق طريقه حذرا في قلب الزحام ، في اتجاه الأزهر ، ولم يسأله كمال الى أين هو ذاهب به . لقد خصص نفسه الليلة له . فليمض به كما يشاء . . . وكان الشارع التجارى الكبير يزغل بالاضواء . وبين الحين والحين ، كان صلاح يرفع يده ويحنى رأسه محييا ، او يتقبل التحيات . . وبدا كملك شاب متواضع يمشى بين رعيته ، او شيخ صغير فى السن يمر بأفراد قبيلته . . وأحس كمال بقوته . فعلا. لو وقف صلاح وراءه فكل هذا العالم وراءه ، وسينجح بالتأكيد . .

ووافق على صلاح يقول . . كمن يقترح بداية جميلة لليلة . :

– ايه رأيك يا كمال . حنصلى العشا فى الحسين وبعدين نسهو زى ما أنت عايز .

وافق كمال : جدا جدا . .

نقطة القوة فى هذا الرجل ، لا تنبغ فقط من أنه يملك فلوسا كثيرة • بل ومن سمعته الدينية والخلقية الطيبة • الرجل يتكلم بصوت فيه خشوع وحنو ، ورجاء •

– ياسلام يا كمال لو تصلى بانتظام حتشوف الدنيا حتتفتح قدامك ازاي ، وانت بالذات يا كمال • أسمح لى اكلتك بصراحة ••  
انت مدين بدين كبير لله ، سبحانه وتعالى • انت ربنا وهبك نعمة ماوهياش لحد تانى فى البلد دى قبل كده ، لازم تعطيه انت كمان فرضه •

واسرع كمال قائلا بانفعال ، وقد تولاه فجأة شعور بالذنب وبالخجل •

– والله يا حاج انا من شدة احساسى بالنعمة ، اصبحت باشوف الصلاة شىء بسيط جدا جدا • انا نفسى اعمل له حاجة كبيرة ••  
انما •• انما ••

ربت صلاح على كتفه ( برغم أنه يقود العربة ) وقال متأثرا وفرحا :

– يكفيك الشعور ده • ومع ذلك عايز اطمئنك • ربنا مش عايز منك حاجة • سبحانه وتعالى ، لا يعطى فى مقابل • ده هو الغنى الأعظم العاطى المعطى ، واللى مفيش لعطائه حدود • انما الصلاة مطلوبة منا ! هى دليل الخشوع والاعتراف بوجوده جل جلاله ، فيه تاس – استغفر الله العظيم – مش مؤمنين بوجوده • وانت عارف بعضهم طبعا – تقول لهم تعالوا صلوا • يضحكوك ، أو يضحكوا عليك ••

وعلى الفور تذكر كمال أدهم « يحيى البدرى » يوم أن دخل معه الجامع عقب المظاهرة ، ونام بدلا من أن يصلى ، وأحمد

زهران أيضا لا يصلى ، ومصطفى سيف كذلك . هذه هى نقطة  
ضعفكم الشنيعة يا اولاد .

• صلاح يواصل

– أنا باعتبارهم مساكين • باحس بالشفقة عليهم •

• قال كمال مؤكدا •

– جدا جدا • أنا اتكلمت معاهم كثير فى الموضوع ده •

• شوح صلاح بيده •

– مفيش فايده فيهم • سيبك من الكلام معاهم • شوف نفسك  
نفسك انت يا كمال • خللى حسابك مع ربنا على طول • خمس مرات  
فى اليوم • غسيل للنفس خمس مرات كل يوم • مفيش اعظم من  
كده ••

واحس كمال ادهم بالرغبة فى ان يتعرى ويفتسل ويفتسل • ثم  
يهجع وينام • وعمق فى نفسه هذا الشعور انه رأى واجهة الجامع  
تشع بالأضواء • وأوقف صلاح العربة قريبا من الباب • ثم دخلا  
فى صمت وخشوع • واستسلم كمال ، وهو يرفع يديه بادئا الصلاة ،  
فى ابتهاج لحالة روحانية شفافة • يريد بحرا من الأثير يسبح فيه ،  
يصعد الى الأعالي ويستطلع البهاء المضى العظيم • يبكى • يصرخ :  
أرنى وجهك يا الهى • اصطفينى برؤيتك • أريد أن أراك ولو مرة ••  
ولو فى السر ولن أبوح • أقسم يا الهى لن أبوح • مرة واحدة أراك •  
الذى أعطيتك القلب الجديد ، أعطه طلعتك مرة •

واحس بحلقه يختنق بالدموع • واستحلى البكاء فبكى • وتنبه  
الى انه بهذا خرج عن الصلاة المفروضة وانكمش خجلا ، لكنه كان  
منتشيا بالدموع •

— انك انت الغفور الرحيم • يارب العالمين • تعطى الجميل  
ولا تنتظر من العبد الضعيف • جلّت قدرتك يا قدير • يا من قلبك الميت  
حيا يا عظيم • الآن أرشدنى فى أى طريق أسير • اهدنا الصراط  
المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا  
الضالين ، آمين •

واغمض عينيه : فى أى طريق أسير !

## - ٣٠ -

كانت وردية الصباح لم تبدأ بعد ، حين وصل « يحيى البدرى » الى المصنع • كان قد قرر مع نفسه الدخول فى سباق مع كمال : أينما الأكثر إخلاصا وجدية فى العمل « لابد أن يكون أنا •

كان قد أصبح لبيت « عين ثمس » • فى نفسه أثر السحر •• كلما ارتبط بأفراد هذه العائلة أكثر ، تملكته رغبة عارمة فى أن يعمق قدميه فى المصنع ويثبت مركزه فى الحياة وفى المجتمع • ومع أن « عزة » لم تجلس معه طويلا ولا قليلا فى هذه الزيارة ، فقد كانت مستغرقة على السطح فى المذاكرة ، الا أن طيفها ، أو شبحها كان دائم الحضور بحكم طبيعة الموضوع الذى تحدثا فيه • ياله من موضوع مفاجئ وغريب ، ذلك الذى تكلم فيه مع شوقى ، واستنفدا فيه سهرة الأمس •

كان شوقى قد أخبره بجدية ، وبنوع من الزهر أيضا ، بأنه سيبدأ فى كتابة مسرحية جديدة ، اسمها « المحاكمة » وحين سألته

٥٤٥

( م ٣٥ - امرأة فوق الثلج )

ماذا يقصد بالحاكمة ، قال : المحاكمة التى طالبت بها عزة فى  
الأمس ، ونحن نتناقش حول « الجحيم فى الأرض » • من عينيه كان  
يطل بريق غريب ، التحدى والرغبة فى الصراع :

– أنا حسيت يا استاذ يحيى أن موقفنا معاها كان مهين • •  
كلنا كنا خافين منها • بنداريها السكات • لا • نخلى المسألة على  
المكشوف • أنا عارف قصدها الحقيقى من المحاكمة اللى هى بتطلبها •  
قصدها محاكمتنا • محاكمة كل اللى اشتركوا فى العملية • عملية  
نقل القلب • أنا قررت أكتب المحاكمة دى • مسرحية • وحاجيها  
فيها متهمة • أيوه • • حادخلها قفص الاتهام • بس قبل ما تدخل  
هى ، حادخل أنا • كل اللى اشتراك فى العملية ، من قريب أو من  
بعيد ، لازم يدخل القفص • ويتحاكم •

لاينسى يحيى الدوار الذى انتابه فى تلك اللحظة • هل بعد أن  
بدأت عزة تهجع للسلام وننسى ، يأتى شوقى ويضرم النيران من  
جديد ؟ لا • لا • يا شوقى أرجوك •

وأوشك لحظتها أن يقول له انه قابل عزة وسارا معا على النيل  
واقنعها بالنسيان • أن نبدأ من جديد • نقف وراء القلب الجديد  
ونحميه • لكنه أحس بأن جدية شوقى وهو يتكلم عن الفكرة • أقوى  
من مثل هذه الحجة • وقد يفسر مقابله لها خلسة ، تفسيراً يؤذيه •  
والفكرة خطيرة ورهيبة حقاً • يا لها من مسرحية لو تمت • هذا الولاد  
فيه شيطان رهيب من شياطين الفن • •

وفوجئ به يشير إليه مواصلاً كلامه •

– وانت كمان ، لازم تتحاكم •



لايزال يحيى البدرى يذكر الارتعاساة التى شملته فى تلك اللحظة ، والتى داراها بضحكة متهافئة •

— أنا ؟ مالى أنا والعملية ؟

— كل اللى له صلة بها • كل اللى دخل فيها بشكل أو بآخر ، لازم يبقى متهم ، وتدور المحاكمة ••

واستراحت نفسه قليلا : أن خيالاته بعزة ليست محل اتهام • لا يجب أن يكون الاتهام الموجه له صغيرا وصبيانيا الى هذا الحد ، أجل • أنا مستعد ياشوقى للمحاكمة ، ولكن بأية تهمه • انى جئت الى هذا البيت لادافع عن براءة كمال ، وانشر روح الحب والسلام ، والايامن بالعلم • يا لها من محاكمة ستكون •

— ياسلام ياشوقى • دى ممكن تبقى أعظم مسرحية انكتبت فى السنوات الأخيرة • حتبقي مسرحية المرحلة •• وكل مرحلة •

ولحظتها بانث على وجه شوقى السعادة ، وازداد حماسه •

— عايز اخلصها بسرعة جدا •

هنا كان ليحيى حق رفع يده معلنا الاعتراض •

— هو ده العيب ياشوقى • مسرحية زى دى مش عايزة سرعة • عايزة دراسة طويلة لشخصياتها ، وأحداثها ، والظروف اللى تمت فيها • ثم أنت متخيلها حتنتهى على ايه ؟ ماحدش يقدر يتنبأ ياشوقى بالنهاية • والعملية لا يمكن الحكم عليها ؛لنهاردة •• بمجرد نجاحها • انما من خلال استمرارها فى الحياة • ماتحاكمش « كمال أدهم » على انه انتقل له قلب جديد • ده مش ممكن يكون اتهام • الاتهام الحقيقى ، أو المحاكمة الحقيقية له :

## عمل ايه كمال بالقلب الجديد !

يذكر يحيى هذه اللحظة بسعادة ، وشوقى يتلقف كلماته بنهم ،  
يشربها شربا • كانت هذه الكلمات تفتح أمام الكاتب الشاب أبعادا  
جديدة فى المسرحية • كانت أبعادا غامضة عليك ، ولكن تمهل  
ياشوقى فى الكتابة • لن تكون مسرحيتك هذه ، اذا تسرعت فيها ،  
الكثير من زويدة وتنتهى • تمهل ياشوقى فى كتابتها • يمكن أن تكون  
اشهر كاتب بهذه المسرحية لو أمسكت بكل أبعادها بين يديك • ستكون  
مليئة بالجراح ، سينزف فيها دم كثير ، ولكنه النزف الذى تظهر  
بعده الجراح يا « عزة » وتجف الى الأبد •

كان يحيى البدرى يسترجع كل هذا ، وهو يروح ويجىء فى  
صمت بين الأنوال • وأحيانا يخرج الى باب المصنع ، ويقف مستندا  
عليه بظهره ، والشمس فى عينيه ، يرقب حركة اندفاع العربات فى  
الشارع • ناظرا الى بعيد • ربما يلمح « كمال أدهم » قادمًا بعربته  
فى أى لحظة ••

وتخيل وجهه • وأحس فجأة بشعور بالغ بالمعطف عليه ، والرائء  
أيضا •

وضحك مع نفسه ضحكة ساخرة اسيانة : من كان يتصور أن  
كل هذا فى انتظار القلب الجديد ؟

أيام العملية • تلك الأيام الرهيبة • كان كل همنًا أن تنجح •  
تنجح فقط • ويعود الى الحياة ••

وابتسم فى مرارة • ليس المهم ، هو العودة للحياة • المهم هو  
ما ينتظرنا • ما يواجها فى هذه الحياة •

وتنبه من سرحته على أحد العمال ينادى عليه ••

— تليفون يا استاذ يحيى • الأستاذ أحمد زهران •

لم يرد يحيى بكلمة • انما هز للعامل رأسه بأنه قادم ، وفكر للحظة ، ولم يلبث أن ابتسم ، أحمد يازهران • لست قادما لى هذه المرة • أنت قادم للقلب الجديد •

لا يازهران ، ولا فى الخيال ستتمكن منه • ساقف لك بالمرصاد • لم تعد تمثل فى نظرى أى شىء • نعم وساقولها لك بأعلى صوت • لست أنت الذى تأخذ « قلب الشعب » كما يحلو لك أن تصف القلب الجديد متملقا كمال أدهم • أنت تعرف أنه ليس قلب الشعب • • أنت تنظر اليه على أنه رجل برجوازي • صاحب مصنع ، يركب عربته من عرق عماله ، ولكن المعجزة العلمية تريد أن تنفرد بثمرتها لحسابك الخاص •

واسرع الى التليفون ، متحفزا ••

— أيوه يا أحمد • صباح الخير ، تجيلنا شوية دلوقتى ؟ أهلا وسهلا طبعاً • فى أى وقت • لا كمال لسه ماجاش • لكن زمانه فى الطريق • أهلا • فى انتظارك ••

بعد لحظات • رأى كمال أدهم • دخل عليه • ورغم أذاقته ، إلا أنه أحس من عينيه ومن بشرة وجهه انه لم يأخذ حظه الكافى من النوم ومع هذا كان يبتسم • هو مشغول بشىء • هل تأخر فى السهرة مع صلاح عبد الهادى ؟ •

— صباح الخير يا يحيى •

— صباح النور يا كمال ••

وأخلى له مكتبه ، وسلم عليه ••

وجلس قبالته • لحظات صمت • وشروء • ربما بدأ يفكر جديا  
فى مشاكل تنفيذ المشروع الجديد • ثمن أجهزة الدوى ، هل تكلم  
مع صلاح فى المشروع ؟

– عملت ايه امبارح مع الحاج صلاح ؟

– أبدا • قعدنا مع بعض شوية فى المحل • وبعدين صالينا مع  
بعض العشا فى الحسين ( وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، وعاود  
الشروء عينيه ) انما بيعرض على عرض غريب يا يحيى •

– عرض ايه ؟

– أرشح نفسى فى الانتخابات ..

هب يحيى واقفا ..

– هو ده اللى انا قلته • كنت واثق أن حساجة زى كده  
حتصل ..

اعتدل كمال فى جلسته مستغربا •

– ايه اللى أنت قلته .. مش فاهم ..

وتوجه يحيى اليه بكل عينيه ، فاردا صدره وبنيانته ، ثم بلهجة  
خطيرة وجادة :

– شوف يا كمال • عايز أقول لك حاجة لازم تعرفها خويس عن  
نفسك • انت أصسبحت انسان مش عادى • أنت فيك حاجة مش  
موجودة فى حد غيرك على الاطلاق • القلب الجديد اللى جواك ده  
يا كمال لازم ينصان • ماتسمدش لأى حد يستغله على الاطلاق ..  
فيه قوى سياسية بتحاول دلوقت تلعب به ، وتستغله لمصلحتها ..

أرجوك ياكمال • تخلى بالك من نفسك • وهن قلبك • قلبك ما أصبحش ملكك انت بس • ده أصبح ملكنا كلنا •

رغم أنه أنفعل بلهجة يحيى ، إلا أنه أحس تلقائيا بالضيق وبالنفور • لم يعد يقابل أحدا الا ويقول له هذا « أنت تملك مالا يملكه الآخرون » •

وانتابته رعشة داخلية •

لقد أصبح يضيق بهذه النعمة • والآن ، هى لاتبدو مجرد نعمة عطف وحسب ، بل هى تحمل فى أعماقها معنى « الوصاية » • تحت أى شعار لن يقبل الوصاية من أحد •

— بلاش نبالغ فى تصوراتنا يا يحيى •

ودارى مشاعره بابتسامة صغبرة ، مرهقة :

— انا قدامك أه • رجل عادى • • و • •

وقاطعه يحيى بشدة ، وبنفس لهجته الجادة بل والمتحدية

— لا يا أستاذ كمال • انا كثير بقيت أقول نفس كلامك ده ، وان دى أوهام • لكن طلعت حقيقة • انا ماكنتش أعرف ان صلاح عبد الهادى كلمك • وبعد شوية صـغيرين جايلك أحمد زهران • « وأشار على التليفون » واثت داخل كان بيتكلم فى التليفون ، ويقول انه جاي • تفنكر جاي لك ليه النهارده ؟

— ليه ؟

— عشان ياخذك فى « التجمع الثورى » • وأراهنك ان ما كلمكش فى الموضوع ده النهارده •

ابتسم كمال لكلمة « الرهان » • وتنبه لشيء فجأة ، ان يحيى وزهران كانا زميلين فى الكفاح • ان تحذيره لى من « صلاح

عبد الهادى « هذا الحذر المبالغ فيه ، يمكن أن أفهم أساسه .. لكن  
.. تحذيره اياى من أحمد زهران : الكفاح المشترك القديم . والسجن  
.. شىء غير مفهوم . فليتعرف على مغاور هذا العالم الغريب .

— وافترض أن أحمد زهران طلب منى فعلا أروح معاه فى  
التجمع الثورى . ايه العيب فى كده ؟

— العيب فى كده . انه مش تجمع ثورى . بالعكس .

كان يحيى يتكلم بحرارة ، وضراوة أيضا . ورأى كمال أنه  
يفتحه على عالم متشابه معقد ليس عالمه ، وتقهر . مهلا يا يحيى .  
مهلا يا بنى . لم يحدث شىء بعد ..

لم يصل بعد أحمد زهران ، لكى نعرف على وجه اليقين ، ماذا  
يريد ؟

انت نفسك ، ماذا تريد ؟ ..

وأخذ نظرة من وجهه الغاضب المكفهر . وفكر : كيف ينقلب  
زملاء الكفاح على بعضهم البعض بهذا الشكل . وبهذه الحدة القاسية  
المريزة ، حدة تصل الى حد التخطيط ان أمكن . ماذا يحدث لو جاء  
أحمد زهران الآن ، فى هذه اللحظة بالذات ، ماذا سيكون موقف يحيى  
منه . وجها لوجه ؟

وتخيل صداما عنيفا يحدث ( ورمش بعينه ) أم نحقن الدماء .  
ونؤثر السلام ؟

وضحك القدر ضحكته الساخرة المجلجلة الغريبة . ففى تلك  
اللحظة ، سمع الاثنان رغم اصوات الأنوال المتتابعة العالية ، دقتين  
متتاليتين على الباب . ولم ينتظر الواقف بالباب ادنا بالدخول .

وكان أحمد زهران .

## - ٣١ -

بدا أحمد زهران من أول لحظة ، بحقيبة الحمامة الكبيرة التي يحملها فى يده ، أنه قادم فى موضوع هام ، وكان شاحيا ومرهق الوجه كأنه لم ينم منذ أيام وأيام . ومع هذا كانت عيناه تتوثبان . وتشعان من حوله جوا من الثقة والمرح والحيوية . ذلك الجزء الذى يحبه فيه كمال .

— أهلا يا أحمد . مش معقول . كنت لسه باتخيلك داخل دلوقت .

وضحك أحمد وهو يضع حقيبته الثقيلة على الأرض بجوار الكنية .

— ابن حلال . مكشوف عنك الحجاب .

وسلما بحرارة . واستدار أحمد الى يحيى مسلما بحماس .

واهتم كمال أدهم أن يراقب ملامح يحيى البدرى وهو يسلم

على زميله الذى كان يهاجمه منذ لحظات . هل يتراجع ؟ لكنه رأى  
يحيى يسلم بجمود ، بابتسامة صاحب بيت لا بد أن يستقبل ويسلم .

هل لاحظ زهران ؟

لاداعى يايحيى . انتما ، مهما كان الأمر ، صديقان . انا أوثر  
لهذه الجلسة السلام .

وجلس زهران على الكتبة ، ماداً ساقية الطويلتين أمامه ،  
معطياً نفسه حق الراحة والاسترخاء : ياسلام . الراحة حلوة  
يا أولاد ..

قال كمال بدهشة :

– راحة ايه واحنا لسه الصبح .

– مانمتش الليلة يمكن ثلاث ساعات .

وحانت منه نظرة الى الحقيبة . ولاحظ كمال أنها منتفخة وثقيلة  
فقال مداعباً :

– أنت واخذ قضايا البلد كلها فى شنطتك والا ايه ؟

فضحك زهران وقال وهو يربت على الحقيبة :

– تصور ان دى قضية واحدة . من صفحة ونص بس ؟

قال كمال باستغراب وفضول : قضية ايه الخطيرة دى ؟

– قضية الشعب ، يا حامل قلب الشعب .

( قالها بضحكة لطيفة ، وواصل ) كل ما القضية ازدادت  
وضوح ، كلما احتاجت كلام قليل .

التقط كمال نظرة من يحيى ، كان يجلس فى جمود ، بلا رغبة  
فى الكلام . يسمع فقط ، وعيناه متحفظتان .



وقال كمال متبسدا ، قاصدا شغل الوقت بالكلام :

– قضية ايه اللي واضحة بالشكل ده يا أحمد ؟

– التجمع الثورى ياكمال • دى قضية البلد النهارده • قضية المرحلة • أى شىء تانى يبقى من خلاله •

وانحنى على الحقيبة يفتحها وليخرج منها نسختين • التقت نظرات يحيى البدرى بكمال ادهم • وبابتسامة خاطفة ساخرة : جاءك كلامى ياعم كمال ؟ انتظر المزيد •

ونفض زهران واقفا بزهو ، وقدم لكل منهما نسخة :

– ده البرنامج •

تلقى يحيى الورقة بفطور ، بينما راح كمال يقرأ فى تمعن وعلى مهل ، فوجيء زهران بيحى يضع الورقة على منضدة صغيرة امامه • ويطرق بلا أى كلام •

وقال زهران فى قلق ، وقد اندفعت الدماء الى وجهه :

– ايه بايحيى • ما بتكملش قرايه ليه ؟

ترك كمال هو الآخر الورقة ، ونظر بفضول وقلق : لايزال يحيى مصرا على موقفه • لم يتراجع • ماذا سيكون رده •

– علشان شبعنا قراية ياعم أحمد ••

قالها بلهجة مستهينة ومتحدية • ورأى كمال الاثنين – يحيى وزهران – وقد اشتبكت نظراتهما وبدا كديكين ناقشين متحفزين لبعضيهما ، مع الفارق فى السن وفى التجربة ، وحتى فى الهيكل الجسمانى • كان زهران واثقا من نفسه ثقة طبيعية لا اجهاد فيها ، أما يحيى فقد بدا مجاهدا لكى يتماسك ، ورغم أنه كان أقصر بعض

الشيء من زهران ، الا أنه بدأ بصدره القوى البارز وحيوية شبابه ،  
وسنه ، أنه يملك ما لا يملكه زهران الذى تبدد جزء كبير من صحته .

وقال زهران وعيناه فى عينيه :

أفهم من كدك انك ضد التجمع الثورى . .

قال يحيى ببساطة :

— انت بس اللي بتعتبره ثورى .

اهتز عصب فى وجه أحمد زهران ، وبدأ عليه أنه يقاوم غضبه  
بشدة . قال فى هدوء ظاهر :

— وحكمك ده بنيت على أى أساس ؟

قال يحيى مشوحا بيده ببساطة واستهانة ، بلهجة من يقرر  
أشياء بديهية لاتحتاج الى أبسط مناقشة :

— أساس ايه ياعم أحمد . هى دى عايزه مناقشة . جاينين  
النهارده تقولولى تجمع ؟ ما كان التجمع الثورى الحقيقى موجود .  
وأنتم نفسكم اللي ضربتوه . وأنت كنت أول واحد بتنادى بالحل . .  
بعد ما تمت الجريمة وحسيتوا بها جاينين النهارده تقولوا تجمع .  
فاكرين الناس لعبة فى ايديكم ؟

اندفعت الدماء الى وجه أحمد زهران . أرتج عليه للحظات .  
بدأ لبرهة فى هيئة المتهم . غير أنه لم يلبث ان تماسك بسرعة ،  
وأطلت من عينيه نظرة تعال وثقة . قال بهدوء ساخرا يرد جزءا من  
الطعنة :

— ومع ذلك فضلنا نشغل ياسى يحيى ، مابطلناش .

أعرف قصده • التهمة التقليدية • انى ركنت من الكفاح ،  
تبرجزت ، لا • هو البرجوازي الكبير • المرتزق من الشعارات •

— أنتم مابتشتغلوش لحساب البلد • بتشتغلوا لحساب  
نفسكم •

هنا هب كمال أدهم من جلسته ، وقد رأى وجه زهران ينقلب  
وسيبداً هجومه العاصف :

— ايه يا جماعة الكلام ده ؟ يحيى • مش معقول كده • الراجل  
ضعيف عندنا •

قال زهران محتجاً باحساس من جرحته المجاملة :

— لا يا كمال • أنا مش ضعيف • وما تخافش على احساساتي  
( وابتسم ) أنا قادر على أنى أرد بنفس الطريقة وهو عارف • لكن  
وبعدين ؟ ايه النتيجة ؟ ولا حاجة • صراخ على صراخ • والأجدع  
هو اللي حسه يعلى •• لا •• ممكن نتناقش بهدوء وموضوعية  
( ونظر الى يحيى ) قدام كمال أدهم • أنا يهمنى القضية دى بالذات  
توضح ، لكمال أدهم •

قال يحيى بسخرية :

— واشمعنى النهارده انت مهتم بكمال أدهم ، كل هذا الاهتمام ؟  
وبلهجة واثقة متحدية :

— لأن كمال أدهم النهارده أمل كبير • ولازم أنت تعرف كده • أنا  
جائ النهارده عشان كمال أدهم يدخل التجمع الثورى •• رسمى •

رغماً عنه ، أو كنوع مباشر من الرد ، وجد يحيى نفسه يضحك  
عالياً ، لكنها ضحكة مهزوزة • وحانت منه نظرة خاطفة لكمال

أدهم : جاءك كلامي يا عم كمال ؟ وبدت ضحكته في تلك اللحظة غير مستساغة ، حتى أن كمال نفسه تضايق منها ، أجل يا يحيى البدرى ، تحقق كلامك ، ولكن لا تتعامل مع الرجل بهذا الشكل ، مهما كان الأمر فهو ضيفي . وصديقي وابن بلدي أيضا لا تنس هذا . ولاحظ يحيى البدرى ضيق كمال أدهم بضحكته الساخرة ، فابتلعها بسرعة ، وخيل له أن الرجل مسه نوع من الزهو والاحساس بالسعادة لكلام زهران عنه . زهران الخبير بنقط الضعف في النفوس . احذر يا كمال . . . وقدر مع نفسه أن دوره انتهى الى هذا الحد . وأن وجوده ربما لم يعد مرغوبا فيه بشدة . فليخرج ، وليتركه هو يقرر موقفه . . . و . . . لقد أعذر من أنذر .

قال وهو يقف معلنا انسحابه ولكن لابد أن يؤكد كلمته قبل الخروج :

عالي كل حال أنا كنت عارف أن ده ديحصل . ونحسدتى بقى لك يا أستاذ أحمد يازهران . انك تسبب الراجل في حاله . القلب الجديد مش ممكن دييلى لعبة في ايديكم .

قال كمال معترضا ومحتجا بشدة : لأبقى يا يحيى كده وما لكش حق . دى مسألة خاصة بى ، وأنا حر فيها . . .

— آسف جدا يا أستاذ كمال . ( فالها يحيى وقد اكفهر وجهه ) عن اذنكم . واستدار عنها ذى عصبية وخرج .

حل صمت عميق للحظات . ولم يعد سوى صوت الأنوال الدائرة . . . ونهض زهران في توتر . لكنه ظال واقفا كالمتمسمر في مكانه احظات كان حاجباه مزمومين بشدة ، وجهه فيه شبه رعشة ، وفكر كمال أن يجرى مقتربا منه ويربت عليه معذرا . ويشكره على شعوره النبيل نحوه « سواء قبلت عرضك أو رفضته فجميل منك أنك تنظر لى هذه النظرة » .

— أنا آسف جدا يا أحمد أن ده حصل دلوقت • انما • وضحك  
ضحكة صغيرة متهافئة •

يحيى برضه أخوك الصغير •

— لا ياكمال • يحيى ده مش صغير • ده يخرّب بلد لوحده  
إذا عاز • وده المؤسف ، أن انسان زيك ، مايلاقش حواليه الا النوع  
ده • النهارده جاي يعايرنى قدامك بحل الحزب • وأيامها ، لما كنا  
بنناقش الموضوع واحنا فى السجن كان ساكت • مالوش رأى • كل  
همه كان يخرج من السجن بس • انما احنا كنا بنناقشها على مستوى  
مصلحة البلد كلها • على مستوى استمرار الفكرة الاشتراكية نفسها •  
حل الحزب كان واجب وطنى • احنا لو كنا فضلنا مصممين على  
تنظيمنا المستقل ، والمتصادم بالتالى مع الحكومة ، كانت حتكون ايه  
النتيجة ؟ الاستعمار والرجعية حيكسبوا • والصراع بدل ما يبقى بين  
الثوريين والرجعيين كان حيبقى بين الاشتراكيين وبعضهم • يعنى  
كارثة ؟ النهارده ايه اللى حصل بفضل قرار الحل اللى حضرته  
بيتريق عليه ، قوة الاشتراكية بتكبر وأنصار الاشتراكية العلمية  
بتتزايد بالألوف • ماعدتش الحكاية « دكانه » صغيرة قاعدين  
مستخبين فيها ••

لا •• وإذا كان الاتحاد الاشتراكى لغاية دلوقت ماضمناش  
كلنا • قدى مش مسئوليتنا • ومع ذلك ، ماحدش يقدر ينكر أن نفوذ  
الاشتراكية العلمية فى بلدنا زادت أضعاف أضعاف ما كان فى أى  
وقت سابق ••

الناس اللى زى يحيى مش قادرين ولا عايزين يفهموا أن كل  
مرحلة ولها الشكل التنظيمى المناسب • النهارده البلد بتواجه ظرف  
جديد •• مرحلة جديدة فى تاريخها • مرحلة عايزة التجمع والتجمع  
السريع ••

كل العناصر الثورية المتقدمة لازم تتجمع بسرعة • يد فى يد •  
 بنيان مرصوص وأنت معانا ياكمال •• أنت بالذات ( وهز كفه فى  
 وجهه بقوة ) اخرج ياكمال من الدائرة الصغيرة اللى أنت عايش  
 فيها • لازم يبقى لك دور أكبر من كده • مش ممكن تسبب حياتك ،  
 حياتك اللى رجعت لك بمعجزة ، نضيع هدر فى وسط ناس عجزة ،  
 كل مهمتهم يشدوك لورا • أنت ممكن تقوم بدور كبير يا كمال ••  
 وأنا شايف أن ده واجب عليك • نحو البلد • زى ما البلد أعطتك ،  
 لازم تعطيها وعلى نفس المستوى العظيم اللى أعطتك به لازم تعطيها •  
 اخرج ياكمال • اخرج من نطاق الأزمات الشخصية والفردية • أنا  
 عرفت مشكلتك مع العيلة بتاعة « عين شمس » والأزمة اللى أنت بتمر  
 بها • حلّى لى عنها مصطفى • وده موقف خاطيء منك يا كمال :  
 أنك تحول المحنة الكبيرة اللى أنت دخلتها الى نوع من الارهاصاف  
 والحساسية الرومانتيكية ، ومهما أنت أعطيتها شكل الألم ، فهى فى  
 صميمها نوع من المتعة •

كان كمال ادهم ينظر اليه محدقا فى مخارج الفاظه الغريبة  
 ورآه على غير ما يصور « يحيى » لا يداهنه أو يتملقه ، إنما يصل  
 معه الى حد التعرية والهجوم •

أزمته العائلية نوع من الرومانتيكية •• نوع من المتعة ؟

– أيوه يا كمال • القلب الجديد مش ممكن يعطى انانية ••  
 القلب اللى جواك ده لازم بفضل فاكر انه كان قلب مين ؟ كان قلب  
 عامل فى العذاب • القلب ده كان عايز ايه ؟ آمال صاحبه كانت ايه ؟  
 أؤكد لك ماكانش عايز حاجة لنفسه ولأولاده وبس • كان عايز مصانع  
 لكل الناس • مفيش نقطة زيت تضيع • مفيش حبة فحم تروح ••  
 السعادة ترقرف على الجميع • ده طريق القلب الجديد يا كمال •  
 انه يبقى لكل الناس • من أجل كل الناس •

كلماتك ساحرة يازهران • يا ابن بلدى • أريد أن أصدق هذه الكلمات • امض فى الكلام • أريد أن أسمع منك • تكلم • تكلم •

— ده الطريق اللى أنت لازم تمشى فيه ياكمال • وده اللى حيخليك تنام بضمير مستريح ، وتعيش سعيد ، ومعتر أن انتقل لك قلب جديد ، انما كده : بتعمل ايه بالقلب الجديد ؟ عملت ايه لغاية النهارده ؟ ولا حاجة • نفسك وبس • معلش ياكمال ، اسمح لى أكون صريح معاك • وأنا من اعتزازى بك ، وايمانى بأنك تقدر تقوم بعمل عظيم • تفضل الرمز الكبير لأعظم تطور علمى واجتماعى حصل فى بلدنا ، باقول لك الكلام ده • انما اللى زى يحيى ، يهमे أنك تفضل ضعيف • معذب ، وقلق • فرصة يثبت ذاته وقوته • لأنه مايقدرش يعيش جنب الأقوياء •• ده قوة الجذب اللى بتشدك لورا • أنت اللى يجب تشفق على الناس دول ، مش هم اللى يشفقوا عليك • وإذا كانوا بيتصرفوا معاك كده ، فمش لأن حياتك غالية عليهم ، لازم تستمر عشان تستر ضعفهم وتسترجعهم •

تخلص من عوامل الضعف ياكمال ، ارتبط بالجديد • ارتبط بالقوة • خد مكانك • اتكلم •• لو كنت مت ، كنت حتموت مريض • النهارده لو تموت • ممكن تموت بطل • بطل شعبى عظيم ، ويقولوا الراحل اللى أخذ قلب الشعب عاش ومات من أجل الشعب • وده مايبقاش الموت • يبقى الخلود ياكمال •

كان لكمال أدهم يسمع فى صمت • فى استسلام تام • وعينه تملح باله معنى ومعنى • وكان بأحاسيسه وخيالاته يصعد الى قمم مضيئة عالية ، ثم يهبط متهاويا الى سفوح معتمة مخيفة •

وطوال ما كان زهران يتكلم ، لم تبرح خياله صورة صلاح

عبد الهادى قطب السوق الكبير ، ناظرا اليه بعينيه السوداوين •  
الواسعتين ، كأنما يرقب موقفه • ومع صورة صلاح ايضا ، كانت  
صورة الرجل الذى اخذ قلبه تتراءى له ، والزوجة الواهبة ، وعزة •  
وشوقى • وبدأ الكلام عليه صعبا •

شئء كدبيب النمل يشيع فى جبهته ويقبض عليها بقوة • ورفع  
يده يضغط بأصابعه على جبهته •

— نواصل الكلام بعدين يازهران •

• •



## - ٣٢ -

منذ صباح ذلك اليوم ، والأحداث تتتابع ، وتتدفق ، كأنما تلوى  
١عناق بعضها البعض ، وتتلاحم مندفعة الى ما يسمى نقطة الانفجار .

ولاحساس كمال أدهم الخفى بأن شيئاً ما مجهولاً مروعا قد يحدث  
فقد قرر مع نفسه أن يتجنب - ولو لفترة - أى لقاء مع زهران أو  
الحاج صلاح ، ويحيا فى هدوء وسلام . لكنه كان يحيا بشعور  
المطارد ، وبدأ ينحنى بكتفيه الى الأمام ، كأنما يحمى صدره . « لو  
ذهبت مع أى طرف ، فسيدمرنى الطرف الآخر » والذى زاد المشكلة  
حدة فى نفسه ، أنه وجد « يحيى » - هكذا فجأة أيضا - طرفاً أصيلاً  
فى الصراع . ونقطة القوة المخيفة فيه ، أنه أصبح يمثل هو الآخر  
قوة كبرى ، لم تكن على الببال ، قوة عزة وشوق وهالة ، قوة  
الشباب !

ما الذى تريده منى هذه القوة هى الأخرى ، بقيادة يحيى  
البدرى ؟

أنا أعرف بالضبط ماذا يريدُه الحاج صلاح ؟  
وأعرف أيضا ماذا يريدُه أحمد زهران ؟  
ولكن ما الذى يريدُه يحيى البدرى ؟ لم أعرف بعد .  
وأحس فجأة بنوع من الدوار . دوار الارهاق ، وأبعد الأفكار  
بسرعة عن رأسه . لا أريد أن أعرف . لا أريد أن أعرف .  
وجلس على الكنبه ، وتعالَت فجأة أصوات الأنوال فى رأسه .  
أريد أن أغفو بعض الوقت . فالأنفاس تسرع هكذا . لا ياكمال  
.. خذ الأمور ببساطة والا فقد ينتهى كل شىء فى غمضة عين ..  
استرح قليلا على الكنبه .  
وبينما هو يتمدد ، رأى وجه الطبيب المهيب ، يقترب باسمه  
منه ، وأحس بدقات قلبه تسرع وهو يستعيد صوته :  
- القلب اللى جواك ده أمانة با أستاذ كمال . ده ثمرة كفاح  
السنين . حافظ عليه .  
وداهمته فجأة ، رغبة فى البكاء . لماذا لا تسأل عنى أيها  
الطبيب ؟ رميت بى الى هذا العالم بمجرد أن نجحت العملية . وتركتنى  
فى الخضم الكبير .  
- لم أتركك الا بعد عام من نجاح العملية ياكمال . بعد أن  
وقفت على قدميك . أصبحت مسئوليتك أنت . ومع ذلك ، أنا معك .  
هنا فى القاهرة . تحت أمرك فى أى وقت .  
وأحس كمال براحة شديدة . وانتابه حنين دافق لأن يبرى  
طبيبه . مجرد الرؤية . يعانقه ويقبله ، ويبارك وجوده وحياته .  
« كيف نسيت أن أدعو لك بطول العمر ، ودوام الصحة ، وأنا

أصلى مع الحاج صلاح فى جامع الحسين ( ويزفر بخجل ) ومع هذا ،  
فلن أزعجك بمشاكلى الخاصة • هذه مشاكل عاطفية وسياسية ،  
لا شأن لك بها • يكفينى أنك موجود • أنت فى النهاية صمام أمانى •  
لن أتى اليك الا فيما يمس القلب • قلبك أنت • كعضو مزروع  
( وتنقابه ارتعادة ، وهو ممدد على الكنبه ، مغمض العينين ) سأحافظ  
عليه أيها الطبيب وأعدك بهذا • أطمئن • أفكر جديا فى الذهاب الى  
المصيف ولو لأيام ، وأهرب • وحيدا • قد ينسانى الجميع • تنسانى  
حتى سناء • حتى زوجتى يا طبيب ، أصبحنا غريبين فى بيت واحد •  
كان المفروض أن اذهب الآن الى البيت • الى سريرى وأنام ولكن ••

فلأتم فى أى مكان ••

حيث يأتى النوم للإنسان ، فلبنم ••

ينسى وينام • ينام • ينام •

وشحبت الرؤى أمام عينيه •

— فى حمايتك ، أنام ••

ونام كمال أدهم ، رغم ضجيج الأنوال ••

\*\*\*

استيقظ كمال أدهم فجأة ، على صوت تليفون ، وبآثار غيبوبة  
النوم ، رفع السماعه •

— مين ؟! سناء !

— ماجيتش ليه الضهر •

وبدوار النوم •

— آسف ياسناء معلهش • رحت من نفسى فى النوم ، وأنا  
قاعد فى أوضة المكتب •

وبلهجة محتحة :

— والغدا يا كمال • تقعد من غير أكل لغاية دلوقت ازاي ؟

— لا يا حبيبتي ، بعث جبت أكل وأكلت •

كان يجيب باقتضاب • وكان يود لو تنتهى المكالمة بسرعة حتى  
يفيق من النوم ، ويصحو تماما ••

— واللييلة حتعمل آيه ؟

وهز رأسه ليفبق ••

— اللييلة ؟! ( وارتبك فجأة ، وطار كل أثر للنوم من رأسه •

لقد تذكر ( اللييلة حيجينى شوقى الشريف ، عشان أخذه وأروح به  
لمصطفى سيف •

وبدا صوتها ، مستغربا وممضعا •

— شوقى الشريف مين ؟

— شوقى الشريف •• ابن •• ابن الراجل اللى •• ( وتلعثم )  
ابن الست اللى وهبتنى القلب ياسناء • عشان مصطفى سيف يساعده  
فى النشر •

وسمع صوت السماعة يقفل •

— سناء •• سناء •• آلو •• آلو ••

لكنه لم يسمع غير صوته • وصمت الآلة السوداء •

\* \* \*

## - ٣٣ -

ثمة طبول قدرية ، بايقاع خطى وحشية غامضة فى غابة  
استوائية • كانت تقترب وتقترب بالتدريج لتهز أرجاء الغابة • متى  
ستحدث الدقة الكبرى لا أحد يعلم ، وان كان الاحساس العام أنها  
لابد حادثة بالتأكيد • وفى القريب •

فلقد بدا من ذلك اليوم ، أن هذا الظهور المفاجئ لسناء ، بعد  
اختفاء طويل عن مسرح الأحداث . أن دورة كاملة توشك أن تتم ،  
وأن القدر قد اتخذ قراره فجأة ، فحدد اليوم التالى ، ليكون هو  
التاريخ !

ففى مساء ذلك الخميس ، اصطحب « كمال أدهم » « شوقى  
الشريف » ، وقدمه الى صديقه الكاتب مصطفى سيف كما وعده ••  
وبدلا من أن يعود الى بيته فى تلك الليلة سعيدا وراضيا عن نفسه ،  
عاد وقد امتلأ بالقلق • وتجددت فى نفسه أزمة الاختيار العنيفة ••

كان « سيف » يعيش معركته التي كان يخوضها على صفحات الجرائد منذ أول يوم نجحت فيه العملية . ولكنه فى هذه الأيام كان يتحرك وينتقل أكثر مما يكتب لتكوين التجمع الثورى ، وقد بدت بالنسبة له مسألة موت أو حياة .

وقد كان طبيعيا أن يلقي بالشعار ، شعار التجمع الثورى . خلال حديثه مع « شوقى » كاتبنا الفنى البازغ . وكانت مفاجأة طيبة – فى أول الأمر – لكمال أدهم أن يرى التجاوب ينشأ سريعا بين مصطفى سيف وشوقى الشريف ، فتفاعل واستبشر ، وخاطب « الأم » فى سره بسعادة وثقة :

الآن ، بدأ ضميرى يستريح . غير أنه فوجئ بنفسه داخل مزيد من الحصار .

ان يكون لنا موقف . الموقف الحاسم الآن هو التجمع الثورى . ان كنا حقا نحب هذا الوطن . نؤمن بمستقبل هذا البلد .كلنا يجب ان يكون لنا موقف . ( ونظر فجأة الى كمال أدهم ) وأنت يا كمال أدهم ، أنت بالذات ، يجب أن يكون لك موقف ، صاحب القلب الجديد لابد ان يكون له موقف واضح ومحدد . لم تعد مجرد صاحب مصنع . لن أكرر لك ما كتبته يا كمال عن القلب الجديد . ( وينظر الى شوقى الشريف ) وأين الرجل الذى عشت بقلبه ، يهمله ويسعده أن ترتفع بحياتك الى مستوى الرمز الذى أصبحت تمثله .

هكذا بعد أن كان موقف مصطفى سيف الدفاع عن القلب الجديد وحمايته من الأزمات ، أصبح يطالبه بأشياء ، ويدفع به الى أعنف الدوامات .

« حتى أنت يا كاتب الانسانيات ؟ »

وعلى الفور رأى كمال أدهم مصطفى سيف واقفاً مع أحمد  
زهران جبهة واحدة .. جبهة يعاديهما صلاح عبد الهادي ..

ويعاديهما أيضاً يحيى البدرى ..

ثم .. ها هي مفاجأة جديدة : شوقي الشريف يتحمس لكلام  
مصطفى سيف .. ينضم الى جبهته .. هو نفاق من الفتى للكاتب  
الكبير لكي ينشر له ؟ .. يستغل قلب أبيه لمصلحة نفسه ؟ أم .. هو  
احساسه الجديد البكر الذى لم يصب بعد بالتشويش ؟

أيا كان الأمر ، فهذا الموقف من شوقي ، يعتبر نذيراً لانقسام  
فى جبهة يحيى البدرى .. وتخيل « هالة » التى لم يرها حتى الآن ..  
تأخذ جانب « شوقي » .. أما « عزة » فتأخذ جانب « يحيى » ..

وظلله شعور بالأسف ..

جبهتك يا يحيى مكتوب عليها التفكك .. لأنك نفسك لا تعرف من  
أنت ؟ الى من تنتمى ؟

وزفر بابتسامة ساخرة مرهقة : ليست هذه أزمته أنا الآخر ؟!

بفارق كبير ياكمال .. يحيى البدرى لم تتحقق معه المعجزة ..  
أنت تعيش بقلب جديد .. إيه يا قلب .. ما الذى تنويه ، نضحك أم  
نبكى .. نهال فرحاً أم نصرخ رعباً ؟

فى تلك اللبلة : عاد الى البيت مزحوم الفكر ..

النوم خير ملاذ ..

وهكذا تكررت مأساة الصمت مع سناء .. ونام .. وحين استيقظ  
كان دبيب طبول القدر فى الغابة الاستوائية الوحشية لايزال أخذاً

في الارتفاع ، وحين دوت الدقة الأولى ، كانت على شكل صرخة تخرج  
من أحشاء سناء .

\*\*\*

كان اليوم يوم جمعة . حارا ومضيبا من اوله . وحين استيقظ  
كمال أدهم ، وجد حماه « البدرى الكبير » جالسا في الصالة مع ابنته  
سناء يشرب الشاي . عاد الرجل اذن من الاسكندرية مدينة الزوجة  
الثانية . ورأى وجهه الضخم اللطيف وقد لوحته الشمس وهواء  
المصيف . فى عينيه نوع من الشرود . « لابد أن مؤونتك مع الزوجة  
الثانية قد نفدت . أنا تحت أمرك يا عمى . دون حتى أن تلمح بأى  
شئ سأضع يدي فى جيبيك ، بكل ما أستطيع من نقود ، دون أن تعلم  
حتى إبنتك سناء . كرامتك فى هذه السن يجب أن تكون محفوظة .  
ترى . ما آخر أخبار اختراعاتك ؟ مهزلة أو مأساة اختراعاتك ؟  
وتعانق الاثنان . ثم جلسا يتحدثان .

كان دوى الطبول السارى فى قلب الغابة الاستوائية يأخذ أحيانا  
شكل الضحكات . لكنها ضحكات رهيبة تخلخل فى صمت جذوع  
الأشجار . ولقد وجد كمال نفسه فجأة يقاوم ضحكة من هذا النوع  
وهو يفاجأ بالرجل ينفرد به ، ثم يتقدم اليه بطلب غريب ما كان أبدا  
يخطر له على بال :

الجهاز الجديد الذى وصل اليه الرجل ، لم يصل اليه انسان  
فى البلد ، ولكن ما قيمة أعظم اختراع ، مادام الذى وصل اليه رجل  
اسمه « البدرى حسين » ؟ من يكون هذا البدرى حسين ؟

بلد لا تعترف الا بدوى الطبول يا كمال . أما اذا قلنا أنه  
« اختراع كمال أدهم » « فكرة كمال أدهم » فسترى كيف يتدافع الناس



عليه : الرجل الذى نجحت معه عملية نقل القلب ، اكتشف اختراعا  
عجيبا . سيؤمن الناس من أول لحظة بعبقورية الاختراع يا كمال ،  
سيقبلون عليه بلهفة وسنكسب عشرات الألوف من الجنيهاات . ما  
راك يا كمال . لماذا لا ترد . لا تتردد . أنت ابن سوق وتعرف .

لم يرد الا بإبتسامة .

اما أنه يقترب من قمة المجد . . الى عرش الآلهة بصاروخ ،  
واما أنه ينحدر الى هوة السفح بأسرع من شعاع العين ويكون الدمار  
الرهيب .

« اسمعنى جيدا يا كمال . نكر فيما أقول . استخدام اسمك  
على هذا النحو ليس حراما . سيستفيد الناس قبل أن نستفيد نحن .  
احسب حساب الزمن الزمن يا كمال . تذكر ، أنت تعيش فترة لاتعوض  
. . لا تضيع الفرصة . لا تنتظر حتى تضيع دهشة الناس بنجاح  
العملية وتصبح رجلا عاديا . بعد فترة بسيطة . ستتكثر القلوب  
الجديدة ، ولن يصبح قلبك المعجزة هذا . الا قلبا عاديا . قلبا من  
القلوب . أنت تعرف أن طبيبك يحرى أن عملية جديدة . وكما نجح  
معك ، سينجح مع غيبك . أنت الآن فى عز أيامك الذهبية يا كمال .  
ان لم تؤمن مستقبلك هذه الأيام بالذات فمتى ستؤمنها . والزمن  
غدا يا كمال . ليس له أمان . أنت ابن سوق تعرف . خذ الجباز  
واعرضه باسمك فى السوق .

— يا الهى . اللهمنى كل الضحك الذى فى العالم لأحفظ توازنى  
. . حتى « البدرى الكبير العجوز » يريد لنفسه القلب الجديد .

— وأنا الى حاقوم بالانتاج يا كمال . مش حقتعب أنت فى  
أى شىء . .

— اضحك يا كمال يا أدهم • اضحك خفف عن نفسك ، لتعرف  
كيف تفكر • وجاء يضحك ، لكن ضحكته انقطعت فجأة :

رأى سناء تقبل عليهما بهيئة غريبة • كانت ترتعش • غضب  
واضح ورهيب يطل من عينيها • من كل ذرة فى جسدها ، وفى  
يدها إحدى المجلات • أهنأك صلة ؟!

وقال الرجلان فى نفس واحد بانزعاج :

— فيه ايه ياسناء ••

وفوجئ كمال بها تهز الجريدة فى وجهه وتصرخ بسخرية وقد  
احتفظ وجهها بالدماء :

— حبيقى فيه ايه أكثر من كده يا أستاذ •• ؟! انتفضل اقرأ ••  
( وألقت اليه بالجريدة ) وبصوت متشنج : عايزنى أفضل ساكتة  
لامتى ؟ لغاية ما الفضيحة بقت على صفحات الجرايد والمجلات  
( وانفجرت باكية ) أنا خلاص يا بابا ، ماعدتش قادرة • مش ممكن  
أستمر فى العيشة دى أكثر من كده ••

ما الذى تقوله هذه المرأة ؟

الفضول الممتزج بالذهول والخوف والضباب • ماذا فى هذه  
المجلة ؟

وانكب يقرأ • وارعد كل جسده : ما هذا •• مستحيل •• ما  
قصدهم • مؤامرة لتدميرى • الحق يا مصطفى سيف • انظر ماذا  
تكتبه مجلة « أضواء الليل » عنى وعن الزوجة التى وهبتنى القلب ؟

« شوهد كمال أدهم ، الرجل الذى نجحت معه أول عملية نقل  
قلب ، يسير فى الشوارع فى صحبة ابن الرجل الذى أخذ قلبه •

كانا يمشيان فى حالة عاطفية شديدة ، كأب فى صحبة ابنه • والمعروف أن زيارة السيد كمال أدهم لعين شمس ، حيث البيت الذى تعيش فيه الزوجة التى وهبته القلب ، تكاد تكون يومية ، ويعود من هناك فى ساعة متأخرة من الليل ، ويقول بعض العلماء ، انه يذهب الى هناك مدفوعا بنفس العاطفة التى كان يعيش بها الرجل الذى مات •

ان هذا يؤكد القضية الخطيرة ، أو وجهة النظر القائلة بأن القلب ليس مجرد عضلة أو مضخة ، انما هو مصدر العواطف والأحاسيس والانفعالات التى لا تموت بموت صاحبها ، بل تبقى ببقاء القلب ذاته !؟ ،

ما هذا الجنون ؟ • بل ما هذا التوحش ؟ ثمة مؤامرة تحاك من حوله ، ومركزها هذه المجلة • سناء لاتزال تبكى • بماذا يرد ؟ الرد يكون هناك • سيرتدى قورا ملابسه ويذهب الى هذه المجلة • سيقبلها على أصحابها • لو يستطيع أن يقلعها سيقفلها • سناء تهدد بتركها لهذا البيت • أى عالم هذا الذى أصبح يعيش فيه • حتى سناء تصبح فى طرف آخر • معجزة الحياة • قوة الآلهة مطلوبة لك يا كمال لكى تستمر فى الحياة • وتتوازن من حولك الأشياء • ترى كل شىء فى مكانه الصحيح ••

دوى الطبول فى الغابة يزداد ويعلو •

وأوشك أن يصرخ • وأحس بركس يلامسه ويلتصق به. الحقنى ياركس • ربما أنت الوحيد الذى أعرف بالضبط مكانك الصحيح • وتعرف أنت أيضا مكانى ومن أكون •  
نفكر سويا ياركس •

التليفون يدق • ربما تليفون انقاذ • تليفون خلاص •

والغمغم .

- الى ٠٠ أهلا يا مسطى . صمت عميق مروع ، عيناه  
تتسعان فى رعب ، وجهه ينتفض وكل جسده يهتز . يصرخ فجأة كمن  
لدغه ألف عقرب فى لحظة واحدة :

مات ؟! فى حادثة ؟ ٠٠ مستحيل ، مش ممكن . مش ممكن  
يا مصطفى انت بتكذب . مش ممكن . الدكتور بتاعى يموت ؟! لا ٠٠  
لا . مستحيل ٠٠ مستحيل .

وسقطت السماعة من يده ، وترنح فى وقفته ، مستحيل ،  
مستحيل ( يداه الاثنان فوق قلبه ) الدكتور بتاعى . الدكتور بتاعى .  
لا . لا . مش ممكن يموت . مش ممكن تموت . ماتسينيش  
لوحدى . ما اقدرش أعيش من غيرك .

كان الفزع قد انتقل الى زوجته ، والى البدرى الكبير ، فجريا  
اليه ٠٠

وأربعهما منظره . وقد فقدوا القدرة على اى نطق .

وكان كمال أدهم يدور مترنحا فى الصالة يصرخ وقد ادسك  
بقلبه ، يترنح فى خطواته . وركس يتبعه مذكورا مذهولا . وكان  
وجهه قد شذب مرة واحدة ، حتى أصبح جلدًا على عظم ، وكبر أنفه  
بشكل عظيم . الدنيا تدور به . ذراعا سناء وذراعا البدرى الكبير  
تهدد لتتلاقا .

- لا ، لا . أبعد عني ، قد أصبحت وحدى . وحدى . ما جدوى  
الأذرع التى تمتد ، الفجيجة فى القلب . وينحنى صارخا من الألم  
وهو يدور وبكل كذبة يريد أن يدسك بالقلب . كيف ستعيش أيها القلب ؟  
مات طبيبك يا قلب . الوحيد فى هذا العالم الذى يعرف سرك مات .  
كيف ستعيش بدونه . كيف . كيف ٠٠ كيف . مات فى حادثة ؟ بكل

هذه البساطة يموت أعظم انسان فى هذا العالم ؟ كيف يارب ؟ وفيم  
أذن كان كل هذا الكفاح ؟ وسهر الليالى والنضال .

فى غمضة عين . فى طرفة عين ، ينتهى كل شىء . وفيم اذن  
نحيا . فيم اذن تستمر دقات القلب . يا قلب . الدوار . الضباب .  
الظلام .

وبكل هيكله سقط على الأرض . بلا حراك .

\* \* \*

فى دقائق كان بيت كمال أدهم يرى مشهدا غريبا : الوف من  
الناس تحيط ببيته . كان قد حدث شىء غريب لم يفكر فيه أحد على  
الاطلاق فقد نسى الناس موت الطبيب ، واهتموا بأثر الخبر على  
القلب الجديد . ليس مهما أن يموت الطبيب بعد أن قدم لهم القلب  
الجديد . المهم أن يستمر . هذه هى المعجزة . أن يستمر القلب  
الجديد بلا طبيب . .

وكانت أعدادهم تزداد دقيقة بعد دقيقة . الشارع امتلا . وفناء  
البيت . والسلالم ، حتى السقفة .

يجب أن تعيش . .

أما فى حجرته ، حول سريره وهو ممدد بجسده الطويل ،  
ضائعا فى الغيبوبة . كانت وجوه قريبة وحبيبة تحيط به ، تبكى . .  
وترجوه : الزوجة الأم التى وهبته القلب .

زوجته سناء . .

عزة ، ويحيى البدرى .

شوقى وهالة ..

أحمد زهران ومصطفى سيف • صلاح عبد الهادى • والبدرى  
الكبير • حماد • وحماته •

– استيقظ يا كمال • استيقظ • نرجوك • ( وينظرون الى  
بعضهم البعض من خلال الدموع ) سيحل السلام • نعدك • سيحل  
السلام •

وهو غارق فى الغيبوبة ..

ما كل هذه الأصوات ؟

ما هذا الصوت • هذا الصوت بالذات • •

عزة تناجيه بالدموع • ترتجيه •

– اصحى يا بابا كمال • بابا كمال • • اصحى أرجوك • اصحى  
علشانى • •

والجميع سيكون فى صمت • وفى رجاء وابتهاال •

– علشان عزة لازم تصحى • •

جفناه يختلجان • •

شفناه تتمتمان • •

– مين ؟! مين اللى بتتكلم •

– انا عزة يا بابا • بنتك عزة يا بابا كمال هى اللى بتتكلم •

دموعها تسقط على وجهه • •

ابتسامة بعيدة بعيدة • • الأعناق تشرب بالفرحة والأمل • •

ان كانت الدموع تعبك الينا • فهذه دموعنا • كلها من أجلك •

— وأنا شوقى يا بابا كمال ، لازم تقوم ، عشان تشوفنى كاتب  
كبير • زى ما كنت بتحلم •

— وأنا « يحيى » يا أستاذ كمال • لازم تقوم • وترجع مصنعك  
تانى ، العمال بره واقفين • والمكن واقف • مش حيرجعوا يشتغلوا  
الا اذا شافوك واطمأنوا عليك •

وأصوات الجميع • كأنما كل واحد من الموجودين يريد أن  
يسجل لنفسه كلمة يساهم بها فى بعث الرجل الى الحياة •

— اصحى يا كمال • اصحى يا كمال ••

— لازم تقوم ••

— وتقف على رجلك من جديد ••

— انت سليم • مفيكش حاجة •

— وحنصلى الليلة مع بعض باذن الله فى الحسين ••

حتى ركس هو الآخر ، كان يزوم ويدور ••

تتسع الابتسامة • لكنها كالشعاع العابر تتلاشى • ويذهب  
الوعى الى القرار السحيق ، ثم تحمله الموجة من جديد الى حيث  
يرقد ، فى حجرته ، على السرير • وحوله هؤلاء • اطيافهم جميلة •  
لكلها حبيبة ، هذه الأصوات التى تأتى من بعيد ••

— أنا سامع الأصوات •

واندفع اليه زهران بلهفة ، باسطا له كفيه فى ابتهاج ، والدموع  
منسابة على الخدين المتغضنين •

— دول الناس يا كمال • ناس عاديين • الشعب الطيب اللى

باحكيك عنه ، بيدعى لك • عايزك تقوم بالسلامة • قلب الشعب لازم  
يفضل عايش يا كمال •

وانفجر زهران فجأة فى البكاء • ومرة أخرى كان الكل يبكى ،  
مصطفى سيف يبكى ويقول :

– استمرارك فى الحياة ، هو استمرار للطبيب • طول ما أنت  
عايش يا كمال • كنت باقول لك مش مصدقنى • •  
الدموع تنساب على الخدود • •

تعبير غريب يرف على وجه كمال • كأنه وجه طفل عمره  
ساعات أو عمره آلاف الأعوام يتمم بصوت آت من بعيد • كلمة •  
كلمة •

– ما تعيطوش • أنا عايش • أنا صاحى • أنا بأفوق •  
ويتنفس بصوت مسموع •  
عيناه تتحركان •  
الأعناق تشرئب بلهفة •

عزة تصيح فرحا وهى تبكى • تناديه • تناجيه • •

– بابا كمال • اصبح كمان يابابا كمال • خدنى فى صدرى ،  
بين ايديك يابابا كمال •

وبقدرة لطيفة سحرية ، ارتعب لها الكل فرحا ، تحركت يدا  
الرجل ، ببطء شديد ، مد ذراعيه • اليها • وبدأ صدره مفتوحا لها ،  
وارتمت عزة عليه وهى تجهش بالبكاء •

وبكى الكل – حتى سناء ، وهم يرون ذراعيه تحيطان بالبنت ،



وهو يحتضنها ، كأنما يستمد منها نبع الحياة • ودوت صيحة فرح  
كبرى هزت أرجاء الغابة الاستوائية •

أعقبها صمت عميق • أشبه بالهمود • فقد توقفت طبول القدر  
لتستريح ، ولتعود الى مكانها الخفية خلف بعض الأشجار ، لترقب  
من بعيد ، القلب الجديد الذى فقد طبيبه • وأصبح مكتوبا عليه أن  
يواجه الحياة ، بل ويواجه كل هؤلاء المحيطين به ، وحده •

وبدا الكل وهم متجمعون حوله • بكل ما فيهم من تناقضات  
دقيقة ، كأنما الدورة تبدأ من جديد ••

يالها من دورة ستكون ••

تستعد لها من الآن • طبول الأقدار ••

« أغسطس ١٩٦٨ »



## الفهرس

صفحة	
٥	● فجر الزمن القسام
١٢٣	● امرأة فوق الثلج
١٨١	● محاكمة فأر
٢٣٧	● العودة للحياة



رقم الايداع ١٠٤٦٦ / ١٩٩٣

---

I.S.B.N. 977 — 01 — 3591 — 7      الترقيم الدوائى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



وصحبت ماخوذاً بمنظر المسطح الأبيض المترامى أمام شرفتها  
 أنها متجعدة . أول مرة أرى فيها بحيرة متجعدة .  
 قالت بظلال ابتسامة : بماذا توحى بحيرة متجعدة لكاتب ؟  
 قلت وقد أحببت سؤالها : توحى برؤية رائعة أحداثها غير معروفة  
 بعد . لكنها بالحنين قادمة . وإن الرغبة لتتمكننى الآن أن أذهب إليها .  
 وأعشى فوقها . أن بعض الأسرار فوق أرض من الثلج . تجربة ..  
 قالت حينئذ : اه . ولكن يجب أن تأخذ حذرك .. أن السطح وحده هو  
 القديم . أما الأعماق فهي مليئة بالماء . وفي بعض المناطق لا يغطى  
 السطح سوى طبقة رقيقة هشة من الثلج . تخضع لساتر عليها .  
 فيسقط بغلة في المياه العميقة .  
 ورايتنى اسقط في بطن البحيرة . في أحد المواقع الخادعة .. تغرقنى  
 المياه الثلجية . استلقتنى فتعزيرة .  
 قلت : فلنكن التجربة بالخيال فقط ..  
 من رواية « امرأة فوق الثلج » .